

(١٣) مِنْ تَرَاثِ الرَّازِيِّ

الاستبانة في علم الكلاسيك

تأليف

الإمام الشافعي الأستوحي الفقيه

فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي البكري الشافعي الأشعري

الترقي سنة ١٠٦٠ هـ

تحقيق ودراسة

أ. هادي محمد عيسى محمد

رسالة ماجستير في العقيدة والفلسفة
جامعة الأزهر كلية أصول الدين

الناشر

المكتبة الفقهية للتراث
الجزيرة للنشر والتوزيع

٩ رب الأركان خلف الجامع الأزهر الشريف - ت: ٨٤٧٠ - ٢٥١٢



(١٣) مِنْ تَرَاثِ الرَّازِي

الاشتات في علم الكلا

تأليف

الإمام الشافعي

في القرنين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي البكري الشافعي الرازي

الترقي سنة ٦٠٦ هـ

تحقيق ودراسة

أ. هادي محمد حاتم محمد

مادة تاريخية في العقيدة والفلسفة

جامعة الأزهر كلية أصول الدين

الناشر

المكتبة الفقهية للتراث
الجزيرة للنشر والتوزيع

٩ د.ب. الأثر خلف الجامع الأزهر الشريف - ٥٠: ٢٥١٢٠٨٤٧

٢٠٠٩/٩٣٩٩	رقم الإيداع
977-315-210-3	الترقيم الدولي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

صدق الله العظيم

(البقرة: من الآية ٣٢)

سُبْحَانَكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله في مبدأ الأمر ومنتهاه وبعد:-

فإن علم الكلام من أشرف العلوم التي ظهرت في تاريخ الإسلام، وكيف لا ؟ وهو العلم الذي يدافع عن العقيدة الإسلامية، ويرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب أهل السنة والجماعة..

وتتأكد أهمية علم الكلام — خاصة — في هذا العصر المليء بالبدع والشبهات، والمليء كذلك بأعداء هذا الدين الذين يريدون القضاء عليه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون..

ولعل في نشر تراث هذا العلم فائدة عظيمة لتأكيد دور هذه الأمة في حماية هذا الدين، والدفاع عن مقدساته، والوقوف في وجه أعداء هذا الدين..

ولقد وفقني الله ﷻ إلى الاتصال بهذا العلم، والتوفر على دراسته، ومحاولة الاقتراب من فهمه، فوجدت فيه الكثير من الجوانب الأصيلية التي لو أحسن استخدامها لما تركناه وبعدنا عنه، واستخدمنا مناهجه في الدفاع عن هذا الدين الحنيف..

ولقد توفر العلماء منذ القديم على دراسة وخدمة هذا العلم، واعتبروه

هو أساس هذا الدين، وأعلى العلوم الشرعية على الإطلاق ، ومن هؤلاء:—

الشيخ الأشعري، والقاضى الباقلانى، وإمام الحرمين الجوينى، وحجة الإسلام
الغزالى — رحمهم الله تعالى —.

ويأتى من ضمن هؤلاء الإمام فخر الدين الرازى — رحمه الله تعالى —
المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، أحد أركان هذا العلم، والذي عاش فى القرن السادس
الهجرى، وأنتج العديد من المؤلفات التى تعتبر — بحق — ذات أهمية كبيرة فى
مجالات متعددة من الثقافة الإسلامية، واعتبرت مؤلفاته من المصادر الرئيسية التى
يرجع إليها العلماء والطلبة على حد سواء، وكيف لا وهو كما قيل عنه: {مجدد المائة
السادسة للهجرة}؟.

ومن ضمن مؤلفات الإمام التى لم تحظ بالدراسة — بالرغم من أنها أول
مؤلفاته — كتاب الإشارة فى علم الكلام، فاستخرت الله تعالى فى تحقيقه ودراسته،
وعرضت الأمر على أساتذتى الأجلاء فى قسم العقيدة والفلسفة ففضلوا بالموافقة
عليه..

وفى الختام فإننى أتوجه بالشكر إلى كل من أسدى إلىّ عوناً وسهلاً لى صعباً،
وأخص بالذكر حضرة صاحب الفضيلة أستاذى الدكتور: محبى الدين الصافى الذى
تفضل بالإشراف على هذه الرسالة، حيث منحنى من علمه وتوجيهه ووقته وسعة
صدره ما ساقى به مديناً، وأشكر أيضاً حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور:
محمد عبد الفضيل القوصى نائب رئيس جامعة الأزهر والذى — برغم مسئولياته
الكثيرة — تفضل بالإشراف على هذه الرسالة المتواضعة ، فلهما من الله تعالى ثم
منى جزيل الشكر والتقدير..

والله أسأل وبنييه أتوسل أن يغفر لى ولوالدى ولمشايخى وللمسلمين



والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات رب العالمين..

٨ من جماد الأول ١٤٢٨هـ

القاهرة في: ٢٥ مايو ٢٠٠٧ م

هاني محمد حامد محمد

المعيد بقسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين

القاهرة

القسم الأول

مقدمة التحقيق

يشتمل هذا القسم على باين:

الباب الأول: عن الإمام الرازي ويشتمل على فصلين:

الباب الثاني: الحديث عن كتاب الإشارة في علم الكلام



الباب الأول

عن الإمام الرازى

الفصل الأول

عصر الإمام الرازى

عاش الإمام الرازى - رحمه الله تعالى - فى القرن السادس الهجرى، وأول القرن السابع، وتعتبر هذه الحقبة من أدوار الضعف والانحيار فى حياة الدولة العباسية، والبلاد الإسلامية عامة، ويتجلى ذلك فى أمور ثلاثة..

١ - تعدد الملوك والسلاطين وتناحرهم على الملك والسلطان، الأمر الذى دفعهم إلى الأخذ بكل وسيلة لتحقيق مآربهم، حتى ولو وصل الأمر إلى الاستعانة بالعدو على بنى جلدتهم..

٢ - نشوب الحروب الصليبية، حيث كانت أول حملة صليبية سنة ٤٩٣هـ، واستمرت بعد ذلك إلى حوالى مائتى سنة..

٣ - ازدياد قوة المغول على الحدود الشرقية من العالم الإسلامى، ومن المعروف أن جنكيز خان قد هاجم أول دولة إسلامية تليه { خوارزم } سنة ٦١٧هـ، وسقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد هولاكو.

وكانت الحالة الاجتماعية بدورها أسوأ من الحالة السياسية حيث تفشى الفقر والجهل والمرض، وانتشرت الأخلاق الاجتماعية السيئة، والتى تفشت بأسلوب هدد

كيان العالم الإسلامي وقوض أركانه.

وأما الحالة العلمية فعلى العكس من ذلك حيث كانت بلاد العالم الإسلامي تتزعم الدنيا في الشعر والعلم والفلسفة، وساعد على ذلك السُّنة التي أجراها حكام المسلمين في مناصرة الآداب والفنون، وبتعبير ول ديورانت: { إن هذا العصر كان عصر اضمحلال متلألئ ساطع }..

هذا وقد حفل عصر الرازي بالكثير من العلماء الأعلام الذين تمتعوا بشهرة واسعة في أوساط الفلسفة والتصوف والعلوم الإسلامية ومن هؤلاء:— ابن رشد، والسهروردى، وابن عربي، وعبد القادر الجيلاني، وابن الفارض، وموسى بن ميمون، وسيف الدين الأمدي، والعز بن عبد السلام، وغيرهم...

للمزيد من التفاصيل انظر:— البداية والنهاية لابن كثير ٥٥/١٣ وما بعدها، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٤٤/٥ وما بعدها، وغير ذلك..



الفصل الثاني

حياة الإمام الرازي

١ — اسمه: —

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين، الرازي مولداً، الطبرستاني، أصلاً، القرشي، التيمي، البكري نسباً، والشافعي في الفقه، والأشعري في العقائد^(١)..

يعرف بابن الخطيب أو ابن خطيب الري، لأن والده كان خطيب مسجد الري، ثم خلفه هو في منصبه بعد ذلك^(٢)..

وإذا ذكر في كتب الأصول الشافعية أو العقائد الأشعرية لقب بـ { الإمام }، وكان يسمى في هراة بشيخ الإسلام^(٣)..

٢ — مولده: —

ولد الرازي في مدينة الري وهي مدينة قديمة مشهورة تقع في الجنوب الغربي من طهران عاصمة إيران^(٤)..

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ٥٥/١٣، وشذرات الذهب: ٢١/٥، ووفيات الأعيان لابن

خلكان: ٣٨/٣، ومراة الزمان: ٣٥٣/٨، وهدية العارفين: ٢١١/١ وغير ذلك..

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون: ص ٤٩٥، والرد على المنطقيين لابن تيمية: ص ٣١..

(٣) انظر: طبقات الشافعية لابن السبكي: ٣٦/٥، ومفتاح دار السعادة: ٤٤٥/١..

(٤) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي: ٢٥٥ / ٤..

وكان مولده سنة ٥٤٣هـ، أو سنة ٥٤٤هـ، في رمضان في العشر الأخير منه على الراجح^(١)..

والراجح هو القول الثاني لأن الرازي نفسه قال في التفسير الكبير: { هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين }، وكان ذلك في السابع من شعبان سنة ٦٠١هـ أو بعد ذلك بقليل^(٢)..

٣ — شيوخه: —

تتلمذ الرازي — رحمه الله تعالى — على العديد من الشيوخ من أهمهم: —

١ — والده: ضياء الدين عمر الذي كان أحد العلماء الأشعرية في العقيدة، والفقهاء الشافعية في الفروع، وله مؤلفات عديدة في عقائد أهل السنة من أنفسها كتاب: { غاية المرام في علم الكلام } في مجلدين.. توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٥٩هـ..

وكان الرازي يلقبه بالإمام السعيد، ويذكر أنه شيخه وأستاذه^(٣)..

٢ — الكمال السمناني: اشتغل عليه بعد وفاة والده مدة..

٣ — مجد الدين الجبلي: وهو أحد أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وزميل شهاب الدين السهروردي الفيلسوف الإشراقي، وقد درس الرازي عليه علم الكلام والفلسفة^(٤).

(١) انظر: شذرات الذهب: ٢١/٥ وما بعدها، والكامل لابن الأثير: ٢١٣/٧ وغير ذلك..

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٨/١٤٥..

(٣) انظر: طبقات الشافعية: ٧٨٤/١، وعيون الأنباء: ٣٥/٢، ونهاية العقول: ٢٥٨/١ — أ..

(٤) انظر: ابن خلكان: ٣٨٢/٣، ومرآة الجنان: ٨/٤، وعيون الأنباء: ٣٣/٢، والبداية



٤ — تلاميذه:—

قال ابن خلكان عن الرازى: { كان العلماء يقصدونه من البلاد، وتشدد إليه
الرحال من الأقطار }^(١)..

ومن أشهر تلاميذه:—

- ١ — زين الدين الكشى { عبد الرحمن بن محمد }.
- ٢ — أثير الدين الأبهري: من الحذاق فى دراسة المنطق والفلسفة، ومن أشهر
مؤلفاته: هداية الحكمة، توفى سنة ٦٦٣ هـ ^(٢)..
- ٣ — أبو بكر إبراهيم بن أبى بكر الأصفهاني: الذى أملى عليه وصيته قبل
موته..
- ٤ — أفضل الدين الخونجى: ولد سنة ٥٩٠ هـ، ودرس على الرازى المنطق
والفلسفة، وتوفى سنة ٦٤٦ هـ، وهو مدفون بسفح المقطم ^(٣).
- ٥ — شمس الدين الخيوى: ولد سنة ٥٨٣ هـ، وكان حاذقاً فى الطب
والفلسفة وعلم الكلام، وقيل: إنه هو الذى أتم تفسير الرازى ^(٤)..
- ٦ — تاج الدين الأرموى: كان متبحراً فى علمى الشريعة والفلسفة، اختصر

والنهاية: ١١٨/٣ وغير ذلك.

(١) انظر: وفيات الأعيان: ٣/٣٨٣..

(٢) انظر: الأعلام للزركلى: ٨/٢٠٣..

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٥/٢٣٦، والأعلام: ٧/٣٤٤..

(٤) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٨/١٥٥..

المحصل للرازي، وتوفي في بغداد سنة ٦٥٤هـ^(١)..

٥ — مؤلفاته:—

وصف الصفدى الرازى بقوله: {اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله لغيره: سعة العبارة مع القدرة على الكلام، وصحة الذهن، والاطلاع الذى لا مزيد عليه، والحافظة المستوعبة، والذاكرة التى تعينه على ما يريده فى تقرير الأدلة والبراهين }^(٢).

لذلك فقد ألف الرازى فى الكثير من العلوم الإسلامية مثل: الفلسفة وعلم الكلام والمنطق والجدل، والأدب والبلاغة والنحو، والفقه وأصوله، والتفسير، والعلوم الرياضية والطبيعية، والطب، وغير ذلك؛ وقيل: إن مؤلفاته قد بلغت حوالى مائتى كتاب..

ومن أشهر مؤلفاته:—

- ١ — التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، وقد طبع مرات عديدة..
- ٢ — أسرار التنزيل وأنوار التأويل.. مطبوع.
- ٣ — الأربعين فى أصول الدين.. مطبوع.
- ٤ — أساس التقديس أو تأسيس التقديس.. مطبوع.
- ٥ — كتاب الخمسين فى أصول الدين.. مطبوع.
- ٦ — شرح أسماء الله الحسنى.. مطبوع.

(١) انظر: المرجع السابق نفس الصفحة..

(٢) انظر: الوافى بالوفيات: ٢٤٨/٤..



- ٧ — المعالم فى أصول الدين .. مطبوع.
- ٨ — نهاية العقول فى دراية الأصول .. مخطوط.
- ٩ — المطالب العالية من العلم الإلهى .. مطبوع.
- ١٠ — الآيات البينات فى المنطق .. مخطوط.
- ١١ — شرح الإشارات لابن سينا .. مطبوع.
- ١٢ — شرح عيون الحكمة لابن سينا .. مطبوع.
- ١٣ — المباحث المشرقية .. مطبوع.
- ١٤ — لباب الإشارات .. مطبوع.
- ١٥ — الملخص فى الحكمة والمنطق .. مخطوط.
- ١٦ — محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء
والمتكلمين .. مطبوع.
- ١٧ — المحصول فى أصول الفقه .. مطبوع.
- ١٨ — نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز فى البلاغة .. مطبوع.
- ١٩ — مناقب الإمام الشافعى .. مطبوع.
- ٢٠ — شرح القانون لابن سينا فى الطب .. مخطوط.
- ٢١ — اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .. مطبوع.
- ٢٢ — مناظرات الفخر الرازى .. مطبوع.
- ٢٣ — الوصية ...

٢٤ - أقسام الذات...

٢٥ - السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وهو مختلف في نسبته إلى الرازي، والراجح أنه له؛ لأن الرازي قد أحال عليه في بعض مؤلفاته..

٦ - وفاته:—

اختلف المؤرخون في مكان إقامة الرازي في السنين الأخيرة من حياته، حيث يرى البعض أن أكثر مقامه كان في الري حتى قبيل وفاته إذ خرج إلى خوارزم فمرض فانقل إلى هراة، وبعضهم يقول: إنه استوطن هراة وتملك بها ملكاً وأولد أولاداً، وأن السلطان بنى له فيها مدرسة ظل يدرس فيها حتى مات^(١)..

ولا تناقض بين الرأيين، لأن إقامته الحقيقية كانت في هراة مع زوجته وأولاده، وكان الحنين يجذبه إلى الري موطنه الأصلي، فيذهب إليها بين الحين والحين ويخطب في مسجدها..

ومرض الرازي في خوارزم فنقل إلى داره في هراة حيث اشتد عليه المرض، فأملى وصيته على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني، وقيل: إن الكرامية سمّوه، أو دسوا له من سمّة، ومهما يكن فقد فرحوا بموته فرحاً شديداً^(٢)..

وطال مرض الرازي أشهراً طويلة، عانى فيها آلاماً كثيرة، حتى لقي بارئه يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٠٦هـ، أو يوم الاثنين أول شوال، أو شهر ذي

(١) انظر: عيون الأنباء: ٣٦/٢، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي: ص ١٩٠..

(٢) انظر: طبقات السبكي: ٣٥/٥، وشذرات الذهب: ٢١/٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ١٩٧/٦ وغير ذلك..



الحجة من نفس العام على اختلاف بين المؤرخين^(١)..

هذا وقد خاف الرازي — رحمه الله تعالى — أن تعيث الكرامية بجثته فتتبشها وتمثل بها، فطلب من تلاميذه أن يخفوا نبأ موته، وقد نفذوا ذلك، فدفنوه آخر النهار، أو في الليل،^(٢)..

واختلف في مكان دفنه فقيل: دفن في قرية مزداخان — قريبة من هراة — وقيل: إنه دفن في بيته^(٣)..

(١) انظر: الوافي للصفدي: ٢٥٠/٤، وابن خلكان: ٣٨٤/٣، وطبقات السبكي: ٣٩/٥، وعيون

الأنباء: ٣٦/٢، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢٢٨/١ وغير ذلك..

(٢) انظر وفيات الأعيان: ٣٤٨/٣..

(٣) انظر: المرجع السابق نفس الصفحة..

الباب الثانى

الحديث عن كتاب الإشارة فى علم الكلام

١ — تحقيق اسم الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:—

لم أجد أحداً يشير إلى هذا الكتاب إلا الصفدى الذى سماه: { الإشارات }^(١).. وذكره القفطى باسم: { تنبيه الإشارة }^(٢).

والغريب أن هذا الكتاب يمثل مرحلة مهمة من مراحل تفكير الرازى؛ لأنه ألفه فى بداية حياته العلمية لأن تابعيته فيه للشيخ الأشعرى واضحة كقوله مثلاً: { والصحيح ما ذهب إليه شيخنا أبو الحسن عليه السلام }^(٣).

لهذا الكتاب نسخة فى استنبول { كوبرىلى ٢/٢/٩ }، وعنها أخذ فيلم محفوظ فى معهد المخطوطات العربية..

٢ — وصف المخطوطة:—

يوجد من هذا الكتاب نسخة وحيدة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٢٠ علم التوحيد، وهى مصورة عن نسخة خطية موجودة فى مكتبة { كوبرىلى } باستانبول تحت رقم { ٢/٥١٩ } ضمن مجموعة الكتاب الثانى.

(١) انظر: الوافى بالوفيات: ٢٥٥/٤..

(٢) انظر: القفطى: ص ١٩١..

(٣) انظر: الإشارة ورقة ٤..



وتقع هذه النسخة في ٦٦ ورقة أو لوحة، وتحتوى كل لوحة على صفحتين {أ}، {ب} وفي كل صفحة ٢٥ سطراً..

وتشير الصفحة الأولى إلى أن تاريخ النسخ كان سنة ٥٧٦هـ — أى فى حياة المؤلف — والذي كتبه بخط نسخ حسن هو: أبو سعيد بن محمد بن عمر الحموى.. ويوجد على الصفحة الثانية فهرس لموضوعات الكتاب وهي:—

مقدمة وخمسة فنون:—

فالمقدمة: أربعة أبواب:—

- أ — فى أن علم الكلام من أشرف العلوم..
- ب — فى أن الاشتغال بعلم الكلام جائز..
- ج — فى حقيقة النظر وإفضائه إلى العلم..
- د — فى ترتب العلم على النظر..

الفن الأول: فى إثبات ذات البارى ﷻ:—

- أ — فى حدوث الأجسام..
- ب — فى إثبات الصانع..
- ج — فيما يستحيل على الله تعالى من الصفات..

الفن الثانى:— فى بقية الصفات:—

- الباب الأول: فى العلم.
- الباب الثانى: فى القدرة..

الباب الثالث: فى صفة الإرادة. الباب الرابع: فى الكلام..

الباب الخامس: فى البقاء. الباب السادس: خاتمة..

الفن الثالث: فى أفعال الله تعالى وأسمائه وفيه فصول:—

الباب الأول: فى أنه لا يجب على الله شىء..

الباب الثانى: فى أسمائه تعالى وتقدس..

الباب الثالث: فيما لا يجوز إطلاقه من الأسماء..

الفن الرابع: فى النبوات..

الباب الأول: فى جواز بعثة الرسل..

الباب الثانى: فى إثبات نبوة نبينا محمد — ﷺ —..

الباب الثالث: فى أحكام الأنبياء..

الفن الخامس: فى السمعيات ومنها المعاد..

ومكتوب بعد محتويات الكتاب:—

”كتاب الإشارة“: من تصنيف الإمام العالم الفاضل وحيد العصر وفريد الدهر،
حجة الله على الخلق: فخر الدين الرازى أناله الله رضوانه، وأسكنه جناته..

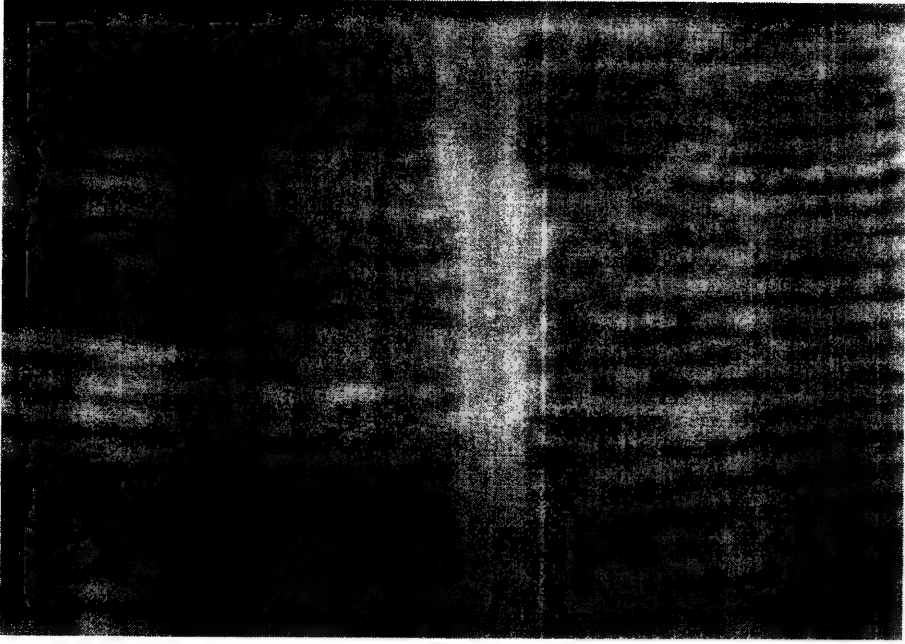


٣ — منهج التحقيق:—

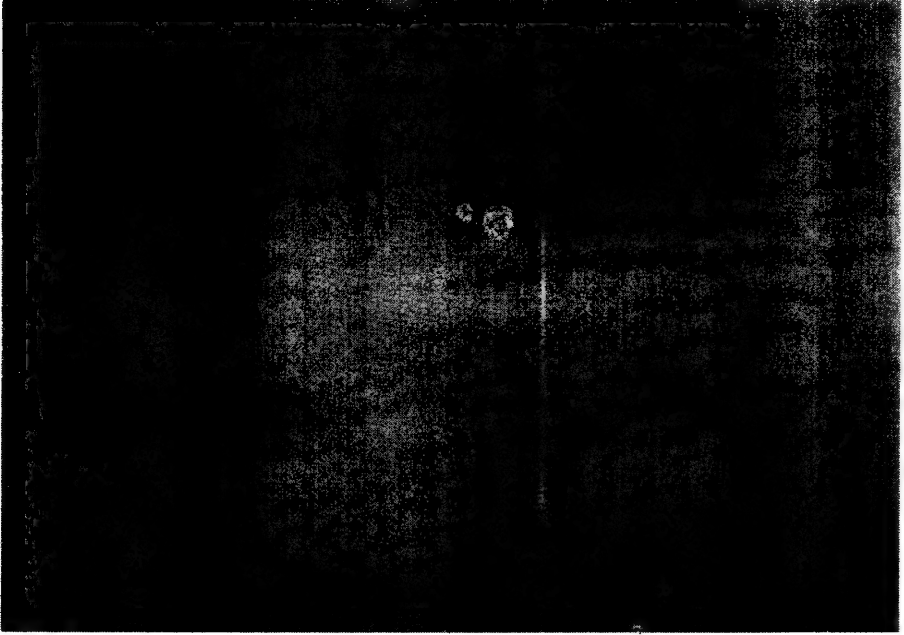
اتبعت فى تحقيق هذا الكتاب الخطوات التالية:—

- ١ — الالتزام بقواعد { الإملاء } المعاصرة بصرف النظر عما فى الأصل..
- ٢ — وضع الزيادات بين حاصرتين وإثباتها بالنص، ليسهل على القارئ قراءة الكتاب..
- ٣ — عدم التصرف فى الأصل بأية تغييرات، ومن ثم فقد التزمت تقسيم المؤلف لكتابه، والعناوين التى وضعها من عنده، مع عدم إضافه أية عناوين من عندى..
- ٤ — القيام بتصحيح الأخطاء النحوية فى الأصل مع عدم الإشارة إليها..
- ٥ — الاهتمام بعلامات الترقيم، وتقسيم الفقرات ليسهل على القارئ فهم مراد المؤلف..
- ٦ — قمت بالتعليق على المباحث الغامضة مع تفصيل ذلك فى الهامش..
- ٧ — قمت بتوثيق الآراء التى ينسبها المؤلف إلى غيره من كتبهم أو غيرها.
- ٨ — قمت بالإحالة إلى المراجع التى تدرس الموضوع تفصيلا مع ذكر رقم الجزء والصفحة..
- ٩ — قمت بالترجمة للأعلام والفرق والطوائف التى وردت بالكتاب مع بيان مراجع الترجمة..
- ١٠ — قمت بذكر الآيات القرآنية مع النص على اسم السورة ورقم الآية فيها.

- ١١ - قمت بتخريج الأحاديث النبوية من كتب الأحاديث المعتمدة..
- ١٢ - قمت بشرح المفردات الغريبة مستعينا بمعاجم اللغة..
- ١٣ - قمت بعقد مقارنة تفصيلية لآراء الرازي في هذا الكتاب، وآرائه في كتبه الأخرى، موضحاً الآراء التي ثبت عليها، والآراء التي خرج عنها، مع محاولة ترجيح المذهب المختار..
- ١٤ - التزمت بتعيين أولئك المجهولين الذين يصفهم المؤلف بمثل قوله: قال بعض الأصحاب ، أو قيل، أو قال بعض الخصوم..
- ١٥ - كما حاولت أن أقارن بين ما ينسبه المؤلف إلى المعتزلة، وبين آراء المعتزلة أنفسهم وذلك بالرجوع الى كتبهم، أو إلى المصادر الدقيقة التي تحكى مذهبهم بدقة ودون تجنّ..
- ١٦ - ألحقت بالكتاب قائمة بالمراجع التي أعاننتى على الدراسة مع وضع فهرس تفصيلي لمحتويات الكتاب..



صورة الصفحة الأولى من المخطوطة



صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة

القسم الثانى

كتاب الإشارة فى علم الكلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

اللهم علمنا ما تنفعنا به، وانفعنا بما علمتنا.

اعلم أن هذا الكتاب مشتمل على مقدمة وخمسة فنون:

أما المقدمة فهي مشتملة على أربعة فصول:

الفصل الأول

فى بيان أن علم الكلام من أشرف العلوم^(١)

(١) علم الكلام هو: { علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه }، وعرفه البعض بأنه: { العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية }، وله عدة تعريفات آخر ضربنا الذكر صفحاً عنها لأن معظمها يقوم على تحديد مهمة علم الكلام الأولى ونعنى بها: مهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ودفع الشبهات عنها، والوقوف فى وجه الملحدين أعداء الإسلام. ويسمى علم أصول الدين، وسماه أبو حنيفة رحمه الله بالفقه الأكبر، وله فيه رسالة توضح أصول العقيدة الإسلامية سميت بالفقه الأكبر، وسماه البعض بعلم النظر والاستدلال، ومن أسمائه: علم التوحيد والصفات.

وموضوعه: هو المعلوم من حيث إنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً،

وذلك لأن مسائل هذا العلم إما عقائد دينية كإثبات القدم والوحدة للصانع، وإما قضايا تتوقف عليها تلك العقائد كتركيب الأجسام من الجواهر المفردة، وجواز الخلاء وانتفاء الحال، وعدم تمايز المعدومات المحتاج إليها في المعداد، وكون صفاته تعالى متعددة موجودة في ذاته، والشامل لموضوعات هذه المسائل هو المعلوم المتناول للموجود والمعدوم والحال، فإن حكم على المعلوم بما هو من العقائد تعلق به إثباتها تعلقاً قريباً، وإن حكم عليه بما هو وسيلة إليه تعلق به إثباتها تعلقاً بعيداً، وللبعد مراتب متفاوتة.

وقيل موضوعه: ذات الله تعالى إذ يبحث فيه عن عوارضه الذاتية التي هي صفاته الثبوتية والسلبية، وعن أفعاله: إما في الدنيا كحدوث العالم، وإما في الآخرة كالحشر، وعن أحكامه فيهما كبعث الرسل، ونصب الإمام في الدنيا من حيث إنهما واجبان عليه تعالى أو لا، والثواب والعقاب في الآخرة من حيث إنهما يجبان عليه أم لا.

ويرى الغزالي - رحمه الله تعالى - أن موضوعه هو: الموجود بما هو موجود، أى من حيث هو غير مقيد بشيء، ويمتاز الكلام عن العلم الإلهي باعتبار أن البحث فيه على قواعد الإسلام لا على قواعد العقل وافق الإسلام أو لا. والحق أن علم الكلام يبحث فيما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى، وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق أنبيائه الكرام - عليهم الصلاة والسلام -، وكذا في الأمور المتعلقة بالسمعيات.

ومسائله: الإلهيات، والنبوات، والسمعيات:

أما الإلهيات: فيبحث فيها عما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى.
وأما النبوات: فيبحث فيها عما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وعن حكمة إرسالهم، وغير ذلك.
وأما السمعيات: فيبحث فيها عن الأمور السمعية التي لا تتلقى إلا عن طريق السمع كالحشر والنشر، والجنة والنار، وعذاب القبر ونعيمه، وغير ذلك من أمور الآخرة، ويبحث فيها من حيث إنها أمور ممكنة في ذاتها أخبر بها الصادق فتكون حقاً واقعة كما أخبر.
وغايته: الفوز بسعادة الدارين: الدنيا والآخرة.

يتضح مما سبق أن موضوع علم الكلام هو أعلى الموضوعات، ومعلومه أجل المعلومات، وذلك لشرف معلومه، وكذا فإن غايته هي أشرف الغايات، ويترتب على ذلك أنه أشرف العلوم

والذى يدل عليه وجوه عدة: (١)

وأعلاها.

كذلك فإن سائر العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث تبتنى عليه، ولا قيام لها إلا به، فإن الفقيه قبل أن يبحث فى أصول الأحكام الدينية لابد له من أن يعرف وجود الله ﷻ وصفاته الواجبة، وما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حقه تعالى، وكذا المفسر الذى يبحث عن معانى كلامه تعالى، وكذا المحدث الذى يبحث عن حديث الرسول الكريم ﷺ، من ناحية الصحة والضعف، فلا بد له من معرفة هذا الرسول وكيفيه إرساله ودلالة المعجزة على بعثته، وما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حقه، وكل ذلك لا يتم إلا بعد دراسة علم الكلام والتعمق فى مسائله، فى حين أن علم الكلام لا يحتاج فى تأكيد أهميته إلى دراسة هذه العلوم، وهذا لا يعنى أننا نحط من شأن تلك العلوم، أو ننتقص من قدرها، كلا، فإنها علوم الإسلام وذروة سنامه، ولا يقوم الدين إلا بها، ولكننا نؤكد أنه لابد قبل الخوض فى تلك العلوم والتعمق فى مسائلها من دراسة علم الكلام والوقوف على أسرارها والتعمق فى مسائله من منطلق: { ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب }..

لمزيد من التفاصيل.. راجع:-

شرح المواقف: ٨/١، شرح المقاصد: ٢٧/١، شرح العقائد النسفية: ص ٢٢، معيار العلم للغزالي: ص ٢٨٨، كشاف اصطلاحات الفنون للتهاتوى: ٣٠/١، الاقتصاد فى الاعتقاد: ص ١٠، شرح البيجورى على الجوهرة: ص ٢٠ وما بعدها، محاضرات فى التوحيد لأستاذنا الدكتور: محبى الدين الصافى: ص ١٢ وما بعدها..

(١) من يتأمل حياة الإمام الرازى العلمية، يجد أن أبا عبد الله كان من أشد المتحمسين والمدافعين عن علم الكلام، وعن مباحثه، بل وقد عمل على تطويره حيث مزج بينه وبين الفلسفه ليتسنى له الرد عليها، ويتضح ذلك جلياً فى آخر مؤلفاته أعنى: المطالب العالية حيث عقد فصلاً كاملاً فى أوله للحديث عن أن علم الكلام هو أشرف العلوم على الإطلاق وذلك راجع إلى: { شرف الأمر المبحوث عنه فى ذلك العلم، وذلك فى هذا العلم هو ذات الله تعالى وصفاته، وهو أشرف الموجودات على الإطلاق } ثم عدد الرازى الوجوه الدالة على ذلك، وانتهى إلى

الأول: هو أن شرف العلم بشرف المعلوم، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف، ومعلوم علم الكلام: هو ذات الباري وصفاته، وما يجب له ويستحيل عليه، فنسبة شرف علم الكلام إلى شرف سائر العلوم كنسبة شرف معلوم علم الكلام إلى شرف معلوم سائر العلوم، لكن لا نسبة لشرف الباري إلى شرف

غاية هذا العلم وهي: الفوز بالسعادة والخلاص من الشقاوة، والانتحاء إلى السعادة الروحانية الباقية الدائمة، ومن ثم {فوجب أن يكون هذا العلم رأس جميع العلوم ورئيسها، وأشرف أقسامها وأجلها} راجع المطالب العالية: ١٣/١ - ١٥.

وأما ما نسب إلى الرازي من مثل قوله: { اللهم إيماناً كإيمان العجائز، } وأنه قال ذلك عند موته مما يدل على ندمه بالاشتغال بعلم الكلام، وكذا ما نسب إليه شعراً من مثل قوله:—

نهاية إقـدام العقول عقل	وأكثر سعي العالمين ضلال
فأرواحنا فـى وحشة من جسمنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفـد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

ومن العجيب أن ابن تيمية — عدو الرازي اللدود — قد هلل لهذا الكلام معتبراً إياه نهاية لهذا العلم العتيد خاصة أنه قد صدر عن واحد من أساطين علم الكلام !!

والحق أن هذا الكلام غير صحيح النسبة إلى الإمام الرازي — رحمة الله تعالى — وإن صدر فهو منسوب إلى غيره من الأئمة خاصة قوله: { اللهم إيماناً كإيمان العجائز } ومعناه: التمسك بما أجمع عليه السلف من الصحابة والتابعين حتى وصل علمه إلى من ليس أهلاً للنظر كالعجائز والصبيان في المكتب والأعراب في البادية، وترك ما أحدثته مبتدعة القدرية والمرجئة والجبرية والروافض وغيرهم، وكذلك فلو صدر ذلك عن الرازي عند موته، فيحتمل أن سببه هو ما علم من حاله من ولوعه بحفظ آراء الفلاسفة وعرض شبهاتهم ليتسنى معرفتها لكل الناس، وربما كانت هذه جذبة حالية خاصة وأنها قد صدرت في حال موته، وهو موطن يتشتت فيه الفكر العظيم، ويضعف العقل، ويزيد الإقبال على الله تعالى والاستعداد للقاءه..

سائر المعلومات، فلا نسبة لشرف علم الكلام إلى شرف سائر العلوم^(١).

الثانى: هو أن جميع العلوم محتاجة إليه، وهو غير محتاج إلى شىء منها، فهو إذاً أشرف من غيره..

وبيانه: وهو أن نظر الفقيه فى الأحكام الفقهية، ونظر الأصولى فى معرفة الخطاب من جهة دلالاته على الوجوب^(٢) والإباحة والحظر والعموم والخصوص، ونظر المفسر فى معانى كلام الله تعالى، ونظر المحدث فى الأحاديث من جهة صحتها وضعفها، وجملة هذه العلوم مبنية على أن الله تعالى خطاباً، فما لم تقم الدلالة على وجود الإله — تعالى وتقدس —، وعلى أنه عالم حي مختار متكلم مرسل للرسل، ولم يعرف ترابط المعجزات، وكيفية دلالتها على صدق الرسل لم يكن للبحث فى هذه العلوم فائدة، فنثبت احتياج العلوم بأسرها إليه مع استغنائه عن جملة العلوم، فهو إذاً أشرف العلوم..

الثالث: وهو أن الخطأ فى علم الكلام كفر أو بدعة^(٣) والكفر والبدعة من أقبح الأشياء وأسوأها، فيجب أن يكون صوابه من أحسن الأشياء وأشرفها، إذ الضدان يجب أن يكون بينهما غاية التباعد، وعن هذا قيل: فبضدها تتميز الأشياء^(٤) وهذا واضح..

(١) يلاحظ تأثر الإمام الرازى هنا بالشيخ الأشعرى فى رسالته: استحسان الخوض فى علم الكلام..

(٢) يقصد الوجوب الشرعى ومعناه: ما يكون تاركه مستحقاً للذم والعقاب..

(٣) يعنى البدعة الشرعية، ومعناها : الأمر المحدث الذى لم يكن عليه الصحابة والتابعون، ولم يكن مما اقتضاه الدليل الشرعى..

(٤) مقولة عربية شهيرة تهدف إلى تمييز الشىء عن ضده.

الفصل الثاني

فى أن الاشتغال بهذا العلم جائز بل من الواجبات فى حق البعض^(١)

(١) مضى الصدر الأول والصحابية رضوان الله عليهم يأخذون دينهم من مشكاة النبوة، حيث كان الرسول ﷺ يوضح لهم أحكام الدين فى سهولة ويسر، يعقب ذلك طمأنينة فى قلوبهم تبعثهم على العمل والاجتهاد فيه، لينالوا القرب من الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ. وكان النبى ﷺ ينهى صحابته الكرام عن الخوض فى آيات وأحاديث الصفات، ويحذرهم من الخوض فى مسائل القضاء والقدر، كما روى الطبرانى بسند جيد عنه ﷺ أنه قال { إذا ذكر القدر فأمسكوا }.

وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وتولى الصديق ﷺ الخلافة، انشغل المسلمون بحروب الردة دفاعاً عن الإسلام، وكانت درة عمر ﷺ كفيلاً بأن ترد كل من تسول له نفسه التسور على الغيب بالخوض فى مسائل أصول الدين، والحديث فى مسائل الصفات والقضاء والقدر..

وفى آخر خلافة عثمان ﷺ ومع كثرة الفتوحات الإسلامية، ودخول فئات مختلفة فى الدين الإسلامى، بدأت الاختلافات فى مسائل العقيدة، وكثر الخوض فيما نهى عنه، وخاصة بعد استشهاد عثمان ﷺ، وتولى على بن أبى طالب — كرم الله تعالى وجهه — الخلافة، وفى أخريات أيامه ﷺ ظهرت بعض الفرق الإسلامية مثل: الشيعة، والخوارج، والمرجئة..

وذهبت كل فرقة إلى القرآن الكريم لتؤيد معتقداتها به، وتستدل من خلال آياته على ما ذهبت إليه من آراء، وساعدهم على ذلك نزول القرآن بلغة العرب، واحتماله لأكثر من معنى، ولا يعرف المعنى المراد إلا العلماء بالله تعالى الراسخون فى العلم وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَظُنُّ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: ٧) وبمرور الوقت ودخول بعض طوائف الأديان الأخرى فى الإسلام، مع ما يحملونه معهم من عقائدهم، وبالتالي أدى ذلك إلى الخوض فى مسائل لم تكن مطروحة من قبل على بساط البحث مثل:

الحديث عن صفات الله تعالى، وقضائه وقدره، وهل الإنسان مسير أم مخير، وغير ذلك.. وهنا ظهرت طائفة المعتزلة وحاولت الدفاع عن الإسلام بأدلة العقل ضد طوائف الملحدين من الثنوية والمجوس والنصارى وغيرهم، ولكن جانبهم التوفيقى فى تغليب أدلة العقل وتقديمها كثيراً على أدلة القرآن والسنة، بل وأهمل بعضهم مثل النظام أدلة القرآن والسنة ولم يعتد بها..

لذلك نقل عن أئمة السلف — خاصة الأئمة الأربعة — ما يفهم منه ذم علم الكلام برمته، والنصح بالابتعاد عنه وتجنب الخوض فيه، لأن ضرره أعظم من نفعه، ومن تلك النقول:—
١ — قال الإمام أبو حنيفة: لعن الله عمرو بن عبيد، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيه من الكلام، وذكر الهروى عن أبى المظفر السمعانى قال: قلت لأبى حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام فى الأعراض والأجسام ؟ فقال: مقالات الفلاسفة ؟ قلت : نعم، قال: عليك بالآثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فاتها بدعة ٢ — وقال الإمام مالك: إياكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع ؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله تعالى وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكوت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان..

٣ — وقال الإمام الشافعى: حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم فى العشائر والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام..

٤ — وقال الإمام أحمد لأحد طلابه عندما سألته رأيه فى أصحاب الكلام: لا تجالسهم ولا تكلم أحداً منهم، وقال أيضاً: علماء الكلام زنادقة.. واستمرت الحملة على علم الكلام وأهله على يد ابن تيمية وأتباعه واعتبروا كلام الأئمة الأربعة ضربة قاصمة لعلم الكلام، وفاتهم أن مقصود الأئمة — ؑ — هو كلام المعتزلة والجهمية وأتباعهما، كيف وقد اشتغل الإمام أبو حنيفة ؑ بعلم الكلام بل وألف فى ذلك: الفقه الأكبر وغيره، وكذا اشتغل به إمامنا الشافعى — ؑ — وحقق أستاذنا الدكتور: محمد ربيع جوهرى أن للإمام الشافعى أقوالاً عديدة فى علم الكلام، ورد فيه على أدعياء السلفية القائلين: إن السلف قد نهوا عن الاشتغال بعلم الكلام..

بل واستمرت الحملة على علم الكلام فى العصر الحديث على يد الأستاذ الإمام الشيخ عبد الحليم محمود خاصة فى كتابه { الإسلام والعقل }، وتابعه فى ذلك بعض تلامذته..
والحق أن هذا الذم واقع على المعتزلة والجهمية، ومن لف لفهم الذين يتخذون الجدل فى الدين ذريعة لبث الشبه المتعلقه بذات الله تعالى وصفاته العلية، ولا ينسحب هذا الكلام على الأشاعرة والماتريدية لعدم وجودهم آنذاك..
 واحتج المنكرون لعلم الكلام وفضله بما يلى:-

١- قوله ﷺ : { هلك المتنطعون } قالها ثلاثاً، أى المتعقون فى البحث والإستقصاء..
والجواب: أن كلام الرسول - ﷺ - محمول على الذين يتخذون الجدل حرفة وصنعة بقصد إيقاع الناس فى الفتنة، وإثارة الشبهات بين الناس وزلزلة عقائدهم، وشغلهم بأمر لا تتفهم فى دينهم ودنياهم، ولا يراد به علماء الكلام الذين يتخذون الجدل مطية للدفاع عن عقائد الإسلام ضد شبه المبطلين الذين يريدون هدم قواعد الدين..
٢ - ما رواه ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: { تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا }.

والجواب: أن المنهى عنه هو كلام الفلاسفة والفرق الضالّة، أما المناظرة فيه على وجه إظهار الحق فلا كراهيه فيه، بل هو المأمور به فى قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)..

٣ - أن الصحابة - رضوان عليهم أجمعين - لم يشتغلوا بهذا العلم ولا صرفوا همهم إليه ، مع اشتغالهم بالفتيا وتعلم الأحكام الفقهية وتعليمها، ومن ثم فهو: بدعة مردولة وضلالة مهلكة، كما أشار إلى ذلك الإمام الأشعرى - رحمه الله -..

والجواب: نرد على هذا القول بكلام منسوب إلى الإمام أبى حنيفة - رحمه الله - ونصه: { وأصحاب رسول الله - ﷺ - إنما لم يدخلوا فيه، لأن مثلهم كمثّل قوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا فلا يسعنا ألا نعلم من المخطئ منا ومن المصيب ؟ وألا نذنب عن أنفسنا } أضف إلى ذلك أن الرسول ﷺ لم يعلم أصحابه طرق علم الكلام وأدلته لصفاء عقيدتهم. وخلق قلوبهم من الشبهات والبدع ببركة صحبتهم للنبي الكريم ﷺ..

وكيف تحرم معرفة الله تعالى بالدليل، والقرآن الكريم من أوله لآخره يحتوى على أدلة المتكلمين مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) وهذا دليل الوجدانية، ومثل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣) وهذا دليل النبوة، ومثل ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يس: ٧٩) ، وهذا دليل البعث والنشور..

وكذلك فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يستعملون الجدل عند الحاجة والضرورة، وكان أول من سنَّ ذلك هو الإمام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — حيث بعث الصحابى عبد الله بن عباس ؓ إلى الخوارج، ونص المحاوره كما يلى: قال ابن عباس لهم: ماذا نقيم عليه ؟ { يقصد الإمام على كرم الله وجهه } قالوا: ثلاثاً قال: ما هن ؟ قالوا: —

- ١ — حكم الرجال فى أمر الله وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام: ٥٧)..
- ٢ — قالوا: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغتم، فلئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم، ولئن كانوا كافرين لقد حلَّ قتالهم وسببهم قال: قلت: وماذا أيضاً؟
- ٣ — قالوا: محا نفسه من إمرة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين قال: قلت: —

أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا، أترجعون ؟ قالوا: وما لنا لا نرجع ؟ قال: قلت: أما حكم الرجال فى أمر الله فإن الله قال فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ (المائدة: ٩٥) وقال فى المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُتُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٣٥) فصور الله ذلك إلى حكم الرجال، فنشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال فى دماء المسلمين، وإصلاح ذات بينهم أفضل أو فى حكم أرنب ثمنه ربع درهم وفى بضع امرأة ؟ قالوا: بلى هذا أفضل، قال أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم..

قال: وأما قولكم: قاتل فلم يسب ولم يغتم، أفتسبون أمكم عائشة ؟ فإن قلتم ليست بأمناء فقد كفرتم، فأنتم تترددون بين ضلالتين، أخرجت من هذه ؟ قالوا بلى.. قال: وأما قولكم : محا نفسه من إمرة المؤمنين فأنا آتيكم بما ترضون به، إن نبي الله ﷺ

وذهب بعض الحشوية^(١) من الحنابلة^(٢) وكتبة الحديث إلى أن الاشتغال بهذا

يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو: قال ﷺ : { اكتب يا على هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال أبو سفيان وسهيل ابن عمرو ما نعلم أنك رسول الله ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، قال رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم إني رسولك ، امح يا على ، واكتب : هذا ما اصطلى عليه محمد بن عبد الله ، وأبو سفيان وسهيل بن عمرو .. }
قال : فرجع ألفان ، وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا ..

ونظر كثير من الصحابة المبتدعة ، وعليه فإن الصحيح هو أن خوضهم في مسائل علم الكلام كان قليلاً لا كثيراً ، وبحسب الحاجة والضرورة ، ولم يغربوه بالتصنيف والتدريس كدأبهم في علوم الفقه والتفسير والحديث .. والله تعالى أعلم .. وأخيراً : ما حكم دراسة علم الكلام ؟

اختلف فيه : فمن قائل : إنه حرام وبدعة كما تقدم ، ومن قائل : إنه فرض عين ، ومن جانبنا نرى أن الحق أنه : فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وعليه فلا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي تنور في تلك البلدة ، وهذا بخلاف زمن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - حيث لم تكن الحاجة ماسة إليه ..

ولمزيد من التفاصيل راجع : - محاضرات في التوحيد لأستاذنا الدكتور الصافي : ص ٢٥ وما بعدها ، صون المنطق والكلام للسيوطي : ٨٥/١ وما بعدها ، إحياء علوم الدين للغزالي : ١٢٢/١ وما بعدها ، نهاية العقول للرازي : ١٠/١ وما بعدها ، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ، الاقتصاد للغزالي : ص ٥ وما بعدها ، المدخل إلى دراسة علم الكلام للدكتور : حسن الشافعي : ص ٣٥ - ٤٨ وغير ذلك ..

(١) الحشوية ليست فرقة معينة ، وإنما هم فئات مختلفة تجمعها روح واحدة تتسم بالتعصب للنصوص والفهم الحرفي لها ، دون تمحيص أو نقد كاف لمحتواها أو للطريق الذي وردت منه ، وأداهم ذلك إلى التجسيم والتشبيه أي نسبة صفات المخلوقات والأشياء المادية الجسمية إلى الله تعالى .. انظر المدخل إلى دراسة علم الكلام : ص ٧٥ - ٧٩ .

(٢) الحنابلة هم جماعة ينتسبون إلى الإمام أحمد وهم كالحشوية يلتزمون بالظواهر ، ويأخذون بالنصوص الدينية على ظاهرها ، وهم متعصبون جداً لآرائهم ، حتى كانت لهم معارك دموية مع

العلم حرام، واحتجوا فى ذلك بأن قالوا:

هذا علم لم يتكلم فيه الصحابة ولم يبحثوا عنه قط، وكل ما لم يتكلم فيه الصحابة ولم يبحثوا عنه كان بدعة، فهذا العلم بدعة، وكل بدعة فإنه يجب الاجتناب عنها، فهذا العلم يجب الاجتناب عنه.

قلنا: لا يجوز أن يقال: الصحابة ما كانوا يبحثون عن أدلة إثبات الصانع وصفاته، ونبوة المصطفى ﷺ — وذلك لأنهم مكلفون بمعرفة ذلك، والطريق إلى تحصيل المعارف: إما الحس^(١)، وإما الخبر^(٢)، وإما النظر^(٣).

لا طريق إلى تحصيل هذه المعارف بالحس لأنهم ما رأوا الله تعالى، ولا سمعوا كلامه العزيز، ولا الخبر، فإن الكلام فى ذلك المخبر كالكلام فى غيره، فإن كان علمه بخبر مخبر آخر تسلسل^(٤) إلى غير نهاية، ولا يحصل العلم بالخبر إلا بعد العلم بكونه صدقاً فإن كان العلم بصدق ذلك الخبر بخبر آخر فيتسلسل إلى غير

الأشاعرة والشيعة والمعتزلة، واتهموا بأنهم حشوية متقشفة يتسترون بالبلطفة.. انظر: المرجع السابق: ص ٧٩ — ٨١

(١) الحس هو ما كان مصدره الحواس الخمسة المعروفة..

(٢) الخبر: هو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته عند المناطقة..

(٣) النظر: هو الفكر، وقال الباقلانى: هو الفكر الذى يُطلب به علم أو غلبة ظن، وقيل غير ذلك.

(٤) التسلسل: هو ترتيب أمور غير متناهية هكذا عند الحكماء والمتكلمين، وأقسامه أربعة: لأنه لا يخفى إما أن يكون فى الآحاد المجتمعة فى الوجود، أو لم يكن فيها كالتسلسل فى الحوادث، والأول إما أن يكون فيها ترتيب أو لا، الثانى كالتسلسل فى النفوس الناطقة، والأول إما أن يكون ذلك الترتيب طبيعياً كالتسلسل فى العلل والمعلولات والصفات والموصوفات، أو وضعياً كالتسلسل فى الأجسام.. انظر: التعريفات للجرجانى: ص ٤٩..

نهاية^(١). فإنن لا طريق إلى تحصيل هذه المعارف إلا بالنظر، وهذه المعارف واجبة التحصيل، وما لا يتأدى الواجب إلا به فهو واجب، فالنظر في هذه الأدلة واجب، فلو قلنا: إن الصحابة ما عرفوا هذه الأدلة وما بحثوا عنها مع أنه لا تحصل لهم هذه المعارف إلا بها، لزم أن لا يكونوا مؤمنين، وهذا كفر، فثبت فساد ما قالوا. **فإن قيل:** هب أنهم كانوا عالمين بالأدلة، إلا أنهم ما كانوا يستعملون الألفاظ المتداولة بين المتكلمين مثل: الجوهر^(٢)، والعرض^(٣)، فيكون استعمالها بدعة..

قلنا: وكذلك ما كانوا يستعملون في مباحثاتهم الفقهية الألفاظ المتداولة بين الفقهاء: كالنقض والكسر^(٤) والمنع والمطالبة، وما كانوا يتكلمون في فروع باب الجهاد، ودقائق كتاب معانى الزَّجَّاج إلى غير ذلك، فوجب أن يكون كل ذلك بدعة. **ثم نقول:** الصحابة إنما لم يستعملوا هذه الألفاظ لقلّة البدع وضعف الأهواء الفاسدة في ذلك الوقت، وأما في زماننا فقد امتلأت الدنيا من البدعة، فلا جرم احتجنا إلى زيادة تهذيب في الأدلة، واستعمال عبارات مخصوصة، لنكون إلى إفساد

(١) يشير الإمام الرازى - رحمه الله تعالى - إلى فكرة الدور الاعتزالية، وهى فكرة مهمة جداً أثرت في الفكر الكلامى برمته، بل وتأثر بها الأشاعرة، واقتنع بها الإمام الرازى واخترع فكرة المعارض العقلى التى تقوم على أنه إذا تعارض العقل مع النص قدمنا العقل لأن العقل أصل الشرع ولا يجوز تقديم الفرع على الأصل !!

(٢) الجوهر فى اصطلاح الحكماء هو: ماهية إذا وجدت فى الأعيان كانت لا فى موضوع، أما عند المتكلمين فهو: ما يقوم بذاته، ولا يفتقر إلى غيره ليقوم به كالجسم..

(٣) العرض فى اصطلاح الحكماء هو: ماهية إذا وجدت فى الأعيان كانت فى موضوع، أما عند المتكلمين فهو: ما لا يقوم بذاته، ويفتقر إلى غيره ليقوم به كاللون..

(٤) النقض: هو بيان تخلف الحكم المدعى ثبوته أو نفيه عن دليله الدال عليه فى بعض من الصور..

عقائدهم أقرب، وإلى إيضاح الحق أسهل..

ومما احتجوا به: قوله ﷺ : { تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق }^(١)

قالوا: والتفكر في أنه عالم لذاته أو بالعلم، وأنه مرئى أو ليس بمرئى، كل

ذلك تفكر في الخالق، وهذا منهى عنه..

قلنا: نحن نعترف بأن التفكير في الخالق لا يجوز، ونحن لا نتفكر في ذات

الخالق بل فيما يجب له وما يجوز عليه وما يستحيل ؛ لأنه لا يتحصل الناظر فيه

إلا على عقيدة فاسدة أو حيرة مدهشة ، كما للمشبهة^(٢) والمعطلة^(٣)، بل يجب عليه

أن ينظر في المخلوقات من جهة دلالتها على وجود الصانع وصفاته وذلك هو —

ما^(٤) — أمرنا به من النظر في الخلق..

ومما احتجوا به: قوله — ﷺ — { عليكم بدين العجائز }^(٥)..

قلنا : المراد به الاقتداء بهن في تفويض الأمور إلى الله تعالى ، وترك

الخصومة والإيذاء والاستعانة بالله تعالى في جميع الأمور ، فبطل ما توهموه ،

وبالله التوفيق.

(١) ذكره البياضى فى إشارات المرام: ص ٢٠ وما بعدها..

(٢) المشبهة: هم قوم شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثّلوه بالمحدثات..

(٣) المعطلة: هم قوم عطّلوا صفات البارئ تعالى، وقالوا بنفيها..

(٤) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق..

(٥) رواه البيهقى فى شعب الإيمان، وأبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف، ولقد نسبت هذه

المقولة إلى بعض العلماء كإمام الحرمين والرازى كما حكاها السبكي فى الطبقات..

الفصل الثالث

فى حقيقة النظر وبيان إفضائه إلى العلم^(١)

(١) اختلف فى تعريف النظر فذهب الباقلانى وتبعه إمام الحرمين إلى أنه: الفكر الذى يطلب به من قام به علماً أو غلبة ظن، وعرفه العلامة السعد التفتازانى بأنه: { حركة النفس فى المعقولات عوداً على بدء لتحصيل المجهول }، وهو الراجح لأنه يبين أن هناك مشكلة مطلوب حلها ثم وضعها أمام النفس المتأملّة، أو طرأت لها، عندئذ تتحرك النفس راجعة من تلك النقطة المطلوبة والمجهولة، آخذة فى البحث فيما لديها من معومات أو معقولات لحين تجد حلاً مخزوناً عندها، أو فكرة تعينها على حل المطلوب العارض، ويلاحظ أن حركة النفس بقصد، والتفتيش فى المعقولات الحاصلة لديها أمور قد غابت عن التعريف السابق.. وقيل فى تعريف النظر إنه: ترتيب معومين فصاعداً على وجه يتوصل به إلى المطلوب.. وذهب السُّنْية إلى أن النظر لا يفيد العلم مطلقاً، وذهب المهندسون إلى أنه لا يفيد العلم فى الإلهيات، ونقل عن أرسطو أنه قال: لا يمكن تحصيل اليقين فى المباحث الإلهية إنما الغاية القصوى فيها الأخذ بالأولى والأخلق..

والحق أن النظر يفيد العلم ضرورة دون حاجة إلى دليل، ويتم ذلك بتجربة النظر، أى أننا إذا جربنا النظر مراراً وجدناه يفيد العلم، ولا شك أن العلم المستفاد من التجربة ضرورى، ولا عبرة بمن أنكر الأمر الضرورى، فإن قالوا: الضرورى لا يختلف فيه العقلاء وهذا قد اختلفوا فيه، قلنا: ذلك فى الضرورى الذى ليس له سبب ككون الكل أعظم من جزئه، أما ما له سبب كهذا فلا يدركه ضرورة إلا من شاركه فى السبب كحلاوة هذا الطعام مثلاً، فلا يدركه ضرورة إلا من شاركه فى سببه الذى هو الذوق، والسبب فى مسألتنا العثور على النظر الصحيح المطلع على وجه الدليل، هذا فى الرد على السُّنْية كما أفاده السنوسى — رحمه الله تعالى —..

اعلم أن النظر هو: استحضار علوم أو ظنون يتمكن المرء بها من تحصيل علم آخر^(١)..

وقال بعضهم^(٢) هو الفكر الذى يطلب به من قام به علماً أو غلبة ظن، وهذا الناظر لو لم يكن مجرد أو غلبة ظن لم يقو ، غاية ما فى الباب أن يورد عليه نظر المجتهدين، فمطلوب كل مجتهد هو الحكم الذى أدى اجتهاده إليه، والجاصل — من^(٣) — ذلك النظر علم، وإن قلنا: إن المصيب واحد، فإما أن نقول بأنه مكلف بطلب العلم إلا أنه يكتفى منه بغلبة الظن، أو نقول بأنه طالب العلم بغلبة للظن، وهذا واضح..

واحتج المهندسون على ما ذهبوا إليه بدليل حاصله: الحكم على الشيء فرع تصوره، وحقيقة الإله يستحيل تصورها فلا يدرك بالنظر الحكم عليها، وبأن أقرب الأشياء إلى الإنسان هويته التى يشير إليها بآثا، وفيها من كثرة الخلاف ما علم، فما ظنك بأبعدها عن الأوهام والعقول فممنوع..

وللرد عليهم نقول: أما أولاً: فلأن الحكم إنما يتوقف على تصور ما، وهو موجود لا على كمال التصور، وأما ثانياً: فلا ينتج الامتناع بل العسر وهو مسلم لا شك فيه..
لمزيد من التفاصيل راجع: — الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٧ شرح المواقف: ٣٢/١، تقريب المرام: ٣٩/١-٤٠، شرح المقاصد: ٨٥/١ - ٨٦ وما بعدها، حواشى على شرح الكبرى للسبكي: ص ١٩ - ٢١، وفيه كلام نفيس.

(١) عرّف الإمام الرازى النظر فى المعالم بأنه: { النظر والفكر عبارة عن ترتيب مقدمات علمية أو ظنية ليتوصل بها إلى تحصيل علم أو ظن } ويلاحظ أنه جعل الفكر مرادفاً للنظر، والحق أن الفكر أعم من النظر، وهو بعيد لأنه لم يعهد فى التعريفات أن يقال الإنسان البشر هو: حيوان ناطق، ومن ثم ففيه نوع تكلف انظر: المعالم: ص ١٩، وشرح المقاصد: ٨٩/١ والرازى فى تعريفه فى الإشارة بقصد بالعلم التصور والتصديق الجازم المطابق لليقين ، ويعنى بالظن ما يقابل اليقين، وهو تعريف جيد، ولكن يرجح عليه تعريف السعد فى شرح المقاصد..

(٢) هذا هو تعريف الباقلانى، وتبعه فيه إمام الحرمين.. انظر الإرشاد: ص ٧..

(٣) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق .

ثم اعلم أن طائفة من الملاحدة^(١) أنكروا إفضاء النظر إلى العلم ، واحتجوا في ذلك بأن قالوا: نحن نشاهد أقواماً قد اعتقدوا مذهباً وأصروا عليه برهة من الدهر، ثم بعد ذلك يرجعون عنه، فلو كان النظر مفضياً إلى العلم لاستحال ذلك.. ومما احتجوا به أن قالوا: العلم مادام حصل عقيب النظر علم إن كان ضرورياً^(٢) وجب اشتراك العقلاء فيه، وإن كان نظرياً^(٣) افتقر إلى نظر آخر فيتسلسل..

ونحن نستدل عليهم من وجوه أربعة:—

الأول: هو أنا نرى بعض العقلاء يستفيدون من النظر جزم القول بقدم العالم، وبعضهم بحدوثه ، وعلمنا أنه لا بد وأن يكون أحد القولين صحيحاً، لاستحالة فساد طرفي النقيض^(٤) والمحق إنما ذهب إلى ما ذهب إليه بالنظر، فعلمنا أن النظر يفضى إلى العلم..

الثاني: وهو أنا نعلم أن النظر الصحيح من ضرب سبعة في ثمانية لا بد وأن يفيد العلم بأنه ستة وخمسون إلى غير ذلك من العدديات والهندسيات، وإنما أفضى إليه لترتب مقدمات في ذهنه على وجه تأدى إلى ذلك المطلوب، فظنهم أن كون كل مطلوب نظري أمكن أن يتوصل إليه بواسطة استحضار مقدمات متأدية إليه أن تشاركه في الإفضاء إلى العلم..

الثالث: وهو أنه لا يمكن ادعاء فساد النظر ضرورة لاختلاف العقلاء،

(١) يقصد الإمام الرازي بالملاحدة: السمنية والمهندسين.. انظر: المحصل: ص ٤١ وما بعدها.

(٢) الضروري: هو الذى لا يحتاج إلى نظر واستدلال..

(٣) النظرى: هو الذى يحتاج إلى نظر واستدلال..

(٤) النقيض: فى اصطلاح المناطقة هو رفع تلك القضية فإذا قلنا: كل إنسان حيوان بالضرورة

فنقيضها أنه ليس كذلك ، انظر التعريفات للجرجاني : ص ٢١٩ - ٢٢٠.

فلا بد من إفساده نظراً، وذلك يؤدي إلى نفي الشيء بنفسه وهو متناقض^(١) ، بخلاف إثباته بنفسه فإنه غير متناقض..

الرابع: وهو إطباق العقلاء على النظر في طلب العلم.

وأما تمسكهم برجوع العقلاء عن المذاهب بعد إصرارهم عليها، فاعلم أن هذا تمسك بضرب من النظر في إبطال أصله، وذلك متناقض، وأيضاً فذلك يدل على صعوبة المحافظة على ترابط الأدلة ومقدماتها لا على عدم إفضاء النظر إلى العلم، ونحن لا ننكر ذلك، وهذا كما أن الإنسان قد تلتبس عليه المحسوسات فيظن السراب شراباً، والكبير صغيراً، وذلك لا يدل على عدم إفضاء الحس إلى العلم فكذلك هاهنا..

وقولهم: الناظر كيف يعلم أن ما حصل له علم ؟..

قلنا: أن نعلم أنه لو لم يكن علماً لكان الفساد في بعض المقدمات المركب منها الدليل، لكنه قاطع بصحة تلك المقدمات، فقطع بأن ما حصل له علم، فإن قالوا: وكيف تعلم صحة مقدماته ؟..

قلنا: هذا إنما يتضح بضرب مثال: فمن أراد الاستدلال على إثبات الأعراض بقول: نرى الجسم مختصاً ببعض الجهات وهذه مقدمة قطعية^(٢) ، ثم نقول: فحصوله فيها إما أن يكون واجباً^(٣) أو جائزاً^(٤)، وهذه المقدمة بتقدير ثبوت

(١) التناقض: هو اختلاف القضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي لذاته صدق أحدهما وكذب الأخرى..

(٢) القطعي: هو المرادف للضرورة وقد تقدم تعريفه..

(٣) الواجب: في اللغة: السقوط، واصطلاحاً: هو ما يتمتع فرض عدمه.

(٤) الجائز: في اصطلاح المتكلمين: هو ما لا يتمتع فرض عدمه، أو هو الذي يقبل الثبوت تارة والانتفاء تارة أخرى.

الأولى ضرورية أيضاً، ثم نقول: وهو ليس بواجب فيتعين كونه جائزاً، وهذا أيضاً ضرورى بتقدير ثبوت الأولى.. فيقال: ولم قلت بأنه ليس بواجب ؟..

فنقول: إن الواجب ما يمتنع فرض عدمه، وهذا لا يمتنع فرض عدمه، فهو ليس بواجب، ويستمر البحث هكذا إلى أن ينتهى إلى المقصود، والضابط: أن كل مقدمة يستعملها فى دليله^(١) فلا بد وأن تكون ضرورية ابتداءً، أو تصير ضرورية عند العلم بما هو ضرورى ابتداءً أو مستنداً إليه، وهذا حرف متين قد بسطه فى مواضع آخر، إذا حصل على الوجه لم يبق لمنكرى النظر شبهة أصلاً..

(١) الدليل: لغة: الأمانة، وفى اصطلاح المتكلمين: هو الذى يلزم من العلم به العلم بشئ آخر.

الفصل الرابع

فى كىففة ترتب العلم على النظر^(١)

اختلفوا فى العلم الحاصل عقىب النظر الصفىح^(٢) ، ونعنى بالنظر

(١) اختلفت أقوال العلماء فى علاقة النظر بالعلم، فذهب الفلاسفة — خاصة الفارابى وابن سينا

— إلى إىجاب النظر للعلم عن طرىق العقل الفعّال..

فهو عندهم بطرىق الوجوب، لتمام القابل مع دوام الفاعل، وذلك أن النظر ىمد الذهن بفىضان العلم علىه من عند واهب الصور، الذى هو عندهم العقل الفعّال المنتقش بصور الكائنات، المفىض على أنفسنا بقدر الاستعداد عند اتصالها به، وزعموا أن اللوح المحفوظ، والكتاب المبىن فى لسان الشرع عىارتان عنه على حد تعبىر صاحب المقاصد..

وذهب المعتزلة إلى أن النظر ىولد العلم ومعناه: أن ىوجب فعل لفاعله فعلاً آخر كحركة الىد لحركة المفتاح، فالنظر على أى تفسىر فُسر فعل للناظر ىوجب فعلاً آخر هو العلم، إذ معنى الفعل هاهنا الأثر الحاصل بالفاعل لا نفس التأثير.

وذهب الشىخ الأشعرى إلى أن العلم ىحصل عند النظر عادة من غىر وجوب عنه أو علىه تعالى، وذلك تأكيداً لمبدأ أصىل لا ىستطىع الأشعرى — رحمه الله تعالى — أن ىتنازل عنه وهو: استناد الممكنات إلى الله تعالى القادر المختار ابتداءً وبلا واسطة..

والحق هو ما ذهب إلىه الشىخ الأشعرى — رحمه الله تعالى — لأنه ىرجع الأمور كلها إلى الله تعالى، ولا ىوجب علىه شىء ﷻ لا ىسئل عما ىفعل وهم ىُسئلون..

لمزىد من التفاصيل راجع: شرح المواقف: ٢٤١/١ — ٢٤٧، شرح المقاصد: ٢٦/١ — ٢٧ وص ٥٨ وما بعدها، وشرح الجلال الدوانى على العقائد العضىدية: ص ٢١٠ إلى ص ٢١٣ وغىر ذلك..

(٢) تَمْيِيزاً عن النظر الفاسد الذى لا ىفىد شىئاً، وذلك لفساد نظمه كالاستدلال بجزئىتین أو

الصحيح: كل ما يطلع الناظر على الوجه الذى باعتباره يتوصل إلى المطلوب.
كالإمكان فى العالم الدال على وجود الصانع..

فقال بعضهم: ^(١) إن النظر يولد العلم.

وقال بعضهم: يوجبه ^(٢).

وقال بعضهم: ^(٣) يلزمه ملازمة الجواهر والأعراض، والصحيح ما ذهب إليه شيخنا أبو الحسن ^(٤) : أنه يحصل عقبيه بمجرى العادة من غير وجوب ^(١).

سالتين، أو لخلل فى مادته بأن كانت المقدمتان كاذبتين أو إحداهما كاذبة، وهذا هو رأى المنطقيين حيث ذهبوا إلى أن النظر الفاسد يفيد الجهل، وذهب المتكلمون إلى عكس ذلك حيث قالوا: إنا وجدنا فاسد المادة يستلزم الجهل، وتارة يستلزم الشك، وتارة لا يستلزم شيئاً، وما اختلف حاله لا يرتبط بشيء معين، ومن ثم فلا يستلزم الجهل، والصحيح هو رأى المناطقة..
انظر: حواشى على السنوسية: ص ٢٣..

(١) هذا هو رأى المعتزلة، ولمعرفة تفاصيل رأيهم: راجع: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٣٨٧ - ٣٩٠ ولقد نقد الرازى - رحمه الله تعالى - فكرة التوليد عند المعتزلة نقداً متيناً ، راجع: المحصل ص ٤٨.

(٢) هذا هو رأى الفلاسفة، وللمزيد من التفاصيل: راجع عيون المسائل للفارابى: ص ٤٨، والنجاة لابن سينا: ص ١٣.

(٣) هذا هو رأى إمام الحرمين متابعة للباقلاني - رحمهما الله تعالى -، انظر: هوامش على النظامية لأستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل القوصى: ص ٣٠..

(٤) هو على بن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم الإمام أبو الحسن الأشعري، البصرى المولد، ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل أبى موسى الأشعري، والأشعري هو إمام أهل السنة والجماعة، ومؤسس مذهب الأشاعرة، ولد بالبصرة سنة ٢٦٠هـ، وتلمذ على المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع عن آرائهم، وتوفى ببغداد سنة ٣٢٤هـ، من مؤلفاته: اللمع فى الرد على أهل الأهواء والبدع، والإبانة عن أصول الديانة، ومقالات الإسلاميين، الاستطاعة فى نقض استدلالات

والذى يدل عليه:

أن النظر لو كان علة للعلم أو ملازماً له لوجب أن لا يسبق العلم، لاستحالة كون الشيء متولداً عن المعدوم أو ملازماً أو معلولاً له، كما قلنا فى الجواهر، فإنها لما كانت ملازمة للأعراض استحال سبق أحدهما على الآخر، وهاهنا ليس يستحيل ثبوت النظر حالة وجود العلم، فتبين أنه ليس بينهما ارتباط، وأن حصوله عقيمة بمجرى العادة، وبالله تعالى التوفيق..

المعتزلة، وغير ذلك كثير.. انظر ترجمته فى كشف الظنون: ٦٧٦/٥ — ٦٧٨..

(١) خالف الرازى — رحمه الله تعالى — رأيه هنا أعنى موافقته لرأى الشيخ الأشعرى، وذلك فى كتابه المحصل حيث اعتنق رأى الباقلانى وإمام الحرمين القائل بوجوب العلم بعد النظر على سبيل اللزوم العقلى، فكل من علم أن العالم متغير، وكل متغير ممكن، فمع حضور هذين العلمين يستحيل أن لا يعلم أن العالم ممكن، ومن العجيب أن حجة الإسلام الغزالى قد نسب هذا القول إلى أكثر أصحاب الأشعرى كما يقول صاحب المقاصد — رحمه الله تعالى —

ولقد اشتم من هذا الرأى أن الرازى ومن قبله الباقلانى وإمام الحرمين قد خرجوا عن القاعدة الأشعرية الكبرى أعنى استناد الممكنات ابتداءً إلى الله تعالى القادر المختار، وأنهم بذلك قد اقتربوا من مذهب الاعتزال..

والحق أن رجالات الأشاعرة الثلاثة بريئون من هذا الاتهام، لأن ثمة فرقاً بين التلازم والتوقف، فالأسباب ومسبباتها متلازمة عند الرازى ومن قبله الباقلانى والجوينى، ولكن المسببات غير متوقفة على الأسباب والتوقف بما يعنيه من احتياج البارى تعالى فى أفعاله إلى الممكنات.. هو وحده المحذور عند أهل التحقيق، أما التلازم فهو غير قادح مطلقاً فى استناد الممكنات بأسرها إليه تعالى ابتداءً.. والله تعالى أعلم..

انظر: المحصل للرازى: ص ٤٧، وشرح المقاصد: ٢٦/١-٢٧، وشرح الدوانى على العقائد العضدية: ص ٢١٣ وما بعدها، وهوامش على النظامية: ص ٣٠ وما بعدها..

الفن الأول: فى إثبات ذاته تعالى

وهو مشتمل على عدة أبواب

الباب الأول: فى حدوث الأجسام

اعلم أن الكلام فى هذا الباب يقع فى طرفين:—

أحدهما: الكلام فى أن لوجودها ابتداءً..

والثانى: فى أن لحقيقتها ابتداءً..

الفصل الأول

فى بيان أن لوجود الأجسام ابتداءً^(١)

(١) بدأ الرازى — رحمه الله تعالى — ببيان أن الأعراض محدثة، ومن ثم يسهل عليه إثبات أن ملازمها وهو الأجسام حادثة، فيكون العالم الذى هو الجواهر والأعراض حادث، وهذه هى طريقة متقدمى الأشاعرة..

والعالم هو كل ما سوى الله تعالى وصفاته، وقيل هو: الجواهر والأعراض.. هذا ومسألة قدم العالم وحدوثه من أعقد وأهم المسائل الكلامية والفلسفية، وكيف لا؟ وهى المطلب الأسنى فى هذا العلم، وذلك لأن حدوث العالم هو المدخل لإثبات وجود البارى — جل وعلا — ولقد تعددت الآراء واختلفت جهات النظر، بل وصل الأمر إلى حد التكفير حيث كفر الإمام الغزالى — رحمه الله تعالى — فلاسفة الإسلام القائلين بالقدم، وسوف نحاول فى عَجالة سريعة تلخيص الآراء الواردة فى ذلك.. والله المستعان..

ذهب فلاسفة اليونان إلى القول بقدم المادة الأولى التى تكونت منها أجزاء العالم.. فانكسمندريس مثلاً يقول { بالدور العام المتكرر الذى لا بداية له ولا نهاية والمادة اللامتناهية عنده باقية غير حادثة ولا مندثرة }، ويرى هرقليطس أن النار هى التى تصدر عنها الأشياء وتعود إليها فى دوراتها المتناهية، وذهب ديمقريطس إلى أن الذرات التى يتألف منها العالم قديمة، لأن الوجود لا يخرج من اللاوجود.. ويقول أرسطو تصريحاً بقدم العالم فى قوله: { هناك ضرورة لأن تكون الهوىلى غير قابلة

للهلاك وغير مخلوقة { والله — على رأيه — هو المحرك الأول للعالم، وأن الحركة قديمة، فالعالم قديم..

ويرى أفلوطين أن الأشياء مختلفة في الكمال والنقص، ويتوقف كمالها على درجة اتحاد أجزائها، فدرجة اتحاد الأحجار المتناثرة — مثلاً — أدنى من درجة اتحاد أحجار المنزل وهكذا يترقى أفلوطين في سلم الموجودات حتى يصل إلى الوحدة الأولى التي لا تقبل الانقسام وهي بسيطة، وعنها فاض العقل الكلي الذي هو أقل كمالاً منها ومن ثم فهو يقبل الكثرة، وعنه فاضت النفس الكلية ومنها انبعثت الأشياء المادية..

وذهب الفارابي وابن سينا إلى القول بقدّم مادة العالم التي فاضت عن الله ﷻ بطريق الإيجاب، لأن الله تعالى لما كان قديماً، فمن الواجب أن يكون الفيض قديماً، وإلا اقترن القديم بحادث، وهو ما يرفضه الفلاسفة، ومن أجل ذلك اخترع الفيلسوفان نظرية العقول العشرة..

ولقد مؤه ابن سينا في كلامه فقال بالحدوث، ويعنى به الحدوث الذاتي، فإذا كان المحدث هو الكائن بعد أن لم يكن فالبعديّة هنا بالذات، بمعنى أنه ذات الممكن وحدها غير كافية في وجوده، وإنما يوجد بعثته، والذي بالذات قبل الذي بالغير، وعلى ذلك بنى ابن سينا قوله بقدّم العالم قدماً زمانياً، وبتعبير آخر: أن العالم حادث بالذات، قديم بالزمان.. واستقر رأى ابن رشد على أن العالم محدث أزلي..

ولقد تنزه الكندي — رحمه الله تعالى — عن القول بالقدّم، وقال بحدوث العالم صراحة فهو يرى أن: { هذا العالم محدث من لا شيء ضربة واحدة في غير زمان ومن غير مادة، بفعل القدرة المبدعة المطلقة، من جانب علة فعّالة أولى هي الله، ووجود هذا العالم وبقاؤه ومدة هذا البقاء متوقفة كلها على الإرادة الإلهية الفاعلة لذلك، بحيث لو توقف الفعل الإرادي من جانب الإله لانعدم العالم ضربة واحدة وفي غير زمان أيضاً }..

للمزيد من تفاصيل رأى الفلاسفة انظر:—

تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم: في مواضع كثيرة مثل: ٩ — ١٥ ، ١٦٣ وما بعدها، تاسوعات أفلوطين: ص ٢٧ ، ١٣٤ — ١٣٥ ، عيون المسائل للفارابي: ص ٥١ ، النجاة لابن سينا: ص ٢٧٦ — ٢٧٨ ، والإشارات له أيضاً: ٣/٦٤٥ ، مناهج الأدلة لابن رشد:

ص ١٩٣ - ٢٠٧ ، رسائل الكندي الفلسفية بتحقيق أبي ريدة: ص ٦٢..

وذهب الشيعة الإمامية إلى القول بحدوث العالم، وصرح الزيدية بالخلق من العدم. أما الإسماعيلية فقد تأثروا بفكرة الفيض فقالوا: بالمبدأ الأول، ثم العقل أو المبدع الأول. ثم النفس التي عن حركتها صدرت البسائط ويتوسط العناصر البسيطة كانت المركبات المختلفة، والتي منها أشرفها جميعاً: وهو الإنسان..

وذهب معظم الصوفية إلى القول بالحدوث والخلق من العدم، ولكن ذهب بعضهم إلى القول بقديم العالم، وقد انقسموا إلى فريقين :-

فلاسفة الإشراق: وهم فسروا الإبداع أو الصدور بطريق نظرية الفيض الأفلوطينية.. فلاسفة وحدة الوجود: الذين قالوا بالتجلي ويعنون به: تمثل الإله في أشخاص العالم، وتعيّنه في المظاهر الوجودية، إذ الوجود عندهم له جانبان: باطن وظاهر، فباطنه الحضرة الأبدية، وظاهره الموجودات المتكثرة التي هي تعينات وتجليات لها، والعارف هو من شهد هذه الوحدة وتحقق بها..

وذهب مشايخ المعتزلة إلى القول بحدوث العالم، لكن قولهم بشيئية المعدوم، وكونه ذاتاً وحقيقة في العدم، جعل بعض الأشاعرة ينسبون إليهم القول بقديم العالم.. والحق أن المعتزلة بريئون من ذلك، كيف وهم القائلون بأن أخص وصف لله تعالى هو القدم، الأمر الذي دعاهم إلى إنكار زيادة الصفات على الذات كما سيأتى..

ولعل القول بشيئية المعدوم راجع إلى رأيهم في أن الأشياء الممكنة لها ذوات أو مهاييا في حالة العدم - وهي مخلوقة أيضاً عندهم - يفيض عليها الوجود الفعلي بخلق الله تعالى، وهذه المهاييا في حالة العدم تنصف بالإمكان حتى تتعلق بها إرادة الله تعالى لتوجدتها، فتبرز إلى الوجود الفعلي، ولعلمهم في ذلك متأثرين بكلام أرسطو في التفرقة بين الهيولى والصورة..

والجدير بالذكر أن بعض المعتزلة مثل: أبو القاسم الكعبي، وأبى الحسين البصري قد رفضا القول بشيئية المعدوم، والتفرقة بين الماهية والوجود..

أما الأشاعرة والماتريدية فقد ذهبوا إلى القول بحدوث العالم، وأن الله ﷻ قد خلقه من كتم العدم المحض، ومن ثم فقد رتبوا على ذلك احتياج العالم وافتقاره إلى الصانع المبدع جل

وعلا..

ولإثبات حدوث العالم قدّم الأشاعرة والماتريدية - خاصة الأوائل منهم - عدة أصول ومنطقات لايد منها حيث قسموا العالم إلى: جواهر وأعراض، ثم رتبوا على ذلك الأصول التالية:-

أ - اثبات الأعراض زائدة على الجواهر..

ب - أثبت حدوثها عن طريق إستحالة قيامها بنفسها، واستحالة انتقالها، واستحالة كمونها، واستحالة عدم التقسيم..

ج - استحالة خلو الجواهر عن الأعراض..

د - استحالة وجود حوادث لا أول لها..

وعليه ثبت احتياج العالم إلى من يوجده وهو الله جل وعلا..

ورتبوا على ذلك القياس التالي: العالم حادث وكل حادث لايد له من محدث..

العالم له محدث وهو الله تعالى..

ولكن بمرور الوقت وباختلاط علم الكلام بالفلسفة الإسلامية، لجأ - الأشاعرة والماتريدية - إلى دليل الإمكان، وكان أول من استخدمه - فيما نعلم - إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - في النظامية، ومن بعده صار المزج بين طريقي الإمكان والحدوث هو عمدة المتكلمين جميعاً، وذلك لما على طريقة الحدوث من انتقادات، فأصبحت علة الاحتياج هي: الإمكان، ولكنه مصاحب للحدوث شرطاً أو شرطاً على حد تعبير صاحب المواقف - رحمه الله تعالى - لمزيد من التفاصيل راجع:-

الأبكار للآمدى: ٢/٢٥٠، اللمع للطوسى: ص٣٢، ٤٩، أصول الفلسفة الإشراقية لأبى ريان: ص١١، فصوص الحكم لابن عربى: ١/١١١، ١١٠، التبصير فى الدين لأبى المظفر الأسفرايينى: ص٦٠، الإرشاد لإمام الحرمين: ص١٧ - ٣٠، والشامل له أيضاً: ص ١٨٠ - ٢٠٤ وغير ذلك، هوامش على النظامية: ص٥٤ - ٥٥، شرح المواقف: ٨/ ٤ - ٨، غاية المرام للآمدى: ص ٢٤٨ - ٢٥٠

والخلاف فيه مع الفلاسفة^(١) فإنهم ذهبوا إلى أنه لا أول لوجود الجسم، ولا أول لجنس الحوادث الطارئة عليه، وإن كان لكل واحد منها أول، وتعلقوا في ذلك بشبه منها:—

أن كل ما كان محدثاً كان عدمه قبل وجوده، والقبلية ليست هي العدم المحض، فإن العدم قبل كالعدم بعد، وليس القبل بعد، وإذا لم يكن حكماً عديمياً استدعى محلاً، فإما أن يكون ذلك المحل قبلاً بذاته وهو: الزمان، أو بغيره: وهو الحركة، فقد وجد قبل ما فرض أول الحادث شيء، وقبله شيء آخر قبلها، وأن لا يكون للحوادث أول^(٢)..

ومنها: أن كل محدث فإنه مسبوق بإمكان راجع إلى ماهيته التي هي علة صحة اقتدار القادر وعلمته إمكان وجوده، ولا يوجد مستغنياً عن محل، فلا بد وأن يوجد قبل الحوادث شيء يوجد فيه إمكان وجودها، ولنسمه الهيولى^(٣)، فإن كان ذلك الهيولى أيضاً محدثاً، فليفتقر إمكانه السابق إلى محل آخر، فيتسلسل وهذا محال، فمحال أن يكون الهيولى محدثاً فهو قديم^(٤).

(١) يقصد الفارابي وابن سينا القائلين بقدوم العالم قدماً زمانياً، وذهبا إلى أن العقول، والنفوس الفلكية، وكذا الأجسام الفلكية بموادها، وصورها الجسمية والنوعية وأشكالها، وأضوائها، والعنصریات بمادتها، وصورها الجسمية كل ذلك قديم عندهم.. انظر: الإشارات لابن سينا: ٣/ ٦٤٥ طبعة دار المعارف..

(٢) قارن تهافت الفلاسفة لحجة الإسلام الغزالي: ص ١١٨ — طبعة دار المعارف..

(٣) الهيولى هي: لفظ يوناني بمعنى: الأصل والمادة، واصطلاحاً: جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محل للصورتين الجسمية والنوعية.. انظر: التعريفات للجرجاني: ص ٢٣٠..

(٤) انظر: تهافت الفلاسفة: ص ١١٩ وما بعدها..

ومنها: أن سبب وجود العالم إما أن يكون قديماً^(١) أو حادثاً، فإن كان حادثاً كان حدوثه لسبب آخر، فإن كان ذلك السبب أيضاً حادثاً افترق إلى آخر فتتسلسل الأسباب والمسببات لا إلى نهاية، وذلك محال، فإذاً لابد وأن ينتهي إلى سبب قديم، ويلزم من قدم هذا السبب قدم العالم، إذ لو وجد السبب من جهة ما هو سبب، ولم يوجد المعلول لم يكن السبب مقتضياً لوجود المسبب، فلا يكون السبب سبباً، هذا محال، فإذاً العالم قديم..

أما المعتمد في حدوث الأجسام فطريقتان:—

الطريقة الأولى: تقول: الأجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث؛ فالأجسام إذن محدثة^(٢) ، والدليل على أنها لا تخلو من الحوادث: أنها لا تخلو عن الحركة والسكون وهي محدثة..

فها هنا نحتاج إلى بيان عدة أشياء : إلى إثبات الحركة والسكون أولاً، وبيان استحالة عرو الأجسام عنها ثانياً ، وبيان حدوثهما ثالثاً..

والذى يدل على أن الحركة والسكون أمور زائدة على الجسم، أنا نعلم

(١) القديم: يطلق على الموجود الذى لا يكون وجوده من غيره، ويطلق القديم على الموجود الذى ليس وجوده بالعدم، والأول قديم بالذات، والثانى قديم بالزمان..

(٢) هذا هو دليل الحركة والسكون، والرازى مسبوق فيه بمتقدمى الأشاعرة، وكل ما فعله هو تطويره وكان يسميه فى بعض كتبه بالحجة المشهورة، أو الطريقة المبسطة المشهورة ولكن أبا عبد الله برغم أخذه بهذه الحجة فى معظم كتبه، إلا أنها تقوم على مبدأ تماثل الأجسام فى الجسمية، وهو أمر رفضه الرازى — رحمه الله تعالى — فى بعض كتبه.. انظر: نهاية العقول: ٣٣/١ — أ — الخمسين: ص ٣٣٣ — ٣٣٦، الأربعين: ص ١٣ — ٢٧، والمحصل: ص ٨٦ — ٨٧، والمعالم: ص ٢١ — ٢٥، والملخص: ص ١٧٣ — ١٧٤، والمطالب العالية، ٤٣/١ وما بعدها.

الجسم جسماً مع الذهول عن كونه متحركاً أو ساكناً، ولولا أن حقيقة الجسم تغاير حقيقتيهما، وإلا لما صح العلم بأحدهما مع الذهول عن الآخر، ولأنه لو كان أحد هذين الوصفين داخلاً في حقيقة الجسم لوجب اتصاف الجسم بهما دائماً، وأن يستحيل تبدل إحدى حالتى الحركة والسكون بالأخرى، وإذا بطل ذلك علمنا أن حركة الجسم وسكونه غيره..

وقد اعتقد قوم^(١) أن الحركة معنى يوجب كون الجسم متحركاً، وكذلك السكون، وهذا باطل؛ لأن ذلك المعنى إما أن يوجب المتحركة فقط، فيلزم منه انفراد المتحركة واستقلالها عن المتحرك من جهة أنها هى معللة بالعلة فكان يلزم صحة أن تعقل المتحركة فى تلك الجهة مع الذهول عن المتحرك، ومعلوم أنه يستحيل العلم بالمتحركة مع الذهول عن المتحرك أو يوجب المتحركة مع المتحرك، فيلزم انعدام المتحرك عند انعدام المتحركة؛ لانعدام ما هو عليهما جميعاً.

فقد عرفت معنى الحركة والسكون، فافهم منه استحالة عرو الجسم منهما، إذ الجسم لا يخلو عن أن يكون لائناً فى جهة، أو مستقلاً فى الجهات بعضها إلى البعض..

ونقول: إن الحركة والسكون محدثان؛ لأن الجسم نراه يسكن بعد أن كان متحركاً، ويتحرك بعد أن كان ساكناً، وليست حركته وسكونه ذوات مستقلة ثابتة بحيث يتوهم انتقالها من محل إلى آخر، ووجودها فى غير محلها الأول غير موجب لذلك الحكم، بل الحركة عبارة عن كون الجسم متقللاً على ما وضحناه، فمتى لم يكن الجسم بهذه الصفة لم يكن متحركاً، وهكذا القول فى جانب السكون..

(١) يقصد المعتزلة..

إذن ثبت صحة العدم عليهما فاستحال — أن يكونا قديمين^(١) — ؛ لأن القديم لو انعدم لكان انعدامه: إما أن يكون لذاته أو لأمر لازم لذاته، أو لأمر غير لازم، فإن كان انعدامه لذاته، أو لأمر لازم لذاته، وجب انعدامه دائماً، وإن كان لأمر غير لازم له، فإما أن يكون عدماً أو وجوداً، أما العدم فإما أن يكون عدم شيء قديم، أو عدم شيء حادث، ومحال أن يكون انعدامه لانعدام شيء قديم؛ لأن الكلام في انعدام ذلك القديم كالكلام في انعدام القديم الذي وقع كلامنا فيه، فإن كان لانعدام قديم آخر لتسلسل إلى غير نهاية، ومحال أن يكون انعدامه لانعدام شيء حادث؛ لأن عدم الحادث بعد وجوده لو أوجب عدم القديم؛ لأوجب عدمه السابق عليه عدم القديم، فإذا يكون الحادث قديماً، وهذا محال..

وإن كان انعدام القديم لوجود شيء، فذلك الشيء إما موجب^(٢) أو مختار^(٣)، ومحال أن يكون موجباً؛ لأن ذلك الموجب إما أن يكون قديماً، وإما أن يكون حادثاً، ومحال أن يكون محنتاً؛ لأنه ليس انعدام كل واحد منهما بالآخر وهو محال، ومحال

(١) تعديل يقتضيه السياق..

(٢) الموجب بالذات: هو الذي يجب أن يصدر عنه الفعل إن كان علة تامة له من غير قصد وإرادة، كوجوب صدور الإشراق عن الشمس، والإحراق عن النار انظر: تعريفات الجرجاني ص ٢١٢ — ٢١٣.. والفلاسفة يقولون: إن الله — تعالى عن قولهم — موجب بالذات؛ إذ أنه عند اجتماع الإرادة والقدرة فإن العالم يجب أن يحصل مقارناً لهما، بلا تأخر زمني، ليترتب على ذلك قولهم بقدوم العالم قديماً زمنياً، فالبارئ تعالى عندهم: تام الفاعلية، فيجب منه ما تم استعداده للوجود، دون اتبعات قصد منه أو طلب، مع علمه بمعلومه، وصدوره عنه ، انظر هوامش على النظامية: ص ٢١٣ — ٢١٤..

(٣) المختار: ينسب إلى الاختيار الذي هو القصد والإرادة مع ملاحظة ما للطرف غير المراد، فكأن المختار ينظر إلى الطرفين، ويميل إلى أحدهما، وذلك بعكس الإرادة انظر: شرح المقاصد: ٦٩/٢..

أن يكون قديماً؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك القديم دائماً معدوماً وذلك محال، وإن كان سبب عدم القديم فاعلاً مختاراً، فالمختار لا يؤثر في عدم شيء وبعبينه ما لم تتعلق به قدرته بعينه، ولا تتعلق قدرته بعينه إلا إذا كان هو لعينه موجوداً، فلو انعدم القديم لكان حال تعلق قدرة الفاعل بإعدامه موجوداً مع انعدامه وذلك محال، اللهم إلا أن يقال بأن القدرة تتعلق به ثم إنه ينعدم في ثاني الحال، وهذا أيضاً محال، لأنه يوجب تأخير المسبب عن السبب وذلك محال.

فثبت أن الأعراض محدثة، وقد بان أيضاً استحالة عرو الجسم عنها، فنقول: هذه الحوادث إما أن يكون لها ابتداء أو ليس لها ابتداء، ومحال أن لا يكون لها ابتداء لوجهين:—

الأول: وذلك أنا إذا أخذنا الحوادث الماضية من اليوم شيئاً على حدة، ومن الأمس شيئاً آخر على حدة، ونقابل آحاد إحدى الجملتين بآحاد الأخرى بما يقع في درجته من الجملة الأخرى، فإما أن يتقابل جميع آحاد الزائد بآحاد الناقص وذلك محال، فلا بد وأن تقصر آحاد إحدى الجملتين عن الأخرى بيوم واحد، فيكون الناقص متناهيًا، والزائد عليه بحادث واحد أيضاً متناهيًا، فإذن لوجود جملة الحوادث ابتداء^(١) ولا يعارض ذلك بالحوادث في المستقبل فإن ما دخل في الوجود

(١) هذا هو برهان التطبيق وحاصله: أن نفرض من المعلوم الأخير إلى غير النهاية جملة، ومما قبله بواحد مثلاً إلى غير النهاية جملة أخرى، ثم نطبق الجملتين بأن نجعل الأول من الجملة الأولى بإزاء الأول من الجملة الثانية، والثاني بالثاني، وهلم جرا، فإن كان بإزاء كل واحد من الأولى واحد من الثانية كان الناقص كالزائد وهو محال، وإن لم يكن فقد يوجد في الأولى ما لا يوجد في إزائه شيء في الثانية فتقطع الثانية، وتتناهى ويلزم منه تناهى الأولى لأنها لا تزيد على الثانية إلا بقدر متناه، والزائد على المتناهي بقدر متناهي يكون متناهيًا بالضرورة...

متناهٍ، وما انتهى في الزمن على التفصيل فهو أيضاً متناهٍ، إنما الذي لا يتناهى ليس له وجود لا في الذهن ولا خارج الذهن، فلا يصح الحكم عليه بقبول الزيادة والنقصان بخلاف الحوادث الماضية فإنه وإن لم يكن لكليتها وجود، إلا أن آحادها موجودة على التعاقب فيصح الحكم بتقابل آحاد إحدى الجملتين بآحاد الأخرى، ويلزم منه تنامي الحوادث على ما أوضحناه^(١)..

الثاني: وهو أن نفى الأولية معناه: نفى عدم يسبق وجوده، ونفى النفي إثبات، فنفي الأولية قضية إثباتية فلو لم يكن للحوادث أول لكان المحكوم عليه بنفي الأولية إما أن يكون: آحاد الحوادث، ويلزم منه قدم كل واحد من الحوادث، أو مجموعها، وذلك محال لأنه ليس للمجموع وجود أصلاً لا في الذهن، ولا خارج الذهن، فكيف نحكم عليه بحكم إثباتي ؟ لأن ما ليس ثابتاً في نفسه، كيف ثبت له غيره ؟ ولا يلزمنا هذا في إثبات الأولية ؛ لأنه قضية سلبية، وذلك لا يستدعي محلاً ثابتاً، كالحكم بالاستحالة على الجمع بين السواد والبياض، مع أنه لم يلزم منه وجود الجمع بينهما، فكذلك هاهنا، فقد ثبت أن للحوادث التي ثبتت استحالة عرو الجسم عنها أولاً، وما لا يُعرى عما له أول وجب أن يكون له أول والجسم إذن له محدث.

فإن قيل: هب أن ما ذكرتموه يدل على حدوث الأجسام والأعراض، فبم تتكرون على من يثبت موجودات قديمة غير متحيزة، ولا قائمة بالمتحيز كما يقوله الفلاسفة في العقول والنفوس والهيولى؟^(٢)

والجواب عنه: وهو أن المسلمين قد اتفقوا على انحصار المحدثات في

(١) هذا هو اعتراض الفلاسفة حيث عارضوا الأشاعرة بالقول ببقاء نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار إلى ما لا نهاية، الأمر الذي دفع بعض المتكلمين كالعلاف إلى القول بفناء النار..

(٢) انظر: النجاه لابن سينا: ص ٢٠١ - ٢٠٥ حيث أثبت قدم الهيولى، وقارن المحصل: ص

الأجرام^(١) والقائم بالأجرام^(٢)، والدليل عليه: أنا لو قدرنا موجوداً قائماً بنفسه غير متحيز لشارك البارى تعالى فى الاستغناء عن المحل والجهة، وذلك لا يخلو إما أن يكون حقيقة البارى تعالى أو لازم حقيقته، فإن كان الأول، فيلزم من مشاركة العقل والهيولى البارى فى ذلك مشاركته.. ذات هذه الموجودات للبارى تعالى — من جميع الوجوه، إذ المشتركان فى الحقيقة يلزم اشتراكهما من جميع الوجوه، ويلزم منه وجود آلهة واجبة الوجود، وذلك محال، وإن كان لازم حقيقته فلا بد له من أمر يقتضيه، وإلا لم يكن اختصاصه به أولى من اختصاصه بغيره، فإما أن يستند إلى حقيقة ذات البارى تعالى، فيكون لازماً بغير واسطة أو استند إلى لازم آخر فيكون لازماً بواسطة فكيفما كان فلا بد وأن ينتهى إلى لازم بغير واسطة، فإذا كان كذلك فيلزم من الاشتراك فى اللوازم الاشتراك فى الحقيقة لاسيما له تعليل حكيم متساويين بعلتين مختلفتين، فلو قدرنا موجوداً يشارك البارى فى هذا اللازم لشاركه فى الحقيقة، ويرتد الكلام إلى القسم الأول وقد أبطلناه..

فإن قيل^(٣) هذا يبطل بالأجسام، فإنها مشاركة للبارى فى الاستغناء عن المحل، وكذلك الأعراض، فإنها مشاركة للبارى فى استحالة الحصول فى الجهة، ولا يلزم منه اشتراكهما من جميع الوجوه، وكذلك الحوادث كلها مشتركة فى الجواز، والأعراض كلها فى الحاجة إلى المحل، والموجودات كلها مشتركة فى صحة أن تكون مرئية، والسواد والبياض مشتركان فى اللونية، والإنسان والفرس مشتركان فى الحيوانية، ولا يلزم منه اشتراكهما من جميع الوجوه فكذلك هذا..

قلنا: لا نسلم أنها مشاركة البارى فى الاستغناء عن المحل؛ لأن استغناء

(١) يقصد الأجسام..

(٢) يقصد الأعراض..

(٣) هذا اعتراض للفلاسفة..

البارى تعالى عن المحل معناه: استحالة حصوله فى الجهة لا بالاستقلال ولا بالتبعية، ومعنى استغناء الجسم عن المحل: أن حصوله فى الجهة ثبت بطريق الاستقلال لا تبعاً لغيره، ومعلوم أنه ليس بين هذين المعنيين اشتراك إلا من حيث اللفظ، وأما العرض فلنسنا نسلم أنه ليس له حصول فى الجهة، كيف واللون المحسوس فوق مختص بجهة فوق ؟ أجل حصوله فى الجهة ليس بالاستقلال بل بالتبعية، وذلك لا يناقى مطلقاً معنى الحصول فى الجهة..

فإن قلوا^(١) : فيلزم من مشاركة الجوهر والعرض فى الحصول فى الجهة تماثلهما..

قلنا: لسنا نسلم أن حصول الجوهر فى للجهة كحصول العرض فيها، كيف والمعقول من أحدهما كونه شاغلاً للجهة، ومن الثانى حصوله بحيث الشاغل ؟ فقد اختلف المفهوم، وأما الإمكان فى الحوادث، فلنسنا نسلم أنها مشتركة بل إمكان الجوهر يخالف إمكان العرض، وهكذا يعول فى احتياج الأعراض إلى المحل، فإن حاجه السواد إلى المحل تخالف حاجه البياض إليه، وصحة رؤية السواد تخالف صحة رؤية البياض، ولونية السواد تخالف لونية البياض، وكل ذلك بناءً على نفى الأحوال، وحيوانية الفرس ليست صفة لازمة له، بل المرجع به إلى فناء الحياة فى آخريته، ولا يلزم من الاشتراك فيه الاشتراك فى سائر الأعراض، فإن قالوا: فلم لا تجوزون أن يكون استغناء البارى تعالى عن المحل والجهة مخالف استغناء الهيولى والعقل عن المحل والجهة ؟..

قلنا: لأن الاستغناء عن المحل والجهة قضية سلبية، فلا يجوز وقوع الاختلاف فيها، إذ المعنى بقولنا: إن ذاك يخالف هذا: أن المعقول من أحدهما غير

(١) هذا اعتراض آخر للفلاسفة..

المعقول من الثانى، وهذا لا يصح فى القضايا السلبية بخلاف الإمكان والاحتياج والإيجاب والصحة، فإن كلياتها إثباتية، فلا بد من وقوع الاختلاف فيها، وهذا واضح وبالله التوفيق..

الطريقة الثانية^(١) العالم ممكن، وكل ممكن فله محدث، فالعالم محدث، والذى يدل على أن العالم ممكن وجوه عدة :-

الأول: وهو أنه لو لم يكن ممكناً لذاته لكان واجباً لذاته وحقيقة الأجسام مشتركة بين الموجود، وبين ما أمكن دخوله فى الوجود، إذ الجسم بما هو جسم أعم من الجسم الموجود، ومعلوم أن الأشخاص التى يصح حمل حقيقة الجسم عليها غير متناهية، فيلزم منه وجوب حصول ما لا نهاية له من الأجسام دفعة واحدة، ويلزم عليه وجوب وجود مثل البارى تعالى لوجوب وجوده، وذلك لأن هوية البارى نفس حقيقته^(٢)، ولا يشاركه غيره فى هويته، فلا يشاركه غيره فى حقيقته، فلا يلزم

(١) وتسمى هذه الطريقة بحجة إمكان ما سوى الله تعالى ويوضحها الرازى فى بعض كتبه الكلامية الأخرى بتوضيح حاصله: { أن ما سوى الله تعالى ممكن، وكل ممكن مفتقر إلى المؤثر، والافتقار لا يخرج عن أن يكون حال الحدوث أو حال العدم أو حال البقاء، غير أنه حال البقاء مستحيل إذ الباقى لو استند إلى المؤثر لكان ذلك تحصيلاً للحاصل وإيجاداً للموجود.. وإذا لا يتحقق الافتقار إلا حال الحدوث أو حال العدم، وعلى التقديرين يكون الممكن محدثاً.. فما سوى الله محدث {..

انظر: الخمسين ص ٣٣٧ - ٣٣٨، ونهاية العقول: ٧٠/١ وما بعدها، والأربعين: ص ٣٠ وما بعدها، وغير ذلك والحق أن الرازى مسبوق فى ذلك بقدماء الأشعرية كالباقلاى وأبى المعالى، وقول الرازى: إن الموجود لا يفتقر إلى المؤثر قولٌ تداركه فى كتبه الأخرى وأثبت أن الذات الممكنة حال البقاء تفتقر إلى المبقى بمعنى أنه يدوم ذلك الموجود لدوام ذلك المؤثر الأول... قارن الأربعين: ص ٧٩

(٢) يندرج تحت قول الرازى - رحمه الله تعالى - هوية البارى نفس حقيقته مسألة: حقيقة

وجوب وجود غيره، بخلاف الأجسام فإن حقائقها مشتركة بينها وبين غيرها، فلو
وجب وجود واحد منها لوجب وجود كل ما يقدر مثلاً له.

الثاني: وهو أنه لو وجب اختصاص بعض الأجسام ببعض الأشكال أو
ببعض الأحياز، لكان المقتضى — لذلك^(١) — إما أن يكون هو الجسمية أو أمر زائد
على الجسمية، فإن كان المقتضى هو الجسمية، والأجسام كلها متماثلة^(٢) على ما
سنوضحه إن شاء الله تعالى، لزم أن يكون كل جسم على ذلك بمقدار وفي تلك
الجهة، فتكون جميع الأجسام موجودة في كل واحد من الجهات موصوفة بجميع
الأشكال والأعراض على تضاد ما، وذلك محال، وإن كان المقتضى أمراً وراء
الجسمية، فإما أن يقتضى الجسم تلك الخاصية لذاته، ويعود ما قدمناه، أو لخاصية
أخرى، ولا تنتهي إلى غير نهاية، بل لا بد وأن تنتهي بالآخرة إلى خاصية يقتضيها
الجسم لذاته، ويعود ما قدمناه، فنثبت أن الجسم لا يقتضى لحقيقته شكلاً، ولا جهة،
ولا عرضاً، وثبت أن تقدير الأرض في العلو، والنار في السفلى جائز، وأن زوال
الأفلاك من أحيازها جائز، وأن الخرق والالتئام^(٣) والكون والفساد عليها جائز.

معرفة ذات الله الخاصة، وهو هنا يتابع جمهور المعتزلة والأشاعرة من أن حقيقة الباري تعالى
معلومة لنا علماً يقيناً، ولكنه في أغلب كتبه يرفض هذا الرأي ويأخذ برأى الباقلاني القائل:
بامتناع معرفة الله تعالى، وأن حقيقته غير معلومة للناس الآن، وهو رأي في المطالب العالية
انظر: التفسير الكبير: ١١٣/١، والمباحث المشرقية: ٤٩٥/٢، ونهاية العقول: ٨٠/١،
والمحصل: ص ١٣٦، والأربعين: ص ٢١٩، والمطالب العالية: ١٧٢/١
(١) زيادة يقتضيها السياق..

(٢) اختلف رأي الرازي في مسألة تماثل الأجسام في الجسمية، وهو أمر سنوضحه فيما بعد إن
شاء الله تعالى.

(٣) الخرق والالتئام قد أثبتته الأشاعرة للسماء والأرض ليتحقق قولهم بإثبات المعجزات

الثالث: وهو أنا نبين إن شاء الله تعالى أن للعالم صانعاً واجب الوجود^(١)

ونرى في الأجسام أيضاً كثرة، كالسما والارض والماء والهواء، ونبين إن شاء الله تعالى أنه يستحيل وجود شيئين كل واحد منهما واجب الوجود لذاته، ويلزم منه أن لا يكون العالم واجب الوجود، وإذا ثبت أن العالم ممكن فلابد وأن يكون له مقتضى، والمقتضى إما أن يكون علة^(٢) أو فاعلاً، ومحال أن يكون علة لوجهين:—

الأول: وهو أن العلة لا تفيد حقيقة المعلول وماهيته^(٣) وإنما تفيد وجوده، وليس بأن تفيد الوجود لشخص في نوع بأولى من أن تفيد لما يماثله، وقد بينا أن الأفراد التي يصح حمل الحقيقة عليها غير متناهية، فمتى أفاد الوجود لبعض الأفراد وجب أن يفيد لغيره، ويلزم منه حصول ما لا نهاية له من الموجودات، وذلك محال.

الثاني: وهو أن الحوادث الأرضية المتغيرة لا تخلو: إما أن يستند كل حادث منها إلى آخر لا إلى نهاية وذلك محال، أو تنتهي إلى سبب قديم واجب الوجود، وذلك السبب إن كان علة موجبة استحالة وقوع التغير في العالم المحسوس؛ لاستحالة استناد المحدث إلى علة قديمة، فنثبت أن المقتضى لوجود العالم فاعل

للأنبياء، بينما نفاه الفلاسفة لعدم إثباتهم المعجزات الحسية للأنبياء..

(١) الواجب الوجود هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً، وليس الوجود له من غيره بل من نفس ذاته..

(٢) العلة: هي ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجاً مؤثراً فيه..

(٣) الماهية: ماهية الشيء ما به الشيء هو هو، وقيل منسوبة إلى ما، والأصل: المانية،

والأظهر أنها نسبة إلى: ما هو ؟ فجعلت الكلمتان ككلمة واحدة.. وقارن: نهاية الإقدام: ص ٧

— ٨، وكأنها نص عبارة الرازي..

مختار^(١) والمختار إنما يفعل بواسطة القصد إلى الإيجاد، لأنه إذا لم يقصد إلى الإيجاد، لا يمكنه أن يوجد والقصد إلى إيجاد الشيء لا يصح حالة استمراره، ألا ترى أننا لا نجد في أنفسنا تأتي القصد إلى فعل شيء قد وجد، فإذا القصد إلى الإيجاد إنما يصح حالة حدوث الموجود، أو حالة عدمه، وعلى التقديرين فإنه يلزم منه حدوث الأجسام..

ولما الجواب عن الشبهة الأولى: وهي قولهم: كل محدث فإن عدمه يسبق

وجوده..

قلنا: لا يجوز أن يكون تقدم عدم المحدث على وجوده كتقدم بعض أجزاء الزمان على البعض، وذلك يسمى تقدماً زمانياً^(٢)، وإلا لصار الزمان زمانياً، ولا بالمكان فإن الزمان ليس من الأجرام، ولا بالشرف لأن أجزاء الزمان متشابهة، ولا بالذات؛ إذ لو تقدم جزء من الزمان على سائر أجزائه لذاته وسائر الأجزاء تشاركه في الحقيقة، لزم أن تحصل جميع الأجزاء المفروضة فيه دفعة، فلا يكون في أجزائه تقدم وتأخر ولا نقص، وذلك قلب لحقيقة الزمان، وإذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يكون تقدم عدم المحدث على وجوده يضاهي تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض، وهذا لا محيص عنه ثم نقول: لسنا نطلق القول بأن عدم المحدث يسبق وجوده، لأن السبق والتقدم والتأخر قضايا إثباتية، فكيف نحكم بها على المعدوم؟ إنما الذي يذهب إليه أهل الحق^(٣): أن هذه الحوادث الماضية إذا عدتها فإنك تنتهي إلى حادث لا تجد بعده شيء آخر أصلاً، فإن صح إطلاق لفظ السبق على هذا المعنى فليكن، وإلا فلا مضايقة في العبارات بعد ظهور القصد..

(١) تقدم تعريف الفاعل المختار انظر ص ٣٩..

(٢) التقدم الزماني: هو ما له تقدم بالزمان، كتقدم اليوم على أمس..

(٣) يعني الأشاعرة - رحمهم الله تعالى -..

والجواب عن الشبهة الثانية: هو أنا لا نسلم أن الإمكان من القضايا الإثباتية، فعلى هذا لا يفترق إلى المحل كما أوضحناه، وإن سلمنا ذلك إلا أنه من الجائز أن يكون مضافاً إلى حقائق الأشياء لا إلى موضوع آخر، وكيف ولو وجد إمكان وجوده في غيره لما كان ذلك الإمكان إمكاناً له بل إمكاناً لغيره؟ وأيضا فلو افتقر إمكان الأشياء إلى موضوع لافتقر إمكان العقول المفارقة^(١) إلى هيولى، ويلزم أن تكون العقول جواهر مادية، وذلك عندهم محال^(٢)..

والجواب عن الشبهة الثالثة: أن سبب حدوث العالم حينما حدث ليس إلا إرادة الله القديمة المتعلقة بحدوثه حينما حدث^(٣)، فإن قالوا: ولما أراد إحداثه في ذلك الوقت، ولم يرد إحداثه إما قبله أو بعده؟

قلنا: لو عللنا إرادته لحدوث العالم في الوقت المعين، لكان السؤال باقياً لو أراد إحداثه في وقت آخر، ويؤدي ذلك إلى طلب العلة^(٤) لكون الإرادة مخصصة ومرجحة، وهذه هي حقيقة الإرادة كما أن كون العلم من شأنه أن يعلم به العلوم وحقيقتها، وخاصة وتعليل الحقائق مستحق لجوبها فبطل ما ذكرناه^(٥)..

(١) العقول المفارقة: هي عقول مجردة عن المادة أثبتها الحكماء، وهي قديمة، وزعموا أنها تدبر السماوات، بل قالوا: إن العقل الفعّال الذي هو عقل فلك القمر يدبر ما تحت السماوات !!!..
(٢) واضح جداً تأثر الإمام الرازي بحجة الإسلام الغزالي في رده على الفلاسفة، قارن تهافت الفلاسفة: ص ١١٨ وما بعدها، وانظر أيضاً: المحصل: ص ٨٤ وما بعدها..

(٣) قارن تهافت الفلاسفة: ص ١١٩ وما بعدها..

(٤) تقدم تعريف العلة انظر ص ٤٤..

(٥) هذه هي أدلة الرازي - رحمه الله تعالى - على حدوث العالم، وذلك ليتوصل بها إلى إثبات وجود الله تعالى، وكونه صانعاً له، كما توصل الرازي إلى استحالة القول بقدم العالم.. ولكن المتأمل لكتب الرازي، يجد أن أبا عبد الله قد زاد على هذه الحجج، ونوع في الأدلة، وهو ما سنحاول إيجازه فيما يلي :-

يقول الرازي: إن الطريق إلى إثبات الصانع تعالى ليس إلا احتياج أجسام هذه الموجودات المحسوسة إلى موجود آخر غير محسوس، ومنشأ تلك الحاجة على قول بعضهم: الإمكان، وعلى قول آخرين هو الحدوث، وعلى قول ثالث: هو مجموع الإمكان والحدوث ثم هذه الأمور الثلاثة إما أن تعتبر في الذوات أو في الصفات أو في مجموعهما، فالمجموع طرق ستة وهي: إمكان الذوات، وإمكان الصفات، وحدوث الذوات، وحدوث الصفات، والمجموع من إمكان الذوات وحدوثها، والمجموع من إمكان الصفات وحدوثها. انظر الأربعين ص ٧٠ ، والتفسير : ٢ / ١١٣ / ١١٤ وغيرهما..

وفى نهاية العقول أضاف الرازي طريقة أخرى سماها: طريقة الإحكام والإتقان مع إرجاعها إلى الطرق الأخرى انظر: نهاية العقول ٨٥/١ - ب..

فالأول: وهو إمكان الذوات يعرف أيضاً بدليل الوجود الذي هو عمدة الفلاسفة حيث يقول ابن سينا: { تأمل كيف لم يحتج ببياتنا لثبوت الأول ووجدانيته، وبراءة من الصفات إلى تأمل لغير نفس الوجود، ولم يحتج إلى اعتبار آخره من خلقه وقطعه }

ولقد اعترض الرازي على هذا الدليل بقوله: إن هذا الادعاء باطل لأنه لا يمكننا أن نسير في هذا الدليل دون اعتبار الموجودات الحادثة انظر: المطالب العالية ١٠/١ - ١١

والثاني: وهو إمكان الصفات، ويعرف أيضاً بدليل الواجب والممكن، إذ كل صفة اتصف بها جسم أمكن اتصاف سائر الأجسام بها { انظر: الأربعين: ص ٨٥..

ولكن هذا الدليل قائم على مبدأ تماثل الأجسام في الجسمية، وهو أمر نقده الرازي في بعض كتبه خاصة الفلسفية منها انظر: المباحث المشرقية: ٤٧/٢ - ٤٨، وشرح الإشارات: ٢١/١، وشرح عيون الحكمة: ص ١٥٨ - ب

والثالث: وهو حدوث الذوات، ويسمى بدليل الجوهر الفرد، وهو مضمن في دليل الواجب والممكن، ذلك لأن مبناه على أن العالم مؤلف من الجواهر والأعراض، والجواهر لا تنفك عن الأعراض ، والأعراض حادثة ، فهكذا الجواهر انظر: الأربعين: ص ٣ وما بعدها، والملخص: ص ١٧٣ - ب، والمعاليم: ص ٢٢ وما بعدها.

والرابع: وهو حدوث الصفات، وسوف نتحدث عنه بعد قليل..

ولكن الرازي في بعض كتبه نجده يعرض عن الأدلة العقلية، ويقتنع بمسلك الصوفية القائم

على الكشف والذوق {إذ أن مقام التوحيد يضيق النطق عنه، لأنك إذا أخبرت عن الحق فهناك مخبر عنه، ومخبر به ومجموعهما، فهو ثلاثة لا واحد، فالعقل يعرفه والنطق لا يصل إليه } انظر: لوامع البينات ص ٢٣٣ ، وفي التفسير الكبير نجد الرازى يميل فى بعض المواضع إلى مسلك الصوفية، بل ويفضله على أدلة المتكلمين أو على الأقل يجعل دليل المتكلمين خطوة أولى لابد وأن نتجاوزها إلى مرحلة التصوف ذلك لأن كمال الدرجة هو أن ينتقل الانسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر، إلى علوم الباطن المتأسسة على الإشراف على حقائق الأمور.. انظر التفسير الكبير: ١٦٠/٢١.

ويصف الرازى هذا الطريق فى المطالب العالية بأنه: { طريق عجيب لذيذ قوى ماهر } ولكنه لم يفضله على طريق الاستدلال العقلى - وهو الحق - بل لابد من الجمع بينهما.. انظر: المطالب العالية: ١٢/١ - ١٣.

بقيت نقطة أخيرة وهى أن الرازى فى المطالب العالية عند بحثه فى الأدلة على وجود الله تعالى ذكر أن للإلهيات طريقين: طريق النظر والاستدلال، وطريق الرياضة والمجاهدة، وفضل أن نفرق بينهما، ثم عاد إلى طرق الاستدلال فشرحها حتى إذا وصل إلى الطريق الرابع وهو: حدوث الصفات قال: ونختم هذه الفصول بخاتمة عظيمة النفع وهى أن الدلائل التى ذكرها الحكماء والمتكلمون وإن كانت كاملة قوية، إلا هذه الطريقة المذكورة فى القرآن عندى أنها أقرب إلى الحق والصواب، وذلك لأن تلك الدلائل دقيقة ولسبب ما فيها من الدقة افتتحت أبواب الشبهات وكثرت السؤالات.. وأما الطريق الوارد فى القرآن فحاصله راجع إلى طريق واحد، وهو المنع من التعمق والاحتراز عن فتح باب القيل والقال، وحمل الفهم والعقل على الاستكثار من دلائل العالم الأعلى والأسفل، ومن ترك التعصب وجرب مثل تجربتى علم أن الحق ما ذكرته { انظر المطالب العالية: ١٩/١..

ويوجز الرازى أن طريقة القرآن تتميز بأنها: أدلة محسوسة لا تحتاج إلى تجريدات عقلية، وهى كثيرة متعاضدة، والكثرة والتوالى يفيدان القوة، والإنسان لا ينقل فى شىء من أحواله عن مشاهدة شىء منها، إما فى نفسه أو فيما حوله فى أنحاء السماوات والأرض.. انظر: التفسير: ١١٣/٢ - ١١٤، والمطالب العالية: ٨٢/١ - ٨٣.

هذا هو موقف الرازى من الأدلة على إثبات وجود الله ﷻ ، ولكن فى مسألة قدم العالم

وحدوثه نجده في أغلب كتبه يرتضى مذهب الحدوث، بل ويستعمل نفس الحجج التي استعملها المتكلمون.. انظر: الخمسين: ص ٣٣٢ - ٣٤٠، نهاية العقول: ٣٣/٢ - ٨٥، الملخص: ص ١٧٣ - ١٧٤، والأربعين ص ٣ و ٥٤٣، والمحصل: ص ٨٦ - ٨٧، والمعالم: ص ٢١ - ٢٦.

ولكن في المطالب العالية نجد الرازي يتخذ موقفاً جديداً وبيانه كما يلي:-

تعرض الرازي أولاً لبيان أقوال القدماء والمتأخرين في قدم العالم وحدوثه، وعرض لراى جالينوس وهو: التوقف وعلق الرازي على قوله بقوله: { هذا من أول الدلائل على أن الرجل كان منصفاً طالباً الحق، فإن الكلام في هذه المسألة قد بلغ من العسر والصعوبة إلى حيث تضمحل أكثر العقول فيه }..

ثم قال: { اعلم أن الكتب الإلهية ليس فيها تصريح بإثبات أن العالم محدث بمادته وصورته معاً } ، وإثبات ذلك بدأ بتحليل الألفاظ الواردة في القرآن الكريم والتي تتعلق بالمسألة مثل:- رب العالمين - الخلق - الفاطر - الغنى - الأول - كن فيكون..

وينتهي من كل ذلك إلى القول: { فثبت بما ذكرنا أن أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم سكتوا عن الخوض في هذه المسألة، وذلك يدل على أنها بلغت في الصعوبة إلى حيث تعجز العقول البشرية عن الوصول إليها } ومن ثم يتوقف الرازي في البت في هذه المعضلة الكبرى، وذلك لأن القرآن الكريم، بل وغيره من الكتب السماوية قد صاغت قصة الخلق بعبارات قد تحتل القدم وقد تحتل الحدوث..

ومن العجيب أن الرازي في نفس الكتاب وفي باب النبوة يقول: إن من مهمة كل نبي { أن يرشدهم إلى أن العالم محدث }..

والحق أن الرازي مع المتكلمين في القول بحدوث العالم، وأن الله ﷻ قد خلق العالم من العدم لا من المادة القديمة، لأنه في التفسير - وقد ألفه على فترات متباعدة - فسر الكلمات السابقة بما يوافق مذهب الأشاعرة - رحمهم الله تعالى.. أو لعله - رحمه الله تعالى - في تلك الفترة من حياته، ونظراً لتعقيدات المسألة وصعوبتها، لم يكن قد بان له الحق فأثر التوقف، وإن كان هذا يخالف ما ذهب إليه في كل كتبه الأخرى من أن العالم حادث وأن الله ﷻ قد خلقه من العدم المحض، وهو الحق الذي لا خلاف عليه، أضف إلى ذلك أن أحداً من متأخري

الأشاعرة – خاصة الإيجي والتفتازاني – لم يشر إلى أن للرازي في مسألة قدم العالم وحدوثه
اختلاف رأي.. والله أعلى وأعلم..

الفصل الثانى

فى الرد على القائلين بأن المعدوم شىء^(١)

(١) تتصل هذه المسألة اتصالاً وثيقاً بالقول بقدوم العالم وحدوثه، خاصة وأن جمهور المعتزلة قائلون بأن { الذوات ثابتة فى العدم على حقائقها، وكل جنس من أجناس الموجودات فإن أعداداً لا نهاية لها منه ثابتة فى العدم }..

وقد تقدم أن بعض الأشاعرة قد رمى المعتزلة بالقول بقدوم العالم بناءً على رأيهم بأن المعدوم شىء ، وكونه ذاتاً وحقيقة فى العدم إذ { المعدومات الممكنة قبل دخولها فى الوجود ذوات وأعيان وحقائق، وأن تأثير الفاعل ليس فى جعلها ذوات، بل فى جعل تلك الذوات موجودة، واتفقوا على أن تلك الذوات متباينة بأشخاصها، واتفقوا — أى أكثر المعتزلة — على أن الثابت من كل نوع من تلك المعدومات عدد غير متناه { واحتج جمهور المعتزلة على قولهم ذلك بما يلى:—

١ — المعدوم متميز، وكل متميز ثابت، فالمعدوم ثابت..

فالمعدوم متميز لأنه معلوم، وكل معلوم متميز، وبعض المعدومات مراد متميز عن غير المراد، ولا يعقل التميز بدون الثبوت؛ لامتناع الإشارة إلى النفى الصرف..

٢ — المعدوم ممكن، وهذا الإمكان ثبوتى، فثبت أن المعدوم ثابت وموجود..

ومهما يكن فالمعتزلة بريئون من القول بقدوم العالم بالرغم من قولهم بشيئية المعدوم؛ لأنهم يقولون: إن أخص وصف لله تعالى هو القدم، والجدير بالذكر أن نقول: إن الكعبى، وأبا الحسين البصرى قد رفضا القول بشيئية المعدوم، وكذا التفرقة بين الماهية والوجود..

لمزيد من التفاصيل انظر:—

المحصل للرازى: ص ٥٦ — ٥٧ — ٥٨ — ٥٩ وما بعدها، تقريب المرام شرح تهذيب

الكلام: ص ٥١ — ٥٢ — ٥٣، شرح المقاصد للعلامة السعد التفتازانى: ١/ ١٩٦ — ١٩٧ —

اتفق أهل الحق على أن المعدوم ليس بشيء، ولا عين ولا ذات، وإنما هو نفى محض، ووافقنا في ذلك أبو الهذيل^(١) وأبو القاسم^(٢)،

وأبو الحسين^(٣)، وذهب جمهور المعتزلة^(٤) إلى أن الذوات ثابتة في العدم على حقائقها، وكل جنس من أجناس الموجودات، فإن أعداداً لا نهاية لها منه ثابتة

..١٩٨

(١) هو أبو الهذيل العلاف، رئيس الفرقة الهذلية، وهو من أكابر المعتزلة، ورئيسهم، وقد صنف بعض المعتزلة كتاباً في تكفيره لما ذهب إليه من الآراء الضالة توفي عام ٢٢٧هـ أو ٢٣٥هـ..

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي الخراساني، أبو القاسم، ولد في بلخ سنة ٢٧٣ هـ، وتوفي فيها سنة ٣١٩هـ، من أئمة الاعتزال، وشيخ الفرقة الكعبية، له من المؤلفات: أدب الجدل - أوائل الأدلة - تجريد الجدل - تفسير القرآن - عيون المسائل - كتاب الأسماء والأحكام - المقالات، وغير ذلك.. انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي: ٦٥/٤، تاريخ بغداد: ٣٨٤/٩، هدية العارفين: ١/٤٤٤..

(٣) هو محمد بن علي البصري أبو الحسين الطيب المعتزلي، يقول عنه الرازي: إنه المقدم فيهم، ولد ببغداد وتوفي بها عام ٤٣٦هـ، من مؤلفاته: المعتمد في أصول الفقه - تصفح الأدلة في أصول الدين - شرح الأصول الخمسة وغير ذلك.. انظر ترجمته في: كشف الظنون: ٩٦/٦، وفيات الأعيان لابن خلكان: ١/٤٨٢..

(٤) قال الرازي في المحصل: { زعم أبو يعقوب الشحام، وأبو علي الجبائي، وابنه أبو هاشم، وأبو الحسين الخياط، وأبو عبد الله البصري، وأبو إسحاق بن عياش، والقاضي عبد الجبار بن أحمد وتلامذته، أن المعدومات الممكنة قبل دخولها في الوجود ذوات وأعيان وحقائق، وأن تأثير الفاعل ليس في جعلها ذوات، بل في جعل تلك الذوات موجودة، واتفقوا على أن تلك الذوات متباينة بأشخاصها، واتفقوا على أن الثابت من كل نوع من تلك المعدومات عدد غير متناه } انظر: المحصل: ص ٥٩ وما بعدها..

فى العدم^(١) ..

فلنفرض الكلام فى السواد^(٢) ونقول: لو كان السواد ثابتاً فى العدم لكان إما أن يكون شيئاً واحداً أو أعداداً متكررة، فإن كان شيئاً واحداً فلا يخلو إما أن يصح ارتفاع الوحدة عنه أو لا يصح، فإن لم يصح ارتفاع الوحدة عنه لم يتكرر عند الوجود، فلم تكن الأجسام الموجودة متكررة، هذا خلف، وإن صح ارتفاع الوحدة عنه صح وقوع الكثرة فيه، إذ الشيء مهما لم يكن واحداً فلابد وأن يكون كثيراً، لكنه مستحيل وقوع الكثرة فيها من وجوه ثلاثة:—

الأول: أن الكثرة فى الشيء إنما تقع بتخصيص البعض بألا يوجد فى الآخر، ألا ترى أن لقولك: هذا السواد مفهوم ما زائد على قولك: سواد، فلو لا أنه دخل فى مفهوم قولك هذا السواد مالم يدخل فى مفهوم قولك: سواد، لما اختلفا فى المفهوم، وإذا ثبت ذلك، فالصفة التى اختص بها البعض دون البعض إن كانت ذاتية، فيكون مالم يختص بتلك الصفة مخالفاً لما اختص بها فى الحقيقة، وقد فرضناهما مشتركين فى الحقيقة، هذا محال، وإن لم تكن ذاتية كانت فى عوارض الماهية ولواحقها، واللاحق إنما يلحق فرداً من أفراد النوع لتعيين ذلك الفرد، إذ لو لم يكن متعيناً، لاستحال أن يعرض العارض له دون ما يماثله، فإذا تكرر النوع يسبق على صحة اختصاص بعض منه بلاحق دون ما يساويه، وقد فرضنا أن لحوق هذه العوارض لحقيقتها سبب لتكررها، فيكون الشيء سبباً لما هو سبب له، هذا محال^(٣) ..

(١) قارن المحصل: ص ٥٥ ..

(٢) قارن المحصل: نفس الصفحة وما بعدها ..

(٣) قارن المحصل: ص ٥٦ ..

الثانى: وهو أن المعقول من الأمور التى توجب امتياز الأمثال عن بعضها البعض اختصاص البعض بجهة أو بمحل أو بزمان دون الآخر، وليس شىء من هذه الأمور ثابت للجواهر أزلاً، إذ هى غير متحيزة حتى تتباين بالجهة، ولا محدثة حتى تتباين بالزمان، ولا حالة حتى تتباين بالمحل، وإذا لم يوجد شىء من هذه الأمور، ولا شىء آخر يعقل امتياز الأشياء بعضها عن البعض لأجله، فوجب أن لا يكون بينها تباين أصلاً^(١)..

الثالث: وهو أن الأعداد الثابتة فى العدم لا يجوز أن تكون متناهية، إذ ليس بعض بالثبوت أولى من البعض، فهى إذن غير متناهية، فإذا أوجد الله تعالى منها ذوات، كان الثابت فى العدم بعد ذلك أقل مما كان قبله، وقد بينا أن ما دخله الزيادة والنقصان فهو متناه، فثبت أن الجواهر لو كانت ثابتة فى العدم، لكانت لا متحدة ولا متعددة، وهذا محال فإذن هى غير ثابتة، وبالله التوفيق^(٢)..

(١) انظر المحصل: ص ٥٦..

(٢) لم يفصل الرازى — رحمه الله تعالى — حجج المعتزلة كما فعله فى كتبه الأخرى، كذلك لم يسهب فى الرد عليهم كما فعل فى كتبه الأخرى، خاصة وأن الإشارة — موضوع التحقيق — من أول مؤلفاته..

ولمزيد من التفاصيل: انظر: المحصل: ص ٥٥ — ٥٨، والمعالم فى أصول الدين: ص ٢٤ — ٢٥، وشرح المقاصد: ١/ ١٩٦ — ١٩٨، وواضح جداً تأثر العلامة السعد بالإمام الرازى — رحمه الله تعالى —..

الباب الثانى

فى إثبات الصانع

وما يجب له من الصفات النفسية

الفصل الأول

فى إثبات صفة الوجود^(١)

قد بينا أن العالم ممكن، وكل ممكن فلا بد له من مقتض^(١) فإما أن تنتهى

(١) ذهب الشيخ الأشعري - رحمه الله تعالى - إلى أن الوجود هو نفس الذات، فهو لا يزيد شيئاً أو وصفاً على الذات المتحققة فى الأعيان، كما أنكر الأشعري الوجود الذهني، وعليه فالوجود عنده ليس إلا مشتركاً لفظياً أى أنه مجرد اسم.. وفى مسألة الوجود والماهية توجد ثلاثة مذاهب:-

الأول: الوجود هو نفس الماهية فى الواجب والممكن، ولكن الوجود وإن كان نفس ماهية الشيء إلا أنه فى الواجب غيره فى الممكن، إذ ليس الوجود إلا من قبيل الألفاظ المشتركة. وهذا هو اختيار الشيخ الأشعري، وأبى الحسين البصري من المعتزلة..

الثانى: وجود الله تعالى نفس ماهيته، ووجود الممكنات مغاير لماهياتها وهذا هو رأى الفارابى وابن سينا..

الثالث: الوجود له معنى واحد فى الواجب والممكن، وهو أيضا زائد عليهما وهذا هو مذهب أبى هاشم الجبائى وأصحابه.. لمزيد من التفاصيل انظر: شرح المواقف: ١٥١/٢ - ١٥٥، شرح المقاصد: ٦٥/١ وغيرهما..

ولقد نسب صاحب المواقف إلى الشيخ الأشعري هذا المذهب، مع أن كتابات الشيخ تخلو من الحديث عن ذلك، وتأسى صاحب المواقف فى ذلك بالإمام الرازى الذى ذكر ذلك فى نهاية العقول: ٩٨/١، ولعل الرازى استنتج ذلك، أو نقل هذا الرأى عن كتابات للشيخ لم تصل إلينا، ونفس الأمر مع أبى الحسين البصري..

وانظر كذلك: عيون المسائل للفارابى: ص ٤٩، والإشارات لابن سينا: ٤٤٣/٢ و ٤٧٢ وغير ذلك..

الممكنات إلى مقتض واجب الوجود بذاته ، وذلك هو الصانع المعبود تعالى وتقدس ، أو لا تنتهي إلى سبب واجب الوجود بذاته ، بل يفتر كل مقتض إلى آخر لا إلى نهاية ، وذلك محال لأن هذه المقتضيات الممكنة الغير المتناهية لابد من افتقارها بجملتها إلى مقتض آخر لإمكانها ، ولا يجوز أن يكون ذلك المقتضى واحداً من تلك الجملة ؛ لأن الجملة لو عللت ببعض آحادها ، لزم تعليل ذلك الواحد بنفسه وهو محال ، فإن الجملة تفتر إلى مقتض من خارج عنها ، ولا يجوز أن يكون هو أيضاً ممكناً ؛ لأننا قد حصرنا جميع المقتضيات الممكنة في الجملة الأولى ، فما يقع خارجاً عنها لابد وأن لا يكون ممكناً ، فهو إذن واجب^(٢) فنثبت استناد الممكنات بأسرها إلى موجود واجب الوجود بذاته ، وكل ما وجب وجوده بذاته كانت حقيقته غير قابلة للعدم ، وكل ما كان كذلك فوجوده مستمر أزلاً وأبداً .

ونقول : إنه لا يجوز أن يكون وجود البارى تعالى غير حقيقته^(٣) ، وإلا لكان

(١) انظر : ص ٤٢ وما بعدها ..

(٢) هذا هو دليل صاحب التلويحات لإثبات وجود الله تعالى — وصاحب التلويحات هو السهروردي المقتول شيخ الفلسفة الإشراقية المتوفى سنة ٥٨٧هـ وقد أخذه الرازي — رحمه الله تعالى — عنه لإثبات أن الله ﷻ موجود وواجب الوجود لذاته ، وهو دليل جيد ..

لمزيد من التفاصيل انظر : شرح المواقف : ١١/٨ ، وشرح المقاصد : ٧/٣ وما بعدها .

(٣) اعتنق الرازي — رحمه الله تعالى — هنا مذهب الشيخ الأشعري المنسوب إليه من أن وجود البارى تعالى هو نفس حقيقته ، ولكنه سيعود بعد قليل في مسألة الرؤية ليتوقف في تلك المسألة الشائكة ، والتي تؤكد مدى ضعف العقل الإنساني ، وعدم تمكنه من البت الحاسم في مسائل الذات الإلهية ، لذا فهو يقول في أقسام اللذات كما ينقل ابن تيمية في الموافقة : ٩١/١ { إن العلم بالذات عليه عقدة وهي : هل الوجود هو الماهية ، أو زائد على الماهية ؟ .. ثم قال : من الذى وصل إلى هذا الباب ، أو ذاق من هذا الشراب } ..

ولكن الرازي بعد ذلك اعتنق رأى أبى هاشم الجبائى في تلك المسألة — أعنى أن

يُقَوِّمه ثانٍ يعرض لتلك الحقيقة، وكل ما قوامه بغيره فهو ممكن لذاته، فوجود البارئ تعالى إذاً ممكن لما هو هو ، وكل ممكن فله سبب ، فوجود البارئ تعالى سبب، وسببه هو تلك الحقيقة، وهذا محال فإذاً وجود البارئ وحقيقته واحدة، إذ قد بينا انتهاء جميع الممكنات إليه، لكن الشيء ما لم يوجد لم يوجب، فيكون وجود الحقيقة سابقاً على إيجابه لوجود نفسه، فيكون وجوده قبل وجوده، وحقيقته مباينة لحقيقة الممكنات إذ لو شاركها لكانت ممكنة وكذلك وجوده مباين لوجود الخلق من جميع الوجوه، وإذا قيل البارئ يشارك الممكنات في الوجود، فاعلم أنه لا مشاركة إلا في الاسم..

الوجود له معنى واحد في الواجب والممكن وهو زائد عليهما — بل ونراه يبطل قول الشيخ الأشعري القائل بأن الوجود من قبيل المشترك اللفظي.. انظر: نهاية العقول: ٩٨/١ وما بعدها. وفي المحصل عاد الرازي لنصرة رأى الشيخ الأشعري بقوله: { إن الوجود ليس وصفاً مشتركاً بين الموجودات } انظر: المحصل: ص ٤٣، و ١١١.. وأخيراً وفي أواخر كتبه عاد الرازي إلى رأى أبى هاشم الجبائي وأتباعه.. قال في المعالم: { مسمى الوجود مفهوم مشترك فيه بين كل الموجودات } وأن { الوجود زائد على الماهيات } وقال في المطالب العالية: { إن الوجود صفة لله تعالى زائدة على ماهيته } مشيراً إلى أنه بدّل رأيه في تلك المسألة..

انظر: المعالم: ص ١١/١٠، والمطالب العالية: ١١٠/١..
والحق أن الرازي قد مال إلى التوقف في تلك المسألة خاصة في أخريات حياته، ولجأ إلى طريقة القرآن التي تقوم على التسليم، وعدم الخوض في تلك المسائل العويصة، ويتضح ذلك جلياً في كتابه: أقسام الذات، ووصيته..

وهذا هو مذهب شيخنا أبي الحسن تفريراً على نفى الأحوال^(١) ، ويتفرع على أنه موجود صحة كونه تعالى مرئياً..

(١) الحال فى اصطلاح المتكلمين يطلق على ما هو صفة لموجود لا موجودة ولا معدومة، فقيد الصفة يخرج الذوات فإنها أمور قائمة بنفسها، فهى إما موجودة أو معدومة، ولا تكون بواسطة بينهما، والمراد بالصفة ما يكون قائماً بغيره، بمعنى الاختصاص الناعت، فتدخل الأجناس والفصول فى الأحوال، وكذا الأحوال القائمة بذاته تعالى كالعالمية، والقادرية عند من يثبتها..
والحال أثبتته القاضى الباقلانى، وإمام الحرمين أولاً ثم رجع عن القول به من الأشاعرة، وكذا أثبتته أبو هاشم الجبائى من المعتزلة وبه اشتهر فقيل: أحوال أبى هاشم..
لمزيد من التفاصيل انظر: المحصل: ص ٦٠ - ٦٤، شرح المواقف: ٣/٣ - ١٧،
شرح المقاصد ٢٠٠/١ - ٢٠٧.

الفصل الثانى

فى أن الله تعالى يصح أن يرى^(١)

مذهب أهل الحق أن الله تعالى يصح أن يرى خلافاً للفرق الضالة والفلاسفة^(٢) والمعتزلة^(١) والمشبهة^(٢) وتعلقوا فى ذلك بأشياء منها أن قالوا:—

(١) ذهب كل من أثبت الجهة والجسمية لله تعالى وتقدس إلى جواز رؤيته تعالى بالأبصار يوم القيامة، ومن هؤلاء: الكرامية، والمشبهة، وبعض الحنابلة، وأوائل الشيعة، ولا صعوبة فى ذلك لقولهم بالجسمية والجهة فى حقه تعالى..

وذهب الجهمية والمعتزلة إلى إنكار الرؤية؛ لأن الله تعالى عندهم ليس بجسم ولا فى جهة، والرؤية بالبصر لا تكون إلا للجسم، وفى مقابلة الرائي، وكلها شروط مادية مستحيلة فى حقه تعالى المنزه عن المادة والحس ولوازمهما.. وتابعهم فى ذلك الخوارج ومتأخرو الشيعة. وفلاسفة الإسلام ولكن ورد فى رسالة لابن سينا أنه يصرح بإمكان رؤية الله بالبصر الأخرى، وجواز وقوعها..

وذهب الأشاعرة والماتريدية إلى جواز رؤية الله تعالى بالبصر يوم القيامة، بلا كيف ولا إحاطة، ويأتى ذلك مع الإجماع على نفى الجسمية عن الله تعالى، وكذا نفى الجهة والمكانية وإن ورد عن الشيخ الأشعرى والباقلانى أنهما أثبتا لله تعالى الجهة والاستواء صفتين قديمتين مع نفى التمكن والاستقرار..

لمزيد من التفاصيل انظر: شرح المقاصد: ١٣٤/٣ وما بعدها، تسع رسائل فى الحكمة والطبيعات: ص ٦٩ — ٧٠ الإبانة للأشعرى: ص ٨، والتمهيد للباقلانى: ص ١٥، والمحصل: ص ١٨٩..

(٢) يقصد بالفلاسفة: الفارابى وابن سينا وقد قالوا باستحالة رؤيته تعالى، لتنزهه عن الجسمية والجهة..

الإنسان إذا كان حياً صحيح الحاسة، وكانت الموانع من الرؤية مثل الحجاب الكثيف، وكون المرئى غير مقابل، أو لطافته، أو صغره، أو القرب والبعد المفرطين، أو كونه فى ظلمة شديدة — وكانت^(٣) — بأسرها مرتفعة، فإنه يجب إدراكها، إذ لو جاز أن لا يدرك مع اجتماع هذه الشرائط لجاز بحضرتنا جبال شامخة، وأصوات هائلة ونحن لا ندركها، وذلك يؤدى إلى الشك فى المحسوسات، وإذا ثبت ذلك فنقول: لو صحت رؤية البارى تعالى لوجب أن نراه مع سلامة حاستنا، وإذا لم نره الآن علمنا أنه تستحيل رؤيته^(٤).

وليس لقائل أن يقول: بأنه امتنعت رؤيته لبعض الموانع المذكورة؛ لأن تلك الموانع إنما تمنع من رؤية الأجسام، والبارى تعالى ليس بجسم، فلا يصح أن تمتنع رؤيته للموانع المذكورة.

ومنها: أنا لو أدركنا البارى لتمثلت صورة ذاته فى الحاسة، وهذا محال

(١) المعتزلة فرقة من كبار الفرق الإسلامية، ويسمون بأهل العدل والتوحيد، وهم ينفون صفات الله ﷻ الزائدة، ويقولون بأن الله ليس خالقاً لأفعال العباد، وأن القرآن محدث ومخلوق، وغير ذلك، وسموا معتزلة لأن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين كانا من تلاميذ الحسن البصرى، ادعى أن الفاسق ليس بمؤمن وليس بكافر، وجلسا فى ناحية خاصة من المسجد، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسموا معتزلة انظر: كشف اصطلاحات الفنون: ص ٤٧٣ وغير ذلك..

(٢) تقدم التعريف بهذه الفرقة، انظر ص ٢٦..

(٣) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق..

(٤) انظر: شرح المقاصد: ١٤٨/٣، ونفس عبارته تقريباً هى عبارة الرازى — رحمهما الله تعالى —.

لاستحالة أن تكون له صورة^(١).

ومنها: أن المرئى يجب أن يكون مقابلاً أو فى حكم المقابل، والبارى ليس بمقابل، ولا فى حكم المقابل، إذ ليس بجسم ولا عرض، فيلزم استحالة رؤيته^(٢).. والمعتمد فى المسألة بناءً على القول بالحال^(٣) أن نفرض الكلام فى السواد ونقول: إذا قدرنا اتصافه به سوى الوجود، فإننا نعلم ضرورة استحالة رؤيته، فإن صحة رؤية السواد موقوفة على وجوده، فإما أن يكون المؤثر فى تلك الصحة هو الوجود فقط، أو أمر آخر، أو غيره، ومحال أن يكون غيره؛ لأنه يلزم منه صحة أن يُرى مع عدم الوجود عند حضور ذلك الغير، وذلك مما يبين استحالاته، ومحال أن يكون معللاً إما بالوجود مع غيره؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون أحدهما مستقلاً بالإيجاب، فلنستغنى عن الحكم به عن غيره، أو لا شىء منها مستقلاً بالتأثير، فعند اجتماعهما إما أن يبقى على ما كانا عليه قبل الاجتماع، فلا يكون المجموع مؤثراً، أو يصير كل واحد منهما مؤثراً بالآخر فرجع ما قدمناه من استغناء الحكم عن كل واحد منهما بالآخر حالة تعليله به، أو يؤثران معاً فى كيفية تلك الكيفية، فتؤثر فى الحكم، فيكون الكلام فى استحالة تعليل الكيفية الواحدة بهما، كالكلام فى استحالة تأثيرهما فى نفس ذلك الحكم، وهذا برهان قاطع على استحالة تعليل حكم واحد بعلتين، فثبت أن علة صحة الرؤية هى الوجود وحده، والبارى تعالى موجود فيصح أن يرى^(٤).

(١) انظر المحصل: ص ١٨٩..

(٢) انظر: شرح المقاصد: ٣/١٤٦..

(٣) هذا بناءً على إثبات الحال، كما أثبتته القاضى الباقلانى، وإمام الحرمين أولاً من الأشاعرة..

(٤) هذا هو دليل الوجود الذى استخدمه الأشاعرة للدلالة على جواز رؤية البارى تعالى

فإن قيل: هذه الحجة مبنية على أن وجود الأشياء غير حقائقها فبينوا ذلك.

قلنا: الدليل عليه وهو أنه يصح تقسيم الموجود من حيث المعنى إلى الواجب والممكن^(١)، فيقال: الموجود إما أن يكون واجباً أو ممكناً، ولولا اشتراك الواجب والممكن في معنى الوجود، وإلا لاستحالت هذه القسمة، وليس لأحد أن يقول: القسمة وردت على لفظ الوجود لا على معناه، فإننا نعلم أنه إذا طويت العبارات، وارتفعت الإشارات كان العقل الصريح يقتضى صحة هذا التقسيم، فبطل ما قالوه، ونحن قد دللنا في الفصل السابق على أن وجود البارئ تعالى نفس حقيقته^(٢)، وما ذكرناه الآن يقتضى أن يكون وجوده زائداً على حقيقته، ونحن

وحاصله: { أنا نرى الجواهر والأعراض بحكم الضرورة كالأجسام والأضواء، والألوان والأكوان، ولا بد لذلك من علة، لامتناع الترجيح بلا مرجح، وكذلك فلا بد من وجود علة مشتركة بين الجوهر والعرض، وهى إما الوجود وإما الحدوث، والحدوث لا يصلح لأنه عدمى، وهو لا يصح، فتعين الوجود } انظر: شرح المقاصد: ١٤٠/٣.. والجدير بالذكر أن الرازى له موقف من الدليل العقلى على جواز رؤية مولانا - تعالى وتقدس -، فهو تارة يؤيده كما هاهنا، وتارة يرفضه رفضاً مطلقاً، بل ويخترع من الأدلة والاعتراضات ما يهدم هذا الدليل من أصله، إذ لا دليل على أنه لا مشترك إلا الوجود والحدوث، وأن ذلك من المقدمات المشككة فى هذا الدليل ويعترف بأن الأدلة العقلية ليست قوية فى هذه المسألة، وأنه غير قادر على الإجابة عنها، فمن أجاب عنها أمكنه أن يتمسك بهذا الدليل، وتارة نراه يتوقف عن الأخذ بهذا الدليل.. انظر: نهاية العقول: ١١/٣ - ١٣، الأربعين: ص ١٩٥ - ١٩٧، والمطالب العالية: ١٧٢/١ ولذلك فقد طرح الرازى الأدلة العقلية جانباً لما أحس بصعفها، ولاذ إلى ركن أمين أعنى الأخذ بما ورد فى الكتاب والسنة، والاعتماد على إخبار الأنبياء بحصولها، متأثراً فى ذلك برأى الشيخ أبى منصور الماترىدى..

(١) الممكن هو: ما يقبل الثبوت تارة والانتفاء تارة أخرى..

(٢) انظر: ص ٥٣ وما بعدها..

متوقفون في ذلك إلى أن يكشف الله الغطاء عن وجه الحق^(١).

ولا يلزم على هذا الدليل أن لا ندرك اختلاف المختلفات، فإننا لم نقل أن متعلق الإدراك هو الوجود، وإنما قلنا: إن المصحح لكون الشيء مرئياً هو الوجود، ولا يلزم من ذلك أن يكون متعلق الرؤية هو الوجود، بل الحق أن الوجود يصح إدراك حقائق الأشياء على اختلافها..

فإن قيل: هب أن الوجود يصح رؤية الباري تعالى، لكن ربما يمتنع رؤيته لمانع من خارج، كما أن الحياة شاهداً تصحح الجهل، ثم إنها لا تصححه غائباً لمانع من خارج^(٢)..

قلنا: هذا غير ممكن؛ لأنه يفضي إلى انفكاك العلة عن معلولها، وذلك محال، وأما الحياة القديمة^(٣) فإنها مخالفة للحياة المحدثّة، ولا يلزم من تصحيح الحياة المحدثّة الجهل أن تصححه الحياة القديمة، بخلاف الوجود، فإننا قد بينا أن الوجود قضية لا تختلف شاهداً أو غائباً^(٤)..

واعلم أنه يمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر، وهو أن يقال: صحة الرؤية حكم مختص ببعض المعلومات دون البعض، فوجب اختصاص ما صح رؤيته بأمر لولاه لما كان صحة رؤيته بأولى من صحة رؤية غيره، وذلك الأمر لا

(١) انظر: المسائل الخمسين في أصول الدين: ص ٢٤٧ — ٢٤٨..

(٢) انظر: المحصل ص: ١٩..

(٣) يقصد صفة الحياة الثابتة لمولانا تعالى وتقدس..

(٤) هذا هو قياس الغائب على الشاهد الذي أخذ به الأشاعرة وغيرهم، وهو قياس أصولي معناه: { إعطاء حكم شيء لشيء آخر، لاشتراكهما في علته }، والرازي هنا يأخذ به، ولكنه بعد ذلك يرفضه في وضوح مؤكداً: { أن معرفة الله تعالى وصفاته على خلاف حكم الحس } انظر: أساس التقديس ص ١٤..

يجوز أن يكون أمراً آخر إلا الوجود، لأن الوجود نفس الذات عندنا^(١)، والذي يدل عليه: أنه لو كان حصول الذات غير الذات، لكان حصول ذلك الزائد أيضاً غيره فيؤدى إلى التسلسل، ولأنه لو كان وجود الجوهر غير ذاته لصح أن نعلم أن ذاته موصوفة بالتحيز^(٢)، وحاصلة في الجهة مع الذهول عن كونه موجوداً؛ لأن كل معقولين غير مضادين فإنه يصح العلم بأحدهما مع الذهول عن الثانى، وذلك محال، فثبت بهذا أن الوجود نفس الموجود^(٣)..

والدليل على استحالة التعليل بالحال^(٤) أنه إن كان وحده علة الحكم، لكان انفراد عن ذى الحال، ولما كان تقومه بذى الحال، فينقلب الحال ذاتان، وإن كان الحال يوجب ذلك الحال بمشاركة ذلك الحال، لزم التركيب فى العلة وقد أبطلناه^(٥).

فإن قيل: فيلزمكم تعليل صحة المقدور مقدوراً بالوجود، حتى يكون كل موجود مقدوراً^(٦)..

قلنا: هذا لازم على أصول المعتزلة، فإن عندهم النوات ثابتة فى العدم، والقدرة يستحيل تعلقها إلا بالوجود^(٧) فيلزمهم أن يكون كل موجود مقدور، ثم نقول:

(١) يلاحظ اضطراب الرازى وعدم تمكنه من المسألة، فهو تارة يرى أن وجود البارى تعالى هو نفس حقيقته، وتارة يرى أنه زائد على حقيقته، ولعل المسألة لم تكن قد اختمرت فى ذهنه..

(٢) التحيز هو: كون الشيء يشغل حيزاً من الفراغ..

(٣) قارن المحصل: ص ١٥٤..

(٤) انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٨٠ وما بعدها..

(٥) انظر: المحصل: ص ١٤٧..

(٦) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٢٣٢ وما بعدها..

(٧) لا تتعلق القدرة إلا بالممكن، ولا تتعلق بالواجب والمستحيل، وسوف نتحدث عن ذلك قريباً

إن كل موجود فإنه بالنظر إلى وجوده صحَّ أن يكون مقدوراً، إلا أنه يمتنع تعلق القدرة ببعضها لأمر يرجع إلى القدرة، وهو أن القدرة إما أن تؤثر بذاتها، أو تلازم المؤثر، ومستحيل إيجاد الموجود ثانياً، بخلاف الرؤية، فإنها لا تقتضى حدوث المرئى، بدليل صحة تعلقها بالشئ حالة بقاءه، فظهر الفرق، هذا غاية ما يمكن تقرير هذه الأدلة بناءً على القول بالحال.

وأما المعتمد على القول بنفى الأحوال: فهو آيات من كتاب الله تعالى، فمن قَواها قوله سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣).

وجه الاستدلال به: أن الله تعالى أثنى على نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لأن ابتداء الآية وانتهائها مشتمل على المدح، فلا يجوز أن يقع فى خلالها ما ليس بمدح؛ لأنه يكون فى غاية الركاکة، وذلك لا يليق بكلام أدنى عاقل، فضلاً عن كلام الله تعالى^(١)، وإذا ثبت ذلك فنقول: إنما يصح التمدح بنفى شئ إذا كان ذلك الشئ يصح ثبوته له إما باعتبار خصوصية، أو باعتبار وصف يشاركه فيه من صح اتصافه بذلك الوصف وذلك من وجهين :-

إن شاء الله تعالى.

(١) استدلال المعتزلة بهذه الآية على استحالة رؤيته تعالى حيث جعلوا الرؤية مرادفة للإدراك، والحق أن الإدراك غير البصر لأن الأول معناه: رؤية الشئ من جميع جوانبه والإحاطة به، وهذا لا يكون إلا للجسم، والبارى تعالى وتقدس ليس بجسم، والإمام الرازى قلب عليهم الاستدلال وجعله صالحاً كدليل للأشاعرة..

انظر المحصل: ص ١٩٢..

الأول: تمدح الإنسان بعدم كل ما وجوده نقص له..

الثاني: تمدح الله تعالى بعدم السنّة والنوم^(١)، وبأنه يُطعم ولا يُطعم^(٢)، وبأنه يجير ولا يجار عليه^(٣)، وهذه الصفات وإن كانت مستحيلة عليه إلا أنه كما كانت في سائر الأحياء ممن يصح عليهم النوم، والحاجة إلى الطعام، وقد اختص هو ﷺ باستحالة ذلك عليه، لا جرم صح التمدح، وأما ما لا يصح ثبوته للشيء لا باعتبار خصوصية، ولا باعتبار عمومته، فإنه لا يكون نفيه عنه مدحاً له، كالمعدوم فإنه لما لم يصح عليه النوم لا باعتبار خصوصية، ولا باعتبار أمر يشاركه فيه ممن يصح اتصافه به، لا جرم لا مدح له في أنه لا ينام ولا يطعم^(٤)..

فإن قالوا^(٥): هذا يبطل بالمعدوم، فإنه يشارك الموجود في كونه معلوماً، مع أن ليس نفي النوم عنه مدحاً له، وكذلك الأعراض، فإنها تشارك الجواهر في الوجود مع أنه لا مدح لها في أنها لا تنام..

قلنا: قد بينا أن من شرط التمدح بنفي شيء صحة ثبوت ذلك الشيء له إما باعتبار خصوصية، أو باعتبار عمومته، ومن حكم الشرط^(٦) وجوب وجوده عند وجود المشروط، فأما ثبوت الشروط في جميع المواضع عند ثبوته فكلا، وإذا تقررت هذه

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٣..

(٢) سورة الأنعام: آية ١٤..

(٣) سورة الأنعام: آية ١٤..

(٤) هذا هو تقابل العدم والملكة عند المنطقة..

(٥) يقصد المعتزلة..

(٦) الشرط: هو ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجاً عن ماهيته، ولا يكون مؤثراً في وجوده، وقيل: تعليق شيء بشيء بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني، انظر تعريفات ص ١١٠ -

..١١١

القاعدة فنقول: لما تمدح الله تعالى بأنه لا تتركه الأبصار، وجب أن يصح إدراكه إما مطلقاً من جميع الوجوه، وإما من الوجه الذى باعتباره شارك الموجودات، وذلك هو الوجود، وقد بينا أن وجوده عين ذاته، فإذا صحت رؤيته من حيث وجوده، صحت رؤيته مطلقاً..

فإن قيل : وقد تمدح الله تعالى بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، فيلزم صحة النوم عليه مطلقاً ، أو من الوجه الذى باعتباره شارك حياة المحدثين فى صفة أصلاً فإذا صح عليه النوم من حيث كونه حيا ، صح عليه النوم مطلقاً..

قلنا: غاية ما فى الباب أن الحياة من حيث إنها حياة تصحح النوم مطلقاً، لكنه امتنع لأمر آخر، وهو وجوب عالميته واستحالة التغير عليه، وهذا فى غاية الوضوح..

وإذا ثبت أنه يلزم من مضمون الآية صحة رؤيته، فندعى أنه يلزم منه وجوب أن يرى فى الآخرة إذ القائل قائلان، قائل يقول: لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة مع القول بأنه تستحيل رؤيته، وقائل يقول: تصح رؤية البارئ ومع ذلك يقول بأنه يرى فى الآخرة^(١) فالقول بأنه لا يرى فى الدنيا والآخرة مع القول بصحة رؤيته يكون قولاً ثالثاً، وذلك خرق للإجماع^(٢).

فإن قالوا: فقد نفى نفياً مطلقاً أن لا تتركه الأبصار، فوجب أن لا يدركه بصر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ويلزم منه استحالة رؤيته، لكيلا يلزم خرق الإجماع على ما ذكرتموه..

(١) القائل الأول: هم المعتزلة، والقائل الثانى: هم الأشاعرة ومن وافقهم..

(٢) الإجماع: هو لغة: العزم والإتقان، واصطلاحاً: اتفاق المجتهدين من أمة محمد - ﷺ - فى عصر على أمر دينى..

قلنا: إن قلنا: بأن اللام للاستغراق، فنفيه يكون نفى الاستغراق، ونحن نقول إنه دائماً لا يدرك الباري تعالى جميع الأبصار، بل يدركه البعض وهم المؤمنون في بعض الأوقات، وهو يوم القيامة، وإن كانت للجنس فسلبه سلب الجنس، وهو أن لا يدركه جنس البصر، لكننا نخصصه بما ذكرناه من الدلالة المقتضية منه لئلا تتناقض معاني الآية الواحدة^(١)..

فإن قالوا: إذا تمدح بنفى أن يدركه بصر، وجب أن يكون إثبات ذلك نقصاً، والنقص على الله محال..

قلنا: قد بينا أن التمدح إنما يصح بقدرته على منع الأبصار عن إدراكه مع صحة ذلك، فيكون نفيه نقصاً، وهو عجزه عن ذلك، وهذا واضح..

ومما يقوى التمسك به قوله تعالى خطاباً مع موسى عليه السلام: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ (الأعراف: ١٤٣).. علق الرؤية على شرط ممكن، فوجب أن تكون ممكنة، ومما يدل عليه سؤال موسى عليه السلام ربه الرؤية^(٢) فلولاً أنه جائز وإلا لما سأل، وليس لهم أن يقولوا عن ذلك: سألهم لقومه، وأضافه إلى نفسه^(٣) لاستحالة ذلك، وهو لأنه لو كان ذلك محالاً لما سأل، ألا ترى أنهم لما سألوه: أن يجعل لهم آلهة كآلهة غيرهم لم يسأل ذلك ربه، بل أنكر عليهم غاية الإنكار وقال: إنكم قوم تجهلون، ولأنه أضاف السؤال إلى نفسه، فصرفه إلى غيره إزالة للظاهر بغير دليل.. وقد قال أبو الهذيل.. إنه سأل الله تعالى علماً ضرورياً، وقال بعضهم: علماً

(١) انظر: شرح المقاصد: ١٥٠/٣..

(٢) انظر: المحصل ص ١١٩، وشرح المقاصد: ١٣٥/٣..

(٣) هذا هو تأويل الجاحظ وأتباعه، انظر: شرح المقاصد: ١٣٦/٣ وبه قال: أبو علي وأبو هاشم الجبائي..

ضرورياً يتمكن به من تحصيل جملة المعارف^(١)..

واعلم أن جميع ما ذكره لإزالة للظاهر بمجرد التشهي والتمنى، ولأن موسى كان عارفاً بربه، وطلب علم آخر يكون طلباً للحاصل، وذلك ليس من دأب العقلاء، اللهم إلا أن يقولوا بأن موسى عليه السلام ما كان عارفاً بربه، ولا بالدلائل التي يتمكن بها من معرفته، وحينئذ جعلوا منزلته عليه السلام أدنى من منزلة كثير من العوام^(٢) وفي هذه المسألة كلام كثير لا يحتمل هذا المختصر شرحه، ولنقتصر من الدلائل على هذا القدر، فإن فيه كفاية..

فأما الجواب عما احتجوا به أولاً من قولهم: لو كان الباري تعالى مرئياً لرأيناه^(٣) أن نقول: إنه قد يكون المرئى حاضراً، والحاسة سليمة، والشرائط بأسرها حاصلة، ومع ذلك فلا يدرك، ألا ترى أنا نرى الصخرة العظيمة من بعيد، وليس

(١) حاصل الشبهة كما قالوا: إن موسى عليه السلام لم يطلب الرؤية، بل عبر بها عن لازمها الذي هو العلم الضروري والمعنى: أرني آية من آياتك، والجواب: أن قوله تعالى: { لن تراني } نفى للرؤية لا للعلم الضروري، كذلك فإن النظر الموصول { ببالي } نص في الرؤية انظر: شرح المقاصد: ١٣٥/٣..

(٢) هناك العديد من الأدلة النقلية التي لم يعرض لها الرازي هنا كما فعل في كتبه الأخرى، ولعل له بعض العذر، لأنه حاول الاختصار بقدر الطاقة كما أشار إلى ذلك، ومن تلك الأدلة:—
قوله تعالى: ﴿ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ (القيامة: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين: ١٥) والكلام في شأن الكفار، تدل على أن المؤمنين غير محجوبين، ومنها قوله ﷺ — { إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته } وغير ذلك..

انظر: الأربعين في أصول الدين: ص ١٩٧ وما بعدها، والمحصل: ص ١٩١ وما بعدها، ونهاية العقول: ١١/٢-١٧، وشرح المقاصد ١٤٣/٣ - ١٤٦ وغير ذلك..
(٣) انظر: المحصل ص ١٩٢، والأربعين: ص ٢٠٤..

ذلك إلا لأنه نرى بعض أجزائها دون البعض، مع أن نسبة جميع الأجزاء إلى البصر سواء، فعلمنا أنه قد يجوز أن يكون المدرك حاضراً، والحاسة سليمة، والموانع مرتفعة، مع أنه لا يدرك المرئي، وهذا دليل قاطع على أن المدرك إنما يدرك المحسوسات بإدراك قائم بنفسه، لا لما نكروه من كونه حياً لا آفة له..

فإن قيل: مفاد ما ذكرتموه يفضي إلى تجويز أن يكون بحضرتنا بوقات تضرب، وفيلات ترقص، ونحن لا نحس بها^(١)..

قلنا: قد بينا في مواضع أخرى أن ذلك مما لا يختص به أصحابنا^(٢)، بل هذا لازم لكل فريق من العقلاء، والمعتزلة به أولى، فإن المسلمين قد اتفقوا على أن الله تعالى قادر على أن يقلب مياه الأنهار دماً عبيطاً، والجبال ذهباً إبريزاً والنار برداً وريحاناً، والماء محرقاً مولعاً، ومع ذلك فيمكننا القطع بأنه لم يقع شيء منها^(٣) فكذلك هاهنا..

وأما الجواب عما احتجوا به ثانياً: من أنه لو كان مرئياً لارتسمت صورة ذاته في الحاسة أن نقول: هذه قاعدة فاسدة، والذي يدل عليه وهو: أنا نرى نصف كرة العالم، ويستحيل أن يرتسم شكل العالم مع عظمه في نقطة عين الناظر، ولو كان كذلك لكان يلزم أن لا ندركها بمقدار العين، فإن اعتدروا وقالوا: الأجسام غير متناهية في قبول القسمة، فيحتمل الصغير منها من الأشكال ما يحتمله الكبير، قلنا: نحن سنبين إن شاء الله تعالى أن الأجسام مركبة من أجزاء كل واحد منهما لا

(١) انظر الأربعين: ص ٢٠٣ وما بعدها..

(٢) يقصد بأصحابنا: الأشاعرة..

(٣) هذا مستند إلى فكرة الأشعرى الأصلية وهي: أن الله ﷻ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون..

يتجزأ^(١)، ولأن الأجسام وإن كانت تحتل القسمة لغير نهاية ، لكن الجسم الصغير منها يستحيل أن يرسم شكل نصف العالم فيه، بل لا يقبل من الأشكال إلا بمقدار نفسه، ويلزم ما قدمناه من أنه لا يدرك المدرك إلا مقدار نقطة ناظره وذلك محال^(٢)..

وأما الجواب عما احتجوا به: من أنه لو كان مرئياً لكن مقابلاً أو في حكم المقابل أن نقول: هذا يبطل بالإنسان فإنه يرى وجهه في المرآة، وليس وجهه، قال بعضهم^(٣): إنما يخرج من البصر جسم شعاعى لطيف إلى المرآة، ثم إنه ينعكس عنها لصقالتها إلى الوجه، فلهذا يرى الإنسان وجهه في المرآة، وهذا باطل؛ لأن الشعاع إما أن ينعكس عن الصلب أو عن الأملس، لكن هذا العكس مما قد يروونه يقع عن أملس غير صلب مثل الماء، فبقى أن يكون السبب فيه الملامسة، فإما أن يكفى فيه أى سطح أثق، أو يحتاج إلى سطح متصل الأجزاء، وهذا الثانى يلزم منه أن لا ينعكس عن الماء، لوجود المسام فيه، إذ لو لم يكن فيه مسام لما نفذت فيه الأشعة إلى وراء، فلا يرى ما وراءه، وذلك باطل، فبقى ألا يكون من شرطه اتصال سطح الأملس، فيجب أن يوجد هذا العكس عن جميع الأجسام وإن كانت خشنة؛ لأن سبب الخشونة الزاوية، ولا تذهب الزوايا إلى غير نهاية، بل ينتهى إلى محالٍ إما إلى سطوح صغيرة، أو على أجزاء لا تتجزأ، لا على الاتصال، وعلى التقديرين فيجب انعكاس الشعاع عنه، على أننا نقطع بأننا لو اتخذنا سطحاً من شمع أو غيره، واجتهدنا فى تمليسه، فإننا نعلم أنه لا توجد الزوايا على ظاهر سطحه إلا

(١) سوف نتعرض للبحث فى نظرية الجوهر الفرد لدى الرازى فى آخر الكتاب، وبالتحديد عند

البحث فى مسألة المعاد إن شاء الله تعالى..

(٢) انظر المحصل: ص ١٣٣..

(٣) يقصد بعض المعتزلة..

قليلاً، ومع ذلك لا ينعكس الشعاع عنه، فبطل ما قالوه^(١)..

وبعضهم يرون السبب: ارتسام صورة في العين بسبب الصورة المرتسمة في المرآة عن الوجه، وهذا أيضاً باطل؛ لأنه إذا انطبعت صورة شيء في شيء، فيوجب ضرب من المحاذاة لا تتغير عن موضع إلى آخر بزوال شيء ثالث لا تأثير له فيها، كما أن الحائط إذا اخضر بسبب انعكاس الضوء عن الخضرة إليه، فإن ذلك اللون يلزم موضعاً واحداً بعينه، ولا تختلف على المنتقلين، وإنك تعلم أنك ترى صورة الشجرة في الماء فينتقل مكانها من الماء مع انتقالك، فبطلت هذه المذاهب^(٢) وتبين أنه تصح رؤية ما لا يكون مقابلاً، ولا في حكم المقابل^(٣)..

(١) انظر المحصل: ص ٩٤، وفيه يعرف الرازي الملامسة بأنها: عبارة عن استواء وضع الأجزاء، أما الخشونة فهي عبارة عن كون بعضها أرفع وبعضها أخفض..

(٢) من أنه لا تصح رؤية إلا ما يكون مقابلاً أو في حكم المقابل كما ادعى المعتزلة.. انظر الأربعين ص ٢٠٤..

(٣) أجاب الرازي عن اعتراض المقابلة الذي أورده المعتزلة بجواب آخر حاصله : أن قولهم المرئى يجب أن يكون مقابلاً، أو في حكم المقابل عين المتنازع، أو نقول ثبت أن يكون كذلك في الشاهد، فلم قلت إنه يجب أن يكون كذلك في الغائب، لأنه لا يلزم من وجوب حصول رؤية المخلوقات عند حضور الشرائط، وجوب رؤية الله تعالى عند حضور الشرائط، وهو ضرب من الاستغناء عن قياس الغائب على الشاهد الذي رفضه الرازي رفضاً قاطعاً في معظم كتبه..

انظر المحصل: ص ١٩٣، والأربعين: ص ٢٠٣ - ٢٠٧ وعبارته تكاد تكون قريبة من عبارة الإشارة..

الباب الثالث

فيما يستحيل على الله تعالى

من الصفات النفسية

الفصل الأول

فى أن البارى تعالى ليس بجسم^(١)

(١) كان أشهر من حمل لواء التجسيم فى الفكر الإسلامى: الكرامية، فبعضهم يرى أنه تعالى متصف بصفات الأجسام، وأنه متركب متألف من جوارح وأعضاء، كما يحكى ذلك عن مقاتل بن سليمان ، وينسب إلى هشام ابن الحكم أنه تعالى نور يتلأأ كالسبيكة البيضاء، وأنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وبعضهم قال: إنه تعالى على صورة الإنسان وهينته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وبنوا على ذلك قولهم بالجهة فى حق البارى تعالى.. واحتجوا على ذلك بأدلة عقلية ونقلية:—

أما العقلية: فقولهم: كل موجود إما جسم أو حالاً فى جسم، والثانى ممتنع، لامتناع احتياجه، فوجب أن يكون جسماً، ومثل قولهم: كل موجود إما متحيز أو حال فى المتحيز، والثانى ممتنع، فوجب أن يكون متحيزاً..

ولإثبات قولهم بالجهة قالوا: الواجب إما متصل بالعالم أو منفصل عنه، وكلاهما يعنى أنه فى جهة، وخصوا الجهات بأشرفها وهى: جهة الفوق.. واستدلوا أيضاً بقولهم: الواجب إما داخل العالم فيكون متحيزاً — ويترتب عليه كونه جسماً — أو خارجاً عنه فهو فى جهة، وادعوا فى ذلك الضرورة..

وأما النقلية: فمثل قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢)، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢١٠) ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه: ٥)، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر: ١٠) — وغير ذلك وكقوله ﷺ — للجارية الخرساء: { أين الله } فأشارت إلى السماء، فقال لصاحبها: { أعتقها فإتينا مؤمنة } — رواه مسلم وأبو داود —، وقوله ﷺ — { إن الله خلق آدم على صورته } — رواه البخارى ومسلم وأحمد، وغير ذلك..

وبعضهم أطلق عليه اسم الجسم بمعنى أنه موجود..

وذهب جمهور المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة وماتريدية، وكذا الفلاسفة إلى أنه تعالى ليس بجسم ولا في جهة، أما الأول: فلأن الجسم هو المركب من أجزاء، أو من جواهر فردة، وكل مركب محتاج إلى أجزائه، ولا شيء من المحتاج بواجب، فثبت حدوثه وهو محال..

وأما الثاني: فلو كان الواجب تعالى متحيزاً للزم قدم الحيز، وهو باطل، وكذلك لو كان في مكان لكان محتاجاً إليه ضرورة، والمحتاج إلى غيره ممكن، وهو محال، ولكان المكان مستغنياً عنه لإمكان الخلاء — بناءً على أصولنا — وهو محال أيضاً..

وأيضاً: لو كان الواجب في حيز وجهة، فإما أن يكون في جميع الأحياز والجهات، فيلزم تداخل المتحيزات، ومخالطته تعالى بما لا ينبغي كالفاذورات، وإما أن يكون في البعض دون البعض، فيكون لمخصص فيلزم الاحتياج، وإلا لزم الترجيح بلا مرجح.. وللرد على أدلة الكرامية والمشبهة والمجسمة قال جمهور المتكلمين:—

أما الأدلة العقلية: فإننا نمنع الضرورة لإطباق أكثر العقلاء على خلافه، وعلى أن الموجود إما جسم، أو ليس بجسم ولا جسماني، وحصر الكلام في القسمين إنما هو حكم الوهم، وغالباً ما تشبه الوهميات بالأوليات..

وأما الأدلة النقلية: فهي ظنيات سمعية معارضة لقطيعات عقلية، وبالتالي فلا تحمل على ظواهرها، فإما أن يفوض العلم بمعانيها إلى الله تعالى كما جرى عليه السلف حيث قالوا: أمروها كما جاءت، وقال الصديق — رحمه الله —: «العجز عن الإدراك إدراك»، وإما أن تؤول بتأويلات مناسبة توافق الأدلة العقلية كما جرى عليه الخلف..

لمزيد من التفاصيل انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٣ وما بعدها، وغاية المرام للآمدى: ص ١٨٥ — ١٨٦، وشرح المواقف: ١٣٤/٨، وشرح المقاصد: ٣٣/٣ — ٣٦، والممل والنحل للشهرستاني: ص ١٤٥، والفرق بين الفرق للبغدادى: ص ١٠٣، والتبصير في الدين للأسفرايينى: ص ٦٥ — ٧١ وغير ذلك..

وقارن في هذا الصدد موقف ابن رشد في الكشف عن مناهج الأدلة: ص ١٧٠ — ١٧٥، حيث يتضح أن موقفه من مسألة الجسمية ملئ بالثغرات، انظر: هوامش على النظامية: ١٨١ — ١٨٧..

اتفقت العقلاء على استحالة كون البارى تعالى جسماً، إلا جماعة من الحشوية وضعفاء العقول^(١) ولنا فى الرد عليهم مسالك^(٢):-

المسلك الأول: وهو أنه لو كان البارى تعالى متحيزاً، لشارك المتحيزات فى الحقيقة، ولو شاركها فى الحقيقة، لشاركها فى الحدوث، وهذا محال، والمقدمة الأولى^(٣) إنما تتضح بتقديم مقدمات منها:-

(١) يقصد الإمام الرازى بالحشوية وضعفاء العقول: الكرامية ومن تابعهم من المشبهة والمجسمة، والكرامية هم أتباع أبو عبد الله محمد بن كرام السجستاني، ولد بسجستان، ثم انتقل حين شب إلى خراسان موطن الحشوية والمشبهة أرض مقاتل بن سليمان زعيم المجسمة، وكانت خراسان ملتقى المذاهب الغنوصية القديمة ونشر ابن كرام مذهبه فى التجسيم مستعيناً فى ذلك بروح الزهد والتسك والعبادة، ومات سنة ٢٥٥ هـ، وللكرامية معتقدات كثيرة تأثروا فيها بالفلاسفة، هذا وقد اختلف أتباع ابن كرام وانقسموا إلى اثني عشرة فرقة خالفت بعضها بعضاً..

للمزيد من التفاصيل انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ص ١٠٨، التبصير: ص ٦٥، الفرق بين الفرق: ص ٢١٥..

(٢) عانى الإمام الرازى كثيراً من تلك المسألة الشائكة خاصة وأن خصومته كانت عنيفة مع الكرامية والحنابلة الذين ألف للرد عليهم كتابه الرائع: أساس التقديس، ولقد استمر الجدل والنقاش طيلة حياة الرازى العلمية، ولم ينته ذلك إلا بعد أن دس له الكرامية السم فمات على إثر ذلك كما جاء فى بعض الروايات..

ولقد جمع الرازى هنا بين نفى الجوهرية والجسمية وبين نفى المكان لأن المتحيز - على حد قوله - إن كان منقسماً فهو الجسم، وإن لم يكن منقسماً فهو الجوهر الفرد انظر أساس التقديس: ص ٣٢..

لذلك فهو أحياناً يأتي بمسألتى نفى الجسمية والمكان على التعاقب، وأحياناً يستغنى بنفى المكان لتتنفى الجوهرية والجسمية ضمناً..

(٣) يقصد قوله: لو كان البارى متحيزاً لشارك المتحيزات فى الحقيقة.. إلخ

أنه لا تكون للذات الواحدة خاصيتان، وبرهانه: وهو أنه لو كان كل واحد منهما مستقلاً بتقويم الذات، فتكون الذات مستغنية بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، وإن كان أحدهما مستقل بتقويم الذات دون الآخر، فالمستقل بالتقويم هو الخاصة، والآخرى ليست بخاصية، وإن لم يستقل بالتقويم شيء منهما على الانفراد، وإنما المقوم هو المجموع، فالمقوم أمر واحد، ويقع لكل واحد منهما جزء المقوم، على أننا قد بينا أنه إذا لم يكن كل واحد منها مؤثراً على الانفراد فإنه لا يجوز أن يصير مؤثرين عند الاجتماع ..

برهان آخر: وهو أن الذات المتصفة بتلك الخاصيتين لا تتميز حالها عن الذاتين المتصفتين بها، وما أدى إلى أن لا يتميز الواحد عن الاثنين كان باطلاً، فقد وضع أنه ليس للذات الواحدة إلا خاصية واحدة..

ومن المقدمات: أن صفة الشيء، سوى خاصيته يجب إستنادها إلى الخاصة، وذلك لأن لحوق تلك اللواحق ببعض الذوات دون البعض ، ليس لكونه ذاتاً، وإلا لاتصفت جملة الذوات بتلك الصفة، فإذا لحقها لأمر زائد، فإن كان ذلك الزائد لحقه لصفة أخرى، فلا بد وأن ينتهى إلى صفة ذاتية، ليس لحوقها للذات بسبب صفة أخرى، وإلا لتسلسل إلى ما لا نهاية له، فثبت أن ما عدا الخاصة مقتضى من الخاصة، وإذ قد انضمت هاتان المقدمتان بناءً على القول بالحال، فنقول: الجواهر مشتركة فى التحيز،^(١) وكونها بحيث تقبل المعنى، فإما أن يكون

(١) ملخص هذا الدليل: أن الأجسام متماثلة، فما يصح على أحدها يصح على الآخر، ولا شك أن الأجسام محدثة، فيكون الله محدثاً لو كان جسماً، وهو باطل، وكذا فإن اختصاص الأجسام بصفاتها من الأمور الممكنة التى تحتاج إلى مخصص، ولو كان الله تعالى جسماً، لوجب افتقاره فى حصول صفاته الممكنة — كالقدره والعلم — هذا على رأى الراى من أن الصفات ممكنة ولنا معه وقفة بعد قليل — إلى فاعل آخر، وكذا فإن الله تعالى إن لم يخالف الأجسام بشيء كان

ذلك هو خاصية الجسم، فيكون الاشتراك فيها يقتضى الاشتراك فى سائر صفات الجسم، أو هى من الصفات المستقلة من الخاصية، فالاشتراك فيها يكشف عن الاشتراك فى الخاصية الموجبة لاشتراك جميع الصفات، فهذا هو البرهان القاطع بناءً على القول بالحال فى أن الأجسام كلها متماثلة^(١) وعلى القول بنفيه فذلك أسهل؛ لأنه إذا ثبت اشتراك الأجسام من حيث الجسمية والتحيز، استحال أن يقع بينها اختلاف من وجه آخر؛ لأنه يلزم منه القول بالحال، فثبت أن الأجسام كلها مشتركة فى جميع الصفات الواجبة لها، فلو كان البارى تعالى جسماً للزم إما قدم هذه الأجسام، لقدمه أو حدوثه لحدوث هذه الأجسام^(٢) وكل ذلك محال. اهـ..

المسلك الثانى: هو أن البارى تعالى عالم بالأشياء، فإما أن تكون عالميته لذاته^(٣) أو لمعنى^(٤)، فإن كان لذاته، وصفة الذات لابد أن يشترك فيها آحاد الجملة، فلو كان جسماً لكان جزء منه حياً عالماً قادراً، فتكون هناك آلهة، وإن كانت عالميته

كسائر المحدثات، وإن خالفها كان مركباً؛ لأن ما به الاشتراك غير ما به الامتياز، وكذا فإن كل جسم فهو مشار إليه، وكل مشار إليه منقسم؛ لأن يمينه غير شماله، وفوقه غير تحته، وكل منقسم مركب، وكل مركب ممكن؛ لأنه محتاج إلى كل واحد من أجزائه، والممكن لا يكون قديماً، ولكن الله قديم فهو ليس بجسم

انظر: المحصل: ص ١٥٥، والمعالم فى أصول الدين: ص ٤١ - ٤٢، والأربعين: ص ١٠٣

- ١٠٤ وغير ذلك..

(١) للرازى فى مسألة تماثل الأجسام اختلاف رأى، فهو تارة يسلم بهذه القاعده، وتارة ينفيها ويقول ببطالانها، خاصة فى كتبه الفلسفية.. انظر: المباحث المشرقية: ٤٧/٢ - ٤٨، شرح الإشارات: ٢١/١، شرح عيون الحكمة: ص ١٥٨ وما بعدها..

(٢) انظر المحصل: ص ١٥٥، والمطالب العالية: ١٧/٣ - ٢٢..

(٣) وهو قول المعتزلة ومن وافقهم..

(٤) وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم..

لمعنى، فإن كان أن يقوم بكل جزء منه علم وقدرة وحياة، فيكون كل جزء عالماً قادراً إلهاً، وذلك محال، أو يقوم علم وقدرة بجميع الأجزاء، وذلك أيضاً محال؛ إذ لو قام المعنى الواحد بمحلين، لانقلب ذلك الواحد اثنين، أو يقوم العلم بجزء يوجب الحكم لسائر الأجزاء، فيعود التقسيم فى الحكم الذى أوجبه ذلك الواحد اثنين، أو يقوم العلم بجزء يوجب الحكم لسائر الأجزاء فيعود التقسيم فى الحكم الذى أوجبه ذلك المعنى، وهو أنه إما أن يكون لجملة الأجزاء عالمية واحدة، أو لكل واحد منها عالمية على حدة،^(١) وكلا القولين قد أبطلناه..

ومما يقوى التمسك به ما قدمناه فى مسألة المعدوم^(٢) من أنه يستحيل وجود أجزاء متناهية واجبة الوجود، ويستحيل أن تكون غير متناهية، فوجب ألا يكون جسماً، فثبت أن البارى تعالى ليس بجسم، وكل ما ليس بجسم، فيستحيل حصوله فى المكان؛ لأن المعقول من حصول الشيء فى المكان: كونه شاغلاً له، أو مانعاً مثله عن أن يكون بحيث هو، وذلك إنما يتحقق إذا كان ذلك الشيء جسماً، فثبت أن البارى تعالى ليس بجسم، ولا فى مكان^(٣)..

(١) هذا الدليل مبنى على مذهب الشيخ الأشعرى — رحمه الله تعالى — فى عدم اشتراط البنية الجسمية للاختصاص بالصفات، فقد يتصف الجوهر الفرد — على رأى الشيخ — بالحياة والسمع والعلم..

وحاصل الدليل: أنه لو كان الله جسماً متألّفاً من الأجزاء لكانت العالمية أو القادرية الثابتة لبعض الأجزاء مغايرة للعالمية والقادرية الثابتة للأجزاء الأخرى، لامتناع حصول الصفة الواحدة بالعدد فى ذاتين، فيكون كل جزء من الله عالماً قادراً فتتعدد الآلهة حينذاك.. انظر: المحصل: ص ١٥٥، والمعالم: ص ٤٢، والأربعين: ص ١٠٤ وغير ذلك.

(٢) انظر: ص ٤٨ وما بعدها..

(٣) لم يتعرض الرازى — رحمه الله تعالى — هنا للرد على الظواهر من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى يستدل بها الكرامية ومن وافقهم على إثبات الجهة والجسمية للبارى

تعالى وتقدس، ولكنه فى معظم كتبه خاصة أساس التقديس بذل مجهوداً كبيراً فى هذا الصدد، حيث كشف بدقة بليغة عن الأغوار النفسية التى أدت إلى القول بالجسمية والجهة وتشبيه الله تعالى بخلقه، فهو يرى أن أوهام المشبهة إنما حصلت بسبب الوهم والخيال اللذان لا يتصرفان إلا فى المحسوسات، ويحكمان على كل شيء بأحكامهما، أما أهل الحق — كما يقول الرازى — فمذهبهم يقوم على أساس عزل حكم الوهم والخيال عن ذات الله تعالى وصفاته انظر: أساس التقديس: ص ٦ — ١١

ولعله فى ذلك متأثر بإمام الحرمين وتلميذه الأشهر الغزالى — رحمهما الله تعالى —.. أما بالنسبة للظواهر العقلية المشعرة بالجسمية والجهة، فاستمع إليه يقول: { قد دلت القواطع العقلية على امتناع الجسمية والجهة، وبالتالي فلا بد من حمل الظواهر العقلية إما على التأويل، وإما على تفويض علمها إلى الله ﷻ، وهو الحق } ويتجلى الاتجاه الأخير فى كتابه أقسام الذات، والوصية..

انظر: المعالم: ص ٤٤، والمحصل: ص ١٥٨، وشرح المواقف: ٢٥/٨، وشرح المقاصد:

٣/٣٤..

الفصل الثاني

فى استحالة الحلول والاتحاد على البارى تعالى^(١)

(١) اختلف فى معنى الحلول، فقال البعض: هو اختصاص شىء بشىء، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر، وقيل هو: أن يكون وجوده فى نفسه هو بعينه وجوده لذلك الشىء، وقيل هو: الاختصاص الناعت: أى التعلق الخاص الذى يصير به أحد المتعلقين نعتاً للآخر، والآخر منعوتاً به، وذهب البعض إلى أن معناه: الحصول على سبيل التبعية، وهو اختيار جمهور المتكلمين..

وينسب البعض إلى الصوفية القول باتحاد الخالق بالمخلوق، ولكنهم — بحق — لا يعنون به اتحاداً حقيقياً، وإنما هو مجرد شعور بالاتحاد، وهو شعور يتجاوز فيه الصوفى كل كثرة، ولا يعود يثبت إلا وجود الله، وذلك عند وصوله إلى حالة الفناء حيث لا يشعر بذاته، أو بشىء من جوارحه..

وممن ذهب إلى القول بالحلول: النصارى حيث اعتقدوا أن الله تعالى جوهر واحد ذو ثلاثة أقانيم ويعنون بها: الوجود والعلم والحياة وعبروا عنها: بالآب والابن وروح القدس، وحكى عنهم كذلك اتحاد ذات الله تعالى بالمسيح وبحلول ذاته تعالى فى المسيح، وبعضهم قال: سماه ابنا على سبيل التشريف..

وقال بالحلول أيضاً بعض غلاة الشيعة حيث زعموا: أنه لا يمتنع ظهور الروحانى بالجسمانى كجبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبي، وكبعض الجن والشياطين فى صورة الإنس، وعليه فمن الجائز ظهور الله تعالى فى صورة بعض الكاملين، وهم آل البيت من نسل الإمام على كرم الله تعالى وجهه..

وقال به أيضاً بعض جهلة المتصوفة وزعموا: أن السالك إذا أمعن فى السلوك، فربما يحل الله تعالى فيه، بحيث لا يتمايز أحدهما عن الآخر — تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً —،

وصح أن يقول: هو أنا، وأنا هو ، وحينئذ تسقط التكاليف، وهو كلام ساقط لا يستحق الالتفات إليه..

وكان أول من أشاع ذلك في الوسط الصوفي: أبو يزيد البسطامي، والحسين بن منصور الحلاج، ومن أقوال الأول { إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني } وقوله: { سبحاني ما أعظم شأنني } و { سبحاني سبحاني أنا ربّي الأعلى }، ومن أقوال الثاني { أنا الحق } وقوله: { ما في الجبة إلا الله } ومن شعره:-

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنأ
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرتني أبصرتنا

والحق أن هذا الكلام على غير حقيقته، وقد انبرى حجة الإسلام الغزالي للدفاع عن الرجلين، حيث أوّل هذه العبارات بأنهم عند الانسلاخ عن شهواتهم، وإدبارهم عن الأعراض الزائلة يصبحون في حال لا يرون فيها سوى الله تعالى، وتلك الحال: إما عقلية، بحيث يرى العارف أن لا قوام للأشياء دون الله، وأنها واقفة عليه، فليس بموجود في الحقيقة إلا الله، وإما أن تكون تلك الحال وجدانية، بحيث إذا ترقى السالك في المنازل، فجأ بالأنوار، فغاب عنه العقل، وسكر من العشق، ثم نظر فلم يجد إلا الله، فصدرت عنه عبارات توهم الحلول والاتحاد كقوله: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، ولكن إذا عاد إليه العقل عرف أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد، وذلك كمن يرى الخمرة في الزجاج فيظن أن الخمرة لون الزجاج، فإذا صار هذا مألوفاً عنده قال:-

رقّ الزجاج ورقّت الخمر وتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قـدح وكأنما قـدح ولا خمر

أو أن الأمر لا يعدو أن يكون أسلوباً شعرياً للمتصوفة، يقصد به، أن يقع للكلام في النفس موقعاً حسناً، فمن استغرق في شيء، قال: كأنى هو، أو: أنا هو، ولكن حجة الإسلام يرى أنه من الأفضل الاحتراز عن كل ألفاظ الحلول والاتحاد، فإذا وصل إلى مرحلة يضيق عنها النطق فليقل:-

فكان ما كان مما لست أذكره
وأما تأويل قول الحلاج: { أنا الحق } فأصح التأويلات التي يراها الغزالي: أنه — أى الحلاج — استغرق بالحق فلم يعد فيه متسع لغيره، وأما تأويل قول البسطامي: { سبحانى ما أعظم شأنى }، فإن الغزالي يحمله على أنه جرى على لسانه فى معرض الحكاية عن الله تعالى، أو أن الأمر قد يكون فى غلبة الحال..

والجدير بالذكر أن الرازى — رحمه الله تعالى — قد تأثر بالغزالي خاصة فى موقفه من الحلاج حيث أول كلمة الحلاج: { أنا الحق } بتأويلات خمسة كلها قد استقاها من الغزالي..
انظر لوامع البينات: ٢١٧ — ٢٢٨..

هذا وقد ذهب جمهور المتكلمين إلى القول باستحالة حلوله تعالى فى غيره، وكذا اتحاده تعالى بغيره، لأن كلاهما من خواص الأجسام، والله تعالى ليس بجسم، فثبت استحالة حلوله تعالى فى غيره، وكذا اتحاده، واستدلوا على ذلك بأدلة أهمها: ...

١ — الذى يحل فى شيء، فإتما يفتقر اليه، كحلول الجسم فى المكان، أو العرض فى الجوهر، والمفتقر إلى غيره ممكن، وقد ثبت وجوبه تعالى، كما أنه تعالى لو حل فى شيء للزم تحيزه، وهو باطل، لأن التحيز من صفات الأجسام، والواجب ليس بجسم..

٢ — أنه تعالى لو حل فى محل فإما مع وجوب ذلك، وحينئذ يفتقر إلى المحل، ويلزم إمكانه، وقدم المحل، وإما مع جوازه، وحينئذ يكون غنياً عن المحل..

٣ — أنه تعالى لو حل فى جسم، فإما فى جميع أجزائه فيلزم الانقسام، أو فى جزء منه فيكون أصغر الأشياء، وهو باطل، وأيضاً لجاز حلوله — تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً — فى أحقر الأجسام وأرذلها مثل البعوض، ولا يخفى بطلان ذلك بداهة..

لمزيد من التفاصيل انظر: — كشاف اصطلاحات الفنون: ٧٠٦/١، شرح المواقف:

٣٢/٨ — ٣٥، وشرح المقاصد: ٣٩/٣ — ٤٥، والمقصد الأسنى: ص ٧٢ — ٩٧ — ١٠١

ومشكاة الأنوار: ص ٤٠ — ٤١، ومعراج السالكين: ص ٧١ — ٧٢، والمنقذ من الضلال:

ص ٩٣ — من الطبعة المجردة، والوجود الحق للنايلسى: ص ٤٠ و ٤٤ — ٤٦، و ٩٣ — ٩٥،

وغير ذلك..

ويستحيل حلوله في غيره، وذلك لأنه إما أن يكون دائماً حالاً، فيلزم إما قدم المحل، أو حدوثه تعالى، وقد بان أن كلا القولين محال، وإن حل بعد ما لم يكن حالاً فيه، فالمحل لابد أن يكون جسماً، إذ لو لم يكن جسماً لما كان حلول البارى تعالى فيه أولى من حلوله في البارى؛ لأنه تكون نسبة وجود أحدهما إلى الآخر كنسبة وجود الآخر إليه، وإلا كان المحل جسماً، فيكون حلوله فيه، إما أن يحصل بحيث المحل بعدما لم يكن حاصلًا في ذلك الحيث^(١) فيكون متحركاً، أو بأن يحصل المحل بحيث هو، فيكون له في ذاته حيثاً وجهة، وقد بينا أن ذلك محالاً^(٢)..

(١) الحيث يرادف مصطلح الحيز ومعناه عند المتكلمين: هو الفراغ المتوهم الذى يشغله شيء ممتد كالجسم أو غير ممتد كالجوهر الفرد، وعند الحكماء: هو السطح الباطن من الحاوى المماس للسطح الظاهر من المحوى..

انظر تعريفات: ص ٨٣ - ٨٤..

(٢) يتفق الرازى - رحمه الله تعالى - مع جمهور المتكلمين في نفى الحلول عن الله تعالى، ولا يحيد عن ذلك فى أى شيء من كتبه بدءاً من الإشارة وحتى المطالب العالية، ولكنه فى كتبه الأولى يرفض بالحجة الأشعرية الشهيرة والتي عرضها هاهنا وحاصلها: أن الحلول إما واجب أو جائز، فإن كان واجباً، لزم هذا الفرض، إما قدم المحل وإما حدوث الله تعالى، وكلاهما باطل، ولزم أيضاً أن يكون الله تعالى محتاجاً إلى المحل، والمحتاج إلى الغير يكون ممكناً لا واجباً، وإن كان جائزاً فالله تعالى غنياً فى ذاته عن المحل، وكل ما كان كذلك يستحيل حلوله فيه.. انظر: الخمسين فى أصول الدين: ص ٢٥٦ - ٢٥٧، ونهاية العقول: ٢ / ٤٥ - ب..

وفى كتبه الأخيرة يرتضى الرازى بدليل الغزالي وإن اختلف عنه فى التفاصيل، والذى يقوم على تحليل لفظ الحلول، ويوضحه كما فى المطالب العالية بما يلى: { أن للحلول معنيين: - الأول: حصول العرض فى المكان تبعاً لحصول محله فيه، كما إذا قلنا: اللون حال فى الجسم، فمعناه: أن اللون حصل فى المكان أيضاً تبعاً لحصول الجسم فيه، إلا أن الحلول بهذا المعنى لا يعقل إلا فى الأشياء الحاصلة فى الأمكنة والجهات، ولما كان الله تعالى منزهاً عن المكان والجهة، فقد بطل القول بالحلول..

وأقول: يستحيل أن يتحد بغيره، وذلك لأن كل شيئين^(١) يتحد كل واحد منهم بالآخر، فإما أن يوجد جميعاً حالة اتحادهما، أو لا يوجد جميعاً، ومحال ألا يوجد جميعاً؛ لأن كل واحد منهما محكوم عليه بأنه اتحد بالآخر، والمحكوم عليه بالحكم الإثباتي، لا بد وأن يكون موجوداً، فإذا هما حالة اتحادهما موجودان، فإما أن يكونا موجودين على نعت الكثرة، فلا يكونان متحدين؛ بل أكثرين، وإن ارتفعت الكثرة عنهما حال اتحادهما، فلا بد من ارتفاع الصفة التي من أجلها غير أحدهما الآخر، إذ مادام كل واحد منهما ممتازاً عن صاحبه فيستحيل^(٢) ارتفاع الكثرة عنهما، لكن امتياز القديم عن الحادث، إما أن يكون بذاته أو بأمر لازم لذاته، وعلى التقديرين، فإنه إنما ترتفع الصفة التي بها يقع الامتياز، إذا انعدم ذاتهما، وقد بينا أن ذلك

الثاني: احتياج الصفة إلى الموصوف، كاحتياج العلم والقدرة إلى العالم والقادر لتحل فيه، ولكن الله تعالى واجب الوجود بذاته ممتنع الافتقار إلى غيره، فيستحيل عليه الحلول بهذا المعنى أيضاً..

انظر: المعالم: ص ٤٥، والمحصل: ص ١٥٧ وفيه يعرض الرازي لحجة الأشاعرة ثم يهدمها من القواعد، والمطالب العالية: ٦٩/٢ وما بعدها..

ولكن الرازي — رحمه الله تعالى — تطور في فكره وبالتحديد ابتداءً من التفسير الكبير حيث رفض دليل الأشاعرة السابق عرضه، وأثار عليه الكثير من الاعتراضات من أهمها: لماذا لا تكون ذات الله تعالى تقتضي الحلول بشرط حدوث المحل، فعندئذ لا يجب حدوثهما أو قدمهما.. انظر: التفسير الكبير ٢١٠/٢ — ٢١١..

(١) إطلاق لفظ الشيء على الله تعالى إذا وقع في اصطلاح المتكلمين يعنون به: اسم يقع على ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ... ﴾ الآية..

(٢) تعديل في الأصل يقتضيه السياق..

محال^(١)..

وأقول: إنه ليس بعرض^(٢)؛ لأنه إما أن نعنى بالعرض أنه حالّ في غيره، وذلك أيضاً قد أبطلناه^(٣) أو نعنى به استحالة البقاء عليه، وذلك أيضاً قد أبطلناه^(٤) أو نعنى به كونه مثلاً لهذه الأعراض، وذلك أيضاً محال، إذ لو كان مثلاً لهذه الأعراض لشاركها في الإمكان والافتقار إلى المقتضى وذلك مما أبطلناه.

(١) حاصل هذا الدليل هو: إذا اتحد الشيئان فإما أن يبقيا أو يفنيا، أو يكون أحدهما باقياً والآخر فانياً، فإن بقيا لم يكن هناك اتحاد، لأنهما عندئذ اثنان لا واحد، وإن فنيا بطل الاتحاد أيضاً لأنهما معدومان، وإن بقى أحدهما وفنى الآخر فلا اتحاد، لأن الموجود لا يكون عين المعدوم وقد استقى الرازى هذا الدليل من الغزالي.. انظر: لوامع البينات: ص ٧٤ و ٢١٧، الخمسين: ص ٣٥٨، المعالم: ص ٤٧، والمحصل: ص ١٥٦، والمطالب العالية: ٧٠/٢، والتفسير الكبير: ١٩٨/٤..

(٢) لم يتعرض الرازى — فيما نعلم — لهذه المسألة إلا في الإشارة، وكأنه في كتبه الأخرى قد اكتفى ببيان استحالة الجسمية في حقه تعالى، ومن ثم فمن باب أولى أن يمتنع كونه تعالى عرضاً.

ولمزيد من التفاصيل: انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٢٣٠ —

٢٣٢، وشرح المقاصد: ٣١/٣

(٣) في مبحث استحالة حلوله تعالى في غيره. انظر ص ٧١..

(٤) انظر: المحصل ص ١١٤..

الفن الثاني

في صفاته ﷻ

وفيه مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة

أما المقدمة

فهى فى إثبات أنه تعالى قادر حى عالم مرید متكلم سمیع بصیر^(١)

(١) تعد مسألة صفات الله تعالى من مسائل علم الكلام العويصة والتي طال فيها الجدل خاصة بعد انقضاء الصدر الأول، وانتقال المصطفى - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى، وسار على نهجه صحابته الكرام، وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، حيث التزموا بما ورد فى الكتاب والسنة، دون الخوض فى تفاصيل ذلك..

ولكن بمرور الوقت، وظهور طوائف من المشبهة والكرامية، وأخذهم بظواهر النصوص، وإثباتهم لله تعالى الكثير من الصفات الإنسانية، الأمر الذى دفع شيوخ المعتزلة الأوائل خاصة: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد إلى رفض ذلك وأثبتوا لله تعالى الصفات السلبية كالوحدانية والمخالفة للحوادث ، مع نفى الصفات الإيجابية كالعلم والقدرة.

وبذلك أنكر المعتزلة الصفات الزائدة على ذاته تعالى، فأكثرهم قائلون بأن الله تعالى عالم قادر حى بذاته، لا يعلم وقدرة وحياة، وحجتهم فى ذلك: انه تعالى لو كانت له صفات زائدة على ذاته، فلا بد وأن تكون أزلية أو قديمة، وذلك يوجب كونها مثلاً لله تعالى فى القدم ، ولا شك فى استحالة ذلك؛ لأن القدم هو أخص وصف لله تعالى، ووافقهم على ذلك الشيعة والفلاسفة..

ومن أدلتهم أيضاً: أن النصارى قد كفروا لإثباتهم ثلاثة أقانيم قديمة، وبالتالي يلزم على الأشاعرة إثبات قدماء ثمانية هى ذات الله تعالى وصفات المعانى السبعة..

ومن العجيب أن ابن حزم قد اتهم بالأشاعرة بالشرك وإبطال التوحيد، والنصرانية المحضة، وكذا هاجمهم ابن رشد فى مناهج الأدلة..

وذهب الشيخ الأشعرى ومن تبعه إلى إثبات الصفات لله تعالى صفات زائدة على ذاته قائمة بها قديمة بقدمها، لا هى هو ولا هى غيره..

ورد على المعتزلة بأن القديم هو ذات الله تعالى وصفاته، والقدم ليس أخص وصف للإله،

بل أخص وصف له هو: القدرة على الاختراع..

كما أن النصارى قد كفروا لإثبات ثلاث ذوات قديمة، أما نحن فنثبت ذاتاً واحدة قديمة متصفة بصفات قديمة..

والحق أن المتأخرين من المعتزلة خاصة — أبو هاشم الجبلى وتلميذه القاضى عبد الجبار — قد أثبتوا لله تعالى صفتين هما: العلم والقدرة، وقال أكثرهم: بالحياة، واختلفوا فى الإرادة والسمع والبصر والكلام، ولكنهم قالوا: عالم لذاته، وقادر لذاته، وحي لذاته ، أى أن ذاته تعالى مستلزمة لأن يكون لها قدرة، وحياة ، وعلم، وعليه كما يقرر إمام الحرمين — بحق — فالخطب يسير، والقضية قريبة المدرك؛ لأن محصول كلام المعتزلة مؤد إلى إثبات العلم للعالم. وممن سار على هذا الدرب شارح المواقف حيث يرى أن المعتزلة قائلون: بأن ذاته تعالى يترتب عليها ما يترتب على ذات وصفة معاً، فهم لا ينفون الصفات بمعنى نفى ترتب آثارها ونتائجها عنه تعالى، بل ينفون أن تكون تلك الصفات معانى زائدة على الذات كما قال الأشاعرة..

والحق أن مسألة زيادة الصفات على الذات أو عدم زيادتها عليها قد طال فيها النزاع، والله در الجلال الدوانى حين قال: { اعلم أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التى يتعلق بها تكفير أحد الطرفين، وقد سمعت بعض الأصفياء يقول: عندى أن هذه القضية وأمثالها مما لا يدرك إلا بالكشف }..

ويقول العلامة الأمير: { ولو اختير التوقف فى هذه المسألة لكان أنسب وأسلم من افتراء الكذب على الله تعالى، وماذا على الشخص إذا لقى ربه جازماً بأنه على كل شىء قدير مقتصر عليه، مفوضاً علم ما وراء ذلك إليه تعالى }..

بل إن الرازى — رحمه الله تعالى — وهو من أكثر المتكلمين الذين تعمقوا فى هذه المسألة — يقول:

{ وعقول البشر قاصرة عن الوصول إلى هذه المضائق }..

للمزيد من التفاصيل انظر: مقالات الإسلاميين للأشعرى: ٢٤٤/١، شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ١٨٣ — ١٨٥، الفصل لابن حزم: ١٣٥/٢ وما بعدها، مناهج الأدلة لابن رشد: ص ١٦٥ — ١٦٦، اللمع للأشعرى: ص ٢٦، والإبانة: ص ١٣ له أيضاً، هوامش

اعلم أنه قد ثبت وجوب انتهاء الممكنات إلى سبب^(١)، فنقول ذلك الموجد إما أن يصح منه أن يوجد^(٢) أولاً يصح منه أن لا يوجد، فإن لم يصح منه ألا يوجد، كان في الأزل^(٣) موجوداً، وكانت الممكنات دائماً موجودة، فتكون الممكنات قديمة، وذلك محال، فإذن المقتضى للعالم كما صح منه أن يوجد صح منه أن لا يوجد، وكل ما كان كذلك لم تكن موجديته لذاته، إذ لو كان لذاته، لما صح منه أن لا يوجد، فإذن المقتضى لوجود العالم، إنما يوجد العالم لأمر زائد على ذاته، وهو المعنى بكونه قادراً^(٤)، وإذا كان قادراً وجب أن يكون عالماً؛ لأن أفعاله محكمة

على النظامية: ص ١٣٦، الاقتصاد في الاعتقاد: ص ٤٢ وما بعدها، شرح المواقف: ٤٧/٨، شرح الجلال الدواني على العضدية: ٣٠٠/١، حاشية الأمير على الجوهرية: ص ٨٠، معالم أصول الدين للرازي: ص ٥٨..

(١) انظر: ص ٣٦ وما بعدها..

(٢) تعديل في الأصل يقتضيه السياق..

(٣) الأزل هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، وهو عكس الأبد الذي هو: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل..

والأزلى هو: ما لا يكون مسبقاً بالعدم، والله تعالى يوصف بأنه: أزلى وأبدى..

تعريفات: ص ١١ - ١٢..

(٤) القادر عند الأشاعرة هو الذي يصح منه الفعل والترك، والقدرة هي: صحة الفعل والترك، أما الفلاسفة فمعنى القدرة عندهم: أنه تعالى إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، لكن مقدم الشرطية الأولى واجب الصدق، ومقدم الشرطية الثانية ممتنع الصدق وصدق الشرطية لا يستلزم صدق طرفيها ولا ينافي كذبهما..

انظر شرح المواقف: ٥٠/٨، وشرح المقاصد: ٥٩/٢، نقلاً عن هوامش على

النظامية: ص ٢١٣ - ٢١٤..

متقنة، وكل فعل محكم متقن ففاعله عالم، فإنّ صانع العالم عالم^(١) وكل عالم فهو

(١) هذا هو دليل الإحكام والإتقان الذى ارتضاه الرازى - رحمه الله تعالى - متابعاً لجمهور الأشاعرة للتدليل على كونه تعالى عالماً، فالعالم فى نظر المتكلمين منسق ومنظم ومدير على أحسن ما يكون من التنسيق والتنظيم والتدبير وكل ذلك يدل على أن صانعه عالم.. انظر: اللمع للأشعرى: ص ٢٤ - ٢٥، والإرشاد: ٦١ - ٦٢، والاقتصاد: ص ٤٧ ولكن الرازى فى المباحث المشرقية يرتضى دليل ابن سينا، ولكنه عاد فأبطله وأهمله إهمالاً تاماً، وكأنه كان يعرض لأدلة الفلاسفة فقط ليسهل عليه ردها..

انظر: المباحث المشرقية: ٢ / ٤٦٨ - ٤٦٩، ونهاية العقول: ١ / ١٨٤، والمطالب العالية: ١ / ٢٥١ - ٢٥٢..

وأستمر الرازى فى الأخذ بدليل الإحكام والإتقان فى معظم كتبه، ولكن فى المطالب العالية نراه يضعف هذا الدليل ويفضل عليه دليل القصد والاختيار والذى حاصله: أنه تعالى قادر أى فاعل بالقصد والاختيار، ولا يتصور ذلك إلا مع العلم بالمقصود انظر: شرح المقاصد: ٨٣ / ٣..

ونرى الرازى يوجه الكثير من الانتقادات على دليل الإحكام والإتقان الذى هو عمدة الأشاعرة فى التدليل على كونه تعالى عالماً انظر: المطالب العالية: ١ / ٢٤٦ - ٢٥١..

والحق أن الرازى - رحمه الله تعالى - قد جانبه التوفيق فى نقده لدليل الإحكام والإتقان، وتفضيل دليل القصد والاختيار عليه، خاصة وأن الغزالى - رحمه الله تعالى - قد اعتمد عليه وحده، أضف إلى ذلك أن طريق الإتقان يتضمنه إثبات القدرة والاختيار، وذلك لأن المتقن لصنعه قادر عليها، ومختار لإيجادها على صفة الكمال دون صفة النقص، فمآل الدليلين واحد كما قال العلامة الأمير فى حاشيته على شرح الجوهرة..

والجدير بالذكر أن العلامة السعد فى شرحه على المقاصد قد اتبع الرازى وقال: إن طريق القصد الاختيار أكد وأوفق، وأرجع طريق الإتقان إلى طريق القدرة والاختيار..

انظر: الاقتصاد للغزالى: ص ٢١١، وحاشية الأمير على الجوهرة: ص ٨٣، وشرح المقاصد: ٢ / ٦٥، وهوامش على النظامية: ص ٢٥٢ وما بعدها..

حى، فصانع العالم حى، فثبت أنه تعالى قادر عالم حى^(١).

وأعلم أن من الملاحظة من يمنع كونه عالماً بذاته، وبسائر الأشياء،^(٢) وقالوا: العلم هو ارتسام صورة المعلوم فى العالم، فلو علم البارى تعالى ذاته، لارتسمت صورة ذاته فى ذاته، وصورة ذاته لا تمايزه بالنوع، إذ صورة الشيء لا تخالف ذلك الشيء فى الحقيقة، ولا تمايزه أيضا بالعدد؛ لأن تكثر أنواع الشخص إنما يكون بلحوق لواحق غير ذاتية بالبعض دون البعض، ومتى اجتمعت الصورتان فى ماهية واحدة استحال اختصاص أحدهما بلاحق غريب دون الآخر، فلا يكون بين الصورتين امتياز، ولا يكون تكثر، فيكون الاثنان قد صارا واحداً، وذلك مما بان فساده، ولأنه يفضى إلى وقوع كثرة فى ذاته، وذلك محال^(٣)..

نفقول وبالله التوفيق: هذا بناء على أن إدراك المدركات لأجل ارتسام صورها فى المدرك، وذلك عندنا^(٤) محال والدليل عليه: وهو أن المدرك بمضادة السواد والبياض لا بد وأن يكون هو بعينه مدركاً للسواد، إذ العلم بمضادة شيء سبباً يتضمن العلم بكل واحد منهما، فلو كان العلم بالشيء لأجل ارتسام صورة المعلوم فى العالم، لاجتمعت صورة السواد والبياض فى ذات واحدة، وذلك محال..

(١) إثبات صفة الحياة لمولانا - تعالى وتقدس - من الأمور الهينة، وذلك لأنه إذا ثبت أنه تعالى عالم قادر، فبالضرورة يثبت كونه حياً انظر: الإقتصاد ص ٢١٨..

(٢) يقصد الرازى بالملاحظة بعض الفلاسفة خاصة فلاسفة الأفلاطونية المحدثة الذين غلوا فى تأكيد وحدة المبدأ الأول حتى نفوا عنه العلم بأى شيء ولو بذاته نفسها فضلاً عن سائر الأشياء.. انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم: ص ٢٩٠، والأربعين فى أصول الدين للرازى: ص ١٣٦..

(٣) قارن الأربعين فى أصول الدين: ص ١٥٤..

(٤) يقصد الأشاعرة..

فإن قيل: الصورة الكلية في السواد لا تضاد الصورة الكلية في البياض..

قلنا: بمن نعلم ضرورة أن السواد المعين يضاد البياض المعين ؟ فإما أن يضاده لأنه هذا البياض، وذلك السواد، أو لأنه سواد وبياض، فإن كان لأنه هذا وذلك، فيكون ما ليس هذا وذلك لا يتضادا، فإن السواد يضاد البياض، لكونه سواداً وبياضاً، فثبت أن الصورة الكلية في أحدهما يضاد الكلية في الأخرى، فلو لم تكن الصورة المرتسمة من البياض الكلي في العقل مضادة للصورة المرتسمة من السواد، لم تكن تلك صورة البياض والسواد بل صورة شيء آخر، وعلى أنا نحكم في الخيال أن سواداً معيناً يضاد بياضاً معيناً، فلو كان المتخيل إنما هو بارتسام صورة المتخيل في الخيال، لاجتمعت صورة سواد جزئى مع صورة بياض جزئى في شيء واحد، إذ لو كان محل أحدهما غير محل الثانى، لاستحال منا أن نحكم بمضادة أحدهما الآخر، فقد بان أنه لا يجوز أن يكون شيء من الإدراكات إنما هو بارتسام صورة المدرك في المدرك، فإن معنى العلم: حصول إضافة مخصوصة بين العالم والمعلوم، وذلك معنى قول المتكلم: العلم متعلق بالمعلوم، وهذا من الأسرار^(١) وبعضهم^(٢) أوجبوا أن يكون عالماً بالكليات، ومنعوا من العلم بالجزئيات

(١) انظر المحصل: ص ١٠٢ وانظر التعليق الرائع للطوسى عليه في الهامش: نفس الصفحة.
(٢) يقصد الفلاسفة خاصة ابن سينا الذى ذهب إلى أن الله تعالى يعلم ذاته وغيره، لكن علمه بالجزئيات لا يكون إلا بنحو كلي، انظر الإشارات والتنبيهات لابن سينا: ٧٠٩/٣ - ٧٢٨..
وتلك هى قضية علم الله بالجزئيات والتي أنكرها ابن سينا، ومن أجل ذلك كفره الغزالي - رحمه الله تعالى - فى تهافت الفلاسفة..

قال ابن سينا فى النجاة: { فالمبدأ الأول يعقل ذاته، ومن ذاته يعقل الأشياء، لا من الأشياء، فلا تكون الأشياء شيئاً لكونه عقلاً، بل يكون كونه عقلاً فى ذاته شيئاً للأشياء } انظر النجاة: ص ٢٤٦..

فإنه ﷺ - على رأى ابن سينا - يعرف الجزئيات بنحو كلي، أى عن طريق معرفة

وتمسكوا بأن قالوا: إذا علم الله أن زيداً سيدخل فى الدار، واستمر ذلك العلم إلى أن دخل زيد الدار، فإما أن يبقى علمه بأنه سيدخل الدار، فيكون علمه قد انقلب جهلاً، ومع ذلك فقد صار متغيراً، والتغير والجهل على الله محال، أو لم يبق ذلك العلم بل انتفى، ووجد مقامه العلم بأنه دخل الدار، فيكون ذلك تغيراً، والتغير على الله تعالى

قوانينها العامة لا بتفاصيلها من أجل ذلك ذهب الإمام الغزالى - رحمه الله تعالى - إلى تكفير الفلاسفة بتلك المسألة، وأنزهم إلزامات كثيره أهمها:-

{ أن زيداً مثلاً لو أطاع الله تعالى أو عصاه، لم يكن الله ﷻ عالماً بما يتجدد من أحواله؛ لأنه لا يعرف زيداً بعينه، فإنه شخص، وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن، وإذا لم يعرف الشخص، لم يعرف أحواله وأفعاله بل لا يعرف كفر زيد ولا إسلامه، وإنما يعرف كفر الإنسان وإسلامه مطلقاً كلياً لا مخصوصاً بالأشخاص..

بل يلزم أن يقال: تحدى محمد - ﷺ - بالنبوة، وهو لم يعرف فى تلك الحال أنه تحدى به، وكذلك الحال مع كل نبي معين، وأنه إنما يعلم أن من الناس من يتحدى بالنبوة، وأن صفة أولئك كذا وكذا، فأما النبي المعين بشخصه، فلا يعرفه { انظر تهافت الفلاسفة: ص ٢١١..

والجدير بالذكر أن نقول: إنه قد ظهر فى الوسط الكلامى من ينفى هذه التهمة عن الفلاسفة وممن ذهب إلى ذلك الشريف الجرجاني فى شرحه على المواقف، والعلامة السعد فى شرح المقاصد قائلاً: { وهو المشهور من مذهبهم { ويعلق على ذلك أستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل بقوله: { إنه ليس معنى قول الفلاسفة إنه تعالى يعلم الجزئيات على وجه كلي ما فهمه الغزالى من أنه تعالى لا يعلم إلا ماهياتها الكلية فحسب، بل معناه - عندهم - أنه تعالى يعلم جميع الحوادث الجزئية فى أزمنتها الواقعة فيها، لكنه يعلمها علماً متعالياً على الدخول فى الأزمنة، فليس فى علمه كان ولا كائن، ولا يكون، ولا يلزم من ذلك خلوه تعالى عن إدراك بعض ما هو واقع { ومهما يكن من شىء فإن كلام الفلاسفة - خاصة ابن سينا - صريح فى نفى علمه تعالى بالجزئيات، وليست محاولة المتكلمين الذين سبق ذكرهم إلا التقريب ودأب الصدع بين الفلاسفة والمتكلمين فى تلك المسألة الخطيرة..

والجواب: وهو أنا قد بينا أنه لا معنى للعلم إلا إضافه تحصل بين العالم والمعلوم، وعلى هذا القول متى تغير المعلوم، فلا بد وأن تتغير تلك الإضافة؛ لأن الإضافة حقيقتها وثبوتها متعلق بالمضاف، فلو تغير أحد المضافين من جهة ما هو مضاف، ولم تتغير الإضافة، أشعر ذلك باستقلال الإضافة بنفسها، فلا تكون الإضافة إضافة، بل ربما كان شيئاً آخر عرض له الإضافة، وذلك محال، ولكن مثل هذا التغير لا يستدعى مُغيراً؛ لأن المقتضى لكون البارئ تعالى عالماً بأن زيداً في الدار، إما أن يكون ذاته، أو معنى قائماً بذاته بشرط أن يكون زيد في الدار، فإذا خرج زيد عن الدار، لم يبق شرط تلك الإضافة، فتقطع، ووجد شرط ثبوت إضافة أخرى، وهو العلم بخروجه عن الدار، فلا جرم انتفى الأول، ووجد الثاني من غير حاجة إلى مغير^(٢)، وهذا كما أن أصحابنا اتفقوا على أن قدرة الله تعالى تتعلق

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين: ص ١٣٤، والمعالم في أصول الدين: ص ٥٣..

(٢) أجاب الرازي عن تلك الشبهة في الأربعين بجواب حاصله:—

أن المتكلمين قد صاروا فريقين بسبب هذه الشبهة: الفريق الأول: وهم جمهور المشايخ من أهل السنة ومن المعتزلة قالوا: إن العلم بأن الشيء سيوجد، نفس العلم بوجوده إذا وجد، واحتجوا على قولهم: بأننا إذا علمنا أن زيداً سيدخل البلد غداً، فإذا استمر هذا العلم إلى الغد، وإلى أن دخل زيد البلد، فإننا بهذا العلم نعلم أن زيداً دخل الآن البلد، فعلمنا بأن العلم بأن الشيء سيوجد نفس العلم بوجوده إذا وجد، وإنما يحتاج الواحد منا إلى علم آخر، لأجل طريان الغفلة على العلم الأول، والبارئ تعالى لما امتنع طريان الغفلة عليه لا جرم يكون علمه بأن الشيء الفلاني سيوجد، هو نفس علمه بوجود ذلك الشيء حال ما يوجد، ولكن أبا الحسن البصري أبطل هذا المذهب وقال: يمتنع أن يقال: العلم بأن الشيء سيوجد، هو نفس العلم بوجوده حال ما يصير موجوداً، واحتج على ذلك بوجوه أهمها:—

مجرد العلم بأن الشيء سيقع، لا يكون علماً بوقوعه إذا وقع، فإن من علم أن زيداً

بالشيء حالة حدوثه، فإذا صار باقياً، انقطع تعلق القدرة عنه، فإذا أعدمه عاد تعلق القدرة إليه، ولا يلزم من هذا افتقاره إلى مغير، فكذاك هاهنا^(١)..

وكذلك النسخ^(٢) : عبارة عن رفع الحكم عند القاضي^(٣) ، وهو انقطاع تعلق

سيدخل البلد غداً، ثم إنه جلس في بيت مظلم لا يميز فيه بين الليل والنهار، وبقي مستديماً لذلك العلم، حتى جاء الغد، ودخل زيد البلد، فهاهنا هذا الشخص بمجرد علمه بأن زيداً سيدخل البلد غداً، لا يصير عالماً بأنه دخل الآن في البلد، فثبت بهذا أن العلم بأن الشيء سيوجد غداً لا يكون نفس العلم بوجوده إذا وجد.. بلى من علم أن زيداً سيدخل البلد غداً، ثم علم حصول الغد، فحينئذ يتولد من هذين العلمين علم ثالث، وهو بأن زيداً دخل البلد الآن..

وهي حجة قوية لأبي الحسين البصري، ولكنه - للأسف - التزم وقوع التغير في علم الله تعالى بالجزئيات المتغيرة.. انظر: الأربعين للرازي: ص ١٣٤ - ١٣٦، وشرح المقاصد: ٩٠/٣ - ٩١..

(١) ذهب الأشاعرة إلى أن للقدرة تعلقان: صلاحيتها في الأزل لإيجاد كل ممكن حين يوجد، وهو ما يسمى بالتعلق الصلوبي القديم، وإبرازها بالفعل للممكنات التي أراد الله تعالى وجودها فيما لا يزال، وهو ما يسمى بالتعلق التنجيزي الحادث..

أما عن استمرار وجود الممكن بعد إيجاده، فإنه يلزم على قول الأشعرى أن البقاء صفة وجودية - وهو ما يرفضه الرازي هنا - أن تتعلق القدرة باستمرار الوجود تعلقاً يسمونه: تعلق القبضة، وأما على قول من قال: إن البقاء هو عبارة عن مجرد استمرار الوجود بلا صفة زائدة فليس للقدرة عنده تعلق بالاستمرار، وهو الأمر الذي يرتضيه الرازي هاهنا.. انظر: شرح العقائد النسفية: ١/١١٥، والسنوسي: ص ٩٨ نقلاً عن هوامش على النظامية: ص ٢١٥..

(٢) النسخ هو: لغة الإزالة والنقل، وشرعاً: هو أن يرد دليل شرعي متراحياً عن دليل شرعي مقتضياً خلاف حكمه، فهو تبديل بالنظر إلى علمنا، وبيان لمدة الحكم بالنظر إلى علم الله تعالى.. انظر تعريفات: ص ٢١٥..

(٣) يقصد القاضي الباقلاني وهو : أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم

أمر الله تعالى عن الفعل، ثم قد يعود التعلق إليه في سائر الأوقات، ومثل هذا التغير لا يستدعى مغيراً.

ونقول: الباري تعالى مريد؛ لأننا نجد الحوادث واقعة في أوقات مع جواز وقوعها قبلها وبعدها، فلا بد وأن يكون لوقوعها في ذلك الوقت مخصص، وإلا لما كان وقوعها في ذلك الوقت بأولى من وقوعها في سائر الأوقات^(١) وذلك المخصص لا يجوز أن يكون هو القدرة؛ لأنها ليس تأثيرها إلا في الإيجاد^(٢)، وذلك لا يقتضى

البصرى، شيخ أهل السنة والجماعة، وإليه انتهت رئاسة المذهب الأشعرى في زمانه، ولد بالبصرة سنة ٣٣٨هـ، وسكن بغداد، وتوفي بها سنة ٤٠٣ هـ، من مؤلفاته: التمهيد، الإتيان، إعجاز القرآن، كشف أسرار الباطنية، هداية المسترشدين في الكلام، وغير ذلك.. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٤٨١/١، وكشف الظنون: ٢٥٩/٦، وغير ذلك..

(١) انظر: المحصل ص ١٦٨، والمعالم في أصول الدين: ص ٥٦ — ٥٧، والأربعين: ص ١٤٢ — ١٤٣، وفيه نسب الرازي إلى جمهور البصريين من المعتزلة كونه تعالى مريداً صفة زائدة على كونه تعالى عالماً..

(٢) القدرة تؤثر في إيجاد الممكنات وحدها، وذهب الأشاعرة إلى أن وظيفة القدرة هي الإيجاد فحسب، أما الإعدام فلا يحتاج إلى تأثير، وهذه نقطة تتصل بمسألة: بقاء الأعراض أو عدم بقائها..

والمشهور من مذهب الأشعرى أنه قائل بعدم بقاء العرض زمانين، لأن البقاء عنده معنى، فلو بقى العرض لقام المعنى بالمعنى، وذلك باطل، وعليه فالإعدام عند الأشعرى يكون كما يلي:—

أما العرض فمن صفاته النفسية انعدامه بمجرد وجوده من غير أن يؤثر فيه مؤثر، وأما الجوهر فإنه يستمر في وجوده بمقدار ما تمدد القدرة الإلهية من الأعراض، فإذا أراد الله تعالى إعدامه أمسك عنه الأعراض فينعدم الجوهر من فوره بدون إعدام.. انظر: الإرشاد لإمام

اختصاص الشيء بوقت دون وقت، ولا يجوز أن يكون هو العلم؛ لأن العلم يتقدم الشيء متقدماً ومتأخراً، تبعاً لتقدم الشيء وتأخره، فلو كان تقدم الشيء وتأخره لأجل العلم، لزم افتقار كل واحد منهما إلى الآخر^(١) ولا يجوز أن يكون هو الحياة، فإنها ليست من الصفات المتعلقة^(٢)، ولا الكلام أيضاً، فإنه ينقسم إلى: أمر ونهي، واستخبار^(٣) وليس شيء من ذلك مما يقع به التخصيص، فإذا انحصص

الحرمين: ص ٢١٨، وحاشية الدسوقي على أم البراهين: ص ٩٩، نقلاً عن هوامش على النظامية: ص ٢١٧ - ٢١٨..

والجدير بالذكر أن الرازي قد ذهب في المعالم إلى أن العدم مقدور للباري تعالى لأنه إن شاء الفعل فعل، وإن شاء أنه لا يفعل فلا يفعل، لأنه إن شاء فعل العدم. انظر: المعالم: ص ٥٥ - ٥٦..

(١) قارن الأربعين: ص ١٤٣..

(٢) صفة الحياة الواجبة لمولانا ليست من الصفات المتعلقة؛ لأنها صفة تصحح اتصافه تعالى بالعلم والقدرة كما يرى متأخرو الأشاعرة..

(٣) يرى الأشاعرة - ومعهم الرازي هنا - أن الكلام يتنوع باعتبار دلالاته إلى:-

١ - الأمر: وهو باعتبار دلالاته على طلب الفعل..

٢ - النهي: وهو باعتبار دلالاته على طلب الترك..

٣ - الوعد: وهو باعتبار دلالاته على وقوع ثواب مستقبل..

٤ - الوعيد: وهو باعتبار دلالاته على وقوع عقاب مستقبل..

٥ - الخبر: وهو باعتبار دلالاته على معنى مطابق للواقع..

٦ - الاستفهام: وهو باعتبار دلالاته على طلب العلم باعتبار حال المخلوقات.. وصاحب

هذا التقسيم هو إمام الحرمين - رحمه الله تعالى -..

انظر الإرشاد: ص ١٠٤، وقارن إشارات المرام للبياضى: ص ١٧٨..

ولكن الإمام الرازي في المحصل جعل الكلام أمراً واحداً وهو الخبر، ويرجع جميع الأنواع

لاختصاص الحوادث بوقت دون وقت، صفة وراء هذه الصفات، وتلك هي — الإرادة، ولا يلزم على هذا افتقار تعلق الإرادة بإيقاع شيء مع جواز تعلقها بإيقاعه في وقت آخر إلى إرادة أخرى، وكذلك إلى ما لا نهاية له، لأن تعلق الإرادة بما تتعلق به واجب، فلا يستدعي مخصصاً، بخلاف هذه الحوادث، فإنه لو كان تقدم المتقدم منها واجباً، لوجب حصول أمثاله الغير المتناهية، وللزم استغناؤه عن الفاعل، وذلك محال..

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المخصص هو الداعي؟

ومعناه: أنه إذا علم اشتمال الفعل على ضرب من المصلحة فعله، وإذا علم اشتماله على ضرب من المفسدة لم يفعله^(١)..

قلنا: هذا بناء على أن فعل الله تعالى لأجل الأغراض، ومصالح العباد، وسنبطل ذلك إن شاء الله تعالى..

إليه، انظر المحصل: ص ١٨٥.

(١) انظر: الأربعين في أصول الدين: ص ١٤١ حيث حقق الكلام في الداعي تحقيقاً رائعاً..

ونقول: البارى تعالى متكلم، وذلك لأننا نعلم بضرورة العقل صحة التردد فى أفعال العباد بين الوجوب،^(١) والحظر،^(٢) والإباحة^(٣)، وهذه أحكام متناهية، فلا بد وأن تستند إلى صفة القديم، وذلك ليس هو القدرة، لأن من شأن القدرة الإيجاد، وذلك لا يختلف بأن يكون الموجد واجباً أو مندوباً^(٤)، بل يقع فى المخلوقات ما لا يصح وصفه بشيء من ذلك كالأجسام، ولا يستند إلى العلم؛ لأن العلم تابع للمعلوم فلا يجوز أن يقتضى حكماً، ولا الإرادة، فإن المراد قد يكون منهياً، والمكروه قد يكون مأموراً على ما سنوضحه، فإن تستند هذه الأحكام فى الأفعال إلى صفة وراء هذه الصفات، وتلك هى: الكلام..

وقد بينا فيما تقدم أنه تعالى قديم باقٍ، فلا حاجة إلى الإعادة^(٥)..

-
- (١) الوجوب الشرعى هو: ما يكون تاركه مستحقاً للثواب والعقاب..
 (٢) الحظر هو: ما يثاب بتركه ويعاقب على فعله، وذلك فى اصطلاح الأصوليين..
 (٣) الإباحة هى: الإذن بإتيان الفعل كيف شاء الفاعل..
 (٤) المندوب هو: الفعل الذى يكون راجحاً على تركه فى نظر الشارع، ويكون تركه جائزاً..
 تعريفات: ص ٢٠٧.

(٥) يستدل الرازى على كونه تعالى قديماً باقياً بحجة المتكلمين والتى حاصلها: أن صانع العالم إذا كان محدثاً فله محدث، وذلك المحدث إذا كان محدثاً فله محدث أيضاً، فيلزم الدور والتسلسل وكلاهما باطل، فلا بد وأن تنتهى المحدثات إلى قديم، وهو المطلوب انظر المسائل الخمسين فى أصول الدين: ص ٣٤٣، وكذا: الأربعين: ص ٩٢..

ولكنه فى المطالب العالية ضعف حجة المتكلمين لأنها لا تقف أمام سؤال صعب حاصله: أنه من الجائز أن يدعى البعض أن الله تعالى خلق موجوداً، وذلك المخلوق هو الذى خلق العالم، فيكون الخالق لهذا العالم غير قديم انظر المطالب العالية: ١/ ١٢٤..

وارتضى فى المطالب العالية بدليل حاصله: أن حقيقة الله تعالى غير قابلة للعدم، لأنه لو صح عليه عدم لكان متوقفاً على عدم سبب عدمه، والمتوقف على الغير ممكن بالذات، ولكن

الله واجب بالذات، فإذا لم تكن حقيقته قابلة للعدم فهو موجودٌ أزلاً وأبداً، ومن ثم فهو قديم باقٍ.

انظر المطالب العالية: ١/١٢٤ ، والخمسين: ص ٣٤٣..

والحق أن الرازي في تضعيفه لحجة المتكلمين قد جانبه التوفيق، وذلك لأن الله تعالى حتى ولو أحدث موجوداً آخر فالمقصود حاصل، وفي ذلك يقول الغزالي - رحمه الله تعالى - : { وندعى أن السبب الذي أثبتناه لوجود العالم قديم، فإنه لو كان حادثاً لافتقر إلى سبب آخر، وكذلك السبب الآخر، ويتسلسل إما إلى غير نهاية، وهو محال، وإما أن ينتهي إلى قديم لا محالة يقف عنده، وهو الذي نطلبه ونسميه صانع العالم }، وهو كلام في غاية النفاسة انظر: الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٩..

فنقول: إنه سميع بصير، وأقوى الدلالة فيه السمع،^(١).. وهو قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه: ٤٦) وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٤) وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٦١) إلى غير ذلك من الآيات، والله تعالى فرّق بين السمع والبصر والعلم في اللفظ، ولا يجوز أن يكون معنى الكل واحداً، لأنه يلزم أن يقع في كلام الله تعالى مالا فائدة له، وذلك يوجب ركازة وضعفاً في الكلام، وهو محال في كلام الله تعالى، فثبت أنه تعالى قادر على عالم مرید متكلم سميع بصير باق قديم، وبالله التوفيق..

(١) يستند الرازي - رحمه الله تعالى - في الدلالة على صفتي السمع والبصر الثابتتين لمولانا - تعالى وتقدس - بالأدلة السمعية، وذلك لأن الأشاعرة يستدلون بالعقل أولاً على الصفات التي تدل على أفعاله تعالى، فإن لم يدل العقل لجأنا إلى السمع على حد تعبير السنوسي - رحمه الله تعالى -..

قارن حواش على شرح الكبرى: ص ١٩٥..

والرازي إذ يستدل بالآيات القرآنية على إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، نراه يضعف حجج المتكلمين العقلية، ويصفها بأنها ضعيفة، وإن كان في بعض كتبه مثل المعالم يرتكز على الأدلة العقلية دون اللجوء إلى السمع، والجدير بالذكر أن ممن تأثر بالرازي في الارتكان إلى السمع: العلامة السعد في شرح المقاصد، وكذا البيضاوي، والجلال الدواني - رحمهم الله تعالى -..

انظر: المحصل ص ١٧٢، والمعالم ص ٥٥، ومطالع الأنظار: ص ٣٧٣ - ٣٧٥، وشرح الجلال الدواني على العقائد: ص ١١٢ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٧٢/٢، وهوامش على النظامية: ٢٨٦ - ٢٨٨..

الباب الأول

الفصل الأول: فى إثبات صفة العلم لله تعالى^(١)

(١) صفة العلم هى: صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، تنكشف بها الواجبات والجائزات والمستحيلات انكشافاً تاماً دون سبق خفاء أو جهل..

وللفلاسفة فى تعريف العلم اختلاف عظيم، فتارة يفسره ابن سينا بأنه: التجرد عن المادة، ولا يخفى فساد ذلك، لأنه يكون أمراً عديمياً، وتارة يجعله من مقولة الكيف بالذات، ومن مقولة المضاف بالعرض، وعليه فيكون صفة حقيقية ذات إضافة كالقدرة ونحوها، وتارة أخرى يجعله عبارة عن: الصورة المرسمة فى الجوهر العاقل، المطابقة لماهية المعلوم، وأخيراً يجعله عبارة عن مجرد إضافة، وذلك بناءً على إثبات الوجود الذهنى الذى أثبتته الفلاسفة، وأتكره المتكلمون..

وانقسم الفلاسفة إلى ثلاث فرق:—

الأولى: وهم ينكرون علمه تعالى بذاته وبغيره، وهو رأى فلاسفة الأفلاطونية المحدثة، وتبعهم فى ذلك طائفة الإسماعيلية من الشيعة الغلاة..

الثانية: وهم يجوزون علمه تعالى بذاته دون غيره، وهو رأى أرسطو وأتباعه..

الثالثة: قالوا: إنه تعالى يعلم ذاته وبغيره، لكن علمه بغيره لا يتعلق بالجزئيات

المتغيرة إلا على نحو كلى، وهذا مذهب الفلاسفة الإسلاميين خاصة الفارابى وابن سينا..

وقد ذهب الأشاعرة ومن تبعهم إلى أن الله تعالى عالم بعلم واحد، قائم بذاته، قديم

أزلى، متعلق بجميع المتعلقات..

وأما المعتزلة فهم مختلفون أشد الاختلاف فى إثبات صفة العلم لله تعالى وبيانه كما

يلى:—

ذهب العلّاف إلى أن الله تعالى عالم بعلم هو ذاته، ويرى ضرار بن عمرو أن معنى

كونه تعالى عالماً: أى ليس بجاهل، وقال الجبائيان بالعالمية، ولكن أباً على يرى: أنه عالم بذاته دون علة أو حال، وأبو هاشم يرى: أنه عالم بذاته أى: ذو حالة زائدة لا توصف بوجود لا عدم..

وذهب أبو الحسين البصرى إلى أن علمه تعالى بالكلية أزل، وبالجزئيات متجدد. ومن رأى جهنم بن صفوان أنه تعالم عالم بعلم لا فى محل، وهو مع ذلك متجدد بتجدد الأحداث، متعدد بتعدد الكائنات، وكأن أباً الحسين البصرى قد استفاد رأيه منه. الاستدلال على صفة العلم الإلهى:—

استدل الأشاعرة على ثبوت صفة العلم لله تعالى بطريقتين:—
أحدهما: دليل الإحكام والإتقان وحاصله: أن العالم منسق ومنظم ومدير على أحسن تنسيق وتنظيم وتدبير، وكل شيء فيه يسير نحو غاية معينة مرسومة، وذلك يدل على علم خالقه تعالى..

ويلاحظ أن هذا الدليل قد استخدمه الأشعرى والباقلاني للدلالة على وجود الله تعالى، وتبعهما فى ذلك: ابن رشد، ولكن منذ إمام الحرمين نجد أن الأشاعرة قد استغنوا عن هذا الدليل، وأحلوا مكانه دليل الحدوث أو الإمكان، وجعلوا فقط دليل العناية والإتقان للدلالة على صفة العلم الثابتة لمولانا - تعالى وتقدس...—

ثانيهما: دليل القدرة والاختيار وحاصله: أن الله تعالى لا يعلم شيئاً إلا إذا قصدَه واختاره، ولا يتصور القصد والاختيار إلا من عالم.

ويرى صاحب المقاصد - تبعاً للرازي - أن الدليل الثانى هو المعوّل عليه لإثبات صفة العلم لمولانا، وعلة ذلك أن ثمة اعتراضاً صعباً على طريقة الإتقان حاصله: أن من الجائز أن يوجد البارئ تعالى موجوداً تستند إليه تلك الأفعال المتقنة المحكمة..

ويجاب على ذلك بأن إيجاد هذا الموجود المقترض هو أيضاً فعل محكم، بل أكثر إحكاماً، ولا يتم ذلك إلا ببيان أنه تعالى قادر مختار، ويرى العلامة الأمير فى حاشيته الرائعة على الجوهرة أنه من الممكن إيراد هذا الاعتراض بعينه على طريق القدرة والاختيار.

واستدل الفلاسفة على إثبات صفة العلم الإلهى بأنه تعالى وجود مجرد عن المادة، وهو عقل وعافل؛ لأنه يعقل ذاته هوية مجردة، فإذاً الله تعالى يعقل ذاته، وهو أيضاً يعلم

اختلفت العقلاء فى عالمية الله تعالى، وقادريته، وحياته، وقد ذهب الملاحدة إلى أن معنى كونه عالماً: أنه غير جاهل^(١) ومعنى كونه قادراً: أنه غير عاجز^(٢). وذهب أبو الحسين^(٣) إلى أن عالميته عين ذاته المخصوصة لا زائداً^(٤)

الجزئيات بنحو كلى، أى عن طريق معرفة قوانينها العامة؛ لأنه علتها، والعلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول..

وبالتالى فقد رفض الفلاسفة أدلة المتكلمين التى استدلوا بها على إثبات صفة العلم الإلهى، وذلك لأن دليل الإحكام والإتقان لو قال به الفلاسفة؛ لالتزموا القول بأن علمه تعالى بالجزئيات يتم على نحو جزئى، وكذا دليل القصد والاختيار؛ لأنه قائم على إثبات صفة الإرادة لله تعالى، والفلاسفة ينفون القصد عنه تعالى، ويرجعون الإرادة إلى مجرد العلم وعدم الغفلة.. لمزيد من التفاصيل انظر :-

شرح البيجورى على الجوهرية: ص ٤٣، الأربعين للرازى: ص ١٣٦ - ١٣٩ - ١٤١
مقالات الإسلاميين للأشعرى ١٥٧/٢ - ١٥٨، نهاية الأقدام للشهرستانى: ص ٢٢١، اللمع للأشعرى: ص ٢٤ وما بعدها، الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٦١ - ٦٢، الاقتصاد للغزالي: ص ٤٧، مناهج الأدلة لابن رشد: ص ١٥٠ وما بعدها، شرح المواقف: ٨ / ٦٤ - ٦٦، وشرح المقاصد: ٢ / ٦٥ - ٦٦ وما بعدها، شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ١٥٩، المحصل للرازى: ١٦٥، حاشية الأمير على الجوهرية: ص ٦٣، شرح الجلال الدوانى على العقائد العضدية: ٢/٢، وغير ذلك..

(١) قدمنا أن هذا هو رأى ضرار بن عمرو ، ونسبه الرازى فى المطالب العالية إلى قدماء المتكلمين. انظر المطالب العالية: ٦٦/٣.

(٢) انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى : ١٥٧/٢.

(٣) هو أبو الحسين البصرى من رعوس المعتزلة، وقد تقدمت ترجمته.. انظر ص : ٤٩..

(٤) يقول أبو الحسين البصرى بنفى الأحوال متابعاً لجمهور الأشاعرة، ولكنه مال إلى مذهب هشام بن الحكم بعض الميل، حيث قضى بتجدد أحوال البارئ تعالى عند تجدد الكائنات، وجعل وجوه التعلقات أحوالا إضافية. انظر نهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٢٢١..

وذهبت الفلاسفة إلى أن المعنى بكونه عالمًا: ارتسام صورة المعلوم في ذاته^(١) وذهب أصحابنا مع أكثر المعتزلة إلى أن العالمية معناها : إضافة مخصوصة تحصل بين العالم والمعلوم، وكذا القادرية والمريديّة،^(٢) وهؤلاء اختلفوا أيضاً،

(١) يرى الفلاسفة أن العلم هو حصول صورة الشيء عند العقل، ويعنون به: حصول ماهية المدرك للذات المجردة. وفي ذلك يقول ابن سينا: إدراك الشيء هو أن تكون حقيقته متمثلة عند المدرك، يعنى حاضرة عنده، من قولهم: مثل بين يديه مثلاً، أى انتصب عنده قائماً، وبتعبير آخر العلم عندهم هو: الصورة المساوية للمعلوم وقد أورد الإمام الرزى — رحمه الله تعالى — عليهم عدة اعتراضات من أهمها:—

أ — إنكم تجعلون العلم تارة حصول الصورة، وتارة نفس الصورة، ولا شك في الفرق بينهما.

ب — ومثل أنه يلزم أن يكون الحجر عند حصول السواد له عالمًا بالسواد.

ج — ومثل أنه يلزم أن يكون الذهن عند العلم بالنار، وبالسواد، وبالأعوجاج مثلاً، حاراً وأسوداً أو معوجاً ويلزم عند الحكم بتضاد السواد والبياض، أو الاستقامة والأعوجاج، اجتماع المتضادين.

د — ومثل أنه يلزم أن يكون الذهن أعظم مقداراً من كل شيء، حتى يمكن حصول الجبل بعظمه، بل حصول السماء، بل حصول كل عالم الأجسام فيه عند العلم بها. انظر: تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسي: ص ١٣٦ — ١٣٧.

(٢) هذا هو حاصل مذهب الأشاعرة وهو أن العلم عبارة عن إضافة مخصوصة تحصل بين العالم والمعلوم، ولتوضيح ذلك يقول الرازى فى الأربعين: { إن كل من علم أمراً من الأمور، فإنه لا بد وأن يحصل بين العلم وبين المعلوم نسبة مخصوصة، هذه الإضافة هى التى يعبر عنها المتكلمون بالتعلق، فيقولون: العلم متعلق بالمعلوم.

وعندنا: أن العلم عبارة عن نفس هذا التعلق، وعن نفس هذه الإضافة المخصوصة، وندعى أن هذه الإضافة والنسبة مغايرة لنفس الذات. فالعلم مع هذه الإضافة المخصوصة أمران، لا أمر واحد. انظر: الأربعين فى أصول الدين ص ١٥ .

فذهب أبو هاشم^(١) ومتبعوه إلى أن للبارى تعالى خاصية واحدة تقتضى له ثلاثة أحوال وهي: العالمية والقادرية والحيية^(٢)، وذهب القاضى أبو بكر^(٣) إلى أن هذه الإضافات صادرة عن الأحوال معللة بعلة قائمة بالذات^(٤)، وذهب شيخنا أبو الحسن^(٥) إلى أن المعنى بالعلم والقدرة هذه الإضافات فقط، وأنها تلحق ذات البارى تعالى من غير علة زائدة على الذات، والذي يصحح هذه الحكاية عنه ﷺ ما استقر من مذهبه: أن العلم والعالمية واحد، وإن كان ينكر العلة والمعلول فلا يخلو إما أن يثبت هذه الإضافات للبارى ويحكم بتعليلها بعلة قائمة بالذات، فيكون هذا مناقضا لقوله: العالمية والعلم واحد، أو ينفي هذه الإضافات، ويثبت ذاتا موجودة من غير إضافة بينها وبين المعلوم، فلا يكون ذلك علما، ولا الموصوف به عالما، فلم

(١) أبو هاشم الجبائى هو: عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام، أبو هاشم الجبائى المعتزلى البغدادى، من أبناء أبيان مولى عثمان، من كبار علماء المعتزلة، له آراء انفرد بها، وتبعته فرقة تسمى { بالبهشمية }، وله مصنفات فى الاعتزال، ولد سنة ٢٤٧هـ، وتوفى سنة ٣٢١هـ. كشف الظنون: ٥٦٩/٥.

(٢) هذه الخاصية يسميها أبو هاشم بالإلهية، قال السعد فى شرح المقاصد: { ذات الواجب تماثل سائر الذوات، أو بحالة خامسة تسمى بالإلهية هى الموجبة لهذه الأربع }. انظر شرح المقاصد: ١٥/٣..

(٣) القاضى أبو بكر الباقلاى تقدمت ترجمته، انظر ص ٨٢..

(٤) يقول الرازى فى الأربعين: { وأما القاضى أبو بكر الباقلاى، فظاهر كلامه يشعر بإثبات أمور أربعة: الذات والعلم، ثم العلم يوجب العالمية — هذه أمور ثلاثة — ثم هاهنا أمر آخر، وهو أنهم أثبتوا — يقصد الباقلاى ومن تبعه بناءً على قوله بالحال — هذا التعلق للعالمية لا للعلم أو للعلم والعالمية. وعلى هذا التقدير يكون الحاصل هناك أمور أربعة } ويعلق الرازى على هذا رأى بقوله: { وأكثر من تقدمنا ما بحثوا عن هذه الفروق، فلذا بقيت مخبطة غير ملخصة } انظر الأربعين فى أصول الدين: ص ١٥٠ وما بعدها.

(٥) الشيخ أبو الحسن الأشعري — — تقدمت ترجمته، انظر ص ٣١..

يبقى إلا القطع بأنه كان متردداً.

والجواب عنه أن نقول: إن عنيتم بقدمه وجوب وجوده، فلا يجوز أن يكون ذلك صادراً عن صفة النفس، إذ كل ما يجب لغيره، فإنه يلزم من فرض عدم ذلك الغير عدمه، وكل ما هذا حاله لا يكون وجوب وجود، بل يكون إمكان وجود، فثبت أنه لا يجوز أن يكون وجوب الوجود مقتض من الصفة النفسية،^(١) بل هو الصفة النفسية، لكن لا يلزم من الاشتراك فيها أن تكون كل صفة من الصفات عالمة قادرة حية، لأن العالم إنما يكون عالماً بعلم قائم به فلو كان علم الله عالماً لقام به علم، ثم ليس بأن تكون الذات عالمة بأحد العلمين بأولى من أن تكون عالمة بالعلم الثاني، ويلزم منه الجمع بين المتماثلين، فلأجل هذا استحال أن تكون كل صفة موصوفة بصفات الألوهية، وهذا واضح..

ويمكن أن يقال أيضاً: بأن كل واحد من الذات والصفات واجبة الوجود، لكن وجوب الذات يخالف وجوب كل واحدة من الصفات، كما أن وجود البارئ يخالف وجود الحوادث على القول بنفى الحال،^(٢) ومن الأصحاب من قال: إن صفات الله تعالى غير واجبة بذواتها، بل هي ممكنة بذواتها، واجبة بإيجاب الذات،^(٣). وهذا ما

(١) الصفة النفسية هي: التي تدل على نفس الذات دون معنى زائد عليها، وعبر عنها الأشاعرة بالوجود، فالوجود صفة نفسية على رأى جمهور الأشاعرة.

(٢) انظر ص: ٥٤ وما بعدها.

(٣) يعرض الرازى - رحمه الله تعالى - هنا لرأى فى غاية الخطورة وهو: القول بإمكان الصفات أو وجوبها، فصفاته تعالى أمور ممكنة فى ذاتها واجبة بغيرها، ومن الغريب أن الرازى ينسب هذا الرأى إلى بعض الأشاعرة، ولكنه اعتنق هذا الرأى فيما بعد ودافع عنه دفاعاً مستميتاً، وإليك بيان ذلك:—

بدأ الرازى حياته العلمية أشعرياً يعتنق المذهب الأشعري من حيث إثبات الصفات، وزيادتها على الذات، وأنها لا هى ولا غيره، كما نفى الرازى الأحوال الخمسة التى قال بها

أبو هاشم الجبائي وأتباعه من المعتزلة ولكن بمرور الوقت وتبعاً لتأثره بالفلاسفة ذهب إلى القول بإمكان الصفات ومعنى ذلك: أنها تجب بذات الله تعالى على معنى أن ذاته تعالى هي المؤثرة في إيجادها — مع قدمها —.

وهذا القول يجر إلى إشكالات كثيرة من أهمها: هدم دليل حدوث العالم الذي هو عمدة المذهب الأشعري، وهو أمر لمسّه الرازي بنفسه حيث قال في الأربعين: { إذا كانت الصفات ممكنة، ووجودها حاصل بتأثير الذات، وهي في نفس الوقت قديمة قدم الذات، فقد أقررت بأن استناد الأثر إلى المؤثر لا يتوقف على الحدوث، فكيف نستطيع إذن أن نثبت أن العالم محدث بناء على قولك إن كل ممكن محدث ؟ }.

ويعلق الرازي على ذلك بقوله: وقلنا هذا السؤال صعب، وهو ما نستخير الله تعالى فيه. انظر الأربعين في أصول الدين: ص ٤٧، والمعالم: ص ٦٠ — ٦١، وغير ذلك.

وقال قريب من قوله العلامة السعد في شرح العقائد النسفية حيث قال ما نصه: { إن صفات الله تعالى ممكنة في ذاتها، وهي مع ذلك قديمة، ولا استحالة في ذلك؛ لأن المستحيل هو تعدد الذوات القدماء، لا وجود ذات وصفات } . انظر: شرح العقائد النسفية: ص ٥٩ — ٦٠.

والحق أن هذا الرأي ثابت عن الإمام الرازي — رحمه الله تعالى — وقد قاله في التفسير الكبير حيث أثبت أن صفتي القدرة والعلم قائمتان بالذات ممكنتان بذاتيهما، واجبتان بواجب الوجود. التفسير الكبير: ١٧٣/١٢.

والرازي لا شك قد أخطأ في هذا الرأي، ولا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نقبله منه، لأنه قد تجاوز — بحق — عن مذهب الأشاعرة، وقد عقد متأخرو الأشاعرة فصولاً للرد على الرازي في مقالاته الشنيعة هذه، موضحين تأثره بالفلاسفة في ذلك وتوضيح ذلك كما يلي:—

يقول العلامة السنوسي — رحمه الله تعالى — نقلاً عن شيخه ابن التلمساني: { ولما اعتقد الفخر صحة هذه الحجة يعنى شبهة الفلاسفة في أن الافتقار بمعنى مطلق التوقف يوجب الإمكان، وأن كل مركب يفتقر إلى جزئه، وجزؤه غيره، والمفتقر إلى الغير لا يكون إلا ممكناً، وتوهم التركيب باعتبار الصفات، واستعمل هذه المقدمات في الاستدلال على إمكان كل ما سوى الله تعالى فاستشعر النقص بصفات الله تعالى، فقال مرة: هذا مما نستخير الله تعالى فيه يعنى

اختاره الشيخ أبو حامد الغزالي ^(١) هذا جملة ما يجب تحقيقه في هذا الفصل.

القول بإمكانها من حيث ذاتها، وجزم أخرى وصرح والعياذ بالله بكلمة لم يسبق إليها فقال: هي ممكنة باعتبار ذاتها واجبة بوجوب ذاته جل وعلا، وضاهى في ذلك قول الفلاسفة: إن العالم ممكن باعتبار ذاته، واجب بوجوب مقتضيه، ونعوذ بالله من زلة العالم..

انظر حواشى على شرح الكبرى للسنوسى: ص ٢٣٤ - ٢٣٥، وقارن حاشية الأمير:

ص ٥٨

ولكننا نميل إلى أن الرازى - رحمه الله تعالى - قد عدل عن هذا رأى، ومال في أخريات حياته إلى طريقه القرآن التى تقوم على التفريق بين عالم الغيب والشهادة، والبعد عن التعمق فى المسائل الإلهية التى هى فوق إدراك العقل الإنسانى، خاصة وأنه قال فى المعالم: {وعقول البشر قاصرة عن الوصول إلى هذه المضايق}..

ويتجلى هذا الاتجاه على أروع ما يكون فى كتابه أقسام اللذات الذى ألفه قبل وفاته بسنتين، وكذا فى وصيته حيث يرى أن من الأسلم والأحوط أن يتجنب البحث فى مسائل الصفات الإلهية على طريقة العقل..

(١) هو حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الإمام أبو حامد الغزالي الطوسى الشافعى، ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفى سنة ٥٠٥هـ، أشهر من أن يعرف به، من مؤلفاته: إحياء علوم الدين، الاقتصاد فى الاعتقاد، المنقذ من الضلال، وغير ذلك الكثير. انظر ترجمته فى: المنقذ من الضلال، وكشف الظنون: ٧٩/٦ - ٨٠.

ولقد نسب الرازى إليه هنا القول بإمكان الصفات، ووجوبها بوجوب الذات، والحق أن الغزالي - رحمه الله تعالى - برىء من تلك الفرية التى نسبها إليه الرازى، لأننا لم نعثر فى أى من مؤلفات الغزالي على نص يقترب من هذا رأى، ولعل الرازى أطلع على هذا رأى فى الكتب المدسوسة على الغزالي والمسماة بالمضنون به على غير أهله، فاعتقد أن هذا رأيه، وهو خطأ بين.

استمع إلى الغزالي يقول: {فالواجب هو ذات الله وصفاته، والجائز هو جميع الممكنات}. انظر: منهاج العارفين للغزالي: ص ٢٠٢، الاقتصاد فى الاعتقاد: ص ٦٠ وما بعدها، تهافت الفلاسفة: ص ١٤٧ وما بعدها، وغير ذلك..

الفصل الثانی

فی إقامة الدلالة على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات^(١)

(١) فصل الرازی - رحمه الله تعالى - فی غیر هذا الموضع أقوال المخالفین فی هذه المسألة،

وأدلتهم على أقوالهم، ورداً على تلك الشبه ردوداً ممتعة، ونحن نلخصها فيما يلي:-

قسم الرازی المخالفین فی هذه المسألة إلى طوائف، وبيانهم كالتالي:-

- الذين يقولون إنه يمتنع كونه تعالى عالماً بذاته، واحتجوا على ذلك بدليل حاصله:

أن كون الشيء عالماً بالشيء: إضافة مخصوصة بين العالم وبين المعلوم، وهذا لا يحصل إلا بين الشئین، فالشيء الواحد من جميع الوجوه يمتنع كونه عالماً بنفسه، وهذا بخلاف علم الواحد منا بنفسه، فإن نفس الواحد منا ليست منزهة عن جميع جهات التركيب، فلا جرم صح في الواحد منا أن يعلم نفسه.

والجواب: قد دللنا على أنه تعالى عالم بشيء ما، وكل من علم الشيء أمكنه أن يعلم

كونه عالماً بذلك الشيء، ومن علم ذلك فقد علم نفسه، فثبت أنه تعالى عالم بنفسه.

- الذين يقولون بكونه تعالى عالماً بذاته المخصوصة، لكنهم ينكرون كونه عالماً

بغيره.

واحتجوا على ذلك بأن قالوا: لو كان الباري تعالى عالماً بالمعلومات الكثيرة؛ لوجب

أن يحصل في ذاته بحسب كل معلوم، علم على حدة، وعلى هذا التقدير يحصل في ذاته كثرة لا نهاية لها. وذلك محال.

والجواب: ليس العلم عبارة عن الصور المساوية للماهيات المعلومات المنطبعة في

ذات العالم، بل العلم عبارة عن نسب مخصوصة، وإضافات مخصوصة بين ذات العالم وذات

المعلوم، وإذا كان كذلك، فكونه عالماً بالمعلومات الكثيرة، يقتضي أن يحصل لذاته نسب كثيرة،

وإضافات كثيرة، وهذا لا يقدر في وحدة الذات. بدليل: أن الواحد نصف الاثنين، وثلاث الثلاثة،

وربع الأربعة وهكذا إلى ما لا نهاية له من النسب، ولم يقدح في كون الواحد وحدة، وكذلك القول في هذه المسألة.

— الذين سلموا كونه تعالى عالماً بالماهيات الكلية، لكنهم منعوا من كونه تعالى عالماً بالمتغيرات، من حيث هي متغيرة وقد فصلنا حجتهم والرد عليهم في هامش سابق. انظر: ص ٧٨-٧٩.

— الذين قالوا: إنه تعالى في الأزل كان عالماً بحقائق الأشياء وماهياتها، وأما العلم بالأشخاص والأحوال، فذلك إنما يحصل عند حدوث تلك الأشخاص.

وهذا مذهب { هشام بن الحكم } — من علماء الشيعة —، ومذهب { أبي الحسين البصري } كأنه لا يتمشى إلا بالتزام هذا المذهب.

واحج هشام بن الحكم على هذا المذهب بوجوه:—

الأول: أن المعلوم متميز، والشخص قبل وجوده نفى محض، فلا يكون في نفسه متميزاً، فلا يصح أن يكون معلوماً

والجواب: إن هذا منقوض بعلمنا بالمعدومات الشخصية قبل وقوعها، كعلمنا بطلوع الشمس غداً.

الثاني: أنه تعالى لو علم الأشياء قبل وقوعها، فكل ما علم فهو واجب الوقوع؛ لأن عدم وقوعه يفرض إلى انقلاب العلم جهلاً وهو محال، والمؤدى إلى المحال محال، فعدم وقوعه محال، فوقوعه واجب، وحينئذ يلزم الجبر، وأن لا يتمكن الحيوان من فعل أصلاً، بل يكون كالجماد؛ لأن ما علم وقوعه فهو واجب، وما علم عدمه فهو ممتنع.

والجواب: التزام أن ما علم الله تعالى وقوعه فهو واجب الوقوع.

الثالث: لو كان تعالى عالماً بكل ما سيدخل في الوجود، لكان عالماً بعدد ما يدخل في الوجود من حركات أهل الجنة وأهل النار، وكل ما كان عدده معلوماً، كان متناهيًا، فيلزم إثبات النهاية لثواب أهل الجنة، ولعقاب أهل النار، وذلك محال. فعلمنا أنه تعالى لا يعلم هذه المتغيرات إلا عند وقوعها.

والجواب: أنه تعالى إنما يعلم الشيء كما هو، فإن كان له عدد محصور علمه كذلك، وإن كان له عدد غير محصور، كان علمه كذلك.

— الذين ينكرون كونه تعالى عالماً بما لا نهاية له من المعلومات، واحتجوا على ذلك

بوجوه:—

الأول: أن المعلومات تتطرق إليها الزيادة والنقصان، فإن بعضها أقل من كلها، وكل ما كان كذلك فهو متناه فالمعلوم متناه.

والجواب: أن تطرق الزيادة والنقصان إلى شيء لا يدل على التناهي، وكذلك فإن علم الله واحد، وإنما تعلقاته غير متناهية، وهذه التعلقات نسب وإضافات، ودخول اللانهاية في النسب والإضافات غير ممتنع، كما بينا أن الواحد نصف الاثنين، وثلاث الثلاثة، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

الثاني: أن كل ما كان معلوماً فهو متميز عن غيره، وكل ما كان متميزاً عن غيره، فغيره خارج عنه، وكل ما كان غيره خارجاً عنه، فهو متناه، فكل معلوم متناه، فما ليس بمتناه وجب ألا يكون معلوماً.

والجواب: أن المتميز كل واحد منهما وهو متناه.

الثالث: مقدورات الله تعالى أقل من معلوماته، والأقل من غيره متناه، فمقدوراته متناهية، ومعلوماته أضعاف مقدوراته، وأضعاف المتناهي متناه، فمعلوماته متناهية.

والجواب: إن قولنا — أى الأشاعرة — المقدورات أقل من المعلومات، هو أن العلم يتعلق بالواجب والممتنع والجائز، والقدرة لا تعلق لها إلا بالجائزات.

— ومن المخالفين من ينكر كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، واحتجوا بما يلي:—

الأول: لو علم جميع المعلومات، لكان إذا علم شيئاً علم كونه عالماً به، وعلم أيضاً كونه عالماً بكونه عالماً، ويترتب هناك مراتب غير متناهية، وإذا كانت معلوماته غير متناهية، وله بحسب كل معلوم مراتب غير متناهية، كانت الصفات غير متناهية، لا مرة واحدة، بل مراراً غير متناهية.

والجواب: أن لا نهاية في النسب والتعلقات، وعلم الله واحد، ودخول ما لا نهاية له

في النسب والإضافات غير ممتنع كما تقدم.

الثاني: أنه لو كان عالماً بجميع المعلومات، سواء كانت واقعة، أو ممكنة الوقوع، فإذا

علم الله تعالى جوهرًا فرداً، فذلك الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البذل،

اعلم أن المقتضى لكونه تعالى عالماً بالمعلومات^(١) إما أن يكون هو ذاته على رأى قوم،^(٢) ومعنى قائماً بذاته على رأى آخرين^(٣) فكيفما كان فإن نسبة ذاته أو المعنى القائم بذاته إلى معلوم كنسبته إلى سائر المعلومات، فلو لم يقتض التعلق ببعض المعلومات استحال أن يقتضى التعلق بشيء منها، وذلك كما بيناه مستحيل،^(٤) بخلاف عالمية الواحد منا، فإنه ليس المقتضى لكوننا عالمين سوى ذواتنا حتى يلزمنا ذلك، بل العالمية شاهداً تحصل بالفاعل، فظهر الفرق، وأيضاً:

وفى أزمنة غير متناهية على البذل. فهذه المراتب لا نهاية لها، لا مرة واحدة، بل مراراً لا نهاية لها، وكل ذلك محال فى جوهر فرد، وجزء لا يتجزأ، ومعلوم أن استحضار العلم المنفصل بهذه المراتب دفعة واحدة مما لا يقبله العقل.

والجواب: أنها محض التعجب، ولا عبرة بذلك فى صفات الله تعالى، فإن كمالها وجلالها أعظم من أن يحيط به عقول البشر. وهذا جواب إقتاعى لا نرتضيه من الإمام الرازى — رحمه الله تعالى —. انظر: الأربعين فى أصول الدين: ص ١٣٣ — ١٤٠ والمحصل: ص ١٧٥ — ١٧٨، وقارن نقد الطوس للرازى حيث اتهمه بالتحير والتخبط فى الآراء وعدم الثبات عليها.

(١) استدلال الرازى — رحمه الله تعالى — فى غير هذا الموضع على كونه تعالى عالماً بالمعلومات بدليل حاصله:—

أنه ﷺ حى. وكل من كان حياً، فإنه يصح منه أن يعلم كل واحد من المعلومات، والموجب أيضاً لهذه العالمية: هو ذاته، ونسبة الذات إلى الكل على السوية، فلم يكن بأن توجب ذاته كونه عالماً بالبعض أولى من أن توجب كونه عالماً بالباقي، فلما أوجب كونه عالماً بالبعض، وجب أن يكون كونه عالماً بالباقي، فثبت: كونه تعالى عالماً بكل المعلومات.. انظر الأربعين فى أصول الدين: ص ١٣٣، والمحصل: ص ١٧٥..

(٢) هذا هو رأى المعتزلة حيث قال أكثرهم: إن علمه تعالى عين ذاته، لا بأمر زائد عليها..

(٣) هذا هو رأى الأشاعرة..

(٤) انظر ص ٧٩ وما بعدها..

فلأنه لا شيء إلا ويصح أن يعلمه الواحد منا، ولا يعلمه الواحد منا إلا إذا قام بذاته علم بذلك المعلوم، ولن يقوم بذاته علم بذلك المعلوم، إلا إذا خلق الله فيه ذلك العلم،^(١) ويستحيل من الله أن يخلق ذلك العلم، إلا إذا كان عالماً بمعلوم ذلك العلم، وإلا لم يصح خلق ذلك العلم دون غيره من العلوم، فإذن لا معلوم إلا وهو معلوم الباري تعالى..

فإن قيل: العلم إما أن يكون هو: ارتسام صورة المعلوم في العالم،^(٢) أو هو إضافة تحصل بين ذات العالم والمعلوم،^(٣) وعلى التقديرين فإنه يلزم منه استحالة أن يعلم الباري وجود الأشياء قبل وقوعها^(٤)، لأنه إن كان الأول: فيلزم منه ارتسام

(١) يفرق الرازي هنا بين علم الله القديم، وعلم الإنسان الحادث، أو بتعبير المتكلمين العلم الفعلي، والعلم الانفعالي، أما العلم الفعلي فهو: ما لا يؤخذ من الغير، وأما العلم الانفعالي فهو: ما أخذ من الغير.

(٢) هذا على رأى الفلاسفة كما سبق بيانه. انظر المطالب العالية: ٦٥/٣.

(٣) هذا على رأى جمع عظيم من الحكماء والمتكلمين كما يقول الرازي رحمه الله تعالى: { وهو المختار عندنا وهو الحق وذلك لأننا إذا علمنا شيئاً فإننا نجد بين عقولنا وبين ذلك المعلوم نسبة مخصوصة، وإضافه مخصوصة ولهذا السبب فإنه ما لم يحصل فى مقابلة الشيء الذى هو العالم شيء آخر هو المعلوم، امتنع حصول الأمر المسمى بالعلم، وبالجمله: فحصول هذه النسبة عند حصول الأمر المسمى بالعلم وبالإدراك وبالشعور، كالأمر المعلوم بالبديةة { انظر المطالب العالية: ٦٥/٣.

والجدير بالذكر أن قول الفلاسفة فى تفسير العلم بأنه عبارة عن الصورة الحاصلة فى ذهن المعلوم بناءً على إثباتهم للوجود الذهني، ولكن المتكلمين أنكروا الوجود الذهني، ومن ثم جعلوا العلم عبارة عن نسبة متحققة بين العالم والمعلوم، أو صفة حقيقية قائمة بذات العالم موجبة للعالمية الموجبة لهذه النسبة. انظر نشر الطوابع: ص ٤٣.

(٤) انظر الأربعين: ص ١٣٧، والمحصل: ص ١٧٧ - ١٧٨، وهذا هو رأى هشام بن الحكم من الشيعة، والتزمه أبو الحسين البصري من المعتزلة.

صورة زيد بشكله وتخطيطه في ذات البارى تعالى، وذلك يوجب أن يكون جسماً على ما بيّن في الكتب،^(١) وإن كان الثانى: فمن المعلوم أن الإضافة إنما تتحقق بين وجود شىء، والشىء قبل وجوده غير موجود، فيستحيل أن يحصل بين ذات العالم وبينه إضافة^(٢)..

والجواب عنه وبالله التوفيق أن نقول: علم البارى تعالى بالأشكال والصور قبل وجودها، وعلى هذا إن علمنا بها قبل وقوعها، فإذا لم يمتنع ذلك فى حق واحد منا، وجب ألا يمتنع فى حق البارى تعالى.

فإن قالوا: الواحد منا إنما يعلم صورة زيد قبل وجوده، لارتسام صورته فى دماغه، وذلك فى حق البارى تعالى محال.

قلنا: قد أفسدنا هذا المذهب من وجهين:—^(٣)

أحدهما: أنه لو كان كذلك لما تخيل المرء من الأجسام إلا بمقدار محل

(١) انظر على سبيل المثال: اللمع للأشعرى: ص ٢٣ — ٢٤، والتمهيد للباقلانى: ص ١٩١، والإرشاد للجوينى: ص ٤٢ — ٤٤، والاقتصاد للغزالى: ص ٢١، وإلجام العوام عن علم الكلام له أيضاً: ص ٦—٧، وشرح المواقف ٢٠/٨ وأبكار الأفكار للآمدى: ١٤٠/٢ وغير ذلك.

(٢) انظر الأربعين: ص ١٣٧، والمحصل: ص ١٧٧ — ١٧٨.

(٣) ذهب البعض إلى أن العلم هو: انطباع صورة مساوية للمعلوم فى ذهن العالم. وهو رأى باطل لأنه يلزم منه أن يكون العالم بالحرارة والبرودة حاراً بارداً وربما يقول البعض: المنطبع صورته ومثاله.

ويرد الرازى: الصورة والمثال إن كان مساوياً فى تمام الماهية للمعلوم لزم المعذور — يعنى أن يكون العالم بالحرارة والبرودة حاراً بارداً — وإلا يطل قولهم. أيضاً يلزم على هذا رأى أن من تخيل البحر فقد حضر فى خياله تمام ماهية البحر، وذلك باطل بالبديهة. انظر المحصل: ص ١٠٠ — ١٠١.

الجبال، وذلك باطل؛ لأننا نتخيل السماوات والأرضين دفعة واحدة، فبطل ما قالوه.

والثاني: أنه يلزم الجمع بين صورة سواد جزئي في بياض جزئي في القوة الحاكمة^(١) بأن أحدهما يضاد الآخر؛ لأنه ما لم يجتمعا فيه لم يمكنه الحكم عليهما بالتضاد، والجمع بين الأضداد محال، فظهر فساد مذهبهم في ذلك. ولأننا نعلم عدم شريك الله تعالى، وعدم الجمع بين السواد والبياض، وليس لعدم شريك الله تعالى، ولا لعدم الجمع بين السواد والبياض ماهية وحقيقة^(٢)، حتى يكون بينها وبين العالم

(١) القوة الحاكمة هي المرادفة للقوة العقلية التي تدرك الكليات وتحكم بينها بالنسبة الإيجابية أو السلبية وتسمى بالقوة النظرية، والعقل النظري، وتسمى بالقوة العملية والعقل العملي باعتبار استنباطها للصناعات الفكرية ومزاولتها للرأى والمشهورة في الأمور الجزئية. انظر تعريفات: ص ١٥٨..

(٢) هذا من قبيل المستحيل العقلي الذي هو لا يقبل الثبوت أصلاً، ولا وجود له إلا في الذهن، ومنه شريك البارئ تعالى، والجمع بين المتضادين كالسواد والبياض في آن واحد. بقيت نقطة أخيرة خاصة بمسألة العلم وهي: وحدة هذه الصفة ونقول: —

ذهب الأشاعرة إلى أن علم الله تعالى زائد على ذاته، وأنه واحد غير متغير، ولكن الرازي في المحصل ذهب إلى قول أبي سهل الصعلوكي الذي يقول فيه: { إن الله تعالى بحسب كل معلوم علماً } ويعقب الرازي على ذلك بقوله: { وهو الوجه ليس إلا }. انظر المحصل: ص ١٦٨..

ومن جانبنا فإننا نعتقد أن الرازي لا يدين بهذا الرأى خاصة وأنه مخالف لرأيه الموجود في سائر كتبه والذي حاصلة: أن علمه تعالى واحد، وربما كانت عبارة المحصل تفيد توضيح رأى الصعلوكي وتأكيد.

وأما عن وقوع التغير في العلم: فقد التزم الرازي في "المطالب العالية" قول أبي الحسين البصري الذي يرى فيه أن العلم يتغير بتغير المعلوم، ومعنى قوله: أن العلم واحد، ولكنه متغير الحوادث، لا بمعنى أن الله تعالى صفات علم كثيرة حادثة متغيرة، كما هو رأى جهم بن صفوان، وهشام بن الحكم.

إضافة وتعلق، وإذا لم يكن لها ثبوت استحال أن يكون سبب إدراكه: ارتسام صورته فى ذات العالم؛ لأن ما ليس له ثبوت، كيف ترتسم صورته فى ذات العالم؟ فثبت أنه لا يتوقف حصول العلم على حصول المعلوم، ولا على ارتسام صورته فى العالم، فبطلت جميع تمويهاتهم، وبالله التوفيق.

قال فى المطالب العالية: { والمذهب الصحيح هو قول أبى الحسين البصرى وهو: أن يتغير العلم عند تغير المعلوم } انظر المطالب العالية: ٢٨٤/١ وما بعدها..
وأكبر الظن أن الرازى لم يثبت على هذا رأى، وربما كان قوله الآنف الذكر لتوضيح أن المذهب الصحيح عند المعتزلة هو قول أبى الحسين البصرى لا عنده، وذلك لأنه اعتمد فى أخريات حياته على طريقة القرآن التى هى الأسلم والأحوط فى كل المسائل الإلهية، خاصة وأنه فى "المطالب العالية" قد أشار إلى أنه من الأسلم والأحوط عدم البحث فى ذلك، لوقوع العقل فى حيرة من أمره، لأن البحث فى الصفات الإلهية فوق مستوى العقل الإنسانى. انظر المطالب العالية: ٢٨٢/١ وما بعدها.

الباب الثانى

فى صفة القدرة^(١)

(١) صفة القدرة هى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، يتأتى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق علمه تعالى وإرادته والقدرة تتعلق بالممكنات لا بالواجبات والمستحيلات، ومن ثم فلها تعلقات ثلاثة:-

— تعلق صلوحى قديم: ومعناه صلاحيتها فى الأزل للإيجاد والإعدام فيما لا يزال.
— تعلق تنجيزى حادث: ومعناه صلاحيتها فيما لا يزال باستمرار الوجود بعد العدم، أو إبرازها بالفعل للممكنات.

— تعلق قبضة: ومعناه صلاحيتها فيما لا يزال باستمرار العدم بعد الوجود، بمعنى أن الممكن فى قبضة القدرة، فإن شاء الله تعالى أبقاه على عدمه، أو على وجوده، وتتعلق بإيجادنا بالفعل حين البعث. وكذا عرفت القدرة بأنها: صفة تؤثر فى إيجاد الممكنات وإعدامها، أى أنها حارة عن صحة الفعل والترك، أو كما قال الآمدى — رحمه الله تعالى — هى ما يتأتى به الإيجاد، لا ما يلزمه الإيجاد.

ويلاحظ أن تصور الأشاعرة لصفة القدرة يقوم على فهمهم لقضيه حدوث العالم بعد العدم، وذلك بعكس تصور الفلاسفة القائلين بالإيجاب بمعنى أنه عند اجتماع الإرادة والقدرة، فإن العالم يجب أن يحصل مقارناً لهما بلا تأخر زمانى، ومن ثم قالوا بقدم العالم قدماً زمانياً، مع قولهم بالحدوث الذاتى.

— ويستدل الأشاعرة، وكذا المعتزلة على إثبات صفة القدرة لله تعالى بقياس الغائب على الشاهد، فالله تعالى صانع قديم له مصنوع حادث، وكل من كان كذلك تجب له القدرة، فالله تعالى تجب له صفة القدرة.

يقول الغزالى — رحمه الله تعالى —: { العالم فعل محكم، وكل فعل محكم صادر عن

فاعل قادر، فالعالم صادر عن فاعل قادر {.

وهذا هو الدليل الذى نرتضيه؛ لأنه أقرب إلى فطرة الإنسان، وواضح فى بديهية العقل، فكل من تأمل ما فى العالم من صنع بديع، وترتيب دقيق، لا بد وأن يعترف بضرورة أن صانع العالم قادر مريد عالم..

— ويرى الأشاعرة أن القدرة تؤثر فى الممكنات، بمعنى إضافة القدرة إلى المقدورات فى حال الإيجاد، ولا تكون تلك المقدورات أزلية، بل الأزلى هو الصفة القديمة، ومن ثم فصفات الأفعال عندهم هى مجرد تعلقات حادثلة لصفة القدرة القديمة.

— ولكن الماتريدية يرفضون هذا التصور الأشعرى لصفة القدرة، ويرون أنها تصح وجود المقدور، لكنها لا توجد بالفعل، ولكن الذى يوجد هو صفة أخرى قديمة اصطلاحاً على تسميتها: بصفة التكوين، يقول أبو المعين النسفى: { إن القدرة تمهد للإيجاد، وتضطلع صفة التكوين بالإيجاد نفسه }.

والحق أن الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية خلاف بسيط مرجعه إلى اللفظ كما حقق ذلك الإمام الغزالى رحمه الله تعالى.

ومن العجيب أن الكمال بن الهمام -- رحمه الله تعالى -- رفض هذا رأى من أصحابه، وأخذ برأى الأشاعرة القائلين بأن صفات الأفعال هى: تعلقات القدرة، موضحاً أن هذا الكلام ليس من كلام أبى حنيفة -- رحمه الله -- وإنما هو رأى المتأخرين من الماتريدية منذ عهد الشيخ الماتريدى -- رحمه الله تعالى -- ومن ثم فقد تعرض لهجوم شديد شنه عليه متأخرو الماتريدية.

لمزيد من التفاصيل انظر: شرح البيجورى على الجوهرة : ص ٤٠، غاية المرام للآمدى: ص ٨٥، هوامش على النظامية لأستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل: ص ٢١٣ — ٢١٥، والاقتصاد فى الاعتقاد: ص ٤٢، و ٧٨ — ٧٩، المحصل للرازى: ص ١٦٤، شرح المواقف: ١٣٣/٧ — ١٤٤، إشارات المرام للبياضى: ص ٢١٥، وص ٢٢١ وما بعدها وضم إلى ذلك كله كلام أستاذنا الدكتور: محيي الدين الصافى فى محاضرات التوحيد: ص ٥٦ وما بعدها، واحرص عليه فهو فى غاية النفاسة.

اعلم أنه قد سبق منا إقامة الدلالة على أنه تعالى قادر^(١)، فلنخص هذا الباب

(١) اختصر الرازى فى الإشارة الأدلة المثبتة لصفة القدرة، ولكنه فصلها فى مواضع كثيرة من كتبه الأخرى، ومن تلك الأدلة:—

يهتم الرازى عند الدلالة على كونه تعالى قادراً، بنفى كونه تعالى موجباً بالذات، فإذا بطل كونه موجباً بالذات ثبت كونه تعالى قادراً فاعلاً مختاراً، وله على ذلك دليل حاصله:—
أنه لو كان البارى تعالى موجباً بالذات، لكان تأثيره فى وجود العالم: إما أن لا يكون موقوفاً على شرط، وإما أن يكون موقوفاً على شرط.
فإن لم يكن موقوفاً على شرط، لزم من قدمه قدم العالم، أو من حدوث العالم حدوثه، وكلاهما باطلان.

وأما إن كان موقوفاً على شرط، فذلك الشرط إن كان قديماً، لزم أيضاً قدم العالم، وإن كان حادثاً، كان الكلام فيه كما فى الأول فيفضى إلى التسلسل، وهو أن يكون كل حادثاً مسبوقاً بحادث آخر قبله وذلك قول بحوادث لا أول لها، وقد أبطلناه فى مسألة حدوث الأجسام. فثبت: أن القول بكونه تعالى موجباً بالذات يفضى إلى هذه الأقسام الباطلة، فيكون باطلاً، وإذا بطل هذا، ثبت: أنه تعالى قادر فاعل مختار. انظر: المحصل: ص ١٦١، وانظر الأربعين فى أصول الدين: ص ١٢٦ وما بعدها، حيث أورد الرازى — رحمه الله تعالى — اعتراضات الفلاسفة وفندها ورد عليها ردوداً قوية.

وزاد فى المعالم ثلاثة أدلة حاصلها:—

الأول: أنا بينا أن الأجسام بأسرها متساوية فى تمام الماهية، فوجب استواءها فى قبول جميع الصفات، وقد دللنا على أنه تعالى ليس بجسم، ولا حالاً فى الجسم، وإذا كان كذلك كانت نسبة ذاته إلى جميع الأجسام على السوية، فوجب استواء الأجسام بأسرها فى جميع الصفات، والتالى باطل فالمقدم مثله.

ولكن هذا الدليل مرفوض من الرازى، لأنه يقوم على أن الأجسام متساوية فى تمام الماهية، وهو أمر رفضه الرازى — رحمه الله تعالى — فى بعض كتبه كما ذكرنا آنفاً.

الثانى: لو كان موجباً بالذات، لكان إما أن يوجب معلولاً واحداً أو معلولات كثيرة، والأول باطل، وإلا لوجب أن يصدر عن ذلك الواحد واحداً آخر، وكذا القول فى جميع المراتب

بالنظر في متعلق القدرة، وذلك مشتمل على فصلين :-

فوجب ألا يوجد موجودان إلا وأحدهما علة للآخر، وهو باطل، والثاني باطل؛ لأن الفلاسفة أطبقوا على أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد.

الثالث: لاشك أنا نشاهد في العالم تغيرات، مثل أن تقدم شيئاً كان موجوداً، وعدم المعلول لا بد وأن يكون لعدم علته، وعدم تلك العلة لا بد أن يكون أيضاً لعدم علتها، فهذه المعدومات عند ارتقائها تنتهي إلى واجب الوجود لذاته، فإن كان تأثيره في غيره بالإيجاب لزم من عدم هذه الأحوال عدم ذاته، وهذا محال فذلك محال. انظر المعالم في أصول الدين: ص ٥١ - ٥٢.

فثبت أن الله تعالى مؤثر في وجود العالم على سبيل الصحة، وبالتالي فهو فاعل مختار.

ولكن ورد عن الرازي في "المباحث المشرقية" أنه قال: { إن الله تعالى موجب بالذات } كما هو رأى فلاسفة الإسلام، والحق أن هذا ليس رأى الرازي، بل كان يوضح قول الفلاسفة ويؤكدده، خاصة وأنه قد أبطل القول بالإيجاب، وأبطل حجج القائلين به في الكثير من كتبه التالية: كالمحصل والمعالم والمطالب العالية، كما أنه من أكبر القائلين بحدوث العالم، ومعلوم أن القول بالإيجاب يناقض القول بحدوث العالم. انظر المباحث المشرقية: ٥٢٣/٢.

الفصل الأول^(١)

(١) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن قدرته تعالى تعم جميع الممكنات، واستدلوا على ذلك بدليل حاصله: أن المقتضى للقدرة هو الذات، والمصحح للمقدورية هو الإمكان، ونسبة الذات إلى جميع الممكنات المدعومة على السواء فإذا ثبتت قدرته على بعضها تثبت على كلها.

وهذا الاستدلال قائم على ما ذهب إليه الأشاعرة من أن المعدوم ليس بشيء، إنما هو نفى محض لا امتياز فيه أصلاً، فلا يتصور اختلاف في نسبة الذات إلى المعدومات بوجه من الوجود، فثبت أن نسبة الذات إلى جميع الممكنات المدعومة على السواء، وأما المعتزلة فعندهم المعدوم الممكن شيء وثابت، ومن ثم فقد جاز على ذلك أن تكون خصوصية بعض المعدومات الثابتة المتميزة مانعة من تحقق القدرة به. شرح المواقف: ٤٧/٨.

وأما المخالفون في هذه المسألة فهم :-

الفلاسفة: قالوا: إنه تعالى واحد لا يصدر عنه إلا الواحد، وهو العقل الأول ثم ينتهي الأمر إلى العقل العاشر أو ما يسمونه: بعقل فلك القمر الذى يدبر ما تحت السماوات، وعالم الكون والفساد.

المنجمون: وهؤلاء قالوا: مدبر هذا العالم هو الأفلاك والكواكب، لما نشاهد من أن تغيرات الأحوال مرتبطة بتغيرات أحوال الأفلاك والكواكب.

الثنوية والمجوس: وهؤلاء قالوا: إنه تعالى لا يقدر على الشر، وإلا لكان شريراً. النظام ومتبعوه: قالوا: إنه تعالى لا يقدر على الفعل القبيح؛ لأن فعل القبيح مع العلم بقبحه سفه، ودونه جهل، وكلاهما نقص يجب تنزيهه تعالى عنه.

البلخي ومتبعوه : وهؤلاء قالوا: إنه تعالى لا يقدر على مثل فعل العبد أى مقدوره؛ لأن مقدور العبد إما طاعة مشتملة على مصلحة أو معصية مشتملة على مفسدة، أو سفه خال عنهما، والكل محال على الله تعالى.

أبو على الجبائى وابنه أبو هاشم: قالوا: إنه تعالى قادر على مثل مقدور العبد، وليس بقادر على نفس مقدور العبد، وإلا لو أراده تعالى وكرهه العبد، لزم وقوعه، ولا وقوعه للداعي

مذهب أهل الحق أن الكائنات بأسرها حاصلة بقدرة الله تعالى، ولا أثر لما سواها في شيء أصلاً^(١).

وذهبت المعتزلة إلى أن العبد موجد لأفعال نفسه، ويستحيل تعلق قدرة الله تعالى بها،^(٢) وتعلقوا في ذلك بشبه منها:—

والصارف. انظر: شرح المواقف: ٤٧/٨ — ٤٩، وشرح المقاصد: ٣ / ٧٥ — ٨١، ونشر الطوابع: ص ٢٤٦ — ٢٤٩.

(١) اعلم أن الحاصل من الأقوال في هذه المسألة خمسة:—

الأول: مذهب الشيخ الأشعري والذي يرى فيه أن قدرة العبد لا تأثير لها ألبتة، وإنما هي مقارنة لمقدورها فقط، وهو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة. الثاني: مذهب القاضي الباقلاني ومن تبعه وحاصله أن القدرة الحادثة تؤثر في أخص وصف الفعل لا في وجوده.

الثالث: مذهب إمام الحرمين وحاصله: أن القدرة الحادثة تؤثر في وجود الفعل على أقدار قدرها الباري تعالى. الرابع: مذهب الجبرية وحاصله: أنه لا قدرة للعبد أصلاً، وإنما المخلوق للعبد المقدور فقط، كالحركة والسكون مثلاً، ولا زيادة عليه أصلاً، وساواها بين المضطر كالمرتعش وبين المختار.

الخامس: مذهب المعتزلة وحاصله: أن القدرة الحادثة تؤثر في وجود الفعل على سبيل الاستقلال. انظر حواشي على شرح الكبرى للسنوسي: ص ٣٤٠ — ٣٤١، وقارن دفاعه المجيد عن القاضي وإمام الحرمين حيث برأهما — رحمهما الله تعالى — مما وردا عنهما قائلاً نقلاً عن السيد الشريف الجرجاني: إنما صدر منهما ذلك على وجه المناظرة والإفحام للخصم، خاصة وأن قول الإمام في النظامية مخالف لما هو في الإرشاد والشامل وغيرهما.

(٢) حاصل رأى المعتزلة أن أفعال العباد المختارين مخلوقة لهم، وأنها غير داخلة في مقدورات الرب تعالى، كما أن مقدورات الرب غير داخلة في مقدوراتهم، ومن ثم فقد قرروا أن القدرة الحادثة تكون قبل الفعل، وأنها تصلح للضدين، فالله ﷻ خلق الإنسان مريداً قادراً ثم فوض إليه أعماله يخلقها بقدرته ويحددها بإرادته، والله تعالى قادر على سلب ذلك منه، وتعجيزه عنه.

أن قالوا: الإنسان إذا توفرت دواعيه^(١) على فعل، ولم يوجد ما يمنعه، فلا بد وأن يوجد ذلك الفعل، كمن اشتد عطشه مع تمكنه من الماء، وصدور الإذن من الشارع، والطبيب بتناوله، فإنه لا بد وأن يشربه، وهكذا إذا كانت له كراهية خالصة عن شيء مع تمكنه من الإحجام عنه، كالعالم بما في النار من المضرة، المتمكن من الهرب عنها، فإنه لا بد وأن لا يدخل فيها، فلو كان إقدامه على شرب الماء، وإحجامه عن دخول النار، والحالة ما وصفناها فعلاً لله، لصحَّ من الله أن لا يوجد في العبد حينما يقصد العبد إليه، وأن يوجد فيه حينما يكرهه، ويكون الإنسان مع سلامة الأعضاء، والتمكن من شرب الماء، وارتفاع الموانع لا يشربه، وهذا باطل — هكذا^(٢) — حرروه، فثبت أن فعل العبد غير واقع بقدرة الله تعالى^(٣)..

ولكن سبق قضاؤه بذلك، وجرت به حكمته لئلا يقبح التكليف. انظر المغنى للقاضي عبد الجبار: ٣/٨ — ٥٩، وشرح الأصول الخمسة: ٣٢٣ — ٣٤٤.

(١) حقق الإمام الرازي الكلام في الداعي بأن معناه: أن الإنسان قادر على الفعل وعلى الترك: فنسبة قدرته إلى طرفي الفعل والترك على السوية، وما دامت القدرة على هذا الاستواء، يمتنع حصول الرجحان، لأن الاستواء والرجحان متنافيان، فإذا حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن باشتغال ذلك الفعل على نفع زائد، حصل الرجحان بسبب ذلك، وصار المجموع الحاصل من تلك القدرة ومن ذلك العلم أو الظن أو الاعتقاد، مؤثراً في وقوع الفعل، وأما في حق الباري ﷻ فالإعتقاد والظن ممتنعان، فلم يبق الداعي في حق الله تعالى إلا العلم باشتغال ذلك الفعل على مصلحة راجحة. انظر الأربعين: ص ١٤١.

(٢) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٣) هذا هو رأى أبي الحسين البصري اقتبس من الفلاسفة حيث قالوا: إن الفعل موقوف على الداعي، فإذا حصلت القدرة وانضم إليها الداعي صار مجموعهما علة موجبة للفعل، فعلمنا بالضرورة أننا موجودون لأفعالنا والجدير بالذكر أن الرازي يتهم أبا الحسين البصري بالغلو في الجبر مع ادعائه الغلو في الاعتزال. انظر الأربعين في أصول الدين ص ٢١٩ — ٢٢٠،

ومنها: أن قالوا: العبد لو لم يكن موجداً لأفعال نفسه لتنزل تكليفه منزلة تكليف العاجز، لكن التفرقة بينهما مدركة بالبديهة، ولأن التكليف بفعل الغير يتنزل منزلة قول القائل: افعل يا من لا تفعل، ولا شك في قبح ذلك وتناقضه، ولأنه لو لم تكن أفعال العباد واقعة بقدرهم، لكان مطالبتهم بالإقدام على فعل والكف عنه يكون عبثاً لا فائدة فيه، ولأن أفعال العباد، وإن لم توجب على الله تعالى الثواب والعقاب، إلا أننا بحكم الوعد علمنا ذلك، فلو لم يحصل بقدرهم شيء لما استحقوا على الله ثواباً ولا عقاباً^(١)..

وأما مسالك الاستدلال من جانبنا فثلاثة:—

المسلك الأول: أن نقول: الباري تعالى قبل أن أقدر العبد على الفعل إما أن يكون قادراً على ذلك الفعل، أو غير قادر عليه، فإن لم يكن قادراً عليه، فإما أن يصح اقتداره عليه أو لا يصح، ومحال ألا يصح؛ لأنه لو لم يصح اقتداره عليه لم يصح اقتداره لوجوب اشتراك التماثلات^(٢) في الصفات الواجبة، ومعلوم أنه لا

والمعالم: ص ٨٥ — ٨٦، والمحصل: ص ١٩٥.

(١) حاصل هذا الاستدلال: أنه لولا الاستقلال بالفعل، لكان الأمر والنهي والمدح والذم والثواب والعقاب باطلاً، وأيضاً للزم أن تكون أفعال الإنسان جارية مجرى حركات الجمادات، وكما أن البديهة جازمة بأنه لا يجوز أمر الجماد ونهيه ومدحه وذمه، وجب أن يكون الأمر كذلك في أفعال العباد، ولما كان ذلك باطلاً علمنا كون العبد موجداً. انظر الأربعين: ص ٢٢٤، والمحصل: ص ١٩٦.

(٢) التماثل عند الحكماء هو: اتحاد الشئيين في النوع أى في تمام الماهية، فكل اثنين إن اشتركا في تمام الماهية فهما المثلان، وإن لم يشتركا فهما المتخالفان.

ويرى الأشاعرة أن التماثل معناه: الاتحاد في جميع الصفات النفسية، وهى التى لا تحتاج إلى توصيف الشيء بها إلى ملاحظة أمر زائد عليها كالإنسانية والوجود والشئانية

حركة في مقدور العبد، إلا والله تعالى قادر على مثلها، وهي الحركة في عين تلك الجهة، وأيضا فلو اختص ببعض الحركات بصحة اقتدار الباقي عليها دون البعض، لزم أن يتميز ما يصح أن يكون مقدوراً لله تعالى عما لا يصح أن يكون مقدوراً حالة عدمه، فيكون المعدوم شيئاً^(١) وذلك مما أبطلناه^(٢)..

فإن قالوا: أليس أن الباري تعالى قادر على الجواهر حالة حدوثها، ولا يلزم منه أن يكون قادراً عليها حالة بقائها، فلم لا يجوز أن يكون الباري تعالى قادراً على حركة، وإن لم يلزم صحة اقتداره على مقدور العبد؟..

قلنا: ما نرتضيه أن الجوهر حالة بقائه مقدور، فاندفع ما قالوه^(٣)..

وإذا ثبت أن مقدور العبد صح أن يكون مقدوراً لله تعالى فإما أن يكون مقدوراً له، أو لا يكون مقدوراً له، ومحال أن لا يكون مقدوراً له؛ لأنه لو لم يقدر عليه مع صفة إقتداره عليه كان عاجزاً، والعجز على الله تعالى محال..

وأيضاً: فلأن المقتضى لاقتداره على بعض المقدورات إما أن يكون هو ذاته،^(٤) أو معنى قائماً بذاته^(٥)، وعلى التقديرين فإن نسبته إلى بعض ما صح

للإنسان، وقد يقال: المثلان هما ما يسد أحدهما مسد الآخر في الأحكام الواجبة والجائزة والممتنعة، بالنظر إلى ذاتيهما. انظر كشاف اصطلاحات الفنون: ١٤٥١/٢.

(١) انظر الأربعين في أصول الدين: ص ٢٢٠ - ٢٢١، والمحصل: ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) انظر ص: ٤٨ وما بعدها.

(٣) يدلل الرازي على ذلك بقوله في المحصل: { لأن علة الحاجة الإمكان، والإمكان ضروري للزوم لماهية الممكن، وهي أبداً محتاجة ولا شك أن الجوهر عندنا من جملة الممكنات }. انظر المحصل: ص ٨١.

(٤) هذا على رأى المعتزلة.

(٥) هذا على رأى الأشاعرة، وقارن الأربعين: ص ٢٢٣.

اقتداره عليه كنسبته إلى الكل، فإذا اقتضى التعلق ببعض، وجب أن يقتضى بالكل، لعدم المخصص..

وإذا ثبت أن البارى تعالى قادر على ما سيقدر عليه العبد،^(١) فلا يخلو حالة تعلق قدرة العبد به إما أن ينقطع تعلق قدرة الله تعالى عنه، أو لا ينقطع، ومحال أن ينقطع، إذ ليس انقطاع تعلق القدرة القديمة لأجل تعلق القدرة الحادثة بأولى من امتناع تعلق القدرة الحادثة، لوجوب استمرار تعلق القدرة القديمة به، وذلك يفضى إلى انعدام كل واحد منهما بالآخر، وانعدام كل واحد منهما بالآخر يتضمن ثبوت كل واحد منهما؛ لاستحالة حصول المعلول مع عدم المقتضى..

فإن قيل: انقطاع تعلق القدرة القديمة أولى ؛ لأن الباقي أولى بالانتفاء من الحادث؛ لأن الحادث يستحيل انتفاؤه حالة حدوثه بخلاف الباقي، فإنه يصح انتفاؤه حالة استمراره..

قلنا: تعلق القدرة القديمة إن كان واجباً، فيكون لا محالة أقوى من تعلق القدرة الحادثة، وإن كان ممكناً فله مادام ثابتاً سبب، ومادام كذلك فإنه يستحيل عليه العدم، اللهم إلا أن ينتفى السبب، فينتفى لانتفاء السبب لا لغيره، وعلى أن كونه قديماً إن لم يوجب زيادة قوة، فلا أقل من المساواة، فثبت أن القدرة القديمة يبقى تعلقها بالمقدور حالة تعلق القدرة الحادثة به، فلا يخلو إما أن يقع المقدور بالقدرتين جميعاً،^(٢) أو يقع بإحدهما دون الثانية، ومحال أن يقع بهما جميعاً،^(٣) لأن الممكن

(١) هذا رد على رأى البلخى الذى ذهب إلى أنه تعالى لا يقدر على مثل العبد أى مقدوره، كما سبق ذكره.

(٢) هذا هو رأى الأستاذ أبى إسحاق الأسفرايينى حيث رأى أن فعل العبد يقع باجتماع القدرتين معاً، أعنى قدرة الله تعالى القديمة، وقدرة الإنسان الحادثة، وذلك فى أصل الفعل. انظر شرح المقاصد: ١٦٤/٣.

إنما يفتقر إلى مقتضى يخرج من العدم إلى الوجود، والقدرة القديمة مستقلة بهذا المعنى، فليستغنى المقدور بها عن غيرها، فثبت أنه يستحيل وقوع المقدور بهما جميعاً، فإما أن يقع بالقدرة القديمة، أو بالقدرة الحادثة، ومحال أن يقع بالقدرة الحادثة؛^(٢) لأنه إذا قُدر تعلق القدرة القديمة بإيجاده في زمان، وتعلقت القدرة الحادثة بإيجاده في زمان آخر، فلو وقع بالقدرة الحادثة لوقع في الزمان الذي أراد العبد إيقاعه فيه، فيفضى إلى انقطاع تعلق القدرة القديمة عنه، وقد ثبت أن ذلك محال، فإذن يستحيل وقوع مقدور العبد إلا بقدرة الله تعالى، وذلك ما أردناه..

المسلك الثاني: أن نقول: لو تعلقت قدرة العبد بتحريك جسم أو تسكينه، فلا يخلو إما أن تتعلق بحصوله في الجهة، أو بعلّة حصوله في الجهة، الأول محال؛ لأنه إما أن تتعلق بالكائنية فقط، أو تتعلق بها تبعاً لتعلقها بالكائن، والأول محال؛ لأنه لو انفرد واستقل بالمقدورية لانفرد واستقل في المعلومية، وذلك على ما أوضحناه محال، فإذن القدرة على الكائنية تبع للقدرة على الكائن، وهذا يوجب أن من لا

(١) هذا إبطال من الرازي لرأى الأستاذ - رحمه الله تعالى -، يقول صاحب المقاصد: { وأما الأستاذ فإن أراد أن قدرة العبد غير مستقلة بالتأثير، وإذا انضمت إليها قدرة الله تعالى صارت مستقلة بالتأثير بتوسط هذه الإعانة على ما قدره البعض، ف قريب من الحق، وإن أراد أن كلا من القدرتين مستقلة بالتأثير فباطل}. انظر شرح المقاصد: ١٦٥/٣

(٢) مذهب الأشعرى أن القدرة الحادثة لا تستقل بالفعل، بل هي مقارنة له، والقدرة الحادثة عند الأشعرى مغايرة لاعتدال المزاج، ويحتج في إثباتها بقوله: نحن نرى تفرقة بين الإنسان السليم الأعضاء وبين الزمن المقعد، في أنه يصح الفعل من الأول دون الثاني، وتلك التفرقة ليست إلا في حصول صفة للقادر دون العاجز، وتلك الصفة هي القدرة.

ولكن الرازي يرفض ذلك من الشيخ الأشعرى، ويرى أن تلك التفرقة عائدة إلى سلامة البنية واعتدال المزاج. انظر المعالم في أصول الدين: ص ٨٧.

يكون قادراً على الكائن لا يكون قادراً على الكائنية، والواحد منا يستحيل تعلق قدرته بالأجسام، لاسيما على مذهبهم،^(١) فإن عندهم القدرة إنما تتعلق بما تؤثر فيه وتوجد^(٢) وهذه الأجسام باقية وإيجاد الموجود محال، فيلزم استحالة اقتدارنا على الكائنية أصلاً، ومحال أن يكون المقدور، هو علة الكائنية لوجهين:-

أحدهما: ما سبق من الدلالة في باب حدوث العالم على استحالة تعليل الكائنية بعلة أصلاً^(٣)..

والثاني: وهو أن من لم يكن عالماً بشيء لا جملة ولا تفصيلاً، استحال منه القصد إلى إيجاده، ومعلوم أن كثيراً من العوام وأهل القرى، بل أكثر أهل العلم لا يخطر ببالهم أن الكائنية علة أم لا، فكيف يمكن أن يقال بأنهم يقصدون إلى إيجاده؟^(٤) وهذا واضح..

المسلك الثالث: وهو أن العبد لو قدر على الإيجاد لقدر على الإعادة، لأن المعاد مثل المبتدأ، فمتى قدر عليه في حال لزم عنه اقتداره في سائر الأحوال، لكن اقتداره على الإيجاد بالاتفاق محال، فيلزم أن يكون اقتداره على الإيجاد مستحيلاً، وأما عند أصحابنا، فالقدرة كما يصح تعلقها بالشيء حالة حدوثه، صحَّ تعلقها به حالة كونه معاداً^(٥)..

(١) يقصد المعتزلة.

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٤١٣ وما بعدها.

(٣) انظر ص: ٣٨ وما بعدها.

(٤) انظر: الأربعين في أصول الدين: ص ٢٢٢ - ٢٢٣، والمحصل: ص ١٩٥، وغير ذلك.

(٥) انظر: شرح المقاصد للعلامة السعد التفتازاني: ١٧٣/٣، وحاصل ما ذكره السعد: أن العبد لو كان قادراً على فعله إيجاباً واختراعاً لكان قادراً على إعادته، واللازم منتفٍ إجماعاً، وجه اللزوم: أن إمكان القدرة منه يستلزم ماهية لا تختلف باختلاف الأوقات، ولهذا يصح الاستدلال

أما الجواب عما احتجوا به أولاً أن نقول^(١): حصول الفعل عقيب الدواعى إما أن يكون واجباً أو جائزاً، فإن ادعوا الوجوب طالبناهم بالدلالة عليه، فإن استروحوا إلى الأمثلة التى حكيناها..

قلنا: أعلمتم وجوب حصول الفعل عقيب توفر الدواعى ضرورة أو نظراً ؟ ولا يمكنهم إقامه الدلالة على شىء يدعون فيه الضرورة..

فنقول: لو كان ضرورياً لما اختلف فيه العقلاء مع سلامة طباعهم وكمال عقولهم، لأنه لو جاز لهم ادعاء العلم الضرورى بوجوب الفعل عقيب توفر الدواعى جاز لخصومهم ادعاء العلم الضرورى بأن ذلك غير واجب، بل هذا أولى على أصولهم؛ لأنه إذا كان حصول الفعل عقيب دواعيه واجباً لم يكن متمكناً من ترجحه وكان حاله حال المضطرين، ولم يكن حالة اقتداره عليه قادراً على ضده، وذلك مما ينكرونه أبداً^(٢)..

على قدرة الله تعالى على الإعادة بقدرته على الابتداء كما نطق به التنزيل احتجاجاً على منكرى الإعادة بالنشأة الأولى، وأصل الاستدلال مأخوذ من إمام الحرمين — رحمه الله تعالى — .. انظر الإرشاد: ص ١٩٣ — ١٩٤.

(١) انظر الأربعين فى أصول الدين: ص ٢٢٥، والمحصل: ص ١٩٦. وهذا الرد على استدلال أبى الحسين البصرى الذى ادعى أن أفعال العباد واقعة بخلقهم وإيجادهم استقلالاً مما يعلم ضرورة، بل هو مركز فى عقول العقلاء المنصفين الخالين عن تقليد أسلافهم، كما يقول صاحب المقاصد. انظر شرح المقاصد: ١٨٢/٣ — ١٨٨.

(٢) هذا على رأى المعتزلة فى أن القدرة الحادثة تصلح للضدين وحاصل كلامهم: أن قدرة العبد الحادثة التى يتمكن بها من الفعل والترك: سابقه على مفعولاتها، متقدمة عليها، وهى قدرة على الضدين من كل أمر أو تركه الإتيان به أو التخلّى. انظر هوامش على الاقتصاد فى الاعتقاد: ص ١٦٢.

فإن قالوا: حصول الفعل عقيب القصور والدواعي جائز غير واجب..

قلنا: فإذا عرفت بجوازه، فكيف يمكنكم ادعاء العلم الضروري بحصوله ؟
على كل حال إذ ربما لا يقع هذا إيجاداً، وثم نقول: كثيراً ما لا يحصل فعل الإنسان
عقيب قصده ودواعيه، كمن حرّك اليد في جهة، ثم أراد تحريك اليد في عين تلك
الجهة، فإنه لا يتأتى له ذلك، وكذلك قد يقصد إلى النظر الصحيح مع تمكنه منه فلا
يقع، بل يقع فاسداً،^(١) وأيضاً فليس كل ما يقع عقيب قصده ودواعيه، فهو واقع
بقدرته، ألا ترى أنا إذا قدرنا أن الله تعالى يخلق الفعل عقيب قصود الإنسان

أما الأشاعرة فقد ذهبوا إلى القول بأن القدرة الحادثة لا تصلح للضدين حتى يتسنى
لهم إطلاق القول بجواز تكليف ما لا يطاق وحاصل كلامهم كما يعبر الشيخ الأشعري: إن قدرة
العباد كاسبة، وأكساب العباد ومكسوبياتهم مخلوقة لله تعالى، ومن الضروري لهذه القدرة
الحادثة بالإضافة إلى هذا أن تكون مقارنة للمقدور لا تتقدمه ولا تسبقه، ومتى كانت كذلك فمن
الضروري أن تكون قدرة على ما تقارنه فحسب: ولا تكون قدرة عليه وعلى ضده. انظر اللمع
للأشعري: ص ٦٩ وما بعدها، وص ٩٣ وما بعدها، والتمهيد للباقلاني: ص ٣٢٥ - ٣٢٦،
نقلاً عن هوامش على الاقتصاد في الاعتقاد لأستاذنا الدكتور: محمد عبد الفضيل: ص ١٦٣ -
١٦٤.

ويقول الرازي في المحصل: { القدرة لا تصلح للضدين خلافاً للمعتزلة، لنا: أن القدرة
عبارة عن المكنة - أي التمكن من الفعل - ولأن نسبة القدرة إلى الطرفين إن كانت على
السوية استحال أن تصير مصدراً للأثر إلا عند مرجح، فلا يكون مصدر الأثر إلا المجموع، فلا
يكون الذي فرضناه قدرة مصدر الأثر، فلا يكون قدرة، وإن لم تكن على السوية، لم تكن القدرة
قدرة إلا على الراجح }. انظر المحصل: ص ١٠٧.

(١) هذا مناف لراي الرازي - رحمه الله تعالى - فيما بعد حيث ذهب إلى أن النظر الصحيح
إذا تم وصحت مقدماته فإنه يستلزم العلم اليقيني، ومثاله: أن من أراد أن يعلم أن العالم ممكن
فطريقه أن يقول: العالم متغير، وكل متغير ممكن، فالعالم ممكن. انظر المعالم : ٢٠ - ٢١.

ودواعيه، فإن هذا الفعل حصل عقيب قصده وداعيته، مع أنه غير واقع به..
فإن قالوا: نحن ندرك تفرقة بديهية بين الفعل الواقع من قبلنا، والواقع من
قبل غيرنا..

قلنا: لو كان لنا شعوراً بأن الفعل صادر منا أو من غيرنا، لكننا نعلم
ضرورة أن موجد أفعالنا نحن أم الباري تعالى، فإذا لم نعلم ذلك إلا بعد دقيق
النظر، علمنا أنه ليس لنا شعور بأن الفعل صادر منا أو من غيرنا..

فإن قالوا: نحن نضطر إلى العلم بأن موجد أفعالنا نحن لا غيرنا..

قلنا: هذه حماقة عظيمة، إذ لو جاز لكم ادعاء الضرورة في أنا موجودون
لأفعالنا، لجاز لخصومكم ادعاء الضرورة في أننا لسنا موجدين، إذ ليس أحد القولين
بأولى من الآخر، ولأن ذلك مما عظم اختلاف العقلاء فيه، فكيف يقال إنه من
الضروريات؟..

وأما الجواب عما احتجوا به ثانياً على مقامين:—

المقام الأول: الإنسان وإن لم يكن لأفعاله خالقاً؛^(١) إلا أن الله تعالى أجرى
العادة بأنه إذا قصد إلى فعل مخصوص، فإنه يلحقه عقيب قصده ودواعيه، فلو قصد
إلى الإيمان، فإن الله تعالى يخلق الإيمان، ولو قصد إلى الكفر، فإن الله تعالى يخلق
الكفر، فهو مأمور بأن توفّر الدواعي، وتصميم القصود نحو الإيمان، ومنه عن

(١) إطلاق لفظ الخالق على العبد لم يرد عن سلف الأمة، قال إمام الحرمين في الإرشاد:
{ وافقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ على أن العباد موجودون لأفعالهم، مخترعون لها
بقدرهم، ثم المتقدمون منهم كانوا يمتنعون من تسمية العبد خالقاً لقرب عهدهم بإجماع السلف
على أنه لا خالق إلا الله، واجترأ المتأخرون فسموا العبد خالقاً على الحقيقة } انظر شرح
المقاصد: ١٦٥/٣.

القصد إلى الكفر، فالأفعال وإن لم تكن واقعة بقدرته، إلا أنه لما كان حصولها بإجراء العادة موافقاً لقصده وداعيته، ينزل منزلة ما إذا كان واقعاً بقدرته فيما يرجع إلى صحة التكليف به، بخلاف العاجز فإنه لا تحصل الأفعال عقيب قصده ودواعيه، فظهر الفرق^(١)..

فإن قال قائل: الإرادة المتعلقة بالإيمان إن لم يصح تعلقها بالكفر، فإذا خلق الله تعالى في المكلف مثل هذه الإرادة وخلق القدرة والمقدور، فلا يتمكن المرء والحالة هذه من ترك الإيمان، فيكون كالمضطرب، وذلك مما ينكرونه إن صح تعلق الإرادة بالضدين، فلا يرجح تعلقه بأحدهما دون الثاني إلا بمرجح آخر، والكلام في تلك الإرادة كالكلام في الأول، فيفضى إلى التسلسل..

قلنا: الإرادة المتعلقة بالإيمان صح تعلقها بضد الإيمان، لكن ترجيح أحد التعلقين على الآخر لا يفتقر إلى المقتضى، كما أن إرادة الله تعالى تتعلق بإيجاد شيء دون ضده من غير مقتض، وقد ذكرنا في باب حدث العالم أن كون الإرادة مخصصة صفة نفسية لها وبه تمتاز عن غيرها، فيستحيل تعليلها بعلة،^(٢) وأيضاً: فلأن إرادة العباد تابعه لدواعيهم، والداعي هو: العلم أو الظن أو الاعتقاد، فإذا علم الإنسان أن له في فعل مخصوص منفعة إما عاجلاً وإما آجلاً، أو ظن ذلك، أو اعتقد، تعلقت الإرادة بذلك الفعل دون ما يضاده، وإذا علم أو ظن أو اعتقد أن له فيه مضرة أحجم عنه ورغب عنه، فالإرادات تابعة للدواعي، والدواعي تتعلق بمتعلقاتها لعينها من غير حاجة إلى علة أخرى،^(٣) وهذا واضح..

(١) انظر الأربعين في أصول الدين: ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) يقصد بالعلة ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجاً مؤثراً فيه، وانظر ص: ٤٤..

(٣) انظر الأربعين: ص ١٤١.

المقام الثاني: نقول: سلمنا أن هذا التكليف ينزل منزلة تكليف العاجز، لكن

لم لا يجوز ذلك؟ وبيانہ:-

وهو أن الله تعالى كلف أبا لهب أن يصدق الله ورسوله بجميع ما أخبرا عنه، ومما أخبرا عنه: أن لا يؤمن أبداً، فكأنه كلف بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين الإيمان وعدمه..

واعلم أن تكليف ما لا يطاق لازم لكل أحد من العقلاء،^(١) أما لزومه على

(١) ذهب الأشاعرة - رحمهم الله تعالى - إلى أن تكليف ما لا يطاق جائز، وجعلوا له صوراً أربعة حاصلها :-

أ - التكليف بما علم أزلاً عدم وقوعه: وذلك في مثال أبي لهب حيث كلفه الله تعالى أن يصدق الله ورسوله بجميع ما أخبرا عنه، ومما أخبرا عنه: أنه لا يؤمن أبداً فكأنه كلف بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين الإيمان وعدمه على حد تعبير الرازي - رحمه الله تعالى - ، ويلاحظ أنه عرضها فقط في الإشارة، ويرى الرازي في معظم كتبه أن هذا تكليفاً بما لا يطاق لوجود علم أزلي لا يتخلف ولا يتغير بعدم إيمان أبي لهب، مع كونه ممكناً في نفسه، فلو آمن أبو لهب لانقلب ذلك العلم جهلاً؛ ويعقب الرازي بقوله: { إن جملة العقلاء لو اجتمعوا وأرادوا أن يوردوا على هذا الكلام حرفاً لم يقدرُوا، إلا بأن يلتزموا مذهب هشام بن الحكم، وهو أن الله يعلم الأشياء بعد وقوعها }. انظر الأربعين: ص ٢٢٥، نقلاً عن هوامش على الاقتصاد: ص ١٧٥ - ١٧٦.

ب - التكليف بالمحال لذاته: والحق أنه لا يوجد في مذهب الأشاعرة من يجيز ذلك إلا الإمام الرازي - رحمه الله تعالى ، واحتج على ذلك بعدة أدلة اعتبرها من القواطع العقلية من أهمها: قضية { صدق بأنك لا تصدق }، ويعقب أستاذنا الدكتور محمد عبد الفضيل على ذلك بقوله: { فأولئك الذين أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لا يؤمنون هم مكلفون بالإيمان قطعاً، وهذا الإيمان معتبر فيه تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه، ومن ضمن ما أخبر عنهم أنه لا يؤمنون، وهذا تكليف بالجمع بين النفي والإثبات }. انظر المطالب العالية: ٣/٣٠٦، والمعالم: ص ٨٥، والمحصل: ص ٢٠٢، نقلاً عن هوامش على الاقتصاد في الاعتقاد: ص ١٩٥ - ١٩٧

مذهب جميع المسلمين؛ لأن الباري إذا علم أن أبا جهل سيكفر، فإنه يجب وقوع الكفر منه، إذ لو قُدِّرَ أنه لا يقع، لانتقَب علمه تعالى جهلاً، وكذلك إذا أخبر عن كفره، فلو لم يقع لانتقَب خبره كذباً، وذلك محال^(١)..

وقارن نقد الآمدى للرازي في الإحكام : ١٠٤/١ - ١٠٥.

ج - نظرية الترك والاشتغال بالضد: ولقد قامت هذه النظرية على أصليْن أساسيين للشيخ الأشعري وهما: أن القدرة الحادثة مقارنة لمقدورها المعين ولا تتعداه، والأصل الثاني هو: أن القدرة الحادثة مع الفعل { للفعل }، فمعنى أنها مع الفعل: أى مقارنة له، لا سابقة أو متقدمة، ولا متأخرة أو لاحقة، ومعنى أنها للفعل: أى أنها قدرة على المقدور المعين الذى تقارنه وحده، وليست قدرة عليه وعلى ضده أو بديله، وذلك بناءً على أن القدرة الحادثة عرض، ومن ثم فلا تبقى زمانين.

وتقوم نظرية الترك والاشتغال بالضد على أن الكافر قد أمر بالإيمان ولكنه تركه واشتغل بضده وهو: الكفر. انظر: هوامش على الاقتصاد فى الاعتقاد: ص ٢٠٣ - ٢٣٣.

أما الإمام الرازى - رحمه الله تعالى - فقد رفض ذلك من الشيخ الأشعري، بل ورفض كل الأسس التى أقام عليها الأشعري نظريته، فالأعراض عنده يجوز عليها البقاء، والقدرة الحادثة عنده ليست إلا اعتدال المزاج وسلامة البنية متابعاً فى ذلك رأى بشر بن المعتمر من المعتزلة، ومن ثم يرى الرازى أن القدرة حاصلة قبل الفعل، لكنها ليست كافية وحدها لحصول الفعل، بل لابد لها من ضمنية هي: الداعية الجازمة، فإذا اقترنا: حصل الفعل وجوباً. انظر: المرجع السابق: ص ٢٢٣.

د - التكليف بالممكن المستحيل فى العادة: ويمثل له بالتكليف بخلق الجواهر، أو بحمل الجبال مثلاً، ومن رأى الأشاعرة أن هذا يجوز عقلاً مع عدم وقوعه شرعاً، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أن التكليف بذلك قبيح، والله لا يفعل القبيح، ومن ثم فهو محال عقلاً. المرجع السابق: ص ٢٣٥.

(١) انظر الأربعين فى أصول الدين: ص ٢٢٥، والمحصل: ص ٢٠٢.

فأما ما ذكره أبو الحسين البصرى^(١)، وأبو القاسم البلخي^(٢) من أنه لو قدر وقوع الإيمان من أبى جهل لما كان الله تعالى عالماً بكفره، بل كان عالماً بإيمانه، لأن العلم تابع للمعلوم، فإذا قدر وقوع الإيمان منه، فلا بد وأن يُقدَّر معه أن العلم علم بالإيمان لا الكفر، فهو كلام باطل؛ لأن البارى تعالى إذا علم فى الأزل من أن أباً جهل سيكفر، وتحقق هذا العلم، فلو قدرنا وقوع الإيمان منه، لزم أن يتغير ذلك العلم، فيصير علمه متعلقاً بالإيمان مع أنه كان متعلقاً بالكفر، وهذا مع أن فيه قولاً بتغير علم البارى تعالى،^(٣) فإنه يلزم منه انقلاب حقيقة الشيء فى الماضى، ولما استشعرت المعتزلة البصرية^(٤) بقوة هذه الإلزام، ارتكبوا مذهباً خرجوا به عن حدٍّ

(١) تقدمت ترجمته، انظر ص : ٤٩.

(٢) تقدمت ترجمته، انظر ص : ٤٨.

(٣) هذا هو ما التزمه أبو الحسين البصرى حيث ذهب إلى أن العلم الإلهى يتغير بتغير المعلوم كما حكى الرازى عنه فى الأربعين وغيره، وقدمنا أن هذا نوع من أنواع التكليف بما لا يطاق، أعنى: التكليف بما علم أزال عدم وقوعه. انظر الأربعين: ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٤) نشأت المعتزلة أول ما نشأت فى البصرة على يد واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد اللذين وضعوا البذور الأصلية للاعتزال، وتخرج منها أبو الهذيل العلاف رأس المعتزلة الذى تيسر له الاطلاع على الفلسفة، ومن ثم قوى اعتماده على العقل، وقد تكلم فى الصفات وعلاقتها بالذات، وعاصره بشر بن المعتمر الذى أسس الفرع البغدادى للمعتزلة الذى تبنى مسألة خلق القرآن ووجوب الأصلح وغيرها، ومن هنا انقسم المعتزلة إلى فرعين رئيسين: مدرسة البصرة، ومدرسة بغداد.

ومن أشهر معتزلة البصرة: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبو الهذيل العلاف، والنظام، ومعمر بن عباد السلمى، والجاحظ، وأبو يعقوب الشحام، وأبو على الجبائى، وأبو هاشم الجبائى، والقاضى عبد الجبار صاحب المؤلفات الشهيرة فى الاعتزال.

ومن أشهر معتزلة بغداد: بشر بن المعتمر، وأبو موسى المردار، والجعفران، وثمامة بن أشرس، وأبو الحسين الخياط، وأبو القاسم الكعبى، والإسكافى، وأبو بكر الإخشيدى. انظر

العقلاء، فقالوا بقول من يقول: بأنه يجوز وقوع خلاف المعلوم؛ لأنه قد دلّ الدليل على أنه لو وقع للزم منه انقلاب علم الله جهلاً، وخطأ قول من يقول بأنه لا يجوز وقوعه؛ لأنه قد دلّ الدليل على أنه في نفسه من قبيل الجائزات الممكنات^(١).

واعلم أن هذا صريح بأن النفي والإثبات خطأ، فيكون أكثر في غيرهما، فيكون بين لا وبين نعم واسطة، وهذا مما يدل على غاية حماقة قائله..

فإن قيل: فما مذهبكم في خلاف معلوم الله تعالى، هل هو مقدور أم لا ؟..؟

قلنا: الذي نذهب إليه أن خلاف المعلوم ممكن بالنظر إلى جنسه وذاته، واجب بالنظر إلى تعلق العلم به، كما أن الأكوان^(٢) جائزة ممكنة بالنظر إليها وحدها، واجبة بالنظر إلى وجود الأجسام^(٣).

فإن قيل: العلم تابع للمعلوم، فكيف جعل المعلوم واجباً ؟..؟

قلنا: الممكن ما استفاد الوجوب من العلم للتعلق به، بل استفاده من القدرة والإرادة؛ لأنه لو لم يصر واجباً عند تعلق القدرة به، لكان حاله مع تعلق القدرة به كحالته مع عدم تعلقها به، فيفضى إما إلى تجويز وقوع الممكن بنفسه، أو إلى استحالة وقوع الحوادث أصلاً، وكلا القولين مستحيل، فعلى هذا يكون العلم بوقوع

مقدمة الدكتور عبد الكريم عثمان لكتاب شرح الأصول الخمسة: ص ٢٤٣ - ٢٢٥.

(١) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٥١٦، وذهب الأشاعرة إلى أن القدرة على خلاف المعلوم محال بناءً على أصلهم: أن القدرة لا تتعلق بالضدين، بعكس المعتزلة.

(٢) يعنى بالأكوان: الأكوان الأربعة التي هي: الحركة والسكون والاجتماع والافتراق.

(٣) هذا بناءً على أن الأجسام لا تخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فإذا وجد الجسم لزم لا محالة ملازمة الأعراض له، إذ لا ينفك عنها.

الممكن تبعاً لوقوعه الذى هو تبع لتعلق القدرة والإرادة به، وإن كان العلم بصحة وقوعه متقدماً على الكل، وهذا من الأسرار، فهذا فى بيان أن تكليف ما لا يطاق لازم لجميع المسلمين..

وأما أنه لازم على أصول الفلاسفة: فلأن عندهم لا يحدث شىء فى عالمنا إلا إذا استعدت الهوى بسبب اختلاف فى الحركات السماوية، إما لصورة أو لعرض، ثم بعد أن استعدت الهوى لها فإنه تفيض عن واهب الصور، فعلى هذا الحوادث الأرضية مستندة إلى حركات السماوات، وهى مستندة إلى العقل والنفوس، وهى بأسرها مستندة إلى البارى تعالى على نظام يستحيل التغير والتبدل عليها، فيكون التكليف بالإقدام والإحجام تكليفاً بالمحال^(١)..

فإن قيل: لو كان الأمر على ما قلتموه، كان الاشتغال بالعبادات والكف عن المحظورات عبثاً؛ لأن الشقى لا يسعد، والسعيد لا يشقى؛ فكما أن السعادة والشقاوة مقدران، فكذلك الاشتغال بالطاعات، والكف عن المحظورات أيضاً بقدر، ثم إنه قد جعل الطاعة والمعصية أمانة على السعادة والشقاوة، فمن أراد الله تعالى به خيراً

(١) حاصل رأى الفلاسفة كما حققه إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - بقوله: { ذهبت الفلاسفة إلى أن الكون والفساد المعبر بهما عن تركيب العناصر الأربعة، وانحلالها بعد ترتيب، من آثار الطبائع والقوى، وما جرى فى العالم المنحط عن فلك القمر ومداره من الاستحالات الضرورية فكلها آثار طبيعية، وما جرى به فى العالم العلوى العرى عن النار والهواء والماء والأرض، فهو من آثار نفوس الأفلاك وعقولها ثم تلك الآثار مستندة عندهم إلى الروحاني الأول، وهو يستند إلى الموجود الأول، وهو البارى على زعمهم وهو سبب الأسباب وموجبها.

وليس من مقتضى أصلهم أن الموجود الأول يخترع شيئاً على اختيار فى إيقاعه، بل هو موجب للروحاني الأول، ثم الروحاني الأول موجب للفلك ونفسه وعقله، وكذلك القول فى الفلك الأعلى مع الذى يليه إلى الانتهاء إلى فلك القمر. انظر الإرشاد: ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

تُسهّل أسباب الطاعات له^(١) وكذلك بالعكس،^(٢) والكل بقدر، وهذا معنى قوله —
التعليق: — { اعملوا فكل ميسر لما خلق له }^(٣).

فإن قيل: نحن نجد من أنفسنا تمكنا من الفعل وضده، فلو كان وقوع أحدهما
واجباً، لما كنا نجد ذلك التمكن^(٤)..

قلنا: هذه الأفعال إنما تجب من جهة تعلق قدرة الله وإرادته بها، فأما بالنظر
إلى ذواتها فهي ممكنة، وقصد العبد إلى فعل الحركة مشروط لشعوره بها من جهة
تعلق قدرة الله وإرادته بها، فأما بالنظر إلى ذواتها فهي ممكنة، وقصد العبد إلى
فعل الحركة مشروط لشعوره بها من جهة ما هي حركة وطاعة ومعصية، وهي في
هذه الجهة غير واجبة، فعلى هذا لا يكون للعبد شعوراً بالجهة التي يجب لأجلها
وقوعه، وإذا لم يكن له بذلك شعور، بل لا شعور له في الجهة التي هي منها تكون
ممكنة، لا جرم وجد من نفسه تأتياً وتمكناً على الشيء وضده^(٥)..

فإن قالوا: تكليف من هذا حاله قبيح..

قلنا: هذا بناء على القول بالتحسين والتقبيح، وسنبطله إن شاء الله تعالى،
فهذا ما يجب تحقيقه في هذا الباب وبالله التوفيق..

(١) هذا هو التوفيق عند الأشاعرة ومعناه: خلق قدرة الطاعة في العبد.

(٢) هذا هو الخذلان عندنا ومعناه: خلق قدرة المعصية في العبد، وكلاهما من الله تعالى.

(٣) هو جزء من حديث عمران بن حصين، والحديث رواه البخاري — رحمه الله تعالى — في
كتاب التوحيد: ١٩٥/٩ باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ (القمر: ١٧) والحديث
ورد باختلاف طفيف في الألفاظ في كتب الصحاح والمسانيد. انظر أبحار الأفكار: ٤٠٨/٢ —
هامش.

(٤) قارن نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٨٣ — ٨٤، وبه عرض بديع لقول المعتزلة.

(٥) قارن المرجع السابق: ص ٨٨ — ٨٩.

الفصل الثانى

فى استحالة كونه تعالى موجبا بالذات^(١)

ذهبت الفلاسفة^(٢) إلى أن البارى تعالى عن قولهم موجب لذاته، والصادر عنه جوهر واحد مفارق عن المادة، وله أربع تعلقات: تعقله لإمكان ذاته، وتعقله لوجوبه لغيره، وتعقله لمبدئه، فيصدر عن العقل الأول مادة الفلك الأقصى، ومن الثانى صورته، ومن الثالث، المبدأ القريب لحركته وهو النفس، ومن الرابع العقل المحرك للفلك على سبيل التشويق، وعلى هذا الترتيب يصدر من كل عقل عقل وفلك إلى أن ينتهى إلى العقل الفعّال الذى هو مدبر عالم الكون والفساد، والعقل الفعّال هو المبدأ لحدوث الصور فى هذا العالم، لكن فيضان الصورة عنه موقوف على استعداد المحل له، واختلاف الاستعداد فى القوابل لسبب اختلاف فى الحركات السماوية، فمتى استعد القابل لسبب الحركات السماوية لصورة مخصوصة، أو لعرض مخصوص، فاض عن واهب الصور^(٣) ذلك العرض أو الصورة، هذا

(١) الموجب بالذات هو الذى يجب أن يصدر عنه الفعل إن كان علة تامة له من غير قصد ولا اختيار، كوجوب صدور الإشراق عن الشمس، والإحراق عن النار. التعريفات للجرجاني: ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) يقصد الفلاسفة المسلمين خاصة الفارابى وابن سينا، وهما قد تأثرا بنظرية العقول العشرة لدى أفلوطين السكندرى.

(٣) واهب الصور عند الحكماء هو العقل الفعّال، ويعرفه الغزالى - رحمه الله تعالى - فى معيار العلم بأنه: كل ماهية مجردة عن المادة أصلا، أما من جهة ما هو عقل، فهو جوهر

سر مذهبهم^(١).

واعلم أن الكلام عليهم فى إفساد ما ذكره يقع فى ست مقامات :—

المقام الأول: أن ننازعهم فى قولهم: البارى تعالى موجب بالذات، وذلك مما سبق، فلا حاجة إلى إعادته^(٢)..

المقام الثانى: أن ننازعهم فى قولهم: الصادر من البارى شىء واحد، ونقول: لم لا يجوز أن يكون الكل صادر من البارى وتحقيقه: وهو أن سلب الكمية

صورى، ذاته ماهية مجردة فى ذاتها، وأما من جهة ما هو فعّال، فإنه جوهر بالصفة المذكورة من شأنه أن يخرج العقل الهىولاتى — الذى لا يكون له شىء من المعلومات حاصلّة وذلك للصبى الصغير، ولكن فيه مجرد الاستعداد — من القوة إلى الفعل بإشراقه عليه. انظر: معيار العلم للغزالي: ص ٢٧٦ — ٢٨٢.

(١) حاصل رأى الفلاسفة هو: أن العلة الأولى هى واجب الوجود، ولكن الموجودات من حيث ذواتها، بعضها علة حقيقية لبعض؛ وأثبتوا بين الممكنات أيضا تلك العلية، وقالوا: إن واجب الوجود بحسب ذاته علة موجبة لوجود الممكن الأول منه إلى أن تنتهى سلسلة الممكنات إلى العقل العاشر الذى يسمونه المبدأ الفياض والعقل الفعّال.

وأما الموجودات العنصرية ففاعلها على رأيهم إما أن طبائع بعضها علة فاعلية لبعض كما يقولون: الخفة علة للميل إلى المحيط، والثقل علة للميل إلى المركز، والجسمية علة للتحيز، وطبيعة الماء علة للبرودة، وطبيعة النار علة للسخونة، وهكذا — وهذا هو قول البعض —، وذهب الأكثرون — وعليه ابن سينا — أن العلة الفاعلية لجميع ما فى عالم العناصر من الصور والأعراض، بل للنفوس البشرية أيضا هى: العقل الفعّال. وسائر ما يتوقف عليه وجوده هذه الأشياء شروط وأسباب معدة يحصل بها لتلك الأشياء استعداد الوجود، وقابليتها له، وفيضاتها من المبدأ على ما هى لائحة به، وأما الفاعل لكل فهو المبدأ لا غير. انظر تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى: ص ١٨٧ — ١٨٨.

(٢) انظر ص ٩٨ وما بعدها.

عن (١) البارى تعالى غير سلب الكيفية (٢) وهما متغايران، لكونه مبدأ لوجود الممكنات، ولولا تغايرهما لما صحَّ العلم بأحدهما مع الذهول عن الآخر، ثم هذه السلوب والإضافات المتكثرة إما أن تنسب إلى ذات البارى تعالى، وإذا جاز انتساب أمور متكثرة إلى ذاته تعالى من غير أن يلزم منه كثرة ذاته، فلم لا يجوز أن تنسب جميع الممكنات إلى ذاته تعالى من غير أن يقتضى ذلك كثرة فى ذاته، وإما أن تنسب إلى بعض لوازم الذات (٣)، وليس ينسب كل لازم إلى غيره لا إلى نهاية، بل لا بد من استنادها بالآخرة إلى الذات، ويلزم منه انتساب أمور متكثرة إلى شىء واحد، وذلك ما أردناه (٤) ..

(١) ذهب الأشاعرة ومن وافقهم بناءً على أنه تعالى ليس بجسم إلى نفي اتصافه تعالى بشىء من الكيفيات المحسوسة بالحواس الظاهرة أو الباطنة مثل: الصورة، واللون، والطعم، والرائحة، واللذة، والألم، والفرح والغم، والغضب، ونحو ذلك، إذ لا يعقل منها إلا ما يخص الجسم، وإن كان البعض منها مختصاً بذوات الأنفس، ولأن للبعض منها تغيرات وانفعالات، وهى على الله تعالى محال.

وذهب الفلاسفة إلى إثبات اللذة العقلية، لأن كمالاته أمور ملائمة وهو مدرك لها، فيبتهج بها ورد عليهم الأشاعرة بقولهم: إن أريد أن الحاجة التى تسميها لذة هى نفس إدراك الملائم فغير معلوم، وإن أريد أنها حاصلة البتة عند إدراك الملائم، فربما يختص ذلك بإدراكنا دون إدراكه، وهما مختلفان قطعاً. انظر شرح المقاصد: ٣٧/٣ - ٣٨.

(٢) انظر شرح المقاصد: ٣٧/٣ - ٣٨.

(٣) لوازم الذات هى: السلوب والإضافات التى تلحق الذات من حيث هى.

(٤) حاصل شبهة الفلاسفة كما ذكره الرازى فى موضع آخر: أن مفهوم أنه تعالى مصدر { أ } غير مفهوم أنه مصدر { ب } بدليل: أنه يصح العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر، وهذان المفهومان إما أن يكونا داخليين فى الماهية أو خارجين عنها، أو يكون أحدهما داخلاً فى الماهية، والآخر خارجاً عنها، والأقسام الثلاثة باطلة. ويرد الرازى على تلك الشبهة بقوله: إن الوحدة يصدق عليها أنها نصف الاثنين، وثلاث الثلاثة، وربيع الأربعة فنقول: مفهوم أنها نصف

فإن قالوا: العلة لابد وأن تلائم معلولها، والشئ الواحد لا يلائم شيئين مختلفين، فالعلة الواحدة توجب معلولين^(١)..

قلنا: العلة يستحيل أن تشابه المعلول من حيث إنها علة له، وإلا لم يكن أحدهما بأن يكون علة للآخر بأولى من أن يكون معلولا له، وإذا لم يجب ثبوت المشابهة بين العلة والمعلول، من حيث كونها مؤثرة فيه، فلائ لا يجب باعتبار جهات غير مؤثرة واجبة كان أولى..

المقام الثالث: إن سلمنا أن الصادر الأول عن البارئ تعالى وبيانه :-

وهو أن الممكنات لا تستفيد ماهياتها من البارئ تعالى؛ لأن الإمكان علة لاحتياج الممكن إلى المقتضى، والعلة سابقة على المعلول، لكن الإمكان تأخر عن ماهية الممكن، إذ الإمكان لا يستقل بنفسه.

بل لابد وأن يكون عارضاً لماهية أخرى، فإن الماهية سابقة على الافتقار إلى واجب الوجود بمراتب، فلا يجوز تعليلها بواجب الوجود، فإن الممكن لا يستفيد من واجب الوجود إلا الوجود فقط، والوجود قضية واحدة بالنوع،^(٢) والواحد بالنوع لا

الاثنين، مغاير لمفهوم أنها ثلث الثلاثة، ويعود التقسيم الذى ذكرتم فيها، فيلزم وقوع الكثرة فى الوحدة، وذلك محال، ولما كان هذا الكلام باطلا، فكذا ما ذكرتم. انظر الأربعين فى أصول الدين: ص ٢٢٩ - ٢٣٠، والمطالب العالية: ٣ / ٥٥.

(١) ذهب الفلاسفة إلى أن الواحد المحض من غير تعدد شروط والآت، واختلاف جهات واعتبارات لا يكون علة إلا لمعلول واحد، بينما ذهب الأشاعرة إلى أن الواحد من جميع الوجوه لا يلزم أن يكون معلولاً واحداً بل قد يكون كثيراً. انظر شرح المقاصد: ١/ ٣٤٤ وما بعدها.

(٢) الواحد بالنوع هو: كما قال الإمام الغزالي فى معيار العلم: { اعلم أن الواحد اسم للشئ

يتكثر إلا بسبب كثرة القوابل،^(١) وهذا لا جواب عنه.

المقام الرابع: إن سلمنا أن الصادر الأول عن البارئ تعالى موجود واحد

بالذات، لكن لم لا يجوز أن يكون جسماً؟..

فإن قالوا: لو كان الصادر الأول جسماً لكان سبب الوجود ما بعده، وذلك

محال؛ لأن كل جسم فهو مركب من الهولى والصورة،^(٢) والصورة الجسمية إنما

تفعل بواسطة الهولى، والهولى ليست إلا وجود قابل، والقابل بما هو قابل لا يجوز

الذى لا يقبل القسمة من الجهة التى قيل له: إنه واحد، ولكن الجهات التى يمتنع بسببها الانقسام تثبت الوحدة بالإضافة إليها كثيرة، فمنها: ما لا ينقسم فى الجنس، فيكون واحداً فى الجنس كقولنا: الفرس والإنسان واحد فى الحيوانية إذ لا اختلاف بينهما إلا فى العدد، وفى النوع والعوارض، أما الحيوانية فليس بينهما فيه اختلاف وانقسام، ومنها ما لا ينقسم فى النوع فيكون واحداً فى النوع كقولك: الجاهل والعالم واحد بالنوع أى بالإنسانية}.

انظر معيار العلم فى المنطق: ص ٣٢٨.

(١) هذا بناءً على قولهم بالإمكان الاستعدادى ومعناه أن يترجح صلاحه لقبول إحدى صورتين على الخصوص، والاستعداد للوجود وحده، بأن تصير إحدى القوتين أولى من الأخرى، كما أن مادة الهواء قابلة لصوره النارية، والمائية بالسواء، ولكن غلبة البرد يجعلها لقبول صورة المائية أولى، فتقلب ماء لقبول صورة المائية من المفارق، عند استفادة الاستعداد من السبب المجرد. انظر مقاصد الفلاسفة للغزالي: ص ١٥٨ وما بعدها.

(٢) الهولى هى عند الحكماء شىء قابل للتصور مطلقاً من غير تخصيص بصورة معينة، ويسمى بالمادة، ويسمى بالصوفية: الأعيان الثابتة، والمتكلمون: حقائق الأشياء، والحكماء: ماهيات الأشياء، ويقول الغزالي — رحمه الله تعالى — فى معيار العلم: الهولى: هى جوهر وجوده بالفعل إنما يحصل بقبوله الصورة الجسمانية كقوة قابلة للصور، وليس له فى ذاته صورة، إلا بمعنى القوة. انظر كشاف اصطلاحات الفنون: ١٧٤٧/٢، ومعيار العلم: ص ٢٩٣.

أن يكون فاعلاً،^(١) فلهذا، لا يجوز أن يكون الصادر الأول جسماً

قلنا: لو كان الأمر كما قلتموه، لوجب أن لا يكون اختلاف الحركات السماوية موجباً لاستعدادات مختلفة في هيولى عالم الكون والفساد، إذ الحركة أضعف وجوداً من الجسم، وعندكم أن اختلاف الحركات السماوية علة لوجود هذه الاستعدادات المختلفة في المواد، فبطل ما قالوه،^(٢) وعلى أننا قد بينا في الكتب البسيطة: أن الجسم لا يجوز أن يكون مركباً من الهيولى والصورة^(٣)..

(١) لا يجوز أن يكون القابل عند الفلاسفة فاعلاً، لأن الفاعل للأشياء ومفيض صورها عليها هو الفعل الفعّال.

(٢) انظر نهاية الإقدام للشهرستاني — رحمه الله تعالى — ص ٥٨ — ٥٩.

(٣) ذهب الفارابى وابن سينا متابعاً لأرسطو إلى القول بتركيب الجسم من: هيولى وصورة، ولكن المتكلمين عارضوا هذا الاتجاه، وقالوا بتركيب الجسم من الجواهر الفردة، وأبطلوا القول بالهيولى والصورة، وفي الذروة منهم الإمام الرازى — رحمه الله تعالى — واستدل على ذلك بما يلي:—

أن الهيولى إما أن تكون حالة في مكان أو غير حالة، وكلاهما باطل.

أما الأول: فلأن الهيولى إذا حلت في المكان على سبيل التبعية فهي صفة للجسم، وهذا مخالف لقولهم: إن الجسم حال في الهيولى، وإن حلت فيه على سبيل الاستقلال فإن عليه ثلاثة اعتراضات حاصلها:—

أ — إذا حل الجسم فيها، وحلت هي في المكان، لزم اجتماع المثليين.

ب — الجسم والهيولى ليس أحدهما أولى بالحالية، والآخر أولى بالمحلية من العكس.

ج — إذا احتاجت الهيولى إلى المحل، فمحلها يفتقر بدوره إلى محل، وهكذا إلى ما لا نهاية، وهو باطل..

أما الثانى: فهو أن الهيولى إذا لم يكن لها مكان استحال أن يكون الجسم حالاً فيها، لأن الجسمية لا تستغنى في ذاتها عن الجهة، فلا يمكن أن تحل في شيء ولا صلة لها بالجهة.

انظر المباحث المشرقية: ٤٢/٢ — ٤٨، شرح الإشارات: ١٩/١، المحصل: ص ٨٣، والمطالب

المقام الخامس: إن سلمنا أن الصادر الأول واحد، وأن وحدته بالذات، وأنه

ليس بجسم، بل هو جوهر مُفارق، فما دليلكم على إثبات النفس ؟..

قالوا: لأن المحرك القريب للسماء إن كان صاحب إدراكات عقلية كلية، لزم استحالة صدور أفعال جزئية عنه، إذ الكلى نسبته إلى البعض من جزيئاته كنسبته إلى الباقي، وإن كان صاحب إدراكات جزئية، وكل إدراك جزئى فهو بآلة جسمانية، فالمحرك القريب قوة جسمانية، وهو النفس المسمى فى لسان الشرع باللوح المحفوظ^(١)..

قلنا: لا شك أن تصورات هذه النفس غير دائمة، وإلا تأخر حصول الفلك على جميع الأوضاع الغير متناهية، أو وجود السبب دون المسبب، وكلاهما محال، فإذن التصورات متحددة، والكلام فى هذه التصورات كالكلام فى تلك الحركات الجزئية، وليس يستند محل حادث إلى آخر لا إلى نهاية، بل لابد وأن ينتهى بالآخرة إلى صدور حادث عن جوهر غير حادث، وذلك يبطل ما ذكروه من أن سبب الحركات المتحددة يجب أن يكون سبباً متحدداً^(٢).

العالية: ١٥٨/٢ وغير ذلك.

(١) هذا تلبيس من الفلاسفة حيث أرادوا أن يدسوا مذهبهم بين الناس، ويلبسونه ثوب الشرع، فقالوا: إن العقل الفعّال هو: اللوح المحفوظ، وذلك من أكبر ضلالاتهم.

(٢) يرى الفارابى وابن سينا أن الأفلاك أحياء عاقلة متحركة بالإرادة، وأن النفوس الفلكية تحرك أجسام الأفلاك فى حركة شوقية تقصد منها التشبه بالعقول المفارقة من حيث إن هذه العقول قد خرج كل ما لها من الكمالات من القوة إلى الفعل، فكذلك الأجرام السماوية قد حصل لها بالفعل كل الكمالات إلا الأين والوضع، وليس أين ووضع بأولى من أين ووضع آخر، ومن ثم فهى تتشوق إلى التشبه بالخير الأقصى فى البقاء على الكمال الأكمل بحسب الممكن كما هو تعبير ابن سينا فى "النجاة"، ومن الغريب أن ابن سينا قد سمى كلاً من العقول والنفوس الفلكية

بالملائكة إذ العقول عنده هي الملائكة الروحانية المجردة والنفوس هي الملائكة العملية! وواضح هنا تأثير هذه النظرية بنظرية الفيض الأفلوطيني. انظر: عيون المسائل للفارابي: ص ٥٣، والنجاة لابن سينا: ص ٢٥٨ - ٢٦٤، والإشارات: ٥٥٣/٣.

وملخص رد الرازي عليه هاهنا كما ورد في المباحث المشرقية: { ومما هو موضع العجب عندهم أن النفس إنما تحرك الفلك لاشتياقها إلى التشبه بالعقل، والعقل جوهر مجرد عن المادة ولواحقها، واتفقوا على أن القوى الجسمانية لا تدرك المجردات، فإن كانت النفس قوة جسمانية استحال منها إدراك العقل، وإذا استحال منها إدراك العقل، استحال أن تكون مشتاقة إلى التشبه بالعقل؛ لأن الشيء كيف يشاق إلى التشبه بما لا يعقله ولا يدركه ؟ فهذا لا يخفى على عاقل تناقضه } ويعقد بعد ذلك فصلاً لإبطال القول بالعقول الفلكية.

انظر المباحث المشرقية: ٤٣٦ / ٢ - ٤٤٧.

واستمر الرازي على رفضه لقول ابن سينا في كتبه التالية: { نهاية العقول } و { التفسير الكبير } و { أسرار التنزيل } قال في تفسير قوله تعالى ﴿ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ { إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية وكذلك احتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ والمجموع بالواو والنون مختص بالعقلاء }. التفسير الكبير: ٨٦/١٨.

ولكن الرازي في المطالب العالية تحول عن هذا الرأي وأخذ برأى ابن سينا السابق الذي رفضه رفضاً شديداً، وتوضيح ذلك: أنه عقد في المطالب العالية فصلاً كاملاً للدلالة على أن الكواكب و الأفلاك أحياء ناطقة، مثبتاً أن الأفلاك - كما يزعم ابن سينا - متحركة بالإرادة، وحركتها شوقية إلى العقل المجرد لتكتسب منه الكمالات فيقول: { والمختار عندي: أن النفس الفلكية جوهر مجرد عن الجسمانية وعلائقها، ومع هذا فهي موصوفة بالإرادات الجزئية والإدراكات الجزئية، والإدراكات الكلية، فهي عارفة بربها، وقاصدة بهذه الحركات عبادة ربها وخالقها ومدبرها }.

بل ويرى مع ابن سينا أن العقول والنفوس هي الملائكة، بل ويزيد عليه أنه لا يجوز حصرها في عشرة عقول وتسع نفوس قائلاً: إنه قول لا يليق بأهل التحقيق !! انظر المطالب العالية: ٣٧٣/٢ - ٤٠٣.

فإن قالوا: العقل سبب لفيضان الإدراك على النفس فيضاً كلياً، إلا أن النفس إذا انتفى تحريك الفلك إلى حدّ، فلا يمكن أن يحدث فيه تصور موجب للحركة في حدّ إلا في الحد الذي يلي ما انتهى إليه الفلك، وإذا لم تكن النفس مستعدة إلا لذلك التصور، لا جرم فاض من العقل ذلك التصور دون غيره، فإذا جاز هذا، فلما لا يجوز أن يقال بأن العقل سبب لفيض الحركة على جرم الفلك، إلا أن الفلك إذا انتهى بحركته إلى حدّ، فلا يمكن أن يتحرك إلا إلى الحد الذي يليه، وإذا لم يكن الفلك مستعد إلا لذلك الجزء من الحركة، لا جرم فاض من العقل تلك الحركة دون غيرها؟ وهذا لا جواب عنه^(١).

ومن الإلزامات المفحمة أن نقول: من مذهبكم أن ذات الفلك كاملة في جوهرها وكميتها وكيفيةها، وجميع لوازمها إلا الوضع، فإنه لا وضع للفلك إلا ويمكن أن يكون له وضع آخر، فلما تصور الفلك كمال الجوهر المفارق الذي هو العقل اشتاق إلى أن يتشبه به في إخراج جميع كمالاته اللاتئة به من القوة إلى

والحق أن هذا الكلام مرفوض من الرازي، لأنه قائم على قواعد الفلاسفة التي تقصر فعل الله تعالى على إيجاد عقل أول، ومنه يتوصل إلى العقل الفعّال الذي يدبر ما تحت فلك القمر أو عالم الكون والفساد، كما أننا لا نرتضى من الرازي تسميته الملائكة بالعقول والنفوس الفلكية، لأنه لم يرد في الشرع مثل ذلك، اضم إلى ذلك أنه تحجيم لدور الملائكة وطبعه على شيء واحد، وأخيراً ففعل هذا الرأي — وهو ما لا نؤيده — مدسوس على الرازي — رحمه الله تعالى — أو قاله في معرض الإلزام والإفحام للخصم، ومما يؤيد ذلك أنه قد عقد فصلاً كاملاً في "المطالب العالية" لإبطال القول بالموجب بالذات، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الله ﷻ فاعل بالقصد والاختيار.

انظر المطالب العالية: ٤٥/٣ — ٦١.

(١) قارن المباحث المشرقية: ٤٤٠/٢، وانظر تهافت الفلاسفة للغزالي: ص ٢١٠.

الفعل، ولم يبق فيه بالقوة شيء إلا الأوضاع المختلفة، وما أمكنه أنه تحصل جميع الأوضاع دفعة واحدة، فاستبقى نوع ذلك الكمال بإخراج أحاده من القوة إلى الفعل، وبالحقيقة الغرض إنما هو التشبه بالأول، لكن استتبع ذلك التشبه بتلك الحركة^(١).

فنقول لهم: النفس قوة جسمانية؛ لأنها مدركة للجزئيات وفاعلة لها، وعندكم: أن كل إدراك جزئى فهو بآلة جسمانية، وإذا كانت قوة جسمانية، فكيف يمكنها إدراك الجواهر المفارقة؟^(٢) مع اتفاقهم على أن القوى الجسمانية ليس لها إدراك الأمور المجردة^(٣)، وإذا استحال أن تدرك النفس العقل، استحال أن تشناق إلى التشبه به، إذ من المعلوم أن الشوق إلى الشيء بعد تصوّره، وهذا مما لا محيص عنه.

(١) انظر المباحث المشرقية: ٢٠/٤٤٠ - ٤٤٧، والنجاة: لابن سينا: ص ٢٦٤، وإلهيات الشفاء: ٣٨١/٢ وما بعدها، وكذا الإشارات والتنبيهات: ٥٥٣/٣ من مطبعة دار المعارف بتحقيق المرحوم الدكتور: سليمان دنيا.

(٢) الجواهر المفارقة عند الفلاسفة هي: البسيط الروحاني كالعقول والنفوس المجردة، وقد أثبتتها الحكماء، وأنكرها المتكلمون. انظر مقاصد الفلاسفة: ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) وذلك بناءً على إثباتهم العقول المجردة التي هي جواهر شريفة غير متغيرة، ليست بجسم، ولا منطبعة فيه، وتدل عليها بواسطة عدم التناهي، وعندهم أن الحركة الدورية دائمة لا نهاية لها أزلاً وأبداً، ومن ثم فلا بد وأن يكون لها استمداد من قوة محرّكة، إذ يستحيل أن يكون في الجسم قوة على ما لا نهاية له لأن كل جسم منقسم، وينقسم بتقدير انقسامه انقسام القوة، فلو توهمنا الانقسام، لكان بعض القوة لا يخلو: إما أن يحركه إلى غير نهاية، فيكون الجزء مثل الكل من غير تفاوت، وهو محال. وإما أن يحرك إلى غاية، والبعض الآخر أيضاً يحركه إلى غاية فيكون المجموع متناهياً، فلذلك لا تدرك القوة الجسمانية الأمور المجردة، بل لابد من عقل كلى مجرد لا يتغير يمد القوة الجسمانية بقوته التي لا تنتاهي، على ألا يكون فاعلاً للحركة، بل تكون لأجله الحركة، من حيث كونه عاشقاً ومعشوقاً. انظر مقاصد الفلاسفة للغزالي: ص ١٥٠ - ١٥١.

المقام السادس: أن نقول من مذهبكم: أن المدير لما تحت كرة القمر هو العقل الفعّال، لكن صدور الصورة عنه موقوف على استعداد القابل لها، وسبب الاستعدادات المختلفة، اختلاف الحركات السماوية^(١) وهذا باطل من وجوه:

الأول: وهو أن استعداد الهيولى لصورة مخصوصة ليس هو نفس الهيولى، إذ لو كان كذلك لكانت الهيولى دائماً مستعدة لتلك الصورة، وكانت الصورة دائماً فائضة عن العقل الفعّال، وذلك باطل، فإذن الاستعداد غير مناسب للمستعد، وقد حكمت بحصولها عن اختلاف حركات الأجرام العلوية، فإذا جاز ذلك، فلم لا يجوز صدور جملة الحوادث في عالمنا عن حركات الأجرام العلوية؟^(٢).

الثاني: وهو أنه إذا كان الاستعداد، فيلزم أن يكون صدوره عن شبيه في محل دون محل موقوفاً على استعداد ذلك المحل له، وإلا فليس بأن يحصل ذلك الاستعداد في ذلك المحل أولى من حصوله في غيره، والكلام في ذلك الاستعداد كالكلام في الأول، فيكون حدوث الاستعداد في المحل مشروطاً باستعدادات لا نهاية لها، وذلك محال^(٣).

الثالث: وهو أن المحل إذا استعد مثلاً للحرارة، فليس يمكن أن يقال بأنه استعد لحرارة بعينه دون ما يماثلها؛ لأنه لو كان المحل مستعداً لها بعينها متأخراً عن هويتها، لكن لا توجد هويتها، إلا إذا استعد المحل لها، فيكون كل واحد من الأمرين مشروطاً بالآخر، وذلك محال، فلأن المحل إنما يستعد للحرارة بما هو حرارة، لا بما هو هذه الحرارة، وكذلك العلة التي هي العقل الفعّال سبب للحرارة

(١) انظر النجاة لابن سينا: ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٢) قارن المباحث المشرقية: ٤٤٢/٢، ونهاية العقول: ١١٦/١ - ب.

(٣) قارن المباحث المشرقية: ٤٤٢/٢.

لا من جهة ما هي حرارة بعينها، وإلا لم تكن سبباً لغيره، فإن لا الفاعل ولا القابل يفيضان تلك الحرارة بعينها، فلم حصلت تلك الحرارة، ولم يحصل ما حصل بعدها؟ وهذا لا محيص عنه^(١)، فهذه جملة كافية في الرد على هؤلاء، والله ولي الهداية والإرشاد، وبه التوفيق.

(١) انظر الأربعين في أصول الدين: ص ٢٣١، حيث عبارة الرازي قريبة بما ها هنا.

الباب الثالث

فى صفة الإرادة^(١)

(١) صفة الإرادة هى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة.

وقد أثبتتها الأشاعرة لمولانا تعالى وتقدس، وجعلوها مغايرة لصفتى القدرة والعلم، ذلك لأن القدرة القديمة تصلح لفعل أحد الضدين دون تفريق، ومن ثم فالقدرة وحدها غير صالحة للتخصيص كما سبق بيانه.

وكذلك العلم فإنه تابع للإرادة، فمثلاً العلم بأن الشيء سيوجد بدلاً من أن يعدم تابع لتخصيص الإرادة له، ومن ثم فلا بد من وجود صفة أخرى غيرهما تخصص ما كشفه العلم لتبرزه القدرة، وتلك هى صفة الإرادة.

يقول الآمدى — رحمه الله تعالى — تعبيراً عن رأى الأشاعرة: { مذهب أهل الحق أن البارى تعالى يريد بإرادة قائمة بذاته — قديمة، أزلية، وجودية، واحدة، لا تعدد فيها، متعلقة بجميع الجائزات، غير متناهية بالنظر إلى ذاتها، ولا بالنظر إلى متعلقاتها }. انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٢٩٨/١.

وذهب الفلاسفة تبعاً لرأيهم فى صفات الله تعالى الذى حاصله: أن ما يوصف به واجب الوجود لا يخرج عن أن يكون من أسماء الذات: كقولنا: إنه ذات، ووجود، وماهية، وشيء، ومعنى، ونحوه، أو من الصفات السلبية كقولنا: إنه واجب أى لا يفتقر إلى غيره فى وجوده ونحوه، أو الإضافية: كقولنا: إنه جواد، وعنه، ومبدأ، وخالق، ومبدع ونحوه، وعليه فإن صفة الإرادة عند الفلاسفة تعنى: سلب الإكراه عنه. انظر: عيون المسائل للفارابى: ص ٥، والإشارات لابن سينا: ٥٦١/٣.

ويستدل الأشاعرة على إثبات صفة الإرادة للبارى تعالى بدليل حاصله: فعل الله تعالى

اعلم أن الكلام فى هذا الباب يتعلق بطرفين الإرادة والمراد.

يمكن أن يكون على عدة احتمالات لا يترجح أحدها إلا بمرجح، وهذا المرجح لا يمكن أن يكون: ذاته تعالى؛ لأن نسبة الذات إلى هذه الاحتمالات واحدة، ولا صفة القدرة لأن نسبتها أيضاً إلى الأشياء واحدة، ولا صفة العلم، لأنه صفة انكشاف وليس صفة تأثير وترجيح، وعليه فلا بد من مرجح يرجح الاحتمال الذى سيوجد عليه الفعل، ولا شىء سوى الإرادة التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة من وجوده أو عدمه، وبصفاته المعينة الخاصة به، وبزمنه المحدد له، وبمكانه المخصص له، وبالجهة المحددة، وكذا بالمقدار المعين الذى سيوجد عليه. انظر: من كتب الأشاعرة: اللمع للأشعرى: ص ٤٧ - ٥٩، والتمهيد والإتصاف وكلاهما للباقلانى: ص ٤٧ - ٤٩، وص ٣٦، وأصول الدين للبغدادى: ص ١٠٢ - ١٠٥، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٦٣ - ٧١، والاقتصاد للغزالى: ص ٤٧ - ٥١، ونهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٢٣٨ - ٢٦٨، وكذا المحصل للرازى: ص ١٢١ - ١٢٣، والمعالم فى أصول الدين: ص ٤٤ - ٤٥ وغير ذلك.

الفصل الأول

اعلم أن مذهب أصحابنا فى الإرادة على نحو مذهبهم فى العلم^(١)، وأما المعتزلة: فإنهم ذهبوا إلى أنه تعالى مرید بإرادة محدثة لا فى محل^(٢)، وذهبت الكرامية إلى أنه مرید بإرادة يحدثها فى ذاته^(٣)، وذهب النجّار^(٤) إلى أنه مرید

(١) يقصد الرازى أن الأشاعرة يرون أن صفة الإرادة كصفة العلم فكلاهما صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، مع كون العلم تبعاً للإرادة كما سبق بيانه فى الهامش السابق.

(٢) هذا هو رأى المعتزلة البصرية، وسبب قولهم ما توهموه من أن القول بإرادة قديمة لله تعالى سيؤدى إلى جواز التغير عليه؛ لأن الموجودات تتعلق بالإرادة، وهى متجددة ومتغيرة، فلو كانت الإرادة قديمة لوضح التغير فى ذات الله تعالى، وسيأتى الرد عليهم. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٤٠.

(٣) ذهب الكرامية ومن تبعهم إلى جواز قيام الحوادث بذات الله تعالى، ويعنون بالحوادث: الموجود بعد العدم، ولكنهم خصصوا الحوادث — على رأى أكثرهم — بما يقتدر إليه — تعالى وتقدس — فى الإيجاد والخلق.

ثم اختلفوا فى هذا الحادث: فمنهم من قال: هو قوله: { كُنْ }، ومنهم من قال: هو الإرادة، ويرون أن خلق الإرادة، أو القول فى ذاته يستند إلى القدرة القديمة، لا أنه حادث بإحداث، وأما خلق باقى المخلوقات فمستند إلى الإرادة، أو القول، على اختلاف مذاهبهم، فالمخلوق القائم بذاته يعبرون عنه بالحادث، والخارج عن ذاته يعبرون عنه بالمحدث.

وأجمعت الكرامية على أن ما قام بذاته من الصفات الحادثة، لا يتجدد له منها اسم، ولا يعود إليه منها حكم، حتى أنه لا يقال: إنه قائل بقول، ولا مرید بإرادة، بل قائل بالقائلية، ومرید بالمريديّة.

ولذلك فقد قالوا كما حكى عنهم الرازى وغيره: إنه تعالى مرید بإرادة يحدثها فى ذاته، والجدير بالذكر أن الشيخ ابن تيمية قد تأثر بقول الكرامية أعنى تجويزهم قيام الحوادث بذاته تعالى، وقال ما يشبه ذلك حيث زعم أن لله تعالى صفات اختيارية تحدث فى ذاته بعد أن لم تكن

لذاته^(٢).

وذهب النظم^(٣) والبلخي^(٤) إلى أن المعنى بكونه مريداً لأفعال نفسه أنه خالق لها، والمعنى بكونه مريداً لأفعال غيره أنه أمر بها^(٥)، وذهب أبو الحسين

— تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً..

انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٢٠ — ٣٢، الملل والنحل للشهرستاني: ١/١١٠، والفرق بين الفرق للبغدادى: ص ٢٢٠، ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للنشار: ١/٢٩٧ وما بعدها. (١) هو أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله البغدادى، المعروف بالنجار، كان حاكماً، وينتسب إلى متكلمى المجبرة، عاصر النظم وله معه مناظرات، وهو وأتباعه يوافقون أهل السنة فى بعض أصولهم مثل: خلق الأفعال، والمعتزلة فى بعض أصولهم أيضاً مثل: نفى الرؤية، أسس فرقة النجارية، وتوفى سنة ٢٣٠ هـ.

انظر: الملل والنحل: ١/٨٨، والفرق بين الفرق: ص ٢٠٧.

(٢) نسب هذا رأى إلى النجار القاضى عبد الجبار فى شرح الأصول الخمسة، وهو نقل غير دقيق لمذهبه إذ المشهور عنه اقترابه من مذهب الفلاسفة حيث قال فى معنى كونه تعالى مريداً: إنه غير مغلوب ولا مستكره. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٤٠، ونهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٢٣٨، والملل والنحل له أيضاً: ١/٨٩، وأبحار الأفكار للآمدى: ١/٢٩٨. وربما كان هذا رأى للنجار آخر. انظر: الأربعين: ص ١٤٧.

بل إن الرازى فى المحصل نسب إليه ما حققناه صراحة. انظر: المحصل: ص ١٦٨.

(٣) هو إبراهيم بن سيار بن هانىء البصرى أبو إسحاق النظم، تلميذ أبو الهذيل العلاف، وابن أخته من مشاهير المعتزلة وأذكيائهم، أسس فرقة النظامية وإليه تنسب، من أشهر تلاميذه: الجاحظ، وتوفى سنة ٢٣١ هـ. انظر: طبقات المعتزلة: ص ٤٩، والملل والنحل: ١/٥٣، والفرق بين الفرق: ١٣١ — ١٥٠.

(٤) البلخي هو الكعبى أبو القاسم المتوفى سنة ٣١٩ هـ، تقدمت ترجمته.

(٥) من رأى النظم والبلخي أن معنى كونه تعالى مريداً لفعل نفسه: أى يفعله لا على وجه السهو والغفلة، ومعنى كونه تعالى مريداً لفعل غيره: أى أنه أمر به ناهٍ عن خلافه.

البصري^(١) إلى أن المعنى بكونه مريداً كونه عالماً بحسن ما يفعله، وقبح ما لا يفعله^(٢).

واعلم أنا قد بينا أنه سبحانه مريد، وأن مريدته زائدة على علمه، وأنه مريد بإرادة^(٣)، والآن نريد أن ندل على قدم إرادة الله تعالى، وفيه مسالك:

المسلك الأول: أن نقول: لو كانت إرادة الله تعالى محدثة لساوت المراد فيما لأجله افتقر إلى الإرادة، وهو يخصصها بوقت دون وقت، وذلك يفضي إلى افتقارها إلى آخر، فإن كانت تلك الإرادة محدثة، فتكون مفتقرة إلى إرادة أخرى، ويفضي إلى التسلسل^(٤)، وهذا محال، فإذن تنتهي جميعها إلى إرادة قديمة، وذلك معنى عن

والجدير بالذكر أن القاضي عبد الجبار قد رفض ذلك الرأي منهما، وأثبت أن الله تعالى مريد بإرادة قائمة لا في محل كما سبق بيانه. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٣٤ وما بعدها.

(١) محمد بن علي البصري أبو الحسين الطيب المعتزلي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ، تقدمت ترجمته.

(٢) قال الرازي في الأربعين: { قال أبو الحسين البصري: معنى كونه مريداً لأفعال نفسه أنه دعاه الداعي إلى إيجادها، ومعنى كونه مريداً لأفعال غيره: أنه دعاه الداعي إلى الحث عليها، والترغيب في فعلها. ولعل مذهب أبي القاسم البلخي هو هذا }. انظر: الأربعين: ص ١٤٢، والمحصل: ص ١٦٨.

(٣) انظر: ص ٨٢/٨٣.

(٤) التسلسل هو: ترتب أمور غير متناهية عند الحكماء والمتكلمين، وأما التسلسل المستحيل عندهم: فترتب أمور غير متناهية مجتمعة في الوجود، واستحالة التسلسل عند الحكماء مشروطة بشرطين: اجتماع الأمور الغير متناهية في الوجود والترتيب بينها إما وضعاً أو طبعاً، وعند المتكلمين ليست مشروطة بالشترطين المذكورين، بل كل ما ضبطه الوجود يستحيل فيه التسلسل، ويؤيده ما وقع في شرح حكمة العين: أقسام التسلسل أربعة: لأنه إما لا تكون أجزاء

الإرادات المحدثه، وهو الذى ذهبنا اليه^(١).

فإن قيل^(٢): لا نسلم أن افتقار الحوادث إلى الإرادة لاختصاصها بوقت دون وقت، وإنما اختصاصها بالأوقات المعينة، والجهات المعينة لأجل الداعى^(٣)، وذلك فى حق البارى تعالى هو العلم، بلا افتقار الحوادث إلى الإرادة لاتصافها بأحكام لا تثبت إلا بإرادة وهى: كون الفعل تعظيماً وإهانة، وحسناً وقبحاً، وكون الصيغة أمراً أو نهياً، والإرادة لا تتصف بشيء من هذه الصفات، فلا يلزم افتقارها إلى إرادة أخرى^(٤).

قلنا: قد بينا أن اختصاص أفعال الله تعالى ببعض الأوقات، وببعض الأحيان يدل على أنه ﷻ مريد، وبيننا أنه لا يجوز استناد ذلك إلى الداعى بما لا حاجة إلى

السلسلة مجتمعة فى الوجود أو تكون، والأول هو: التسلسل فى الحوادث، والثانى: إما أن يكون بين تلك الأجزاء ترتيب طبيعى وهو كالتسلسل فى العلل والمعلولات ونحوها من الصفات والموصوفات المترتبة الموجودة معاً، أو وضعى وهو التسلسل فى الأجسام، أو لم يكن بينها ترتيب، وهو التسلسل فى النفوس البشرية، والأقسام بأسرها باطلة عند المتكلمين دون الأول، والرابع عند الحكماء. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى: ٤٢٩/١.

(١) قال الرازى فى الأربعين: { وأما قول من قال: إن إرادته محدثة فهو باطل، لأنه لما ثبت أن إحداث المحدثات موقوف على الإرادة، فلو كانت الإرادة محدثة، لافتقر إحداثها إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل }.

انظر: الأربعين فى أصول الدين: ص ١٤٨، والمحصل: ص ١٦٩.

(٢) هذا هو اعتراض أبى الحسين البصرى. انظر: أبعاد الأفكار للآمدى: ٣٠٧/١.

(٣) تقدم الكلام فى معنى الداعى بما فيه الكفاية، فلا حاجة للإعادة.

(٤) هذا الاعتراض من أبى الحسين البصرى قائم على قول المعتزلة من وجوب رعاية الحكمة والمصلحة فى فعله، وبتعبير آخر: بتعليل أفعاله تعالى بالأغراض، وهو ما يرفضه الأشاعرة — وعلى رأسهم الرازى — رفضاً باتاً، كما سيأتى إن شاء الله تعالى. انظر: المحصل: ص ١٧٠.

إعادته^(١)، ثم إن سلمنا ذلك، فلا نسلم أن كون الصيغة أمراً^(٢) ونهياً^(٣)، وكون الفعل تعظيماً وإهانة صفة حتى نحكم باحتياج الفعل لأجلها إلى إرادة.

وبيانه: وهو أنه لو كانت الصيغة أمراً ونهياً صفة، لكانت تلك الصفة إما أن تثبت لكل حرف من حروف الصيغة، فيكون كل حرف منها موصوفاً بأنه أمرٌ، وتثبت تلك الصفة لمجموع حروف الصيغة، وهذا أيضاً محال؛ لأنه ليس تحصل جميع أجزاء الصيغة دفعة واحدة، بل إذا وجد أحدهما انعدم الثاني، وما لا وجود له كيف يتصف بصفة ؟، فثبت أنه ليس كون الصيغة أمراً ونهياً، ولأنه لا معنى لكون الصيغة أمراً إلا أن الأمر فعل صيغة يعلم المأمور عند سماعها منه أن يطلب منه فعلاً، فإن كان صدور الصيغة عنه في وقت معين يدل على إرادة فاعله، فذلك صدور إرادة عنه في وقت معين، يجب أن تدل على إرادة أخرى، وإن اكتفيناها هنا بالداعي، فذلك في الصيغة لا فرق، وهذا واضح^(٤).

المسلك الثاني: وهو أنه لو كان البارئ تعالى مريداً بإرادة محدثة^(٥) لكان

(١) انظر: ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) الأمر: هو الشرعى ومعناه: قول القائل لمن دونه افع، وهناك الأمر الحاضر ومعناه: ما يطلب به الفعل من الفاعل الحاضر، ويقال له الأمر بالصيغة لأن حصوله بالصيغة المخصوصة دون الكلام كما في أمر الغائب.

انظر: التعريفات للجرجاني: ص ٣٠.

(٣) النهى: هو ضد الأمر ومعناه: قول القائل لمن دونه لا تفعل. المرجع السابق: ص ٢٢٢.

(٤) هذا بناءً على أن الإرادة قد تتعلق بالتكليف من الأمر والنهى، وقد تتعلق بالمكلف به: أى بإيجاده أو إعدامه على رأى الأشاعرة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

(٥) تعتبر مسألة استحالة قيام الحوادث بذات الله تعالى من المسائل المهمة جداً فى فكر الرازى — رحمه الله تعالى — حيث خاض فيها مع الكرامية حرباً ضروساً، لم تهدأ نارها إلا بوفاة الرازى.

لا يخلو، إما أن تكون تلك الإرادة في ذاته، أو في محل آخر، أو لا في محل، والأقسام كلها باطلة.

أما أنه لا يجوز أن يكون مريداً بإرادة يحدثها في ذاته، لأنه لو كان قابلاً

وقيل: إن الكرامية قد دسوا له السم فمات على إثر ذلك.

والرازي يرفض جواز قيام الحوادث بذاته تعالى ومع ذلك فهو يقول: إن أكثر الطوائف يقولون بهذا المذهب. وإن كانوا ينكرونه باللسان، ولكنه ينتهي إلى تقسيم الصفات على ثلاثة أقسام:

الأول: صفات حقيقية عارية عن الإضافات كالسواد والبياض.

الثاني: الصفات الحقيقية التي تلزمها الإضافات كالعلم والقدرة.

الثالث: الإضافات المحضة والنسب المحضة: مثل كون الشيء قبل غيره وبعد غيره.

ثم يقول: أما وقوع التغير في الإضافات، فلا خلاص عنه، وأما وقوع التغير في الصفات الحقيقية فالكرامية يثبتونه، وسائر الطوائف ينكرونه.

ويستدل الرازي على استحالة قيام الحوادث بذاته تعالى بأدلة ثلاثة:

١- إن كل ما كان من صفات الله تعالى، فلا بد وأن يكون من صفات الكمال ونعوت الجلال، فلو كانت صفة من صفاته محدثة، لكانت ذاته قبل حدوث تلك الصفة خالية عن صفة الكمال، والخالي عن صفة الكمال ناقص، فيلزم أن ذاته تعالى كانت ناقصة قبل حدوث تلك الصفة فيها، وذلك محال.

٢- لو كانت ذاته تعالى قابلة للصفة المحدثة، لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته، وكانت تلك القابلية أزلية، وثبوت القابلية يستلزم صحة وجود المقبول، فلو كانت قابلية الحوادث أزلية، لكان وجود الحوادث في الأزل ممكناً، إلا أن هذا محال. لأن الحوادث مالهأ أول، والأزل لا أول له. والجمع بينهما محال.

٣- قول الخليل عليه السلام كما حكى القرآن: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام ٧٦)، والأفول: هو التغير، وهذا يدل على أن المتغير لا يكون إلهاً أصلاً. انظر: الأربعين في أصول الدين: ١١٧ - ١٢٠، والمحصل: ص ١٥٨ - ١٥٩، وغير ذلك.

للحوادث لكانت قابليته صفة ذاتية له، لأنه لو كانت قابليته لمعنى لأجل معنى آخر لأفضى إلى التسلسل، وإذا كانت قابليته للحوادث لذاته لوجب أن يكون في الأزل بحال يصح اتصافه بالحوادث، ولو كان في الأزل بحال يصح اتصافه بالحوادث، لزم صحة وجود الحوادث في الأزل، لأنه ما لم يصح وجود الشيء، في نفسه استحال اتصاف غيره به، فيلزم منه صحة وجود شيء، يكون حادثاً أزلياً، وهذا محال^(١)، ولأنه لو كان قابلاً لبعض الأعراض^(٢)، لكان قابلاً لكل الأعراض، إذ ليس عرض بأولى من عرض، وذلك يفضى إلى أن يكون متحركاً أو ساكناً، وذلك محال، وأما أنه يستحيل أن يكون مريداً بإرادة لا في محل^(٣) فلوجهين:

أحدهما: وهو أن إرادة الواحد منا لا بد وأن تماثل إرادة البارئ تعالى إذا تعلقت بمتعلق واحد، فلو صح وجود إرادة البارئ تعالى لا في محل، لصح وجود إرادتنا لا في محل، فاستحال استبداد أحد المثلين بما لا يصح على الآخر، وبالاتفاق وجود إرادتنا لا في محل محال^(٤).

الثاني: وهو أن إرادة الله تعالى لا تخلو إما أن توجب لغيره أن يكون مريداً، أو لا توجب، ومحال أن توجب؛ لأنه ليس بأن توجب الحكم لشخص بأولى

(١) انظر: المرجعين السابقين: نفس الصفحات، وعبارة الرازي هنا قريبة جداً مما عرضناه آنفاً.

(٢) بينا من قبل استحالة كونه تعالى جسماً، وقلنا إن الجسم لا ينفك عن الأعراض الملازمة له، ولما لم يكن البارئ تعالى جسماً استحال قبوله للأعراض. انظر: ص ٦٧ وما بعدها.

(٣) قارن نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٢٤٣ وما بعدها.

والمحل هو: ظرف من الحلول، وهو عند الحكماء منحصر في الهيولى والموضوع.

انظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ١٤٩٠/٢.

(٤) قارن نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٢٤٣، وواضح جداً تأثر الرازي — رحمه الله تعالى — بالشهرستاني حتى في العناوين والتقسيم.

من أن توجبه لسائر الأشخاص، فيلزم أن لا يريد الله تعالى شيئاً، إلا إذا كان كل حيوان^(١) مريداً لذلك الشيء، وذلك محال^(٢)، فثبت أن إرادة الله تعالى لا توجب لغيره أن يكون مريداً، وإنما توجب لما لأجله فارق سائر الإرادات التي توجب للإنسان صفة المريدية، وذلك هو أنها غير قائمة به، وسائر الإرادات قائمة به، فإذا لم توجب للإنسان صفة المريدية؛ لأنها غير قائمة به، وجب أن لا يوجب للباري تعالى صفة المريدية، لأنها غير قائمة به؛ لاستحالة اختصاص العلة بشخص دون شخص، وذلك ما أردناه^(٣).

وأما أنه يستحيل أن يكون مريداً بإرادة قائمة بغيره^(٤)، فلأنه يلزم أن يكون مريداً لجميع الإرادات على تناقضها وتنافيها، وذلك محال^(٥)، وسنعود إلى إبطال هذا القسم في باب صفة الكلام إن شاء الله تعالى.

(١) يقصد الرازي بالحيوان: الكائن الحي.

(٢) عرض الرازي لهذا الجواب في موضع آخر بما نصه: { إن ذوات الحيوانات تصح عليها صفة المريدية، فلو جوزت إرادة لا في محل، لكانت نسبة تلك الإرادة إلى ذات الله تعالى، كنسبتها إلى سائر الذوات. فوجب أن توجب صفة المريدية لكل من يصح أن يكون مريداً، لعدم الاختصاص، فيلزم أن كل ما يريده الله تعالى، يريده كل الأحياء. وذلك باطل }. انظر: الأربعين في أصول الدين: ص ١٤٨.

(٣) انظر: نهاية الإقدام: ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) هذا على رأى المعتزلة البصرية.

(٥) انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ١/ ٣١٣ وما بعدها.

الفصل الثانى

فى إرادة الكائنات^(١)

(١) ذهب الأشاعرة ومن وافقهم إلى أن الإرادة تتعلق بالممكن، وعليه فهى تشمل الخير والشر خلافاً للمعتزلة القائلين بأن إرادة الله تعالى لا تتعلق بالشرور والقبائح، ولا يجوز نسبة الشرور والقبائح إلى الله تعالى تأدياً إلا فى مقام التعليم.

ومن طريف ما يروى أن القاضى عبد الجبار دخل على الصاحب بن عباد، وعنده الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايينى، فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، فقال الأستاذ: سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء. انظر: شرح المقاصد: ٢٠١/٣، وشرح البيجورى على الجوهرة: ص ٤٢.

كما فرق الأشاعرة ﷺ أجمعين بين الإرادة والأمر، لأن الإرادة شاملة لكل ما هو كائن، وإذا خصصت شيئاً فهو واقع لا محالة، أما الأمر فلا يكون إلا للطاعة دون المعصية. انظر: شرح البيجورى على الجوهرة: ص ٣٥، وشرح الخريدة: ص ٤٢.

وعليه فالأقسام عند الأشاعرة: مأمور به مراد كإيمان أبى بكر ﷺ، وغير مأمور به ولا مراد كالكفر منه ﷺ، ومأمور به غير مراد كالإيمان من أبى جهل، ومراد غير مأمور به كالكفر منه. انظر: هوامش على النظامية: ص ١٣٩ وما بعدها.

وأيضاً فالإرادة عند الأشاعرة تخالف المحبة والرضا، وذلك لأن الإرادة تشمل الطاعات والمعاصى، ولا تقع المحبة أو الرضا إلا على الطاعات دون المعاصى، فالطاعات عندهم مرادة ومأمور بها، أو محبوبة، ومرضى عنها، والمعاصى مرادة لله تعالى، ولكنها غير مأمور بها، ولا محبوبة، ولا مرضى عنها.

ولكن بعض الأشاعرة ومنهم صاحب المواقف جعلوا المحبة إرادة خاصة بمعنى التسوية بين الإرادة والمحبة، والرضا بمعنى: أن الله تعالى يريد الكفر ويحبه ويرضاه، ولكنه لا

مذهب أهل الحق أن الكائنات بأسرها مرادة لله تعالى^(١)، واختلفوا في التعبير عنه، فبعض السلف^(٢) منع من إطلاق اللفظ بأن الكفر والفواحش مرادة لله تعالى، وقال: لا يجوز إطلاق ذلك كما لا يجوز أن يقال: يا إله القردة والخنازير لما فيه من سوء الأدب^(٣).

يحبّه ولا يرضاه كفراً مجرداً، بل يحبّه ويرضاه كفراً معاقباً عليه. انظر: شرح المواقف: ١٧٨/٨.

ومن العجيب أن ابن تيمية - العدو اللدود للأشاعرة - قد هلّل لهذا الرأي، ولم يحك عن الأشاعرة سواء، ورتب عليه الكثير من اللوازم الباطلة التي يرفضها الأشاعرة قائلاً: {إنهم لا يستحسنون حسنة، ولا يستقبحون سيئة}. انظر: رسالة الاحتجاج بالقدر: ص ٦٥ - ٦٧.

والجدير بالذكر أن الرازي - رحمه الله تعالى - في التفسير الكبير أثبت لله تعالى صفة أخرى غير الإرادة وهي: المحبة، ورفض قول جمهور الأشاعرة من أن معنى المحبة هو: إرادة إيصال الثواب.

ولعل مراد الرازي - رحمه الله - هو التسوية بين الإرادة والمحبة كما فعل صاحب المواقف ومعناه: أن الله تعالى يحب الكفر ويرضى به، ولكنه يحبّه ويرضاه كفراً معاقباً عليه.

(١) قال إمام الحرمين في الإرشاد: {فمذهبنا أن كل حادث مراد لله تعالى حدوثه، ولا يختص تعلق مشيئة الباري بصنف من الحوادث دون صنف، بل هو تعالى مرید لوقوع جميع الحوادث: خيرها وشرها، نفعها وضرها}.

انظر: الإرشاد: ص ٢٣٧، وشرح المقاصد: ٢٠٢/٣.

(٢) قارن: شرح المقاصد: ٢٠٢/٣.

(٣) قال الآمدي: {واتفقوا - أهل الحق - على صحة إسناد جميع الكائنات إلى إرادته جملة بقولهم: جميع الكائنات مرادة لله تعالى، واختلفوا في جواز إسنادها إليه مفصلاً: فمنهم من منع ذلك وأن يقال: الكفر والفسوق مراد لله تعالى حذراً من تخيل السامع أن الإرادة هي الأمر، كما ذهب إليه بعض العلماء، وأن الكفر والفسوق مأمور به، وعند توقع الالتباس في الإطلاق، يجب

وأما الشيخ أبو الحسن رحمه الله ^(١)، فقد أطلق القول بذلك فقال: إن الله تعالى يريد الكفر ويحبه ويرضى به ^(٢).

وأما المعتزلة ^(٣) فإنهم قسموا الحوادث إلى ما يقع فعلاً للبارى تعالى، وإلى ما يقع فعلاً للعبد، وأفعال البارى تعالى تنقسم إلى الإرادة وغيرها، أما الإرادة، فلا تقع مرادة له، وما عداها فتقتصر كلها إلى الإرادة، فعلى هذا أكثر أفعال الله تعالى غير مرادة له.

وأما أفعال العباد، فأفعال المكلفين منهم تنقسم إلى:

واجب: وهو مراد فعله مكروه تركه.

وإلى محذور: وهو مزاد تركه مكروه فعله.

وإلى مندوب: وهو مراد فعله غير مكروه تركه.

وإلى مباح: وهو فعله وتركه غير مكروه ولا مراد.

وأفعال غير المكلفين: فتجرى مجرى المباحات فى أنها غير مرادة ولا مكروهة ^(٤)، ولهم فى ذلك شبه، فمما عولوا عليه:

التوقف فيه على ورود الشرع به، ولم يرد، وهذا كما يصح أن يقال بالإجماع، وبالنص: الله خالق كل شيء، ولا يقال: الله خالق المستقذرات، والنجاسات، والكلاب، والخنازير، وإن كانت من مخلوقاته. انظر: أبقار الأفكار: ٤٧٧/٢.

(١) الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله إمام أهل السنة والجماعة. تقدمت ترجمته.

(٢) انظر: اللمع للأشعري: ص ٨٢ - ٨٣، ومعنى كلام الشيخ أن الله تعالى يحب الكفر ويرضى به كفرًا معاقبًا عليه كما حقق ذلك صاحب المواقف - رحمه الله تعالى -.

(٣) المعتزلة فرقة من كبار الفرق الإسلامية. تقدم التعريف بها، انظر ص ٥٥..

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٤٥٦ - ٤٥٩.

أن صيغة الأمر قد توجد في معرض التهديد والتكوين في الإذلال مع اتحادها في الجنس، لالتباس بعضها ببعض في السماع، فيجب اختصاصها عند وقوعها أمراً بما يؤثر فيها، وليس ذلك إلا كون فاعلها مريد، لأن ما عدا ذلك في كون الصيغة عرضاً موجوداً محدثاً، ومن كون فاعلها قادراً حياً قد توجد حال ما لا تكون الصيغة أمراً، ثم لا يخلو: إما أن يكون المؤثر فيها كونه مريداً، لكون الصيغة أمراً، فيلزم منه صحة الأمر بما لا يصح أن يراد مثل: الماضي والقديم، كما أن الخبر لما استغنى عن إرادة المخبر عنه صح الخبر بما لا يصح أن يراد، ولأنه يلزم أن لا يبقى فرق بين أمر الإيجاب وأمر الإرشاد وأمر الإباحة، لاشتراك الكل في أن الله تعالى أراد في كل ذلك أن يكون أمراً، ويجب أيضاً أن لا يمتنع منا جعل الصيغة الواحدة أمراً تهديداً إذا وجد فينا إرادتهما؛ لأن إرادتي الضدين لا تتضادان، وإذا بطل ذلك وجب أن يكون المؤثر فيه إرادة المأمور به، والبارى تعالى أمر كافة الخلق بالإيمان والطاعة، وزجرهما عن الكفر والمعصية، فوجب أن

وهو قد قسم أفعال العباد إلى ضربين:

أحدهما: له صفة زائدة على حدوثه وصفة جنسه، والآخر ليس له صفة زائدة على ذلك، وما هذا سبيله فإنه تعالى لا يريد ولا يكرهه.

وما له صفة زائدة على حدوثه وصفة جنسه فعلى ضربين:

أحدهما قبيح والآخر حسن، فما كان قبيحاً فإنه لا يريد البتة بل يكرهه ويسخطه.

وما كان حسناً فهو على ضربين:

أحدهما له صفة زائدة على حسنه، والآخر ليس له صفة زائدة على حسنه.

وهذا الثاني إنما هو المباح، والله تعالى لا يجوز أن يكون مريداً له.

وأما الأول، وهو ما يكون له صفة زائدة على حسنه فهو الواجب والمندوب إليه، وكل ذلك مما يريد الله تعالى. وواضح أن نقل الرازي — رحمه الله تعالى — دقيق لرأى المعتزلة. انظر: نهاية الإقدام: ص ٢٤٨.

يكون مريداً للإيمان، وكارهاً للكفر من جميع المكلفين، فيكون مريداً لما لا يكون، وكارهاً لما يكون^(١).

ومما احتجوا به أن قالوا: لو كانت المعصية تقع مرادة لله تعالى، لكان العاصي موافقاً بها إرادة الله تعالى، وذلك يتضمن كونه مطيعاً^(٢) بدليل قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيْمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (سورة غافر: ١٨) أى يفعل ما يريد ذلك الشفيع، وقال الشاعر^(٣):

رب من انضجت غيظاً صدره قد تمنى لى موتاً لم يطع

أى لم يفعل بإرادة.

ومما احتجوا به: قوله تعالى ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٣١).

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨).

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٤٦٦ وما بعدها.

(٢) انظر المرجع السابق: ص ٤٥٧.

(٣) الشاعر هو سويد بن أبى كاهل بن حارثة بن حسل، والبيت من قصيدة مطلعها.

بسطت رابعة الحبل لنا فمددنا الحبل منها فانقطع

قالوا: فلو لا أن ما قالوه باطل، وإلا لما استحقوا عليه^(١).

ومسالك الاستدلال من جانبنا أربعة :

المسلك الأول: وهو أنا نقول: لو كان البارى خالفاً لأفعال العباد لكان مريداً لها، إذ القادر لا يوجد الشيء إلا إذا قصد إلى إيجاده، وقد عرفت بالأدلة القاطعة أن البارى تعالى خالق لأفعال العباد فوجب أن يكون مريداً لها^(٢).

المسلك الثانى: هو أنا نقول: لو أراد الله تعالى من عبده ما لم يكن، وكره منهم ما كان، لأدى إلى انتسابه إلى الضعف والقصور؛ لاتفاق العقلاء على أن نفوذ الإرادة فى المراتات مما تمدح به فى كمال الاقتدار، واتفاقهم على أن عدم نفوذها من أمارات القصور والعجز، إذ من أصدق علامات العجز أن يقال: الأمر يجرى شاء فلان أم أباه^(٣)، والذي يؤكد هذه الجملة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا﴾ (يونس: ٩٩)^(٤) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ (الأنعام: ٣٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام ١١٢) فثبت أن عدم نفوذ الإرادة فى المراد يدل على الضعف، وذلك على الله تعالى محال.

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٥٩ وما بعدها.

(٢) انظر: ص ١٠١ وما بعدها.

(٣) انظر: المعالم فى أصول الدين: ص ٩٥، والأربعين، والمطالب العالية: ٣، ١٠٧ - ١٠٩. وقارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٠، واللمع للأشعرى: ص ٥٣، وأبكار الأفكار للآمدى: ٤٨٩/٢. ورفض المعتزلة هذا الاتهام من الأشاعرة بناءً على أصلهم الفاسد أن هناك خالقاً غير الله تعالى، وهو العبد حيث زعموا أنه خالق لأفعاله الاختيارية.

قارن: رد المعتزلة على الأشاعرة فى شرح الأصول الخمسة: ص ٤٦٦ وما بعدها.

(٤) جمع الرازى - رحمه الله تعالى - بين آيتين فى آية واحدة، والمقطع الأول جزء من آية فى سورة يونس: آية ٩٩ والمقطع الثانى جزء من آية فى سورة الأنعام: آية ٣٥.

فإن قالوا: الدال على القصور وعدم نفوذ الإرادة في أفعال نفسه، فأما في أفعال الغير فلا يلزم^(١).

قلنا: العجز عن أفعال نفسه محال لأن الشيء إنما يكون فعلاً له إذا فعله، ويستحيل أن يعجز عنه إذا فعله، وقبل أن فعله فهو نفى محض، فكيف يقال بأنه فعله أو فعل غيره؟^(٢).

وأيضاً: فإن المقصور للمملكة فيما بيننا لو جرى من جنوده وسراياه في ملكه ما يكرهه، ولم يجد إلى رفعه سبيلاً، كان ذلك من أصدق الدلائل على ضعفه كذلك ها هنا^(٣).

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٦٦.

(٢) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٢.

(٣) قارن: اللمع للأشعري: ص ٥٠ — ٥١.

ويلحظ أن الرازي هنا يستخدم قياس الغائب على الشاهد، وهو أمر سنحاول أن نتكلم عنه، وعن تطوره في الفكر الأشعري، وموقف الرازي منه فيما يلي :

يعرف القياس بأنه: إعطاء حكم شيء لشيء آخر لاشتراكهما في علته.

وهو يستعمل في استنباط الأحكام الفقهية العملية، ولكن المتكلمين نقلوه إلى علم الكلام ليكون طريقاً لإثبات الأحكام المتعلقة بالله تعالى، لوجود نظائر لها في الواقع.

والأشاعرة يستخدمون هذا القياس خاصة في مجال الصفات، ولكنهم يقللون من استخدامه بالنسبة لأفعال الله تعالى بعكس المعتزلة.

ويحقق الآمدي — رحمه الله تعالى — قول إخوانه الأشاعرة حين قاسوا الغائب على الشاهد، فحاولوا أن يلتمسوا لذلك جامعاً فقالوا: إن الحقائق أو التعريفات، والأدلة، والشروط، والعلل — يشير إلى الجمع بالحد، والجمع بالشرط، والجمع بالعلة — يجب أن تطرد شاهداً وغائباً، وأن توجب في الغائب ما توجبه في الشاهد من الأحكام. انظر: أبحاث الأفكار: ٣٩/١ — ٤٠.

وممن استخدم هذا القياس من شيوخ الأشاعرة: الشيخ الأشعري في "اللمع" إذ اعتمد

عليه فى إثبات صفة العلم لله تعالى، ورفضه فى أفعال الله تعالى. انظر: اللمع: ص ٢٦ - ٣٠،
وص ٥٦.

والباقى الذى اعتمد عليه خاصة الجامع بين الشاهد والغائب بجامع العلة أو الدليل.
انظر: التمهيد: ص ٣٨.

واعتمد عليه أيضاً عبد القاهر البغدادى فى إثبات الصفات، ولكنه رفض اعتماد
المعتزلة عليه فى مسائل التعديل والتجوير. انظر: أصول الدين: ٧٨ - ٧٩، وص: ١٤٦ -
١٥٢.

ومنذ مجيء، إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - بدأ إنكار قياس الغائب على الشاهد،
وقال إمام الحرمين: إنه لا أصل له، ولكنه قد اعتمد عليه فى مسألة حلول الحوادث فى ذاته
تعالى، ولكنه رفضه من المعتزلة فى مسائل التعديل والتجوير. انظر: الإرشاد: ص ٤٥، وص
٢٦٣ - ٢٦٧ وغير ذلك.

ونقده الغزالي - رحمه الله تعالى - نقد لاذعاً فى معيار العلم مؤكداً على أنه لا يوجد
جامع حقيقى بين الغائب والشاهد ليتحقق القياس عليه. انظر: معيار العلم: ص ٩٤،
والقسطاس: ص ٧٢.

أما بالنسبة للإمام الرازى - رحمه الله تعالى - فإنه قد رفضه فى كتابه القيم: أساس
التقديس ويقول ما نصه:
{ إن معرفة الله تعالى وصفاته على خلاف حكم الحس }، ولكنه لم يفصل فى نقده كما فعل
الغزالي من قبل. انظر: أساس التقديس: ص ١٤.

ولمزيد من التفاصيل: انظر: الآمدى وآراؤه الكلامية لأستاذنا الدكتور حسن الشافعى:
ص ١٤١ - ١٤٧.

والحق أن استخدام قياس الغائب على الشاهد فى المسائل الإلهية أمر لا يتيسر خاصة
وأنا لا نعرف كنه ذات البارئ تعالى وتقدس، أضف إلى ذلك ضعف العقل وعجزه وقصوره عن
الخوض فى تلك المضايق على حد تعبير الرازى - رحمه الله تعالى -..

فإن قالوا: الباري تعالى قادر على تحصيل مراده بالإلجاء^(١)، ومعناه: أن يظهر آيات وعلامات مثل: الزلزلة والغرق والحرق بحيث تظل أعناقهم لها خاضعين كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَوْمَ مُشْرِكِينَ﴾ (غافر: ٨٤) فثبت أنه لا يلزم العجز.

قلنا: وما يؤمنكم أنه لو فعل جميع ذلك لم يؤمنوا؟ أما سمعتم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِ كَكَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الأنعام: ١١١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١)^(٢).

قال الأستاذ أبو إسحاق^(٣) رحمه الله: نحن نجد القتل أعظم أنواع الضرر، وكل ما يتوقاه العاقل إنما يتوقاه من مخافة، ثم نجد كثيراً من العقلاء يقتلون أنفسهم بالخنق

(١) عرف إمام الحرمين الإلجاء عند المعتزلة بأنه: إظهار آيات هائلة يؤمن عندها الكفار. انظر: الإرشاد: ص ٢٤١.

(٢) قارن: اللمع للأشعري: ص ٦٠، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤١ وما بعدها.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق، من علماء الفقه والأصول، لقبه: ركن الدين، نشأ في أسفرايين، ثم خرج إلى نيسابور، وبنيت له مدرسة عظيمة فدرس فيها، ورحل إلى خراسان، وبعض أنحاء العراق، له مناظرات كثيرة مع المعتزلة، توفي رحمه الله تعالى بنيسابور سنة ٤١٨ هـ، من مصنفاته: أدب الجدل - الجامع الجلي والخفي في أصول الدين والرد على الملحدين - العقيدة - شرح فروع ابن الحداد، وغير ذلك. انظر: الظنون: ٨/٥.

والغرق لما ينالهم من أذى مكروهه، وذلك يبطل ما قالوه^(١)، ولأن من الناس من تعظم أنفته حتى يجهل كل أنواع العقاب، ولا ينقاد لغيره، وقد روى أن الله تعالى يأتي إبليس يوم القيامة فيوقفه على شفير جهنم، فيقول له: إن سجدت لأدم في هذا الوقت أدخلتك الجنة، قال: فيهوى للسجود، ويرمى بنفسه إلى النار^(٢).

ونقول: نار ولا عاد، ولأنه إذا أظهر الله تعالى هذه الآيات الهائلة فلا يخلو المضطر عند ذلك إلى الإيمان إما أن يكون جاهلاً بالله تعالى أو عالماً به، فإن كان جاهلاً به فكيف تعلم أن هذا العذاب من جهته، وأن يتوقع عنه العذاب لو آمن، وإن كان عالماً بالله تعالى فلا حاجة إلى إلجائه واضطراره، ولأنه يلزم أن يكون الباري تعالى ملجأ إلى فعل الحكمة والصواب لعلمه أنه لو فعل القبح لخرج عن الإلهية، ولاستحق اللوم، فلا يكون الباري تعالى مستحقاً للمدح والشكر على فعل أصلاً، وذلك كفر، ولأنه لو كان الباري تعالى قادراً على إلجائهم إلى الإيمان لكان يجب على أصولهم أن يلجئهم إلى الإيمان، وكانوا لا يستحقون الثواب عليه، ليكون ذلك خلاصاً لهم عن عقابه، ويحصل لهم ما استحقوه من الأعواض على الآلام، وكلامهم بالشكا له من التفضل؛ لأنه إذا علم تعذر أرفع المنزلتين، فلا بد وأن يلجئهم إلى الإيمان لتحصل له أدنى المنازل^(٣).

(١) من قولهم بالإلجاء، ومن أن المراد بالمشيئة المذكورة في الآيات التي يحتجون بها: مشيئة الإلجاء والإكراه.

انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٧٦.

(٢) لم أعثر على تخريج لهذا الأثر فيما تحت يدي من كتب السنة، والأرجح أنه من الإسرائيلية.

(٣) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٢.

وأما ما استروحوا إليه من الآيات فنقول: لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (الشعراء: ٤) قولاً مخصوصين يؤمنون عند رؤية الآيات الهائلة، ونحن لا ننازع في ذلك، وإنما ننازعكم في قولكم: إن كافتهم لو اضطروا لآمنوا^(١)، وإن سلمنا أن المراد بذلك كافة الخلق لكننا نقول المراد بذلك: أن يسلب قُدرهم، ويفعل الخضوع فيهم، ثم وإن سلمنا أنهم لا بد وأن يختاروا الإيمان إذا رأوا الآيات الهائلة، لكن ذلك الإيمان لا ينفعهم، ولذلك لا ينتفع الكفرة بإيمانهم يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ (مريم: ٣٨) وإنما ينتفعون به أن لو آمنوا طائعين مختارين، وإذا كان كذلك فيكون إلجاء الخلق إلى الإيمان عبثاً لا فائدة فيه^(٢)، ولأن الإيمان الواقع مع الإلجاء إما أن يكون وقوعه منهم على سبيل الطوع والاختيار، فيلزم أن يلجأ الكل إلى ذلك، لأنه كاللطف^(٣) الذي لا يجوز تركه، أو لا على وجه الاختيار مع أن الله تعالى أراد ذلك منهم على وجه الطوع، فقد آل الأمر إلى الضعف والقصور تبارك الله تعالى عنه^(٤).

(١) انظر: المعالم في أصول الدين: ص ٩٦.

(٢) قارن: نهاية العقول: ١٨٩/٢.

(٣) اللطف هو: الفعل الذي يقرب العبد إلى الطاعة، ويبعده عن المعصية، بحيث لا يؤدي إلى الإلجاء أى الإضطرار، كبعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإننا نعظم بالضرورة أن الناس معها أقرب إلى الطاعة، وأبعد عن المعصية، والشيعية والمعتزلة يوجبونه على الله تعالى بمعنى: استحقاق تاركه الذم، وفاعله المدح، وهو ما يرفضه أهل السنة كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

(٤) انظر: شرح المقاصد: ٢٣٨/٣ — ٢٣٩، وكذا الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٢.

المسلك الثالث: هو أن نقول: اجتمعت الأمة^(١) على أن المديون عليه إذا قال لمستحق الدين: والله لأقضين حقك غداً إن شاء الله تعالى، أو إن أراد الله تعالى، ثم مضى ذلك اليوم، ولم يقض دينه، فإنه لا يحنث، ولولا أن الله تعالى أراد أن لا يقضى دينه لحنث^(٢)..

فإن قالوا: إن صيغة إن شاء الله ما وضعت لحقيقة الشرط، وإنما وضعت لقطع الخلف عن النفاذ، وليعلم أنه في ذلك شك متردد^(٣).

قلنا: هذا باطل؛ لأن العلماء كما أجمعوا على أن الحنث لا يتحقق في الصورة المفروضة، فقد أجمعوا على أن الحنث إنما لم يتحقق لانطواء قضية المشيئة عن الحالف، وكل من ينظر هذه المسألة ينظر معها أن العلة فيه ما ذكرناه، فالمرام^(٤) فيه كالمراغم في نفس الحكم^(٥).

(١) عجيب من الرازي - رحمه الله تعالى - استدلاله بالإجماع على مسألة إرادة الكائنات للبارئ تعالى، ولعله كان ملتزماً في كتابه هذا بكتب من سبقه من الأشاعرة خاصة: الشيخ وإمام الحرمين - رحمهما الله تعالى -، ولكننا بعد ذلك نجد الرازي يعرض عن الاستدلال بالإجماع وذلك لتأثره الواضح بفكرة الدور الاعتزالية والتي تقوم على أن العقل أصل الشرع، ولا يصح الاستدلال بالفرع على الأصل، ولكنه يعود للاستدلال بإجماع الأمة في بعض المسائل السمعية المتلقاة من السمع، ولا دليل عليها أصيل من العقل، إلا أنه يقويها ويؤكد لها، ولا شك أن الرازي متأثر جداً بمدرسة أبي هاشم الجبائي الاعتزالية.

(٢) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٢ - ٢٤٣، وقارن كذلك: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٤٧١ - ٤٧٢ حيث أورد على ذلك جوابين.

(٣) هذا هو تأويل أبو على الجبائي، انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٧٢.

(٤) أي المعاند والمكابر.

(٥) انظر: الإرشاد: ص ٢٤٣، وواضح جداً تأثر الرازي بإمام الحرمين - رحمهما الله تعالى.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد بصيغة إن شاء الله تعالى: أى إن شاء لطفاً يقع عنده الأداء، فإذا انقضى اليوم ولم يقع الأداء، علمنا أنه ليس فى المعلوم ذلك اللطف^(١).

قلنا: هذا أيضاً باطل؛ لأن هذه الصيغة قد تصدر من الغر^(٢) الجاهل الذى لم يخطر بباله معنى اللطف، فكيف تحمل منه على ذلك؟ ثم يلزمهم أن يحتث من علق يمينه بصريح الإرادة، وذلك بإجماع الأمة باطل، ولأن الصيغة الصادرة من الحالف غير متقيدة بمشيئة شىء دون شىء، فوجب إجراؤها على ظاهرها، إذ لو جاز تقييدها لجاز التوكيل المطلق والإقرار المطلق ببعض الأوقات، وفى بعض الأشياء، وذلك بالإجماع باطل^(٣).

المسلك الرابع: أن نقول: أجمعت الأمة على إطلاق كلمة لا تستقيم إلا على مذهبنا وهى قولهم: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن^(٤)، وهذا هو ترجمة مذهبنا^(٥).

(١) هذا هو اعتراض الشيخ أبى عبد الله البصرى من المعتزلة، انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٧٢، وقد رفض القاضى عبد الجبار القول بالإجماع على ذلك؛ لأن عامة الزيدية على خلافه.

(٢) الغر هو: قليل العقل.

(٣) قارن: المحصول فى علم الأصول للإمام الرازى: ٢٧٠/١ وما بعدها..

(٤) رواه مرفوعاً إلى الرسول ﷺ الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين: ٤٠٤/٦، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة: ٤٠ - ٤١، وخرجه أبو داود فى الأدب: باب ١٠١ بلفظ: { لا قوة إلا بالله ما شاء الله كان }.

(٥) يعنى مذهب الأشاعرة الأثير والذى حاصله: استناد الممكنات إلى الله تعالى كلها ابتداءً، وأنه خالق أفعال العباد، ولا مؤثر فى الوجود سواه.

فإن قالوا: لم لا يجوز حمل هذه الكلمات على حصول بعض مراداته تعالى دون البعض^(١)؟.

قلنا: لأننا نعلم أن المسلمين إنما يطلقون ذلك في معرض الثناء على الله تعالى، وتعظيم سلطانه، وذلك لا يتحقق إلا عند حصول جميع المرادات، ألا ترى أنه لا يجوز تعظيم شأن الواحد منا، وتقدير سلطنته إذا حصلت بعض مراداته^(٢).

وأيضاً: فلأن المسلمين قد أطبقوا على إطلاق هذه اللفظة عند حدوث أفعال مخصوصة من العباد من قهر بعضهم بعضاً، وهزم جند جنداً، فكيف يجوز تخصيص ذلك بحصول ما يريده من أفعال نفسه؟^(٣) فإن عارضونا^(٤) بقوله: أستغفر الله من جميع ما كره الله تعالى^(٥).

قلنا: سبيل هاتين اللفظتين أن لا يحملا على التناقض، إذ فيه نسبة الأمة إلى الزلل، وقد بينا أنه لا يجوز حمل قولهم: ما شاء الله تعالى كان على حصول بعض مراداته، فلم يبق إلا أن تحمل الكراهية ها هنا على النهي، واستعمال لفظة الكراهية فيما المراد منه النهي سائغ^(٦)، فيكون معناه: أستغفر الله من جميع ما نهى الله تعالى

(١) هذا هو اعتراض المعتزلة وحاصله: أن مراد الأمة بهذا القول: ما شاء الله من فعل نفسه كان، وما لم يشأ من فعل نفسه لم يكن. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٦٩.

والجدير بالذكر أن القاضي قد رفض الإجماع لمخالفة المعتزلة فيه.

(٢) انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٤٩٢/٢ بتحقيق شيخنا الدكتور أحمد المهدى — رحمه الله تعالى —.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) يقصد المعتزلة.

(٥) انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٧٠.

(٦) قارن: المحصول في علم الأصول: ٢٠/٢ وما بعدها.

عنه^(١).

فأما الجواب عما احتجوا به أولاً: أن الأمر إنما يصير أمراً بإرادة المأمور به.

فنقول: هذا بناءً منهم على أن أمر الله تعالى وخطابه صيغ وعبارات وحروف وأصوات، وذلك عندنا باطل، على ما سنوضحه إن شاء الله تعالى^(٢)، على أنا وإن ساعدناهم على ذلك إلا أننا نقول: لم لا يجوز أن تكون صيغة الإيجاب تتميز عن صيغة الإباحة، بإرادة كون الصيغة إيجاباً، وقولهم يلزم منه صحة الأمر بما لا يصح أن يراد^(٣).

قلنا: الأمر بالمحال عندنا جائز على ما سبق برهانه^(٤) وبيانه، وعلى أن ذلك لا يدل إلا على كون المأمور به مما يصح أن يراد، فأما أنه يدل على كونه مراداً فكلًا.

وقولهم: يلزم أن لا يبقى فرق بين أمر الإيجاب وأمر الإباحة.

قلنا: لم لا يجوز أن يفارق الإيجاب النذب باستحقاق العقاب بترك أحدهما دون الآخر؟ ويفارق المندوب الإباحة باستحقاق الثواب على فعل أحدهما دون

(١) يقول الآمدي - رحمه الله تعالى -: { وما ذكروه من المعارضة بقولهم: أستغفر الله مما يكره الله، فيجب حمله على المنهى عنه، لا على ما يناقض الإرادة، فإن تسمية المنهى مكروه شائع، وهو الأوّل جمعاً بين الدليلين، فإنه أولى من تعطيل أحدهما }. انظر: أبحار الأفكار: ٤٩٢/٢.

(٢) انظر: الإرشاد: ص ٢٤٣.

(٣) قارن: الإرشاد: نفس الصفحة.

(٤) انظر: ص: ١٠٩ وما بعدها.

الآخر^(١).

وقولهم: يلزم أن لا يمتنع منا جعل الصيغة الواحدة أمراً تهديداً إذا وجد فينا إرادتهما^(٢).

قلنا: أما على مذهب شيخنا أبي الحسن^(٣)، فهذا أمر غير لازم؛ لأن عنده إرادتي الضدين ضدان^(٤)، وهذا فيه نظر، لأن الجاهل بتضاد شيئين يتصور منه إرادة اجتماعهما، ولو كانت الإرادة بالشئ تضاد إرادة ضده لزم أن تضاد تلك الإرادة نفسها وهو محال؛ لأن من أمر غيره بضدين على التغيير لابد وأن يصح منه إرادتهما، وإلا لزم استحالة كون الأمور به مراد، وذلك بالاتفاق باطل، والجواب الصحيح هو أن إرادتي الضدين، وإن لم يكونا متضادين، إلا أنه يمتنع بالاتفاق اجتماعهما لأمر يرجع إلى دواعي المريد، إذ العاقل لا يتأتى منه إرادة اتصاف الجسم الواحد دفعة واحدة بالسواد والبياض مع العلم بتضادهما، فكذلك في مسألتنا^(٥).

(١) عرف الرازي الواجب في المحصول تبعاً للقاضى الباقلاى بأنه: { ما يلزم تاركه شرعاً على بعض الوجوه }. وعرف المندوب بأنه: { الذى يكون فعله راجحاً على تركه فى نظر الشرع، ويكون تركه جائزاً }.
أما المباح فهو: { الذى أعلم فاعله أو دُلَّ على أنه لا ضرر فى فعله وتركه، ولا نفع فى الآخرة }.

ومن ثم فارق الواجب المندوب، وفارق المندوب المباح، لا كما يدعى المعتزلة.

انظر: المحصول فى علم الأصول: ١٠/١ - ١٢ .

(٢) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٨.

(٣) الشيخ أبو الحسن الأشعري: تقدمت ترجمته.

(٤) انظر: اللمع للشيخ الأشعري: ص ٩٥.

(٥) انظر: المحصول للرازي: ص ١٠٣، وص ١٠٨، حيث ذهب إلى أن المنافاة بين إرادتي

ثم إن شيخنا أبا الحسن أورد صوراً حقق فيها الأمر بالشئ مع عدم إرادة المأمور به..

فمن ذلك: أن نبياً لو أخبر رجلاً من أمته، وقال: إن أمرت ولدك بخمس خصال، واقتصرت عليها تمرّد عليك، ولو أمرته بعشر خصال ثم حطت عنه خمساً لأطاعك في الخمسة الباقية، وعرض الأب الطاعة في الخمسة، فإذا أمر ولده بالخصال العشر على قصد حطّ الخمسة منها، فقد تحقق لها هنا الأمر بدون الإرادة^(١).

ومن ذلك: أن سلطان الوقت لو اتهم واحداً بأنه جمع العبيد لتقاتله، وقرر عبد الملك تسارع عبيد الرجل إلى موافقته في المضار والمشاق، فإذا أحضر الملك الرجل وهمّ بقتله، فقال الرجل متعذراً: إن عبيدي لا يطيعون أمرى، فقال الملك: مرهم عندى، فإن أطاعوك تبين كذبك، وإن خالفوك قبلت قولك، فإذا قال الرجل لعبيده والحالة هذه: افعلوا كذبي قط، استريب أنه يريد مخالفتهم، مع أنه وجّه الأمر نحو العبيد^(٢).

فإن قالوا: ما ذكرتموه ليس بأمر، وإنما هو امتحان.

قلنا: لو لم يكن أمراً لما تمهد عذره عند الملك، ولأن العبيد قد فهموا من سيدهم الأمر بذلك، فلو جاز أن يقال: إنه ليس بأمر حار مثله في كل الأوامر، حتى

الضدين ذاتية.

(١) قارن: نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٢٥٨، ومن ذلك القبيل تخفيف الصلاة عن المسلمين

ليلة الإسراء والمعراج من خمسين صلاة إلى خمس صلوات كما هو معلوم.

(٢) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

أنه لا يوجد في العالم أمر حقيقي^(١).

ومن ذلك: أن الواحد إذا أخبر غيره أنه لا يطيعه عبده إذا أمره، ثم أمره فإنه لا يريد طاعته، إذ القائل لا يريد تكذيب نفسه^(٢).

ومن ذلك: أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام، ثم نسخ هذا الأمر قبل الذبح، فعلم أنه حين أمر بالذبح ما كان مريداً له^(٣)، وتقرير ذلك تجده في كتب الأصحاب^(٤).

(١) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٢) فهذا أمر على خلاف الإرادة، قارن: نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٢٥٨.

(٣) وذلك في قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿بَشِّرْنَا بِغَلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الآيات: ١٠١ - ١٠٧).

فالله ﷻ أمر خليله إبراهيم بذبح ولده، وهو يريد أن لا يحصل.

(٤) اختلفت تأويلات المعتزلة في أمر الله ﷻ لسيدنا إبراهيم بذبح ولده على أقوال:

ذهب بعضهم إلى أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مأموراً بذبح ولده تحقيقاً، وإنما تخيل أمراً في حلمه، وحسبه أمراً.

وهو مردود إذ كيف يفهمون من ذلك غير الأمر الجازم بالذبح، مع ما في ذلك من الازدراء بمقام خليل الله إبراهيم عليه السلام.

وقال بعضهم: إنه كان مأموراً فقط بمقدمات الذبح دون الذبح.

والرد: أنه أمر بالذبح الحقيقي كما هو مفهوم من منطوق الآية، بدليل فديه بذبح عظيم.

وبعضهم ذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام كان يقطع حلقوم ولده، ويفرى أوداجه، وكان إذا قطع جزء التأم والتحم ما قبله، ولم يزل كذلك حتى نفذت الشفرة من الجانب الثاني، فقد أمر بالذبح وأريد منه ذلك.

والرد: هذا افتراء عظيم على كتاب الله ﷻ، لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّه

وأما الجواب عما احتجوا به ثانياً من أنه يلزم أن يكون العاصي مطيعاً لله تعالى.

قنقول: لو كان صدور المراد ممن هو دون المرید طاعة، لكان الواحد منا مطيعاً للسلطان إذا فعلنا ما هو مراده، وإن لم نعلم أن ذلك مراد السلطان، فيكون مطيعاً لمن لا يعرفه، وذلك محال، ولأنه يلزم أن نكون مطيعين لأنفسنا إذا فعلنا ما نريده، ولأنه لو كانت موافقة المرید في إيقاع مراده طاعة له، لكانت موافقته في إرادته طاعة له، ومعلوم أن الله تعالى يريد موت الأنبياء، وتبقيّة الشياطين، فينبغي أن نكون مطيعين لله تعالى إن أردنا ذلك^(١).

والتحقيق أن الطاعة إنما تتحقق عند موافقة الأمر.

ألا ترى أنه يقال: فلان مطاع الأمر، ولا يقال: مطاع الإرادة،

ويقال: الرعية طائعة أمر سلطانها، ولا يقال: طائعة إرادة سلطانها، وذلك أظهر من أن يحتاج فيه إلى تكثير الأمثلة^(٢).

للجيبين ﴿ الصافات ١٠٣ ﴾، فهذا يدل على أنه ~~المراد~~ امتثل الأمر، وتله للجيبين، ثم نودى بالتخفيف، وفدى ولده بذبح عظيم، ومن ثم فلم يفعل ما قاله المعتزلة. انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

(١) هذا بناءً على أن الأشاعرة يرضون بقضاء الله وقدره اللذين أمرنا أن نرضى بهما اتباعاً لأمره جل في علاه الذي ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الأنبياء ٢٣. انظر: اللمع للأشعرى: ص ٨٣.

وانظر: الأربعين للرازي: ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

ولتوضيح رأى المعتزلة: انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٤٦٠.

(٢) انظر: المحصل للرازي: ص ٢٠٠ حيث يقول رداً على شبهة المعتزلة: { الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة }، وانظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٤٨٧/٢.

فأما قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨) فإن لفظة الطاعة فيها لابد من تأويلها، لأنها توجب موافقة الشفيع في شفاعته طاعة له، وذلك باطل بالاتفاق، فعلم أن لفظ الطاعة هاهنا مجاز، وأنها مستعارة من الإجابة^(١).

وأما قول الشاعر: رب من أنضجت غيظاً صدره، فإنه لابد من تأويله، لأن الموت من فعل الله تعالى، والطاعة لا تجوز عليه، ولأن موافقة المتمنى لا تكون طاعة له، فلا بد وأن يكون المراد بقوله: لم تطع: لم تجب^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧)، فقد قال شيخنا: ليس المراد به جملة العباد، إذ لا صيغة للعموم عندنا، بل المراد منه البعض فنحمله على المؤمنين، والذي يوضح ذلك أن معظم آي القرآن المشتملة على إضافة العباد إلى الله تعالى المراد بها المكرمون بالإضافة إليه، وهم المؤمنون، وهذا هو الجواب عند استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٣١)^(٣).

وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾

(١) فسر المعتزلة قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي لا يفعل ما أراد. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٥٧.

(٢) الحق أنه لا يصح الاستشهاد بالشعر في الدلالة على المسائل الاعتقادية، ولكن لما استعمل المعتزلة ذلك في الدلالة على آرائهم، اضطر الأشاعرة أن يردوا عليهم أقوالهم. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٤٥٨.

(٣) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٥٠، حيث قاس هذه الآية على قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان: ٦)، فليس المراد جميع عباد الله، بل المراد المصطفون المخلصون للنعيم المقيم، وانظر أيضاً: أبكار الأفكار للأمدى: ١/٣٢٠، وهي تقريباً نفس عبارة إمام الحرمين.

(الأنعام: ١٤٨) فقد قال شيخنا: إن الكفار ما كانوا عالمين بالله تعالى، ومن لم يكن عالماً بربه كيف يكون مستيقناً في قوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ إذ العلم بمشيئة الله تعالى فرع على العلم بوجوده، بل صدور ذلك منهم على طريق الاستهزاء والاستخفاف بما يسمعون من النبي ﷺ من تفويض الأمور بجملتها إلى مشيئة الله تعالى، فلذلك ردَّ الله تعالى عليهم، والدليل عليه: أنه وبخهم على التكذيب بذلك فقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

وقال أيضاً: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (الأنعام: ١١٦) أى لم تصدر مقاتلتهم عن علم ويقين^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

فنقول: الآية خالية عن ذكر الإرادة والأمر، فليس إضمار الإرادة فيها بأولى من إضمار الأمر^(٢)، فنحمله على ما يوافق مذهبنا، وهو الذى قاله بعض المفسرين^(٣) من أن معناها: وما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بالعبادة.

وأيضاً: فالكلام المذكور فى الجن والإنس لا يوجب الاستغراق كما هو مذهب سيبويه^(٤) والمبرد^(٥) وغيرهما؛ لأن من قال: شربت الماء، ولبست الثوب، لا

(١) قارن: الإرشاد: ص ٢٥٠ - ٢٥١، وكذلك اللمع للأشعري: ص ١١٣.

(٢) قارن: اللمع: ص ١١٢، والإرشاد: ص ٢٥١.

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي: ص ٢٧ / ٣٣ وما بعدها.

(٤) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر الملقب بسيبويه، من أعلم الناس بال نحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، ولد سنة ١٤٨ هـ، وتوفى سنة ١٨٠ هـ. انظر وفيات الأعيان: ١٣٣/٣ وما بعدها.

(٥) من أعلام اللغة والأدب، معاصر لسيبويه - رحمهما الله تعالى - انظر: ترجمته فى:

يلزم أن يكون قد شرب جميع المياه، ولبس جميع الثياب، بل هو موضوع لتعريف الجنس، ونحن نحمله على الجنس بالنسبة إلى المؤمنين.

وإن سلمنا أنه للاستغراق، إلا أنه لابد من تخصيصه^(١) بالصبيان والمجانين، فإن الباري تعالى ما خلقهم للعبادة، فإذا جاز لهم حمل تلك الصيغة مع عمومها على العقلاء، جاز لنا أن نحمله على المؤمنين بما سبق من الأدلة العقلية والسمعية، وبالله تعالى التوفيق.

وفيات الأعيان لابن خلكان: ١٤٥/٥ وما بعدها.

(١) لمعرفة المراد بتخصيص الأحكام عند الأصوليين. انظر: المحصول للرازي: ٣٢٩/١ — ٣٦٤.

الباب الرابع

فى صفة الكلام^(١)

وفيه فصول: الفصل الأول

فى قَدَمِ الْقُرْآنِ^(٢)

مذهب أهل الحق^(١) أن كلام الله تعالى لا أول لوجوده، وهو ليس بحرف

(١) ذهب الشيخ الأشعرى - رحمه الله تعالى - إلى التفرقة بين نوعين من الكلام: الكلام النفسى القائم بذاته تعالى، وهو صفة قديمة، والألفاظ وهى حادثة مخلوقة بمثابة دلالات تدل على الكلام النفسى القديم.

ويستدل الأشاعرة على صفة الكلام بدليل حاصله: الكلام صفة كمال، فإن لم يتصف بها اتصف بضدها كالخرس والعمى والعجز، وهى نقائص، والبارى تعالى منزّه عن كل نقص. فوجب أن يكون البارى تعالى متكلماً.

وقد استدل بعضهم بإخبار الرسول ﷺ بأن الله تعالى متكلم، وهو دليل رفضه حجة الإسلام الغزالى؛ لأن تصديق الرسول لا يكون إلا بعد العلم بأن الله تعالى متكلم، وفضل عليه دليل: {أن الكلام كمال، فلو لم يكن الله تعالى متصفاً به، لكان الخلق أكمل منه}.

(٢) ذهب الشيخ الأشعرى إلى أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر، ومن توقف فقال: إنى لا أدري أهو مخلوق، أو غير مخلوق فهو مبتدع ضال. انظر: الإبانة: ص ١٠.

ولا صوت، بل هي دلالات عليه، واختلفوا في أنه هل يوصف في الأزل بكونه أمراً ناهياً^(٢)، فمنع عبد الله بن سعيد^(٣) من ذلك، وقال: إنما يتصف بهذه الصفات إذا خلق المكلفين وأفهمهم ما أراد أن يفهمهم من كلامه، حتى أنه إذا أفهم المخاطبين إيجاباً أو ندباً اتصف كلامه حينئذ بكونه أمراً، وإن أفهمهم تحريماً أو تنزيهاً اتصف بكونه نهياً^(٤). ولهم تردد في أنه هل يتصف في الأزل بكونه خيراً أم لا^(٥)، وذهب شيخنا رحمته^(٦) إلى أن الكلام القديم لم يزل أمراً نهياً، خيراً خطاباً^(٧).

(١) لتوضيح مذهب أهل الحق انظر: اللمع للأشعري: ص ٣٣ - ٤٦، والإبانة: ص ١٩ - ٣١، والتمهيد للباقلاني: ص ٤٧ - ٤٩، وأصول الدين للبغدادى: ص ١٠٦ - ١٠٨، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٩٩ - ١٣٧، والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالي: ص ٥٣ - ٦٠، وشرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني: ١٩٥/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٧٣/٢ - ٧٩، وغير ذلك.

(٢) الضمير إما أن يكون عائداً إلى الله تعالى، أو إلى كلامه تعالى وتقدس..
(٣) هو عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب، أبو محمد، وشهرته: القطان، توفى سنة ٢٤٠ هـ، أو بعدها بقليل، كان أمام أهل السنة فى عصره، وتبعه الأشعري - رحمه الله تعالى - فى أكثر آرائه.

انظر ترجمته فى طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٥١/٢.

(٤) انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٣٥٣/١ - ٣٥٤، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ١١٩ - ١٢٠، حيث وصف رأى ابن كلاب بقوله: { وهذه الطريقة وإن درأت تشغيلاً، فهى غير مرضية }.

(٥) يقصد الأشاعرة.

(٦) هو الشيخ أبو الحسن الأشعري: إمام أهل السنة والجماعة {تقدمت ترجمته}.

(٧) لمعرفة رأى الشيخ: انظر: اللمع: ص ٣٦.

أما المعتزلة^(١): فقد اتفقوا على أنه لا يرجع إلى البارئ تعالى صفة من كلامه، وإنما معنى كونه متكلاً: وقوع الكلام عن قادر، لا يعود إليه منه صفة حقيقية، ولا فرق بين خلق الأجسام وسائر الأعراض وبين خلق الكلام، ثم إنهم بعد ذلك اختلفوا..

فالنظام^(٢) ذهب إلى أن الكلام جسم لطيف يخلقه الله تعالى في الهواء، ويدخله الإسماع، ثم عنه في ذلك روايتان مرة يقول ذلك الجزء يصابك المسماع فتسمع، ومرة يقول: بل أجزاء الهواء تتشكل بشكله، وتحدث في الهواء منه أعداد على شكل واحد، فإذا سمعت طائفة كلاماً، فإنما ذلك لأنه يقرع أذن كل واحد مما يتشكل بشيء^(٣).

(١) ذهب المعتزلة إلى أن كلام الله ليس إلا الحروف والأصوات الموجودة في المصاحف، المقروءة بالأسنة، وهذه كلها مخلوقة، وأنه ليس لله تعالى كلام أزلي، بل القرآن وسائر الكتب المنزلة حادثة مخلوقة.

وعمدة استدلالهم هو قياس الغائب على الشاهد، وذلك لأن كلام الإنسان هو فعل الإنسان، وكذا كلام الله فعل مخلوق له، وإنما يطلق على الله تعالى وصف { متكلم } إذا خلق تلك الحروف والأصوات في جسم، وعندئذ يسمع الموحى إليه ذلك الكلام من ذلك الجسم. وأنكرت المعتزلة الكلام النفسى، وفي ذلك يقول القاضى عبد الجبار: { إن من ادعى كلاماً نفسياً فقد ادعى إثبات معنى لا سبيل إلى معرفته باضطرار ولا بدليل، فيجب نفيه }.

للمزيد عن رأى المعتزلة انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٥٢٧ — ٥٤٨، والمحيط بالتكليف له أيضاً: ص ٣٠٦ — ٣٣٩، والمغنى فى أبواب التوحيد والعدل له أيضاً: ٦/٧، ١٥، ٢٠، ٨٤، ٢٠٨.

وقارن: المحصل للرازي: ص ١٧٢، والأربعين فى أصول الدين له أيضاً: ص ١٧٠ — ١٧١.

(٢) إبراهيم ابن سيار النظام من أعلام المعتزلة { تقدمت ترجمته، انظر ص ١٢٤ }.

(٣) لمعرفة رأى النظام انظر: مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٤٠ وما بعدها.

والأكثر من على أن كلام الله تعالى عرض يخلقه في محل^(١)، وهؤلاء قد اتفقوا على إطلاق القول بأنه مخلوق إلا محمد بن شجاع^(٢) فإنه منع من ذلك، قال: لأن المخلوق ينبي عن كونه موضوعاً كذباً بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارًا﴾ (العنكبوت: ١٧)، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٧) أى أكاذيبهم.

أما الكرامية^(٣): فقد ذهبوا إلى أن الكلام هو القدرة على القول، فمن ها هنا قلوا: كلام الله تعالى قدرته، وأما قول الله فقد اتفقوا على أنه يوجد في ذاته بعد أن لم يكن^(٤).

وللقائلين بحدوث القرآن شبه:

منها: أن قالوا: لو كان كلام الله تعالى قديماً لوجب أن يكون في الأزل أمراً ناهياً بلا مأمور ولا منهي، فيكون تكليفاً لا بمكلف، ولأن الواحد منا لو أخذ يأمر

(١) هذا هو قول أكثر المعتزلة خاصة الجبائين حيث حكموا بكونه تعالى متكلماً بكلام يخلقه في محل. انظر: شرح المقاصد: ١٠٧/٣، وانظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٦٦/١.

(٢) هو محمد بن شجاع الثلجي من الواقفة، ومن رأيه أن القرآن كلام الله، وأنه محدث كائن بعد أن لم يكن، وبالله كان، وهو الذي أحدثه، وامتنع من إطلاق القول بأنه مخلوق أو غير مخلوق. انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري: ص ٣١٥.

(٣) فرقة من الفرق الإسلامية أتباع محمد بن كرام { تقدمت ترجمته: انظر ص ٦٧ }.

(٤) حاصل رأى الكرامية: أن الكلام قد يطلق على القدرة على التكلم، وقد يطلق على الأقوال والعبارات، وعلى كلا الاعتبارين، فهو قائم بذات الرب تعالى، لكن إن كان بالاعتبار الأول فهو قديم متحد لا كثرة فيه، وإن كان بالاعتبار الثاني، فهو حادث متكرر. انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٣٥٥/١.

وللمزيد عن رأى الكرامية: انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ١٠٩/١ - ١١٠.

وينهى من غير مأمور ولا منهى لكان إما عبثاً أو هاذياً، وذلك على الله محال^(١).

ومنها: أن قالوا: لو كان البارى تعالى فيما لم يزل قائلاً: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ خَالِدُونَ﴾ (الفيل: ١) و﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (نوح: ١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ (البقرة: ١٣٤) لكان مخبراً عما مضى بما لم يمض، فيكون كذباً وذلك على الله محال^(٢).

ومنها: أن قالوا: أجمعت الأمة على أن السور المتعددة كلام الله، ولا سبيل إلى إثبات قرآنيين أحدهما: الكلمات والسور الموصوفة بالحدوث، والآخر: الكلام القائم بذات البارى تعالى؛ لأن الإجماع منعقد على بطلان هذه المقالة^(٣).

واتفقوا على ترك توبيخ من قال: يارب طه، ويارب يس، وذلك كله يدل على أن القرآن محدث^(٤).

والمعتمد فى إثبات قدم كلام الله تعالى أن نقول:

لو كان كلام الله تعالى محدثاً لكان إما أن يكون قائماً به أو بغيره، أو لا فى محل^(٥)..

(١) قارن: الأربعين فى أصول الدين للرازى: ص ١٧٥، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ١١٩، وشرح المقاصد: ١٠٧/٣، وغير ذلك.

(٢) قارن: الأربعين للرازى: ص ١٧٦، والمطالب العالية: ١٢٩/٣، وانظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٥٥٤.

(٣) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٢١ - ١٢٢.

(٤) أورد هذا الحديث السيوطى - رحمه الله تعالى - من تخريج أحاديث شرح المواقف بنص: { يارب القرآن العظيم، ويارب طه ويس } وقال: لم أقف عليه.

(٥) قارن: اللمع للأشعرى: ص ٤٤، وأبكار الأفكار للآمدى: ٣٨١/١، وقارن: نقد هذا الرد فى

ومحال أن يقوم به، أو يوجد لا في محل لما ذكرناه في باب الإرادة^(١)، ومحال أن يقوم بغيره؛ لأنه لو كان متكلماً بكلام يخلقه في غيره، لكان متكلماً مع كوننا متكلمين به، لما أوضحناه فيما سبق أن أفعال العباد كلها بخلق قدرة الله تعالى^(٢)، ولأن لا معنى للكلام عند المعتزلة إلا أصوات مخصوصة^(٣)، فلو كان متكلماً بكلام يوجد في غير ذاته، جاز أن يكون مصوتاً بصوت يوجد في غير ذاته، إذ ليس للكلام مزيد على سائر الأصوات، ويلزم منه أن يكون للباري تعالى صوتاً بخير الأنهار وأصوات الرياح تعالى الله عنه علواً كبيراً.

ولأنه لو جاز أن يكون متكلماً بكلام يوجد في غيره جاز أن يكون أسود وأبيض، وعاجز أو متحركاً إذا خلق هذه المعاني في غيره، وذلك كفر^(٤).

ولأنه لو كان المرجع بكونه متكلماً إلى أنه فاعل الكلام^(٥)، لاستحال العلم بكونه متكلماً إلا بعد العلم بكونه فاعلاً، وذلك باطل، إذ نحن نقطع بأن من صدر منه الكلام فهو متكلم، وإن لم يخطر ببالنا أنه فاعل له أو ليس بفاعل له، ويلزم منه أن يكون العلم بكونه فاعلاً ضرورياً، كما أن العلم بكونه متكلماً ضروري^(٦)، وكل

نفس الكتاب: ٣٨٣/١.

(١) انظر: ص: ١٢٣ وما بعدها.

(٢) انظر: ص: ١٠١ وما بعدها.

(٣) قدّمنا أن من رأى المعتزلة أن كلامه تعالى ليس إلا حروف وأصوات مخصوصة موجودة في المصاحف ومقروءة بالأسنة. انظر: ص ١٣٨.

(٤) هذا إلزام من الإمام الرازي للمعتزلة.

(٥) معنى كونه تعالى متكلماً عند الأشاعرة أنه من قام به الكلام، أما عند المعتزلة فهو: فاعل الكلام. انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٥٣٥ - ٥٣٧.

(٦) انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٢٣ وما بعدها.

ذلك بالاتفاق باطل^(١).

ومما ذكره شيخنا رحمه الله أن قال: كلام الله تعالى لو قام بجسم من الأجسام لاشتق لذلك المحل من أخص أوصافه نعت^(٢)؛ لأن الحركة إذا قامت بجسم، فإنه يستحق منها اسم المتحرك، وليس ذلك لأن الجسم فعلها أو ملكها، إذ قد يتحرك من لا يكون فاعلاً ولا مالكاً، ولا لأنها أوجبت له حالة، لأن الجسم قد يُنعت بالسواد والبياض مع أنه لا يرجح منه عندهم أن المحل حالة، فلم يبق إلا أن يكون لقيامها به، والعلة واجبة الاطراد، فيلزم أنه لو قام كلام الله تعالى بجسم أن يكون المتكلم ذلك الجسم لا غير، وهذا واضح^(٣).

فإن قيل: هذا باطل بما إذا خلق الله تعالى شيئاً، أو خلق رزقاً أو حياة أو موتاً، أو نعمة أو إحساناً، فإن الخالق والرازق، والمحبي والمميت، والمنعم والمحسن هو الله تعالى، والإنسان إذا أثبت بقاءه في محل، أو قتلاً، أو تكسيراً، أو جرحاً، أو ظلماً، فإن الفاعل والقائل والكاسر والجرح والظالم ذلك الإنسان، ولا يرجع منه إلى المحل وصف، وكذلك العلم يقوم ببعض أجزاء الجملة، ثم استخدمت الجملة لسائر العالم^(٤).

قلنا: نحن ما أوجبنا رجوع جميع أوصاف المعنى إلى المحل، وإنما الذي أوجبنا رجوعه إليه هو الوصف الخاص، وكون الشيء مخلوقاً أو رزقاً، أو إنعاماً، أو احساناً، أو قتلاً، أو ظلماً، ليس من خصوصه ألا ترى أن الرزق عبارة عما ينتفع الإنسان به، ثم قد يكون قدرة، وقد يكون عيناً وسمعاً وبصراً، أو مطعوماً

(١) أى بالاتفاق بيننا وبين المعتزلة.

(٢) النعت هو: الوصف أو الصفة التي يتصف بها الموصوف.

(٣) انظر: اللمع للأشعري: ص ٤٤ - ٤٥.

(٤) هذا النص موجود بأكمله تقريباً في اللمع للأشعري: ص ٤٥ - ٤٦.

ومشروباً، وكذلك المخلوق قد يكون لوناً وطعماً ورائحة، والكتابة قد تُعنى بها حركات يد الكاتب، وقد يعنى بها حصول أجزاء الحبر على الكاغد على ترتيب مخصوص، وكل ذلك يرجع من خواص أوصافها بالمحل اسماً^(١).

فإن قالوا: فلماذا يستحق فاعل الخلق والرزق اسم الخالق والرازق^(٢)؟

قلنا: لأن الخالق والرازق جميعهما اسم على الخلق والرزق، وهو موصوف بالقدرة، وأما الكاتب فإنما يستحق هذا الاسم لما قام به من ترتيب الحروف على وجه منظوم، وإرادة ذلك، والحركات التى يفعلها حالة الكتابة، وأما حصول الكتابة فى الكاغد فمعناه: تسويد بياض الكاغد، ولا شك فى رجوع الاسم فى أخص أوصافه إلى محله، إذ يقال له أسود.

أما الظلم: فهو أيضاً اسم عام؛ لأنه قد يكون قتلاً، وقد يكون ضرباً وغير ذلك، ثم إن عُنِيَ به حركات الظالم، وإرارته القائمة المستعقبة للألم فى غيره لمجرى العادة، فذلك قائم به، ويرجع منها إلى محله الاسم.

وأما الموجود فى المجروح والمظلوم، فليس هو إلا ألم وتفریق بالبنية، فلا شك فى أنه يرجع فى أخص أوصافه إلى محله الاسم.

وأما العلم القائم ببعض أجزاء الحي، فإنه عندنا^(٣) لا ينطلق بالحقيقة إلا على ذلك الجزء، وأما على سائر الأجزاء فبالمجاز^(٤)، كما يقال للزنجى أسود مع أن باطنه ليس بأسود، فقد اتضحت هذه الطريقة، واندفعت المعارضات عنها.

(١) انظر: اللمع للأشعرى: ص ٤٦.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة: ص ٥٢٧ وما بعدها.

(٣) يقصد الأشاعرة.

(٤) المجاز هو إطلاق اللفظ على غير قصد معناه الأصلى الموضوع له.

وأما الجواب عما احتجوا به أولاً: من أن الأمر في الأزل بلا مأمور يكون عبثاً.

فنقول: إن عبد الله بن سعيد ارتكب من قوة هذه الشبهة مذهباً ضعيفاً وهو: أن كلام الله في الأزل لا يتصف بكونه أمراً ولا نهياً^(١).

واعلم أن ما ذكره فاسد من وجوه:

الأول: أن كل ما خرج عن كونه أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً، فإنه لا يتقرر في العقل كونه تكلماً.

الثاني: وهو أن كون الكلام أمراً ونهياً، إن كان لذاته، لزم أن يكون أمراً زائداً، أو بالفاعل، وقد بينا أن الفاعل لا يقدر على جعل الذات على صفة إلا إذا قدر على الذات^(٢)، فيلزم أن يكون الكلام القديم مقدوراً، وهذا محال.

أو لمعنى، وذلك المعنى إن كان قديماً، لزم منه أن يكون الكلام في الأزل أمراً، وإن كان محدثاً، فإما أن يكون قائماً بالكلام، فيلزم منه قيام المعنى بالمعنى، أو قائماً بذات الباري تعالى، ويلزم منه قيام الحوادث به، أو يوجد مبايناً عن الباري تعالى، فحينئذ تكون نسبته إلى كلام الباري تعالى، كنسبته إلى كلام البشر، فلو أوجب لكلام الله تعالى أن يكون أمراً، لأوجب لكل كلام أن يكون أمراً، وذلك محال^(٣).

فإن قالوا: إذا خلق الله تعالى المأمورين، وخلق فيهم فهم الإيجاب

(١) لتحقيق رأى عبد الله بن سعيد انظر: الإرشاد: ص ١١٩، وأبكار الأفكار للآمدى: ٣٥٤/١، وغير ذلك.

(٢) انظر: ص: ١٠٩ وما بعدها.

(٣) قارن: الأربعين في أصول الدين: ص ١٧٢ — ١٧٣.

أو التحريم في كلامه، فحينئذ يتصف الكلام بأنه أمر ونهى^(١).

قلنا: المأمور والمنهى إنما يفهمان الإيجاب والتحريم من الكلام ألا ترى أن القدرة لما لم تكن إيجاباً وتحريماً لم يفهم منها ذلك، وإذا كان كذلك فلا بد وأن يكون كلام الله تعالى إيجاباً وتحريماً قبل ذلك، وإلا لزم أن يكون الشيء، علة لما هو علة له، وذلك محال.

فالجواب الصحيح أن نقول: كما أن العلم في الأزل متعلق بالشيء حين وجوده، فكذلك أمره متعلق به حين وجوده، وهذا كما أن أهل العصر الذي نحن فيه مأمورون بالأمر الذي توجه نحو المعاصرين لرسول الله ﷺ وإن لم يكونوا ذلك الوقت موجودين^(٢)، وكذلك لو أن إنساناً وقف ضيعةً على أولاده، وأولاده إلى ما يتناسلوا، فإنه يثبت موجب كلامه على من سيوجد، مثل توجهه على الموجودين، كذلك ها هنا.

وما ذكروه من أن أمراً بلا مأمور عبث.

فنقول: الشيء إنما يوصف بكونه سفهاً إذا كان محدثاً ليقال بأنه لو وقع على وجه كان حكمة، ولو قدر وقوعه على خلافه كان سفهاً، ونحن قد فرغنا عن إقامة الدليل على قدم كلام الله تعالى^(٣)، ونظيره من اكتسب العلم بالفواشش، فربما يكون اجتهاده في طلب ذلك العلم سفهاً، والبارى تعالى عالم به، ولا يعد ذلك منه سفهاً.

وقد قال شيخنا رحمه الله: الإنسان قد تحدث نفسه بأشياء، وتراه مكرهاً في

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٥٣٠.

(٢) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين - رحمه الله تعالى - ص ١٢١.

(٣) انظر: ص: ١٤٤ وما بعدها.

أشياء^(١)، لا سيما وهو عند أبي هاشم^(٢) حروف وأصوات حقيقية مع أنه لا يسمعه سامع^(٣)، ولم يكن عبثاً، فكذلك ها هنا.

أما الجواب عما احتجوا به ثانياً: في أنه يلزم من قدم كلام الله تعالى أن يكون خبره كذباً.

فنقول: أجمعنا^(٤) على أن الباري تعالى كان عالماً بأن العالم سيوجد، ولما أحدثه فإنه يعلم وجوده، وذلك بالاتفاق لا يوجب تغييراً في علمه^(٥)، فلم لا يجوز أن يكون كلام الله تعالى قبل وجود الأشياء خبراً عن أنه سيوجد، وإذا وجدت، فإنه يصير بعينه خبراً عن أنها وجدت من غير تغيير^(٦).

وأيضاً: فلأن الله تعالى قال: ﴿ سَبِّحْهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥).

وقال: ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ (الفتح: ٢٧) ..

وقال: ﴿ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ ﴾ (الفتح: ١٦) ..

فكل هذه أمور أخبر الله تعالى عنها بحكم الاستقبال مع أنها قد وجدت الآن، فإذا جاز أن يكون الخبر عن أشياء ستوجد لا يكون كذباً بعد مضي ذلك الشيء، ألا

(١) انظر: اللع للأشعري: ص: ٦٧.

(٢) هو أبو هاشم الجبائي من أعلام المعتزلة { تقدمت ترجمته: انظر ص ٨٩ } .

(٣) لتحقيق رأى أبي هاشم الجبائي: انظر: الملل والنحل للشهرستاني: ٦٦/١ وما بعدها.

(٤) يقصد الأشاعرة والمعتزلة.

(٥) خالف في ذلك أبو الحسين البصري، ورأى أن العلم يتغير بتغير المعلوم تبعاً لرأى جهم بن صفوان، وهشام بن الحكم القتاتلين بإثبات علوم حادثة، وقد تقدم الكلام في ذلك.

(٦) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص: ١٢٧، والأربعين في أصول الدين للرازي: ص: ١٧٧.

يجوز أن يكون الخبر عن أن أشياء كانت لا يكون كذباً قبل وقوع ذلك الشيء^(١).

وأما الجواب عما احتجوا به ثالثاً: من أن الأمة مجمعة على أن السور كلام الله تعالى.

فنقول: إنما يصح إطلاق القول بأنها كلام الله تعالى من حيث إنها دلالات عليه^(٢)، كما أنه يسمى المقدور قدرة، والمعلوم علماً لدلالته عليهما، وكما أنه يقولون: الرحمن مشتق من الرحمة، والرعوف مشتق من الرأفة، وإنما عنوا به هذه الألفاظ لا ما هو مدلول اسم الرحمن، فكذاك ها هنا.

قولهم: لا سبيل إلى إثبات قرآنيين.

قلنا: هذا باطل، لأن النبي ﷺ سمي المصحف قرآناً فقال: "لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو"^(٣)، وسمى مثله الفجر قرآناً فقال: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨)^(٤).

(١) انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٢٥.

(٢) انظر: الأربعين في أصول الدين: ص ١٧١ وما بعدها.

(٣) حديث { لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو }، ذكره النووي في رياض الصالحين، وقال: إنه متفق عليه.

انظر: رياض الصالحين: ص ٢٦٢ — طبعة صبيح.

(٤) الحق أن هذا ليس من كلام الرسول ﷺ ولكنه آية من كتاب الله ﷻ وردت في سورة الإسراء: ٧٨.

وقال حسان بن ثابت^(١):

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليلى تسبيحاً وقرآناً^(٢)

أى: وقراءة.

ودعواهم إجماع السلف إطلاق القول: بيارب طه، ويارب يس، فذلك ممنوع، وكيف ونحن نعلم أنهم من أشد الناس على القائلين بخلق القرآن^(٣).

واعلم أن جماعة من ضعفاء العقول^(٤) ارتكبوا لأجل هذه الشبهة مذهباً لا يليق بالعقلاء وهو أنهم يعتقدون قدم الحروف والأصوات، والرقوم والكتابات^(٥)، وهذا مذهب فاسد؛ لأن الأصوات لها مبتدأ ومنقطع، وكذلك الحروف متوالية متعاقبة، ولا يوجد منها اثنتان دفعة، فمع هذا كله يعتقد قدمها^(٦)، وهذا المذهب فى

(١) هو حسان بن ثابت الملقب بشاعر الرسول ﷺ، وهذا البيت قاله فى رثاء سيدنا عثمان بن عفان ؓ.

قارن: الإرشاد: ص ١٢٥.

(٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت: ص ٢٤٨.

(٣) دافع السلف دفاعاً مجيداً عن رأيهم فى أن القرآن ليس بمخلوق، ضد المعتزلة القائلين: بخلق القرآن وذلك فى زمن المأمون - الخليفة العباسى - حيث جعل عقيدة خلق القرآن هى العقيدة الرسمية للدولة، وأبطل كل الأقوال المخالفة لذلك، ومن تصدى له الإمام الجليل أحمد بن حنبل ؓ. لمزيد من التفاصيل: انظر: هوامش على النظامية: ص ٣٠٣ وما بعدها.

(٤) يقصد الحشوية وبعض الحنابلة.

(٥) لتحقيق رأى الحشوية وبعض الحنابلة انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٢٨ - ١٣٠، والملل والنحل للشهرستانى: ١/ ١٠٦، وغير ذلك.

(٦) قارن: الإرشاد: ص ١٢٩ وما بعدها، وكذا أفكار الأفكار للآمدي: ١/ ٣٥٥ وما بعدها.

أعلى مراتب العلوم الضرورية^(١).

(١) هكذا فى الأصل، ولكن من الأفضل أن تكون العبارة هكذا: { وهذا المذهب لفساده فى أعلى مراتب العلوم الضرورية }..

وبعد: هكذا كان الرازى — رحمه الله تعالى — فى الإشارة أشعرياً صرفاً، يقول بما يقول به الأشعرى ومن تبعه فى صفة الكلام الثابتة لمولاتا تعالى وتقدس، بل وحاول الرازى التقريب بين الأشاعرة والمعتزلة، حيث يرى أن الخلاف بينهما من قبيل الخلاف اللفظى؛ لأن المعتزلة حينما يصرحون بأن الكلام حادث مخلوق، فهم يقصدون هذه الحروف والأصوات، وحينما يقول الأشاعرة إن كلام الله قديم، فإنهم يقصدون المعنى النفسى القائم بذاته تعالى. انظر: الأربعين: ص ١٧٩ — ١٧٧، والمحصل: ص ١٢٥.

والحق أن الخلاف بيننا وبين المعتزلة خلاف معنوى؛ لأن المعتزلة يرون أن الله تعالى إذا أراد شيئاً أو كرهه، فإنه يخلق أصواتاً معينة فى جسم من الأجسام، لتدل هذه الأصوات على كونه تعالى مريداً، لشيء، أو كارهها لشيء، آخر، فهذا هو المراد من كونه تعالى متكلماً عندهم. ويرفض الرازى دليل الأشاعرة على إثبات صفة الكلام لمولاتا تعالى وتقدس، ويرتضى دليل الغزالى الذى حاصله: أن الكلام كمال فيجب أن يتصف الله به، لئلا يكون خلقه أكمل منه لاتصافهم به. انظر: المحصل للرازى: ص ١٧٣.

وأحياناً يستدل الرازى على صفة الكلام بإجماع الأنبياء على ذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٤)، وهو يستدل بذلك — بالرغم من تسليمه بفكرة الدور — لأنه يرى أن صفة الكلام ليست من الأصول التى تتوقف عليها صحة النبوة.

ولقد انتقد الغزالى الاستدلال بالإجماع قائلاً: { ومن رام إثبات الكلام بالإجماع أو بقول الرسول ﷺ فقد سام نفسه خطة خسف }. انظر: الاقتصاد: ص ٦٨.

ولكن الرازى فى المطالب العالية يختلف كثيراً عن سائر كتبه، بل نستطيع أن نقول إنه قد اقترب من المعتزلة، استمع إليه يقول: { إن المتكلم عبارة عن فاعل الكلام }. المطالب العالية: ٢٨٥/١.

ثم ساق الرازى الحجج على امتناع كونه تعالى متكلماً فى الأزل، وعقب على ذلك بقوله: { فهذه وجوه عقلية ظاهرة فى أنه يمتنع كون هذا الطلب والخبر قديماً، سواء قلنا: إن

هذا الطلب هو الإرادة أو غيرها { . المرجع السابق: ٢٨٦/١ .

ثم قام الرازي بنقض حجج المتكلمين بما فيها حجة الغزالي التي اعتمدها من قبل.
يقول عن دليل الأشاعرة: { لا نسلم أن السكوت نقص، بل النقص أن يقول القائل: يا زيد، يا عمرو { صم } مع أن زيدا وعمراً يكونان معدومين، ألا ترى أن الرجل إذا جلس في دار نفسه خالياً عن الناس ثم يقول: استقر، اركب، ويا قائماً: أقبل، فإن كل أحد يقضى عليه بالجنون والنقص، فكذلك هنا { . المرجع السابق: نفس الصفحة .

وعليه فإنه يفهم من كلام الرازي — رحمه الله تعالى — أن كلامه تعالى حادث!!، ولا شك أن هذا الرأي يخالف كل آراء الرازي في كتبه السابقة بدءاً من الإشارة وحتى المطالب العالية، ولكننا نعتقد أن الرازي — رحمه الله تعالى — لم يمت وهو مقتنعاً بهذا الرأي المخالف لرأي جمهور الأشاعرة، بل لعله كان يوضح ويفسر رأي المعتزلة كعادته دائماً في توضيح رأي الخصم وتفسيره وتقريره على أكمل تقرير، وإلا فكيف يصح نسبة هذا الرأي الشنيع للإمام الرازي وهو من هو في مذهب الأشاعرة، ولكن إذا صح هذا الرأي عن الإمام الرازي فإتينا لا نتوانى في رفضه، لأنه مخالف لما نعتقد من أن كلامه تعالى قديم قائم بذاته تعالى.
بقيت نقطة أخيرة: وهي وحدة كلام الله تعالى.

يلاحظ أن الرازي — رحمه الله تعالى — عرض لوجهة نظر الأشعرية في أن كلامه تعالى واحد، ولكن ينقل عن بعض قدمائهم — يقصد عبد الله بن سعيد — القول بالتعدد، ووضح أن كلام جمهور الأشاعرة لا دليل عليه.

ولكن الرازي في معظم كتبه أثبت أن كلامه تعالى واحد لا تعدد فيه، ولكن هذا الواحد ليس إلا الخبر، وبقية الأقسام التي قال بها الأشاعرة تعود إليه، فمثلاً: الأمر والنهي ليسا إلا إعلامهم بحلول الثواب والعقاب.

انظر: الخمسين: ص ٣٧١، والمعالم: ص ٥٨، والمحصل: ص ١٣٤، وقارن: نهاية العقول: ٢٦٤/١ .

وقارن: انتقاد العلامة السعد في شرح المقاصد لرأي الرازي قاتلاً عن الثواب والعقاب
أنهما لازما الأمر والنهي لا حقيقتهما. انظر: شرح المقاصد: ٧٨/٢ .

الفصل الثاني

فى الحكاية والمحكى

مذهب أهل الحق^(١) أن القراءة راجعه إلى أصوات القارئ، وذلك مخلوق، والمقروء كلام الله تعالى، وهو قديم، والقراءة والمقروء بمثابة الذكر، فكما أنه لا يلزم قيام المذكور بالذاكر، فلا يلزم قيام المقروء بالقارئ^(٢)، وهكذا نقول فى الكتابة والمكتوب، والحفظ والمحفوظ، وهكذا نقول فى حكاية المرء كلام غيره، أو يروى شعر غيره، فإن الموجود إنما هو الحكاية والإنشاد، فأما المحكى والمنشد، فقد تقضى وتفرد، وهذا مذهب الجمهور من المعتزلة^(٣)، إلا أبا الهذيل^(٤) والجبائى^(٥)،

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: الإتصاف للباقلانى: ص ٩٨ — ١٠١، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٣٠ — ١٣٣، وأصول الدين للبغدادى: ص ١٢٧، والمحصل للرازى: ص ١٨٦، وشرح المقاصد: ٣/ ١١٢ وما بعدها، وغير ذلك..

(٢) قارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٣١ — ١٣٢، وكذا أصول الدين للبغدادى: ص ١٢٧، حيث تجد عباراتهما هى نفس عبارة الرازى تقريباً..

(٣) رغم اتفاق جمهور المعتزلة على أن كلامه تعالى محدث مخلوق فى محل، إلا أن من رأيهم أنه قد كتب أمثاله فى المصاحف حكاية عنه. انظر: الملل والنحل للشهرستانى: ٤٢/١.

(٤) هو أبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف، شيخ المعتزلة، ومقدم الطائفة، ومقرر الطريقة، {تقدمت ترجمته: انظر ص ٤٨}.

(٥) هو أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى، شيخ معتزلة البصرة فى زمانه، ولد بجبا بخورستان سنة ٢٣٥هـ، وإليه تنسب الطائفة الجبائية كان أستاذاً للشيخ الأشعرى قبل تحوله عن مذهب المعتزلة، توفى بالبصرة سنة ٣٠٣هـ. انظر ترجمته فى: وفيات الأعيان: ٣

فإنهما قالوا: إذا قرأ القارئ آية من القرآن، فنقوم به قراءة، ويوجد مع قراءته كلام الله تعالى قائماً بالقارئ، وكذلك يوجد كلام الله تعالى مع الكتابة حالاً في المصحف، وكلام الله تعالى ليس هو القراءة والكتابة، بل هو معنى غير الرقوم والأصوات يوجد معها^(١).

ثم قالوا: لو قرأ ألف قارئ آية واحدة، فإنه يوجد في كل قارئ، تلك الآية الواحدة، والقائم بزيد هو القائم بعمرو، ولو انكف قارئ عن القراءة انتفى عنه كلام الله تعالى، والذي انتفى عنه هو بعينه موجود قائم بسائر القراء^(٢) ومعرفة هذه المقالة تغني عن الجواب عنها^(٣).

/ ٣٩٨ ، والأعلام للزركلي : ٧ / ١٣٦ .

(١) المعروف من رأى أبى الهذيل أنه قال في كلامه تعالى: إن بعضه لا في محل وهو قوله { كن } وبعضه في محل كالأمر والنهي والخبر، والاستخبار، وهذا المحل هو الجسم، وكل كلامه عنده أعراض. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادى: ص ٧٦، والملل والنحل للشهرستاني: ص ٤٧ .

أما أبو على الجبائي فهو القائل بأن الله ﷻ يحدث عند قراءة كل قارئ كلاماً لنفسه في محل القراءة، فارتكب المحال، وهو إثبات كلامين في محل واحد، وخالفه في ذلك أكثر المعتزلة. للمزيد من التفاصيل انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٥٤٠، والمحيط بالتكليف له أيضاً: ص ٣١٢ - ٣١٥، والملل والنحل للشهرستاني: ٦٧/١، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٢٢ وما بعدها.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٣٣، وضم إليه ما في الإتصاف للباقلاني - رحمه الله تعالى - ص ١٠٥ - ١٠٩، واحرص على ما فيه فهو في غاية النفاسة.

(٣) يحقر الرازي من شأن هذا المذهب، معتبراً إياه خروجاً عن دائرة العقلاء، لذا لا يتعرض لنقده والرد عليه، ليوضح مدى تهافته.

الفصل الثالث

فى أن كلام الله تعالى صدق

اتفق المسلمون على أنه يستحيل أن يكون خبر الله تعالى كذباً^(١) ، وخالفهم المعتزلة^(٢) فى ذلك وقالوا إنه جائز إلا أنه ﷻ لا يفعله؛ لأنه لو فعله لكان سفيهاً مستحقاً للوم، وذلك خروج عن حدّ الإلهية،^(٣) وهذا تصريح منهم بأن الله تعالى قادر

(١) قارن: المحصل: ص ١٨٥، وشرح المواقف: ٨٣/٣ وما بعدها.

ويستدل الرازى فى المحصل على ذلك بدليل حاصلة: خبر الله تعالى صدق — لاحظ أنه أرجع كل أقسام الكلام أو لوازمه إلى الخبر — لأن الكذب نقص وهو على الله محال، ولأنه لو كان كاذباً، لكان كاذباً بكذب قديم، ولو كان كذلك لاستحال منه الصدق، ولكن التالى محال. وينسب صاحب المواقف إلى المعتزلة اتفاقهم على ذلك، بعكس الرازى هاهنا.

(٢) نقل الرازى هذا رأى عن المعتزلة من كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى { ص ١٢١ } وذلك فى المناظرة الشهيرة بين زعماء القدرية السبعة الذين اجتمعوا فى مجلس واحد، وتكلموا فى قدرة الله تعالى على الظلم والكذب وفيها:—

{ إن سألنا سائل: أيصح وقوع ما يقدر الله تعالى عليه من الظلم والكذب ؟ قلنا له: يصح ذلك، لأنه لو لم يصح منه ما كان قادراً عليه، لأن القدرة على المحال محال، فإن قال: أفيجوز وقوعه منه ؟ قلنا: لا يجوز وقوعه منه لقبحه وغناه عنه، وعلمه بغناه عنه. } إلخ

(٣) هذا إلزام للمعتزلة لا يقولون به، وبالتالي فترتيب الحكم عليه بكفرهم لا يصح من الإمام الرازى — رحمه الله تعالى — كيف وهو لم يصرح بتكفير المجسمة والمشبهة الذين شبهوا الله بخلقه، وساووه تعالى وتقدس بمخلوقاته. انظر شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٨٤.

قادر على أن يخرج نفسه عن الإلهية، وذلك كفر.

واحتج إمام الحرمين^(١) على استحالة الكذب على الله تعالى بأن قال:—

نحن نعلم ضرورة أن العالم بالشئ يمكنه أن يخبر عنه في النفس خبراً صدقاً، ونعلم أيضاً أن المخبر الواحد يستحيل أن يكون صادقاً ولو كاذباً دفعة، فلو كان الباري تعالى كاذباً استحال أن ينتقى ذلك الخبر الكذب؛ لأنه قديم، والقديم لا يندم،^(٢) وذلك يفضي إلى استحالة أن يخبر الباري تعالى كما هو عالم به خبراً صادقاً، وذلك مما يعلم بطلانه ضرورة^(٣)..

فإن قالوا: كيف تدعون العلم الضروري بأن العالم يمكنه أن يخبر خبراً صدقاً عنه، مع أن العلم بأصل كلام النفس من أدق الأشياء؟.

قلنا: إثبات كلام النفس ليس من قبيل النظريات، بل من قبيل الضروريات، وهو الذي يجده المرء من نفسه إذا أراد أن يأمر عبده بشئ من اقتضاء الفعل عنه في النفس،^(٤) ولم ينازع في هذا المعنى أحداً، إنما النظرى هو إظهار الفرق بينه

(١) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري الشافعي الأشعري المعروف بإمام الحرمين — رحمه الله — الملقب: بأبي المعالي، فقيه أصولي متكلم، مفسر، أديب، ولد في جوين سنة ٤١٩ هـ، وتوفي سنة ٤٧٨ هـ.

من مصنفاته: الإرشاد، لمع الأدلة، النظامية، البرهان في أصول الفقه، وغير ذلك. انظر ترجمته في طبقات الشافعية: ٢٤٩/٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٣٤١/٢.

(٢) هذا ينبني على قاعدة: ما ثبت قدمه استحالة عدمه.

(٣) لتحقيق رأى إمام الحرمين — رحمه الله تعالى — انظر: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٣٤ — ٣٣٥.

(٤) هذا ينبني على إثبات الأشاعرة للكلام النفسي، وهو ما ينازع فيه المعتزلة. انظر الإرشاد: ص ٣٣٥.

وبين العلم والإرادة،^(١) وذلك لا يقدر في غرضنا.

(١) قدّمنا الفرق بين الكلام والعلم والإرادة في حق البارئ تعالى وتقدس، فلا حاجة لإعادته
انظر ص ٨٤.

الفصل الرابع

فى التحسين والتقبيح^(١)

(١) يتبادر إلى ذهن سؤال هام:—

هل فى الأشياء حسن وقبح ذاتيان، وهل يستقل العقل بإدراكهما، وما هو دور الشرع فى ذلك ؟..

يعتبر المعتزلة هم أول من أثاروا تلك القضية تأكيداً وتأصيلاً لمبدأ التوحيد عندهم: فالله ﷻ منزه عن الظلم، وفعل القبيح لئلا يشبه المخلوق.

واعتبروا العقل مدرِكاً للحسن والقبح فى الأشياء إما بدهاءة، وإما نظراً، ولكن فى بعض الأحيان قد تخفى علينا بعض الأشياء، فيكشف الشرع عنها، لكنه طريق لإدراكها فقط، لا لإتشائها. ورتبوا على هذا الرأى موقفهم من مسألة الحكمة، وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى، والعوض فى مقابلة ما يفعله الله تعالى بالخلق من الأسقام والآلام.

ووافقهم الرأى الفلاسفة، والكرامية، والخوارج، والماتريدية، والشيعية الإمامية، وابن تيمية الذى نسب القول بذلك إلى أكثر الأمة، ولكن تختلف تلك الطوائف عن المعتزلة فى أنهم لا يوافقون على ما بنوه على ذلك من عدم إرادته تعالى للشر وخلق له، أو من وجوب بعض الأفعال عليه تعالى كما ذكرنا آنفاً.

وذهب الأشاعرة إلى أن كلاً من الحسن والقبح ليسا بذاتيين للأشياء، وأن الحسن هو ما حسنه الشرع، والقبيح هو ما قبحه الشرع، وهذا هو رأى متقدمى الأشاعرة.

ولكن منذ إمام الحرمين ومن بعده حدث تطور هام فى مذهب الأشاعرة، حيث ذهبوا إلى أن القول بالتحسين والتقبيح العقليين مردود إلى ثلاثة أمور هى:—

أ — الحسن والقبح بمعنى الكمال والنقص كالعلم والجهل..

ب — الحسن والقبح بمعنى الموافقة للغرض، أو المخالفة له كالعدل والظلم.

اعلم أن لفظ الحسن يطلق — على — (١) الإنسان على ما يوافق غرضه، والقبیح على ما يخالف غرضه، فعلى هذا قد يكون الشيء الواحد حسناً في حق إنسان، قبيحاً في حق غيره، ويطلق على صفة الكمال والنقصان، فيقال: العلم حسن، والجهل قبيح، ونعني بالكمال: وجود شيء لشيء من شأنه أن يكون له إما بجنسه أو بنوعه، أو بعينه، ويطلق الحسن أيضاً على ما لم يمنع منه فاعله، والمباح

ج — الحسن والقبیح بمعنى أن الفعل يستوجب الذم والعقاب، أو المدح والثواب من الله تعالى، والأميرين الأولين يستقل العقل بإدراكهما، ويتفق الأشاعرة مع المعتزلة في ذلك. أما الأمر الأخير فهو موضع الخلاف بيننا وبين المعتزلة، فهم يرون أن مدركه هو العقل وحده، ونحن نرى أن مدركه ومنشؤه هو الشرع، وفي ذلك يقول العلامة السنوسي — رحمه الله تعالى — فليس الحسن عندنا { إلا ما قيل فيه: أفعوه، وليس القبيح شرعاً إلا المقول فيه: لا تفعلوه } ومن ثم فقد قال الأشاعرة على لسان صاحب المواقف: { إن الله تعالى لا يفعل القبيح، فأفعاله تعالى كلها حسنة }.

فأفعاله تعالى حسنة، ولكن لا مؤثر في الكون سواه، حيث تشمل إرادته تعالى سائر المحدثات، وما في الكون من جور يقع من العباد، فالله تعالى قد خلقه جوراً لهم، وليس جوراً له ﷺ على حد تعبير الشيخ الأشعري في اللمع.

أما المعتزلة فهم يقولون أيضاً: إن أفعاله تعالى كلها حسنة، مع قولهم بأن في العالم قبائح موجودة وواقعة، بيد أنها ليست من خلقه تعالى، ولا من فعله، وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار: { إن كل ما هو قبيح، فهو يتركه أئبته } ويترتب على ذلك أن جميع أفعال العباد ليست من خلق الله تعالى، بل من خلق العباد تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

لمزيد من التفاصيل انظر: — غاية المرام للآمدي: ص ٢٢٤، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٤٩٤ وما بعدها، وفتاوى ابن تيمية: ٢٤٧/٥، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٦١، والاقتصاد للغزالي: ص ٩٦، وشرح المواقف: ١٩٥/٨، وشرح الكبرى للسنوسي: ص ٤٣٠، وغير ذلك.

(١) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

على هذا المعنى حسن، وكذلك أفعال الله تعالى، ويطلق على ما ورد الشارع بالثناء على فاعله، والتعظيم له، واستحقاق الثواب عليه، وفي مقابلته القبيح، فإن الذى ورد الشارع بزم فاعله، وإهانته، واستحقاق العقاب، والمباح على هذا التفسير لا يكون حسناً^(١).

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن مذهب أهل الحق^(٢) أنه ليس للحسن ولا للقبيح صفة بالتفسيرين الأخيرين بل هو مجرد تعلق خطاب الشارع به، فإذا ورد الإذن بالفعل يسمى حسناً، وإذا ورد النهى عنه يسمى قبيحاً^(٣).

ومذهب الجمهور من الفرق الضالة^(٤) أن حسن الأفعال وقبحها لصفات

(١) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٥٨ وما بعدها، والأربعين فى أصول الدين للرازى: ص ٢٣٧، والمحصل: ص ٢٠٢.

ويلاحظ هنا التطور الذى حدث فى المذهب الأشعرى منذ إمام الحرمين وصار فى إثره الغزالي، ثم تعلقه الرازى — رحمه الله تعالى —.

ومن العجيب أن خصوم الأشاعرة يغفلون عن هذا التقسيم الثلاثى، ويقصرون القول على أن الحسن هو ما حسنه الشرع، والقبيح هو ما قبحه الشرع.

قارن انتقاد ابن رشد فى مناهج الأدلة: ص ١٢٩، وابن القيم فى مفتاح دار السعادة: ٣/٢، والكمال بن الهمام فى المسامرة: ص ١١٢ — ١١٣، وكذا ابن الوزير اليمانى فى إثثار الحق: ص ٢٤١..

(٢) للمزيد من التفاصيل عن رأى أهل الحق انظر: — اللمع للأشعرى: ص ١١٧ — ١١٢، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٥٨ — ٢٦٧، والاقتصاد للغزالي: ص ٧٣ — ٨١، ونهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٣٧٠ — ٣٩٦، والمحصل للرازى: ص ٢٠٢ وما بعدها، والمعالم فى أصول الدين له أيضاً: ص ٨٤، وشرح المواقف: ٣٩٣/٢ — ٣٩٨، وشرح المقاصد: ١٠٩/٢ — ١١٣.

(٣) قارن الإرشاد: ص ٢٥٧، ونهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٣٧٠.

(٤) يقصد بالفرق الضالة: المعتزلة، والكرامية، والخوارج، والبراهمة، والثنوية، والتناسخية،

ثابتة فيها،^(١) وقسموا ذلك إلى ثلاثة أقسام:—

الأول: ما يدرك حسنه وقبحه بضرورة العقل، كحسن العلم بالله تعالى، وحسن شكر المنعم، وحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار.

والثاني: ما يدرك بنظر العقل، كالعلم بحسن الصدق الضار، وقبح الكذب النافع.

ومنه: ما لا يُعلم حسنه وقبحه إلا بإخبار الشرع عنه، وذلك كحسن أربع ركعات في الظهر، ووجوب الصوم في رمضان دون سائر الشهور، وكقبح شرب القليل من الخمر في شريعة نبينا صلوات الله عليه، دون شريعة موسى عليه السلام، وجميع ما أمر الشارع به، فلا بد وأن يكون ذلك الفعل في نفسه حسناً، يختلف بأن نعلم جهة الحسن والقبح فيه على التفصيل، أو لم نعلم،^(٢) ولهم على ذلك شبه منها:—

أن قالوا: الواحد منا إذا قصد تحصيل شيء، واستوى عنده الصدق والكذب

وغيرهم، انظر: نهاية الإقدام: ص ٣٧١ وانظر أبحاث الأفكار للآمدى: ١١٧/٢.

(١) هذا هو رأى أوائل المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن الحسن والقبح ذاتيان في الأشياء، وأنهما يدركان عن طريق العقل، والشرع ليس إلا مؤكداً لما أدركه العقل.

أما متأخرو المعتزلة — خاصة مدرسة أبى هاشم الجبائى — فقد رأوا ترك القول بأن الحسن والقبح ذاتيان في الأشياء، وذهبوا إلى أنهما يعودان إلى الوجه الذى يقع عليه الفعل، وهو ما يعرف فى التراث الاعتزالى باسم: نظرية الوجوه والاعتبارات. انظر المجموع المحيط بالتكليف للقاضى عبد الجبار: ص ١٣٩ وما بعدها، والمغنى له أيضاً: ٢٢٩/١٣ وما بعدها، وقارن شرح المواقف: ١٨٤/٨.

(٢) قارن نهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٣٧١، وشرح المقاصد: ٢٠٨/٣، والإرشاد: ص ٢٥٩.

فيما يرجع إلى تحصيل ذلك الشيء، مثل أن يقال: لو صدقت أعطيناك ديناراً، ولو كذبت أعطيناك ديناراً، فنعلم أنه يختار الصدق على الكذب، فدل على أن الصدق في نفسه حسن^(١).

ومنها: أن قالوا: إذا رأى الملك العظيم ضعيفاً مُشرفاً على الهلاك، فإن طبعه يميل إلى إنقاذه، وليس يفعل ذلك برغبة في الثواب، إذ ربما كان ذلك الملك ملحداً لا دين له، ولا أيضاً للشكر والمجازاة، إذ ربما كان الضعيف أعمى لا يعرف الملك، فكيف يطمع الملك في شكره، ولا أيضاً لأجل أن يوافق غرضه؛ لأنه ربما يتعب بذلك، فعلمنا أنه ما أقدم على إنقاذه إلا لحسنه^(٢)..

ومنها أن قالوا: لو كان الحسن والقبح يثبت بالشرع، لصح ورود الإذن بشتم الله تعالى، والكفر به، وقتل أوليائه، وتعظيم أعدائه، وتبجيل فرعون^(٣) وأبى جهل^(٤)، والاستخفاف بمحمد ﷺ — وموسى —^(١) عليهما السلام، ولما لم يجز

(١) قارن الإرشاد: ص ٢٦٥، ونهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٣٧٣، وغير ذلك.

(٢) قارن الإرشاد: ص ٢٥٦، ونهاية الإقدام: ص ٣٧٣ — ٣٧٤ إذ يقول المعتزلة: { صادفنا العقلاء يستحسنون إنقاذ الغرقى وتخليص الهلكى ويستقبحون الظلم والعدوان } وذلك في حق من لم تبلغه الدعوة، أو أنكر الشرائع.

وقارن المطالب العالية للرازي: ٢١٣/٣.

(٣) فرعون: لقب لمن ملك العمالة ككسرى وقيصر لملكى الفرس والروم، ولقوتهم اشتق منه: تَفَرَّعَ الرجل إذا عتا وتجبر، وكان فرعون موسى ﷺ: مصعب بن الريان، وقيل: ولده الوليد، وكان من بقايا عاد، بينما كان فرعون يوسف ﷺ هو الريان.

ومن صفات فرعون في القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (يونس: ٨٣) وغير ذلك.

(٤) أبو جهل: هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ — في صدر الإسلام، مات مقتولاً في غزوة بدر عام ٢ هـ.

ذلك، علم أنه قبيح لنفسه^(٢)..

وأما المعتمد في المسألة أن نقول:—^(٣)

لو كان الحسن والقبح صفة، لافتقر الموصوف به إلى أمر لأجله اتصف به، وإلا لم يكن اتصافه به أولى من اتصافه بغيره، واتصاف بغيره به، وذلك الأمر إما أن يكون راجعاً إلى الفعل، أو إلى الفاعل، ولا يجوز أن يكون راجعاً إلى الفعل

(١) موسى ﷺ هو نبي الله تعالى إلى بنى إسرائيل، وأحد أولى العزم من الرسل — عليهم السلام — ورد ذكره في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

(٢) حاصل هذه الحجة أنه: لو لم يثبت الحسن والقبح إلا بالشرع، لوجب أن لا يقبح من الله تعالى شيء، ولو كان الأمر كذلك فحينئذ لا يبقى الاعتماد على وعد الله تعالى، ولا على وعيده. انظر المطالب العالية: ٢١٤/٣، وشرح المقاصد: ٢١٤/٣.

(٣) التزم الإمام الرازي هنا في الإشارة بالمذهب الأشعري في أنه لا حكم للعقل بالتحسين والتفريق، وأنهما لا يثبتان إلا بالشرع، وتأثر كثيراً بما طالعته من كتب إمام الحرمين، والغزالي — رحمهما الله تعالى — القائلين بأن: الحسن والقبح ليسا لذوات الأشياء، ولكن لما تقع عليه من الوجوه والأحوال، مثل لطم اليتيم للتأديب، ويستدل الرازي على ذلك بوجوه أهمها:—
— أن الكذب قد يحسن إذا تضمن إنجاء النبي مثلاً من الظالم.

— أن من صور النزاع — أى بيننا وبين المعتزلة — قبح تكليف ما لا يطاق، فنقول: لو كان قبيحاً لما فعله الله تعالى، وقد فعله بدليل أنه كلف الكافر بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن، فلو قبح الشيء لقبح إما من الله تعالى، أو من العبد، والقسمان باطلان، فالقول بالقبح باطل.

أما أنه لا يقبح من الله تعالى فمتفق عليه، وأما أنه لا يقبح من العبد، فلأن ما صدر عن العبد صادر عنه على سبيل الاضطرار، لأنه متوقف على خلق الداعية من الله تعالى في العبد، ليصير الفعل واجباً، ولا يقبح من المضطر شيء اتفاقاً. انظر المطالب العالية: ١٨٠/٣ — ٢٢٢، وقارن بالمحصل: ص ٢٠٢ — ٢٠٣، والأربعين في أصول الدين: ص ٢٣٧ — ٢٣٩.

من حيث الإجمال، ومن حيث التفصيل:—

أما من حيث الإجمال: فهو أنا إذا نفينا الحال أعلنا إليه أن يكون الشيء علة لغيره لأن المعلول يستحيل أن يكون موجوداً ولسنا من القائلين بالحال،^(١) حتى نقول بأن العلة توجب الحال، فانسد طريق التعليل، وإذا أثبتنا الحال، فقد بينا فيما مضى أن الوجود هو عين الذات،^(٢) وما زاد عليه فهو من قبيل الأحوال، فالحسن والقبح إما أن يعللا بالذات وحدها، فيلزم أن يكون كل موجود موصوفاً إما بالحسن وإما بالقبح، حتى لا يختلف في ذلك شيئان، أو يعلل بالأحوال الزائدة على ذواتنا، وذلك أيضاً محال لما بيناه من أن الحال يستحيل أن يكون موجباً، أو علة،^(٣) أو يعلل بالحال والذات، فتكون العلة مركبة، وقد بينا أن ذلك محال^(٤)..

وأما من حيث التفصيل: وذلك لأنه لو كان الحسن والقبح يثبت للأفعال لأمر راجع إليها لكان لا يخلو: إما أن يكون لنفس الفعل، أو لأمر لازم له أو لأمر غير لازم^(٥).

ومحال أن يكون لنفس الفعل، لأن المتماثلين في الحقيقة قد يختلفان في الحسن والقبح، كالسجدة الواحدة فإنها تكون حسناً إذا كان قصدها عبادة الله تعالى، وتصير بعينها قبيحة إذا قصد بها عبادة الصنم، وكذلك شرب القليل من الخمر قبيح

(١) انظر ص: ٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر ص: ٥٣ وما بعدها .

(٣) انظر ص: ٥٢ وما بعدها .

(٤) انظر ص: ٤٣ .

وهذا مخالف لما في المحصل حيث يرى الرازي أن العلة العقلية يجوز أن تكون مركبة خلافاً للأشاعرة. انظر المحصل: ص ١٧٤ .

(٥) قارن أبعاد الأفكار للآمدى: ١٢٤/٢ وما بعدها .

فى شريعة نبينا ﷺ، وليس قبيحاً فى سائر الشرائع، وكان تزويج الأخت أخاها حسناً فى زمان آدم — ﷺ — وقبيحاً فى زماننا هذا، وكذلك القتل يكون حسناً إذا كان قصاصاً، وهو نفسه قبيح لو كان ظلماً، ولولا أن الحسن والقبح ليس للذات، وإلا لما صح ذلك،^(١) أيضاً: فلأنه يلزم أن لا يبقى الفرق بين ما إذا صدر عن إنسان كلمة الكفر عن الاعتقاد، وبين ما إذا صدر عن الحكاية، وأيضاً: فلأنه يلزم اتصاف الذوات فى القدم بصفة الحسن والقبح، ويلزم أن لا يستحق المرء بفعل الحسن والقبح لا ثواباً ولا عقاباً^(٢).

وهذه الجملة كما دلت على استحالة تعليل الحسن والقبح بالذات، فهى بعينها تدل على استحالة تعليلهما بصفة لازمة للذات^(٣).

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون علة حسن الشيء وقبحه صفة صادرة عن صفة ذاته بشرط الوجود؟^(٤)

قلنا: هذا باطل من وجوه:—

الأول: وهو أن كون صفة الذات موجبة للصفة التى هى علة الحسن والقبح، إما أن يكون من قبيل الواجبات، فيلزم أن توجهه حال عدمه، وأن لا يقف صدورهما عنها على صفة الوجود، وأن لا تختلف أحكام المتماثلات، وذلك على ما أوضحناه^(٥).

(١) قارن نهاية الإقدام فى علم الكلام للشهرستانى: ص ٣٨٨ — ٣٨٩.

(٢) هذا بناءً على قولنا بأن الحسن ليس لفعله مدخل فى استحقاق الذم، وبالقبح خلافه. انظر شرح المقاصد: ٢١٣/٣.

(٣) انظر ما سبق.

(٤) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٦٦ — ٢٦٧.

(٥) انظر ص: ١٦١ وما بعدها.

وإذ ليس الأمر كذلك، علمنا أنه لا بد من انضمام أمر آخر إلى صفة الذات حتى توجب ما هي علة الحسن والقبح، وذلك الأمر ليس هو إلا الوجود، ثم لا يخلو: إما أن يكون الوجود موجباً لكون صفة ذاته موجبة للصفة التي هي علة الحسن أو القبح، أو مصححاً، فإن كان موجباً لزم أن يكون كل وجود موجباً لكون صفة ذاته موجبة صفة هي علة الحسن والقبح، ويلزم اشتراك عدمه، فيلزم صحة أن لا توجب صفة الذات تلك الصفة التي هي علة الحسن والقبح صفات تابعة للحدوث،^(١) وبمثل هذه الحجة القطعية الدقيقة ألزمناهم^(٢) على قولهم: بأن المعدوم شيء أن تكون الجواهر حالة عدمها متمكنة في الجهات متحيزة^(٣).

الثاني: وهو أن الكذب يساوي القتل في القبح، فيلزم اشتراكهما في الصفة الموجبة عن صفة الذات، لاستحالة تعليل الحكمين المتساويين بعلمتين غير متساويتين،^(٤) ويلزم اشتراكهما في الصفة الموجبة لها اشتراكهما في الصفة الذات، وفي جميع لوازمها حتى تماثله من جميع الوجوه، وذلك باطل^(٥).

الثالث: وهو أن الصفة التي أسندوا الحسن والقبح إليها ليست هي كون الفعل عرضاً وحادثاً وموجوداً، وكذباً وعلماً وقديماً، فتكون صفة مجهولة، وذلك ما

(١) قارن نهاية العقول للرازي: ٦٠/٢ وما بعدها.

(٢) أي المعتزلة.

(٣) انظر ص: ٥٠ وما بعدها.

(٤) هذا مخالف لما في المحصل، حيث ذهب الرازي إلى جواز تعليل المعطولين المتمائنين بعلمتين مختلفتين خلافاً لجمهور الأشاعرة، واحتج الرازي على ذلك بقوله: إن السواد والبياض مع اختلافهما يشتركان في المخالفة والمضادة انظر المحصل: ص ١٤٦.

(٥) قارن المحصل: ص ١٤٦ حيث يعرض الرازي لرأي جمهور الأشاعرة ثم يكر عليه بالنقد. انظر المحصل: نفس الصفحة.

لا يجوز المصير في إثباته، إذ ليس الحكم بإثبات صفة مجهولة بأولى من إثبات ثالث ورابع، وذلك إلى ما لا نهاية له من الصفات، وإذا لم يكن إثبات تلك الصفة، لاستحالة إستناد الحسن والقبح إليها، فثبت أنه ليس حسن الأشياء وقبحها لأجل ذات الفعل، ولا لصفة لازمة له^(١).

ومحال أن يكون لأمر غير لازم له؛ لأن ذلك الشيء إن كان قائماً به، لزم قيام المعنى بالمعنى، وهو محال،^(٢) وإن لم يكن قائماً به استحالة أن يوجب حكماً، إذ لو أوجب له حكماً، لأوجب لسائر الأفعال في الحسن والقبح، وذلك باطل، فثبت أن ليس الحسن والقبح لأمر يرجع إلى الفعل، فإن هو لصفة من صفات الفاعل، ولا يجوز أن تكون تلك الصفة هي كون فاعله عالماً، لأن العلم يتبع المعلوم،^(٣) ولا يؤثر فيه، ولا أيضاً كونه قادراً، لأنها لا تؤثر إلا في إيجاد الفعل، وذلك لا يختلف في الحسن والقبح، ولا أيضاً كونه مريداً، لأنه يلزم أن يصير القتل الظلم، والكذب الضار، والإيلاء المحض من غير عوض،^(٤) ولا سابقة جنائية حسناً، إذا قصد ذلك الفعل حسنه، وأراد أن يكون حسناً، وذلك باطل، فلم يبق من صفات الفاعل إلا كونه آمراً وناهياً، وذلك هو مذهب بعض أصحابنا،^(٥) وبعض الأصحاب^(٦) ظنوا أن أمر

(١) قارن نهاية العقول: ٦٣/٢ - ب.

(٢) يرى الأشاعرة أن قيام المعنى بالمعنى مستحيل. انظر الإرشاد: ص ١٣٩.

(٣) هذا هو رأي الأشاعرة وحاصله: أن العلم ليس صفة مؤثرة، ولكنه صفة انكشاف، والعلم يتبع المعلوم وقد تقدم الكلام في ذلك عند الحديث عن صفة العلم الواجبة لمولانا تعالى وتقدس.

(٤) العوض: البذل والخلف، جمعه أعواض، وعأوضه: بادل، يقال: عأوضه عنه: أعطاه بدل ما ذهب منه، واعتاض منه: أخذ العوض، واعتاض فلاناً: سأله العوض، ويقال: استعاض عن كذا بكذا. استبدله به. انظر المعجم الوجيز: ص ٤٤١.

(٥) هذا هو مذهب إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - انظر الإرشاد: ص ٢٥٩، وشرح

المقاصد: ٢١٥/٣.

الله تعالى ونهيه يوجبان للفعل صفة ليكون حسناً أو قبيحاً، وذلك باطل أيضاً:—
أما أولاً: فلأنه يلزم أن لا تكون أفعال الله تعالى حسنة لأنها غير مأمور بها.

وأما ثانياً: فلأن فعل الواجبات أحسن من فعل المندوبات، والقتل الظلم أقبح من ارتكاب الصغائر، فلو كان الحسن والقبح صفة، لكان الزائد فيهما موجباً للتزايد في تلك الصفة، ويلزم منه الجمع بين المتماثلين وذلك محال،^(٢) فقد وضح بما ذكرناه أنه ليس للحسن ولا للقبح صفة تجعله حسناً وقبيحاً، وإنما هو مجرد كون الفعل مأموراً ومنهياً، وبالله التوفيق.

فأما ما احتجوا به من أنه لو تساوى الصدق والكذب عند العاقل فإنه يختار الصدق، فالجواب عنه:— أن نقول: إنما يختار الصدق على الكذب؛ لأنه رأى القبح في أكثر المواضع مقروناً بالكذب، ورأى اجتماع الناس على استقباحه ودمه، فترسخ بهذا السبب أنه قبيح في جميع المواضع، فلأجل هذا يعدل عن الكذب إلى الصدق،^(٣) فإن فرضوا^(٤) في حق شخص ما عاشر أحداً قط، ولا خالطهم، فيمكن أن يقال بأنه يختار الصدق رغبة في الثواب^(٥) فإن فرضوا أن ذلك الإنسان غير عالم بالله تعالى، ولا بالثواب والعقاب فإننا لا نسلم والحالة هذه أن يختار الصدق

(١) لعله الغزالي — رحمه الله: — انظر الاقتصاد في الاعتقاد: ص ٨١.

(٢) انظر المحصل: ص ١٤٤ حيث اتفق الأشاعرة مع الفلاسفة، وخالفهم المعتزلة.

(٣) قارن المطالب العالية: ٢١٧/٣.

(٤) أي المعتزلة.

(٥) قارن نهاية الإقدام: ص ٣٧١ — ٣٧٢.

قطعاً، بل ربما يصدق وربما يكذب،^(١) يحققه: وهو أنا إذا عرضنا على الشخص المفروض أمرين أحدهما: أن الواحد أقل من الاثنين، والآخر: أن الكذب قبيح، فلا شك في أنه يقطع بالأول ويتردد في الثاني،^(٢) فعلم أن هذه القضية ليست بديهية،^(٣) بل هي من المستحسنات المشهورة^(٤).

وأما ما احتجوا به من قولهم: إن الملك يميل طبعه إلى إنفاذه الضعيف، مع

(١) قارن المطالب العالية: ٢١٣/٣.

(٢) قارن نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٣٧١، ٣٧٢.

ويعلق الشهرستاني على قول المعتزلة: { ومن حكم بأن الأمرين سيان بالنسبة إلى عقله، خرج عن قضايا العقول وعائد عناد الفضول }.

(٣) البديهي هو: لغة: البدايات أو الأوائل، فالبدء، والبداية والبديهية هي أول كل شيء، والقضايا البديهية هي: قضايا أولية صادقة بذاتها يجزم بها العقل من دون برهان، ومثال ذلك: الكل أعظم من الجزء، والأجزاء المساوية لشيء واحد متساوية انظر كشف اصطلاحات الفنون: ٣١٨/١ - ٣١٩.

(٤) عرّف ابن سينا المشهورات - ويسمى الذائعات - بقوله: { وأما الذائعات فهي مقدمات وآراء مشهورة محمودة، أوجب التصديق بها إما شهادة الكل: مثل: أن العدل جميل، وإما شهادة العلماء أو شهادة أكثرهم أو الأفاضل منهم فيما لا يخالف فيه الجمهور } انظر النجاة: ص ٦٣.

ويحدد الغزالي - رحمه الله تعالى - عمل المشهورات بأنها تصلح للفقهيات دون اليقينيات مثل: حكمنا بحسن إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وملازمة الصدق في الكلام، ومراعاة العدل في القضايا والأحكام، وحكمنا بقبح إيذاء الإنسان، وقتل الحيوان، ووضع البهتان، ورضاء الأزواج بفجور النسوان، ومقابلة النعمة بالكفران والطغيان.

وهذه قضايا لو خلى الإنسان وعقله المجرد، ووهمه وحسه، لما قضى الذهن بها قضاءً بمجرد العقل والحس، ولكن إنما قضى بها لأسباب عارضة، أكدت في النفس هذه القضايا وأثبتتها مثل: رقة القلب وغير ذلك. انظر معيار العلم: ص ١٨٤ وما بعدها.

أنه لا يتوقع منه الحمد والثواب، فالجواب عنه:—

أن ها هنا غرضين آخرين:—

أحدهما: أن الملك يقدر نفسه في تلك البلية، ويقدر غيره قادراً على إنقاذه، ومع ذلك لا ينقذه، فيحكم حينئذ بقبحه، لأنه يخالف غرضه، لما قد ذكرنا أن الإنسان يقبح ما لا يوافقه، فمن شدة ما استقبح ذلك في حق نفسه يتقرر عنده أنه قبيح في المواضع كلها، وهذه هي الرقة الجنسية، فلهذا يرغب في إنقاذه^(١).

الثاني: وهو أن الملك لما رأى الإنقاذ في أكثر المواضع مقروناً بالثناء، ظن أن الثناء أبداً مقروناً بالإنقاذ، وهذا وإن كان وهماً كاذباً، إلا أن له تأثيراً عظيماً في النفس، كما أن فيمن نهشته الحية، فإنه ينفر طبعه عن الحبل المبرقش اللون^(٢) لأنه لما رآه مقروناً بالأذى، ظن أن الأذى مقرون به دائماً، فكذلك هاهنا^(٣).

وأما ما ألزمونا من صحة الأمر بالكفر بالله، فذلك إنما لا يجوز لا لقبحه، بل لتناقضه لأنه لا يعلم أنه مأمور من جهته بأن يجهل به، إلا إذا علمه، وإذا علمه فلا يكون جاهلاً به^(٤).

وأما من جوز تكليف ما لا يطاق، فكل ذلك عنده جائز،^(٥) وأما ما عدا ذلك

(١) قارن المطالب العالية: ٢١٨/٣، وأبكار الأفكار للآمدى: ١٣٨/٢، وشرح المقاصد: ٢١٤/٣.

(٢) قارن الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ص ٨٣، وهي نفس عبارات الرازي هنا، مما يدل على شدة تأثير الرازي بحجة الإسلام — رحمهما الله تعالى —.

(٣) قارن الاقتصاد: نفس الصفحة.

(٤) قارن الأربعين في أصول الدين: ص ٢٣٨ — ٢٣٩، وشرح المقاصد: ٢١٥/٣.

(٥) انظر ص: ١٠٩ وما بعدها، حيث اعتبر الرازي أن تكليف ما لا يطاق لازم لكل أحد من العقلاء.

من قتل أوليائه، وتعظيم أعدائه، فالكل جائز من الله تعالى بالاتفاق،^(١) إلا أنهم يقولون: لو وقع هذا الجائز، لخرج الباري عن الحكمة والإلهية، ولكان سفيهاً^(٢).

ونحن نقول: لو فعله لا يلزم منه أن يكون سفيهاً، فما زادوا علينا إلا بكفر صريح، وهو تصريحهم باقتدار الله على إخراج نفسه من الإلهية والحكمة، وذلك هو الكفر الصراح، أعادنا الله تعالى منه بمنه.

(١) أى بيننا وبين المعتزلة.

(٢) انظر ص: ١١٠/١١١ وما بعدها.

الفصل الخامس

فى وجوب شكر المنعم

ولما أوضحنا بتوفيق الله تعالى أن حسن الأشياء وقبحها، ووجوبها وحرمتها، وإباحتها، إنما تثبت بالشرع^(١) فظاهر بين أنه لا يجوز وصف الأفعال بهذه الأحكام قبل ورود الشرع، ويخرج من مضمونه أنه لا تجب معرفة الله تعالى،^(٢) ولا شكر المنعم قبل ورود الشرع.

ويؤكد ما ذكرناه من النصوص:—

(١) انظر ص ١٥٩ — ١٦٨.

(٢) ذهب الأشاعرة ومن وافقهم إلى أن معرفة الله تعالى لا تجب إلا بالشرع، وكذا سائر الأحكام، إذ لا حكم قبل الشرع لا أصلياً ولا فرعياً، بينما ذهب المعتزلة تبعاً لرأيهم فى التحسين والتقبيح العقليين إلى أن الأحكام كلها تثبت بالعقل، وإنما دور الشرع فيها هو تأكيدها وتوضيحها، وذهب الماتريدية إلى أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل إستقلالاً لوضوحه، لا بناءً على التحسين والتقبيح العقليين كما يقول المعتزلة.

والحق هو ما ذهب إليه الأشاعرة، لأن العقل لا يستقل بشيء أصلاً.

واستدل الأشاعرة على رأيهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾

(الإسراء: ١٥). ورتبوا على ذلك الحكم بأن أهل الفترة ناجون وإن بدلوا وغيروا وعبدوا

الأصنام وقالوا: إن أبويه — ﷺ — ناجيان، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَتَقَلِّبْكَ فِي

السَّاجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٩)، وقوله — ﷺ — : { لم أزل أنتقل من الأصلاب الطاهرات إلى

الأرحام الزاكيات }. انظر شرح البيجورى على الجوهرة: ص ١٩ — ٢٠.

قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

وقد ذهب المعتزلة إلى وجوب شكر المنعم عقلاً،^(١) والغرض من عقد هذا الفصل ذكر شبههم، والتقصي عنها.

قالوا: العاقل إذا تدبر لم يأمن أن يكون له منعم يريد شكره على النعم، ولو شكره لأثابه، ولو لم يشكره لعاقبه، فإذا عرض له هذان الخاطران، فلا بد وأن يقضى عقله بإيثار الخلاص، والتوقي من الهلاك، وإذا وردت على قلبه هذه الخواطر، فإنه يضطر إلى العلم بوجوب الشكر عقلاً^(٢).

والجواب أن نقول: ما قولكم في العاقل المنهمك في الشهوات الذي لا يخطر بباله هذه الخواطر في مدة عمره أصلاً؟ كيف يتوصل إلى إدراك وجوب الشكر؟^(٣) إذ ليس كل إنسان تعرض له هذه الخواطر، كيف لا نقول ذلك؟ وهذه الخواطر من فعل الله تعالى، لأنه شك، والشك الذي يضاد معرفة الله تعالى قبيح، والله لا يفعل القبيح،^(٤) فلا بد وأن يكون وقوعها بقدرة العبد، وإذا كان كذلك، فلا بد وأن يكون ملجأ إليها لاسيما على أصلهم^(٥) فإن عندهم: من حكم القادر أن يكون مخيراً

(١) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٧٧ ، ٨٧.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٧٠.

(٣) ويعقب إمام الحرمين على هذا الرد بقوله: {وهذا عظيم موقعه على الخصوم}. قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٦٨، والاقتصاد للغزالي: ص ٩٣.

(٤) هذا على رأي المعتزلة القائلين بنسبة الأفعال القبيحة إلى العبد اختياراً، لا إلى الله تعالى، وقد قدمنا الكلام في تلك المسألة قارن الإرشاد: ص ٢٧٠.

(٥) يقصد المعتزلة.

بين الفعل والترك،^(١) فثبت بهذا أنه لا يجب وقوع هذه الخواطر، فكيف يتوصل الإنسان الذي هذا حاله إلى إدراك وجوب الشكر؟.

فإن قيل: هب أن العقل لا يشهد بوجوب الشكر، ولكن العاقل متمكن من الطريقة التي رسمناها، والتمكن من الوصول إلى الواجب يكفي في صحة الإيجاب عليه.

قلنا: كما أن العاقل لا يحس من نفسه العلم بوجوب الشكر، مع الغفلة عن الخواطر التي ذكرتموها، كذلك لا يحس من نفسه وجوب النظر، وإخطار الخواطر، فإن حكمت بوجوب إخطار هذه الخواطر بالبال، وذلك مما ينكرونها، وتحكموا بسقوط الشكر عن العاقل، وذلك ما أردناه.

فإن قيل: إن الله يبعث إلى المكلف ملكاً يذكره، ويقول في نفسه انظر، ولا تأمن من العقاب^(٢).

قلنا: هذا باطل لأننا لو راجعنا العقلاء في ذلك، لم نجد واحداً منهم، يحس من نفسه مكالمة الملك إياه، والواحد منا إذا رجع إلى نفسه، وعلم أن له غفلات مستمرة، وإضراراً عما وجب عليه من الشكر، فلا يحس في غفلات الغمرات شيئاً مما ذكره^(٣).

وأيضاً: فلئن سلمنا لهم ما ذكروه، لكنه لا يقع الاكتفاء بإنذار الملك إياه ما لم يتعرض للخواطر والشكوك في ارتكاب العقاب، واستحقاق الثواب؛ لأن إنذار

(١) وذلك بناءً على قولهم بأن العبد خالق لأفعاله.

(٢) قارن الإرشاد: ص ٢٧٠، ويلزم إمام الحرمين المعتزلة إثباتهم كلاماً ليس بحروف، وفيه نقض أصلهم في استبعاد كلام سوى الحروف والأصوات.

(٣) قارن الإرشاد: ص ٢٧١.

الملك بمثابة إنذار واحد من الناس، ثم الإنذار من الواحد منا لا يحمل العاقل على النظر باتفاق منهم، مع أن ذلك مألوف في طباع أهل الفساد والغفلة، فالذى ادعوه كيف يقع به الاكتفاء؟ فهذا ضرب من الكلام لا يثبت معه لهم كلام.

ثم لئن سلمنا بأن هذه الخواطر لا بد وأن تعترض له، ولكن ليس منها ما يقتضى وجوب الشكر من وجوه:—

الأول: وهو أن العاقل إذا خطر له الخواطر التى أدعيتها، فإنه لا يقطع باستحقاق العقاب لو ترك الشكر، واستيجاب الثواب لو شكر، بل يتعارض عنده الاحتمالان، ومن لم يقطع بعقاب يلحقه وهو من الحال فى أطيب عيش، فلا يقضى العقل باختيار المتاعب، والإضراب عن اللذات لمنفعة موهومة فى الأجل، ألا ترى أن العقلاء يقتحمون البحار، والأهوال العظيمة التى يستيقنوها لغرض التجارة، فإذا جاز ركوب الأمواج، وتحكيم رياح فى أرواح لابتغاء متاجر وأرباح، ومظنون من نجاح، مع أن الذى يبيغونه بالإضافة إلى ما يوهبونه نزر يسير، فكذلك هاهنا، من عرضت له الخواطر التى ذكروها، فله أن يقول: إن الذى اعترض يجوز والراحة واللذة حاصلة، فالعقل يقضى باختيار اللذة الحاصلة على الموهومة^(١).

الثانى: وهو أن العبد كما يخطر له ما تقولون، فقد يخطر له: أننى عبد، والمنعم علي مستغن، وكنت ملكاً له من غير أذى، ولا منفعتى، وهذا ظاهر^(٢).

الثالث: وهو أن النعمة إذا كانت حقيرة بالإضافة إلى المنعم، فقد يقضى العقل والحالة هذه بالإضراب عن الشكر، كما أن الملك المستولى على أقطار الأرض، لو أنفق على فقير كسرة خبز يابس، فالفقير لو تعرض لذكره والثناء على

(١) قارن الاقتصاد فى الاعتقاد: ص ٩٣.

(٢) قارن الإرشاد: ص ٦٩، وهى تقريباً نفس عبارات الرازى هنا.

الملك يُعد مستهزئاً، ويقال له: الأولى بك الإضراب عن هذا الشكر، وجميع ما ينال العبيد من النعم بالإضافة إلى الله تعالى أقل مما فرضناه بالإضافة إلى الملك^(١).

واعلم بأن هذه الخواطر سواء كانت صحيحة أو ضعيفة، فلا شك أنها بحيث يتصور خطورها، ويمكن أن يقول عليها بعض العقلاء، ويحسنها، كما أن معظمهم راكنون إلى الشبه، فإذا كان تعويلهم على أن الخواطر تعرض صاحبها للخوف، وقد بينا أنه لا يقتضى الخوف فى العادة، فيسقط جميع ما عولوا عليه،^(٢) وهذا واضح.

(١) قارن المحصول فى علم الأصول للرازى: ٢٩/١ حيث فصل الرازى — رحمه الله تعالى — القول فى أن شكر المنعم غير واجب عقلا، ورد على المعتزلة رداً كافياً شافياً.

(٢) قارن المحصول فى علم الأصول: ٣٠/١.

ونص عبارة الرازى: { هو أن من وصل إلى طريقين، وكان أحدهما آمناً والآخر مخوفاً، فإن العقل يقضى بسلوك الطريق الآمن دون المخوف، وهاهنا الاشتغال بالشكر طريق آمن، والإعراض عنه مخوف، فكان الاشتغال بالشكر أولى }.

والجدير بالذكر أن الأشاعرة رفضوا وجوب شكر المنعم بالعقل، ولكنهم أوجبوه بالشرع، بناءً على أصلهم من أن أحكام الله تعالى وأفعاله لا تعلل بالأغراض، فله تعالى وتقدس بحكم المالكية أن يوجب ما شاء على من شاء، من غير فائدة ومنفعة أصلاً. انظر المحصول فى علم الأصول: ٢٨/١ — ٣٣.

الباب الخامس

فى صفة البقاء^(١)

(١) اختلف الأشاعرة فى صفة البقاء، هل هى صفة زائدة على الذات، أو نفسية، أو سلبية. فالشيخ الأشعرى — رحمه الله تعالى — يرى أن البقاء صفة زائدة على الذات، وهو ما أجمعت عليه كتب علم الكلام خاصة لدى المتأخرين. ولكن الشهرستانى يقول: { إن للأشعرى فى البقاء اختلاف رأى } بمعنى أنه تارة يرى أن البقاء صفة نفسية، وتارة يرى أنه صفة زائدة على الذات. وترتب على ذلك أن قال الأشعرى بعدم بقاء العرض زمانين، وذلك لأن البقاء معنى وجودى، والعرض معنى قائم بالجواهر، فلو بقي العرض زمانين لكان باقياً بقاءً، وللزم قيام المعنى بالمعنى، وهو محال، ومن ثم فقد ذهب الأشعرى إلى أن العرض ينعدم فى الزمان الثانى بذاته، وينعدم الجوهر بإمساك الأعراض عنه. وبعد الأشعرى انقسم أتباعه إلى قسمين:—
قسم يقول برأى الأشعرى من أن العرض لا يبقى زمانين ولكنهم رفضوا قول شيخهم فى كون البقاء صفة وجودية زائدة.
وقسم يقول — وعلى رأسهم الرازى وسائر متأخرى الأشاعرة — أن الأعراض باقية ماعدا الأصوات.

وذهب جمهور الأشاعرة إلى أن البقاء صفة نفسية للبارى تعالى، وليست زائدة على ذاته تعالى، وبرز هذا بوضوح عند الباقلاتى، وإمام الحرمين، والرازى، والآمدى وغيرهم. بينما ذهب متأخرو الأشاعرة إلى اعتبار البقاء صفة سلبية بمعنى أنها تنفى عن البارى تعالى معنى لا يليق بذاته تعالى، وعرفوها بأنها: عدم الآخرة للوجود، أو عدم اختتام الوجود، ولهم على ذلك دليل حاصله: لو جاز عليه تعالى العدم، لاستحال عليه القدم، وفى ذلك

مذهب شيخنا أبى الحسن عليه السلام والأكثرين من أصحابه أن البقاء صفة زائدة على الذات ^(١) شاهداً كان أو غائباً، ومذهب القاضى وإمام الحرمين، والأكثرين من المعتزلة: أن الباقي باق لنفسه شاهداً كان أو غائباً، ^(٢).

ومذهب الكعبى ومتبعيه إثباته شاهداً ونفيه غائباً، ^(٣) وهو اختيار الإمام والدى رحمه الله تعالى ^(٤).

يقول صاحب الجوهرة: وكل ما جاز عليه العدم عليه قطعاً يستحيل القدم. للمزيد من التفاصيل انظر: — شرح المواقف: ١٠٦/٨، وشرح المقاصد: ٨٩/٢، والملل والنحل: ١٢٢/٢، وهوامش على النظامية: ص ١٦٨، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٧٨، وغاية المرام للأمدى: ص ١٣٦، وحاشية الأمير على الجوهرة: ص ٦٢ — ٦٤، وشرح البيجورى على الجوهرة: ص ٣٥.

(١) انظر أصول الدين للبغدادى: ص ١٢٧، وقارن التمهيد للباقلانى: ص ١٤. (٢) انظر الإتحاف للباقلانى: ص ٣٧، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٣٨ — ١٤٠، ولمع الأدلة له أيضاً: ص ٨٥، والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى: ص ١٩، والمقصد الأسنى له أيضاً: ص ٩٦. ولتحقيق رأى المعتزلة انظر: المحيط بالتكليف للقاضى عبد الجبار: ص ١٤٦، والمغنى له أيضاً: ٢٣٦ / ٥ — ٢٣٧، والأربعين للرازى: ص ١٧٨.

(٣) لتحقيق رأى الكعبى انظر: أصول الدين للبغدادى: ص ١٢٨.

(٤) هو والده الإمام ضياء الدين بن عمر أحد العلماء الأشاعرة فى العقيدة، والفقهاء الشافعية فى الفروع، قال عنه السبكى إنه: { فصيح اللسان، قوى الجنان، فقيهاً أصولياً متكلماً صوفياً خطيباً محدثاً أدبياً، له نثر فى غاية الحسن، تحكى ألفاظه مقامات الحريرى، من حسنه وحلاوته ورشاقه سجعه }.

خلف ولدين: أحدهما الإمام فخر الدين، والآخر وهو الأكبر سناً، وكان يلقب بالركن، وصفه الإمام الرازى فى كتبه بالإمام السعيد، ويثنى عليه ويذكر أنه شيخه وأستاذه، له تصانيف عديدة من أهمها: { غاية المرام فى علم الكلام } فى مجلدين، قال عنه السبكى إنه { من أنفس كتب أهل السنة وأشدّها تحقيقاً، } توفى رحمه الله تعالى سنة ٥٥٩ هـ. انظر:

والمعتمد لمثبتى البقاء أن قالوا: الجوهر قد استمر مع جواز ألا يستمر، فلا بد له من مقتضى لولاه لما كان وجوده أولى من عدمه،^(١) واعلم أن هذا الكلام يستدعى إثبات أصليين:—

أحدهما: أن الجوهر يجوز استمراره، والخلاف فيه مع النظام،^(٢) والذي يدل عليه:—

أن الجوهر لو استحال وجوده فى الحالة الثانية لكانت استحالته إما أن تكون لذاته أو لأمر لازم لذاته، ويلزم منه عدمه حالة حدوثه ووجوده فى الحالة الثانية، لوجوب ملازمة العلة معلولها، وإما أن يكون لصفة غير لازمة له، ويلزم منه جواز استمراره، فتقدم عدم تلك الصفة، وذلك هو الذى قلناه،^(٣) بخلاف الأعراض، فإن بقائها إنما يكون لأجل بقاء قائم بها على ما سنبين إن شاء الله تعالى، وقيام المعنى بالمعنى مستحيل، فلأجل ذلك حكمنا باستحالة بقاء الأعراض^(٤).

والأصل الثانى: أن الأجسام حالة استمرارها ممكنة الوجود، والخلاف فيه

طبقات الشافعية: ٧٨٤/١، وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة: ٣٥/٢، وهدية العارفين ٧٨٤/١، ونهاية العقول للرازى: ٢٥٨/١ — أ، والتفسير الكبير، ١٠١/١، و ٤٢/١٣ و ١٢٣.

(١) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٣٩، والأربعين للرازى: ص ١٧٨.

(٢) إبراهيم ابن سيار بن هاتئ النظام، تقدمت ترجمته. ورأيه يبنى على أن الجواهر مؤلفة من أعراض مجتمعة، والأعراض غير باقية، ومن ثم فالجواهر لا يجوز استمراره. انظر الملل والنحل: ص ٥١، والأربعين للرازى: ص ١٧٩.

(٣) قارن نهاية العقول: ٧٨ / ١ — أ، والأربعين للرازى: ص ١٧٩.

(٤) يرى الرازى هنا — تبعا للشيخ الأشعرى — القول باستحالة بقاء الأعراض، وبتعبير آخر أن العرض يبقى زمانين، ولكنه بعد ذلك خالف هذا الكلام، وذهب إلى أن الأعراض باقية ماعدا الأصوات. انظر المحصل: ص ١١٤، والأربعين: ص ١٧٩.

مع الجاحظ^(١) وابن الرواندى^(٢) والذى يدل عليه :—

أن وجود الجوهر فى الحالة الثانية عين وجوده فى الحالة الأولى، ثم هو حالة الحدوث ممكن بدليل:— جواز وجوده مع عدم ما يُقدر مثلاً له وصحة لغيره، ووجوب افتقاره إلى الفاعل، ووجوب أن يكون مسبوقاً بالعدم، فكذلك حالة الاستمرار؛ لأن إمكانه إما أن يكون لذاته، أو للوازم ذاته، أو اقتضاه لعارض غير لازم، فكان الكلام فى إمكان عروض ذلك العارض له، كالكلام فى نفس الإمكان، فإن اقتضاه لعارض آخر تسلسل إلى غير نهاية، وإن اقتضاه لذاته، فيجب أن يقتضيه دائماً، وهو يقتضى الإمكان لذاته، فيلزم أن تكون الذات دائماً ممكنة، فنثبت افتقار الجوهر حالة استمراره إلى مقتضى يقتضيه، وذلك المقتضى إن كان ذاته أو أمر لازم لذاته، لزم استحالة عدمه، وأن يكون باقياً حال حدوثه، وذلك محال، فإن المقتضى أمر لازم لذاته، ثم لا يخلو إما أن يكون عديمياً أو وجودياً، فإن كان عديمياً، فإما أن يكون عدم معنى يوجب عدمه، أو عدم تعلق قدرة الفاعل بإعدامه، والأول مذهب المعتزلة؛^(٣) لأنهم يقولون: الجوهر يبقى إلى أن يخلق الله تعالى

(١) يرى الجاحظ أن الجواهر واجبة الوجود، وقال: باستحالة عدم الجواهر، فالأعراض تتبدل، والجواهر لا يجوز أن تفنى. انظر الملل والنحل: ص ٦٤.

(٢) هو أحمد بن يحيى ابن إسحاق أبو الحسين الراوندى، مات مصلوباً ببغداد سنة ٢٩٨ هـ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد، اشتهر بالزندقة وآرائه التى أنكرها عليه العلماء حتى رموه بالكفر، له ما يزيد عن مائة وأربعة عشر كتاباً منها: { فضيحة المعتزلة } و { كتاب الدامغ } و { كتاب الزمرد } و { كتاب التاج } وغير ذلك. انظر ترجمته فى: البداية والنهاية لابن كثير: ١١٢/١١، والملل والنحل: ٨١/١، والأعلام للزركلى: ٢٦٧/١ وغير ذلك

(٣) هذا هو رأى الجبائين، انظر الملل والنحل للشهرستانى: ص ٦٦، والأربعين للرازى: ص ١٨٠.

عرضاً لا في محل يوجب عدمه^(١) وذلك باطل عندنا؛ لأن الضد الحادث إما أن يوجب انتفاء الضد الباقي، أو يصحح انتفاؤه، ومحال أن يكون مصححاً؛ لأنه يلزم صحة طرؤ الضد الحادث، مع أنه لا ينعدم الضد الباقي، لجواز وجود المصحح مع عدم ما يصححه، ولأنه لو كان السواد الحادث يصحح انتفاء البياض الباقي، لزم أن لا تكون الحمرة مصححة لانتفائه، إذ الشيء إذا كان مشروطاً بشيء استحال اشتراطه بضد شرطه؛ لاستحالة وجود المشروط بدون الشرط، أو الجمع بين الضدين^(٢) ومحال أن يكون موجباً؛ لأنه يلزم منه أن يكون كل ضد مسبوقاً بالآخر إلى ما لا نهاية، حتى يكون حدوث الحادث فيه سبباً لانعدام الباقي، وإلا لزم انفكاك العلة عن المعلول، وذلك محال، وأن يكون إنتفاء كل ضد سواء كان باقياً أو غير باق بضد آخر يحصل عقبيه، وإلا لزم انفكاك العلة عن المعلول، وذلك محال، ولأنه لو كان انتفاء البياض الباقي معللاً بوجود السواد الحادث لاستحال تعليله بضد السواد، لاستحالة تعليل حكم واحد بعلة متضادة، ويلزم منه أن لا تكون الحمرة منافية للبياض، وذلك محال.

ولأنه ليس انعدام الجوهر الباقي بالفاء الحادث بأولى من انعدام الفناء الحادث بالجوهر الباقي، إذ الشيء كما أنه حالة الحدوث متعلق السبب، فكذلك حالة الاستمرار، ويلزم منه انتفاء الفناء حالة حدوثه، وذلك محال.

وأما القول بأن الجوهر يبقى لأن الفاعل ما أعدمه فهو باطل؛^(٣) لأن القدرة

(١) انظر المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار: ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) قارن نهاية العقول: ٨٩/١ - أ، وقارن أبعاد الأفكار للآمدى: ٤٤٤/٢ وما بعدها. والواضح أن الرازي هنا يضعف قول شيخه الأشعري، ويفند دليله ليصل إلى رأيه الخاص الذي ستفصله فيما بعد.

(٣) هذا هو رأي القاضي الباقلاني رداً على شيخه الأشعري في إثبات البقاء حيث استدل بدليل

صفة مؤثرة، والانعدام نفى محض، فيستحيل أن يكون من أثر القدرة، واعلم أنا قد بينا فساد هذه المقالة من وجه آخر في باب حدوث العالم،^(١) فثبت أن المقتضى لاستمراره ليس أمراً عديمياً، فإنّ هو من الأمور الوجودية ، وذلك إما أن يكون أمراً يوجب استمراره ، أو تعلق قدرة الفاعل به حالة استمراره، وهذا الثاني محال؛ لأن الباقي لا يكون مقدوراً، أما الأول فلا يخلو: إما أن يكون بمعنى يصح قيامه به حالة حدوثه، أو معنى لا يصح قيامه به حالة حدوثه.

أما الأول : فهو مذهب القاضي لأن عنده الجوهر تبقى الأكوان به،^(٢) ومذهب إمام الحرمين أنه يبقى لقيام جميع الأعراض به،^(٣) وهذه المذاهب باطلة.

لأن هذه المعاني إما أن تكون شرطاً لاستمرار الجوهر، أو موجباً له، وإن كانت شرطاً لزم قيامها بذات الباري تعالى وبصفاته لكونها باقيات، واستحالة وجود المشروط بدون الشرط، ولأن الشرط أبداً يصح وجود المشروط وعدمه، ويلزم منه صحة أن يكون الجوهر باقياً حالة حدوثه، غير باق حالة استمراره، وذلك محال، ولأن الشرط يصح وجوده مع عدم المشروط، فكان يجب صحة هذه الأعراض مع عدم الجوهر^(٤).

حاصله: لو بقى بنفسه من غير بقاء، لما تصور عدم الجوهر ، واللازم ممتنع، فالملزوم مثله. انظر أبكار الأفكار للآمدى: ١/٤٤٦ - ٤٤٧.

(١) انظر ص: ٣٦ وما بعدها.

(٢) انظر التمهيد للباقلاني: ص ١٤ وما بعدها، والإتصاف: ص ٣٧، والأربعين للرازي: ص ١٨٠.

(٣) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٧٨، وص ١٣٨ - ١٤٠.

(٤) قارن المحصل: ص ١١٤، وأبكار الأفكار للآمدى: ١/٤٤٨ وما بعدها، والأربعين للرازي: ص ١٨٠ - ١٨١.

ولئن قيل بأنها أيضاً مشروطة بالجواهر، فالجواب: أنه يلزم اشتراط كل واحد منهما بصاحبه وذلك محال، وإن كان موجباً، لزم قيام الأعراض بذات البارئ تعالى وبصفاته، لاستحالة ثبوت المعلول مع عدم العلة، وذلك محال^(١).

ولأنه يلزم وجوب أن يكون باقياً حالة حدوثه، ولأن تلك المعاني إن كانت باقية لزم افتقارها إلى بقاء آخر، ويفضى إلى التسلسل، وإن لم تكن باقية مع أنها علة الجوهر، لزم استحالة بقاء الجوهر لاستحالة بقاء علته، فثبت أن المقتضى لاستمرار الجوهر معنى لا يجوز قيامه به حالة حدوثه، وذلك هو البقاء، هذا أقوى ما يمكن أن يحتج به مثبتوا البقاء^(٢).

وأما نفاة البقاء فلهم حجج:—^(٣)

فما احتجوا به أن قالوا: وجود الجوهر في الحالة الأولى غير وجوده في الحالة الثانية، ثم في الحالة الأولى لا يفنقر إلى معنى يقتضى وجوده، فكذلك في الحالة الثانية^(٤).

ولقائل أن يقول: إن لزم من استغناء الجوهر — عن —^(٥) معنى يقتضى

(١) هذا بناءً على الأصل الأشعري القائل بامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى، وهو الحق.

(٢) قارن أبحاث الأفكار للآمدى حيث عرض بالتفصيل لحجج الشيخ الأشعري ومن تابعه في إثبات البقاء صفة زائدة على ذات البارئ تعالى، ثم ضعفها جميعاً تبعاً للرازي. انظر المحصل: ص ١٧٤ — ١٧٥، وأبحاث الأفكار للآمدى: ١ / ٤٤٠ — ٤٤٨، والأربعين: ص ١٨١ — ١٨٢.

(٣) يقصد القاضي الباقلاني، وإمام الحرمين، وأكثر المعتزلة.

(٤) انظر الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٣٨ — ١٤٠، وأبحاث الأفكار للآمدى: ١ / ٤٤٨ — ٤٤٩.

(٥) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

وجوده حالة حدوثه — لزِم — ^(١) استغناؤه عنه حالة استمراره، ولزِم من افتقاره إلى الفاعل حالة حدوثه افتقاره إليه حالة استمراره وذلك لا مخلص منه.

ومما احتجوا به أن قالوا : الجِرْهر لا يفتقر إلى البقاء في كونه مستمراً، ألا ترى أنه لا يحتاج إليه في حالة الحدوث، ويلزِم منه افتقار كل واحد منهما إلى الآخر، وذلك محال ^(٢).

والمختار عندنا ^(٣) أن المقتضى لاستمرار الجوهر استمرار المقتضى لحدوثه، فإذا تعلقت قدرة الله تعالى بإيجاد شيء ، واستمر التعلق ، فإنه يبقى ذلك الشيء لاستمرار التعلق، فعلى هذا الباقي مقدور عندنا، والذي يميز ذلك: أنا قد بينا

(١) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٢) قارن المحصل للرازي : ص ١٧٤.

(٣) خالف الإمام الرازي شيخه الأشعري، وذهب إلى أن الله تعالى باق لذاته متابعاً في ذلك: القاضي الباقلاني وإمام الحرمين، واستدل الرازي على رأيه بأدلة حاصلها:—

أ — أنه تعالى واجب الوجود لذاته، ووجوب الوجود يعني انتفاء جواز العدم، ولا يرجع ذلك إلى ثبوت صفة له، والواجب لذاته يمتنع أن يكون واجباً لغيره، فيمتنع كونه باقياً بالبقاء.

ب — لو كان تعالى باقياً بالبقاء، لكان كون بقاءه إن كان لبقاء آخر لزِم التسلسل، وإن كان لبقاء الذات لزِم الدور، وإن كان لنفسه فحينئذ يكون البقاء باقياً لنفسه، والذات باقية ببقاء البقاء، فكان البقاء واجب الوجود لذاته، والذات واجبة الوجود لغيره، فحينئذ تنقلب الذات صفة، والصفة ذاتاً، وهو محال. انظر المحصل: ص ١٤٧، ١٧٥، والمعالم في أصول الدين: ص ٦٩، والأربعين: ص ١٧٨ — ١٨٢. وقارن شرح المواقف: ٣/ ٨٧ وما بعدها وشرح المقاصد: ١٢١/٣ وما بعدها.

والحق هو ما ذهب إليه متأخرو الأشاعرة من أن البقاء صفة سلبية، ومعناها: عدم الآخريّة للوجود، أو عدم اختتام الوجود كما سبق بيانه.

افتقار الجوهر حالة استمراره إلى مقتضى، وأفسدنا جميع الأقسام سوى الفاعل، فيجب أن يكون المقتضى لاستمراره هو الفاعل، وأيضاً: فلأن وجود الجوهر في الحالة الأولى غير وجوده في الحالة الثانية، وقد تبين افتقاره إلى الفاعل حالة الحدث، فوجب افتقاره إليه حال حدوثه.

وأيضاً: فلأننا قد بينا أن كائنية الأجسام إنما تحصل بالفاعل، وبيننا أن القدرة الكائنية تتضمن القدرة على الكائن، فوجب أن يكون البارى قادراً على الجسم حالة استمراره، وذلك هو الذى قلناه^(١).

واعلم أن لنفاة البقاء غائباً^(٢) شبه عليها يعولون، وبها يصلون، وذلك أن قالوا:—

لو كان الباقي غائباً باقياً ببقاء، لزم أن تكون صفات الله تعالى باقيات ببقاء قائم بها، ويلزم منه قيام المعنى بالمعنى، ولأن بقاءه أيضاً باق، فيلزم افتقاره إلى بقاء آخر، والكلام فيه كالكلام فى الأول فيتسلسل، وذلك محال^(٣).

قالوا: ولا يقال الصفات تبقى ببقاء الذات، لأنه لو جاز ذلك، لجاز أن تعلم الصفات بعلم الذات، وتقدر بقدرتها، وتحيا بحياتها، فتكون كل واحدة من تلك الصفات عالمة قادرة حية، وتكون كل واحدة منها إلهاً، وذلك محال، ويلزم أيضاً بقاء الأعراض لبقاء محلها، وذلك عندكم محال^(٤).

فنقول: الفرق بين الصورتين أن البقاء إذا قام بذات البارى تعالى، وأوجب

(١) قارن ما سبق.

(٢) يقصد الكعبى ومن تابعه.

(٣) قارن شرح المقاصد: ١٢٢/٣، والأربعين: ص ١٨٢.

(٤) قارن المرجع السابق: ١٢٣/٣.

له أن يكون باقياً، والصفات تلازم الذات، فيجب أن تبقى الصفات، إذ لو لم تبق مع كون الذات باقية، لارتفعت الملازمة بينهما، وذلك محال، فلهذا المعنى صحَّ أن تبقى الصفات ببقاء الذات، لكن لا يلزم من كون أحد المتلازمين عالماً أو قادراً أن يكون الآخر كذلك، كالجوهر والعرض، فإنه لا يلزم من عدم تحيز العرض أن يشاركه الجوهر في ذلك، كذلك هاهنا^(١).

فإن قيل: لو كان البقاء يبقى ببقاء الذات، والذات باقية لأجل البقاء، لزم احتياج كون كل واحد منهما إلى الآخر في كونه باقياً^(٢).

قلنا: الذات إنما تبقى لأجل قيام البقاء بها، والبقاء إنما يبقى لملازمته الذات الباقية، وملازمة الذات للبقاء ليس حكماً مستقداً من البقاء، فلا يلزم الدور،^(٣) وخرج على هذه النكته بقاء الأعراض لبقاء محالها، إذ الأعراض لا تلازم محالها، فلا يلزم من بقاء محالها بقاؤها،^(٤) وهذا واضح.

(١) قارن شرح المقاصد: نفس الصفحة، ونسبه إلى الأستاذ، وأصله للشيخ الأشعري.

(٢) قارن المحصل للرازي: ص ١٧٥.

(٣) قارن أبحاث الأفكار للآمدى: ١/٤٤٤ وما بعدها.

(٤) انظر المحصل: ص ١١٤.

أما الخاتمة

فهي

تشتمل على فصول

الفصل الأول

فى أَنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ له^(١)

(١) صفة الوجدانية هى بحق شعار الإسلام، وقد اهتم بها المتكلمون اهتماماً كبيراً، وذلك لمواجهة القائلين بتعدد الآلهة ، ومن شدة حرص المتكلمين على إثبات الوجدانية لمولانا تعالى وتقدس أثبتوا الوجدانية له تعالى فى الذات والصفات والأفعال:

ومعنى وجدانية الذات: أى أن ننفى عنها الكم المتصل، وهو تركيب ذاته تعالى من أجزاء ، وكذلك ننفى الكم المنفصل بمعنى: أن تكون ثمة ذات مماثلة لذاته تعالى.

ومعنى وجدانية الصفات: أن صفاته تعالى منفى عنها الكم المتصل، وهو تعدد كل صفة من صفاته، وكذلك منفى عنها الكم المنفصل، وهو أن يكون لغيره مثل صفاته تعالى.

ومعنى وجدانية الأفعال: أن ننفى عنه تعالى أن يكون غيره مشاركاً له فى فعل من أفعاله، فهو المؤثر فى كل شىء ابتداءً، ولا مؤثر سواه فى شىء من الأشياء.

ولكن هل صفة الوجدانية صفة نفس أم صفة معنى ؟.

الحق أنها ليست صفة معنى ، بمعنى: أن كون الواحد واحداً لا يرجع إلى معنى زائد على الذات، وعليه فهى صفة نفس، ولكن هل تتعلق بالنفى أو بالإثبات؟.

ذهب جمهور الأشاعرة إلى أنها صفة نفس تتعلق بالإثبات حيث تثبت التفرد لله تعالى فى كل ما يتصل به ذاتاً وصفات وأفعالا.

ويرى إمام الحرمين فى النظامية أنها صفة سلبية، وتابعه على ذلك متأخرو الأشاعرة.

لمزيد من التفاصيل : انظر: هوامش على النظامية: ص ٢٠٠، والسنوسى: ص ٨٩، وص ١٦١، وشرح البيجورى على الجوهرة: ص ٣١ - ٣٢، ونهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٩٠، والاقتصاد للغزالى: ص ٤٥، والنظامية لإمام الحرمين: ص ٩.

وقارن رأى الأشاعرة ومن تابعهم برأى ابن تيمية ومدرسته حيث من رأيهم القول بوجود

اتفق العقلاء على استحالة موجودين متمثلين واجبي الوجود.

والثنوية^(١) أثبتوا النور والظلمة، ونسبوا الخيرات كلها إلى النور، والشرور كلها إلى الظلمة^(٢)، والمجوس^(٣) أثبتوا الإله، وزعموا أنه عرضت له فكرة ردية، فتولد منها شيطان هو أصل جميع الشرور^(٤).

والحجة المشهورة في إثبات الوجدانية أن يقال:—^(٥)

نوعين من التوحيد: أ — توحيد الربوبية. ب — توحيد الألوهية.

انظر الموافقة لابن تيمية: ١٣٤/٢ — ١٣٨، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم: ص ٣٣ — ٣٥.

(١) الثنوية هم: أصحاب الاثنين الأتريين أى يقولون باثنينية الإله، زعموا أن النور والظلمة أزليان قديمان: وقالوا يتساوى الاثنين في القدم، واختلافهما في الجوهر والطبع والحيز والمكان والأجناس والأبدان والأرواح، انقسموا إلى فرق عدة منها: المانوية، والمزدكية، والديسانية، والمرقونية، والتناسخية، وغيرهم، والجدير بالذكر أن القائل بأن: فاعل الخير هو النور وفاعل الشر هو الظلمة، هم المانوية والديسانية. انظر الملل والنحل: ص ٢٤٥، والتبصير: ص ١٤٩.

(٢) لتحقيق رأيهم. انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٢٧٦/٢ وما بعدها، وشرح المواقف: ٤٩/٨ — ٥٠. وما بعدها، وشرح المقاصد: ٢٧/٣ وما بعدها.

(٣) المجوس هم: كالثنوية يقولون بأن أصل العالم هو النور والظلمة، ولكن ينسبون الخير إلى الإله، وينسبون الشر إلى الشيطان، وقد انقسموا إلى عدة فرق أهمها: الكيومرثية، والزروانية، والمسخية، والزرادشتية. انظر الملل والنحل: ٢ / ٣٨ — ٥٩، وأبحار الأفكار: ٢٧٨/٢ وما بعدها.

(٤) لتحقيق رأيهم انظر: أبحار الأفكار: ٢٧٨/٢ وما بعدها، وشرح المواقف: ٥٠/٨. وما بعدها، وشرح المقاصد: ٢٧/٣ وما بعدها.

(٥) يلاحظ تضعيف الرازي لحجة المتكلمين على إثبات الوجدانية ويسمياها: الحجة المشهورة.

والجدير بالذكر أن المتكلمين قد استدلوا على وحدانية الباري تعالى بدليل التمانع المأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الانبياء: ٢٢) وحاصله:—
لو فرض وجود إلهين كل منهما متصف بصفات الألوهية — كالعلم والقدرة والإرادة — فإما أن تتفق إرادتهما، أو تختلفا، وكلاهما محال، فوجود إلهين محال.
فمثلاً: لو تعلقت إرادة أحدهما بخلق شيء مثلاً، وتعلقت إرادة الآخر بعدم خلقه، فالاحتمالات العقلية ثلاثة:—

أ — إما أن ينفذ مرادهما معاً، وهو محال، لاجتماع النقيضين.

ب — وإما ألا ينفذ مرادهما معاً، وهو محال، لأنه رفع للنقيضين، فيلزم عجزهما، وهو محال.

ج — وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، وهذا يستلزم عجز من لم تنفذ إرادته، مما يلزم كون الثاني عاجزاً أيضاً، لفرض المساواة بينهما.

انظر: محاضرات في التوحيد لأستاذنا الدكتور الصافي: ص ٥٤، واللمع للأشعرى: ص ٢٠، ٢١، والتمهيد للباقلاني: ص ٤٦، ١٥١-١٥٢، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٥، وشرح المواقف: ٤٢/٨ — ٤٣، وشرح العقائد النسفية وحواشيه: ص ٢١٦ — ٢٢٩، والمغنى للقاضي عبد الجبار ٢٤١/٤ وما بعدها، والتوحيد للماتريدي: ص ١٠، وص ٤٣ والجدير بالذكر أن بعض الأشاعرة كالإمام الغزالي قد نقد هذا الدليل من حيث إمكان الاتفاق بين الإلهين، موضحاً أن الآية لا تحتوى على قياس شرطي منفصل لا يدعو إلا احتمالاً واحداً. انظر إلجام العوام: ص ٢٧ — ٢٨.

وممن نقد هذا الدليل أيضاً الآمدى معتبراً إياه ليس هو البرهان العقلي القطعي، وليس بالدليل الشرعي الذي نبه عليه القرآن الكريم.

وممن نقده أيضاً العلامة السعد التفتازاني وقال: إنه دليل خطابي إقناعي لا برهاني، موضحاً أنه من الممكن أن يحتوى القرآن الكريم على ذلك أحياناً، الأمر الذي عابه عليه سائر متأخري الأشاعرة.

انظر شرح العقائد النسفية وحواشيه: ص ٢٢٢ وما بعدها، وحاشية الأمير: ص ٧٣ — ٧٦.

لو قدرنا إلهين لكان لا يخلو: إما أن يصح اختلافهما في الإرادة أو لا يصح، ومحال أن لا يصح؛ لأننا إذا قدرنا أحدهما منفرداً، فإنه يصح أن يريد تحريك جسم معين، وإذا قدرنا الآخر أيضاً منفرداً فإنه يصح منه أن يريد تسكين ذلك الجسم في ذلك الوقت، وإذا صح ذلك في حالة الانفراد وجب أن يصح حالة الاجتماع إذ ليست تؤثر ذات أحدهما في ذات الآخر، ولا صفة من صفاته أثرت في صفات الآخر، وإذا بقيا على ما كان عليه حالة الانفراد، لزم منه صحة الاختلاف بينهما، ولأنه لو امتنع على إحدى الإرادتين، أو عليهما جميع التعلق بما يصح تعلقهما به حالة الانفراد، لأجل وجود الإرادة الأخرى، لزم قيام كل واحدة من الإرادتين بالأخرى، لوجوب قيام العلة بمن له الحكم، ولزم أيضاً قيام المعنى بالمعنى، ولأنه يلزم تضاد الإرادتين على محلين، وقد بينا أن إرادة الله تعالى قديمة^(١)، فثبت صحة وقوع الاختلاف بين الإلهين^(٢).

فإذا قدرنا أن أحدهما أراد تحريك جسم، والآخر تسكين ذلك الجسم:—

فإما أن يحصل المرادان جميعاً، فيكون الجسم الواحد ساكناً متحركاً، وذلك محال، أو يحصل أحد المرادين دون الآخر، فيكون الذي حصل مراده هو الإله، والثاني يكون عاجزاً، وذلك محال؛ لأن العجز عن الشيء يقتضى صحة كون المعجوز عنه مقدوراً لمن عجز عنه، ألا ترى أن الأجسام لما لم يصح اقتدارنا عليها، لا جرم لسنا عاجزين عنها، وكذلك الجمع بين الضدين لما لم يصح أن يكون مقدوراً، لا جرم لم يكن البارئ تعالى عاجزاً عنه، فلو قُدِّرَ قديم عاجز عن شيء، وجب صحة اقتداره عليه، وإذا كان كذلك، فاختصاصه بالعجز دون القدرة يستدعى

(١) انظر ص: ١٢٢ وما بعدها.

(٢) انظر الأربعين: ص ٢١٤ وما بعدها، والمحصل: ص ١٩٣ — ١٩٤، والمعالم: ص ٧٩ —

مُخصّصاً، فأما القادر على الشيء فلا يلزم منه صحة اتصافه بالعجز، فلا يفتقر
اتصافه بالقادرية إلى مقتضى ومخصص^(١).

وأيضاً فالذات القابلة للشيء قابلة لصدّه إن كان ضد على التحقيق، ويلزم منه
صحة اتصاف كل واحد منهما بالقدرة والعجز على البذل، فتخصيص أحد الذاتين
بالقدرة، والآخر بالعجز يستدعى مُخصّصاً، وذلك على البارئ تعالى محال، ولأنه
ليس مراد أحدهما بالحصول بأوّلَى من مراد الثاني، فيلزم حصولهما جميعاً، أو
استحالة حصولهما جميعاً، وقد بينا أنه محال^(٢).

فإن قيل: الإرادة إنما تتعلق بإيقاع ما تعلق العلم بوقوعه، وإذا علم أحدهما
وقوع أحد المرادين، فلا بد وأن يكون الآخر عالماً بوقوع ذلك الشيء، وإذا كان علم
واحد منهما متعلقاً بوقوع شيء بعينه استحالة أن يريد أحدهما خلاف ما علم
وقوعه، فعلى هذا يستحيل اختلافهما في الإرادة^(٣).

قلنا: العلم تابع للمعلوم، فالعلم بوقوع الشيء تابع لوقوعه، ووقوع الشيء ليس
لذاته، وإنما هو لأجل تعلق القدرة والإرادة القديمتين بإيقاعه، فعلى هذا العلم بوقوع
الشيء موقوف على وقوعه الموقوف على تعلق الإرادة والقدرة المتعلقة به، فلو
كانت إرادة وقوع الشيء موقوفة على العلم بوقوعه، للزم افتقار كل واحد منهما إلى

(١) قارن الخمسين في أصول الدين للرازي: ص ٣٧٣، ونهاية العقول: ٧٩/٢ - ب،
والمطالب العالية ١/١٩٤، ويقول عنه الرازي في المرجع الأخير: { أقواها وأعلاها } أى
من الأدلة الدالة على وحدانية الله تعالى.

(٢) قارن أبحار الأفكار للأمدى: ٢/٢٨٠، والشامل لإمام الحرمين: ص ١٧٨، وأسرار التنزيل
للرازي: ص ٤٥.

(٣) قارن نهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٩٤.

الآخر، وذلك يفضى إلى الدور^(١).

واعلم أن هذه الدلالة مبنية على صحة وقوع الاختلاف بين الإلهين، فلو منع مانع من ذلك، فما جوابهم عنه؟^(٢) وقولهم: لو انفرد أحدهما صحت منه إرادة الحركة، ولو انفرد الآخر صحت منه إرادة السكون، وإذا صح ذلك حالة الانفرد لزم صحته حالة الاجتماع.

فنقول: أخبرونا عن أحد الإلهين لو انفرد هل كان قادراً على إيجاد الحركة؟ فلا بد من الاعتراف به، والإله الآخر أيضاً لو انفرد، هل كان قادراً على إيجاد السكون؟ فلا بد من الاعتراف به.

فنقول: هل يلزم من صحة ذلك حالة الانفرد صحته حالة الاجتماع؟ فإن قالوا: لا، قيل لهم: فإذا جاز أن يمتنع على القدرتين حالة الاجتماع مالا يمتنع

(١) قارن المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٢) أجاب متأخرو الأشاعرة عن ذلك أنه بفرض احتمال اتفاق الإلهين على شيء واحد، فهو باطل أيضاً؛ لأن الاحتمالات العقلية حينئذ أربعة:—

أ— أن يوجداه معاً على سبيل الاستقلال فى وقت واحد، وهو محال؛ لأنه يؤدى إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد.

ب — أن يوجداه معاً على سبيل الترتيب، بأن يوجداه أحدهما ثم يوجداه الآخر، وهو محال، لأنه تحصيل حاصل.

ج — أن يوجداه على سبيل المعاونة، وهو محال أيضاً، لأنه يلزم منه أيضاً عجز كل منهما، واحتياجه إلى الآخر.

د — أن يوجداه على سبيل التقسيم، بأن يوجد أحدهما بعضه، والآخر بعضه، وهو محال؛ لأنه يلزمه أيضاً عجز كل منهما.

انظر محاضرات فى التوحيد لأستاذنا الدكتور الصافى: ص ٥٤ وما بعدها، واقتناص العوالى لأستاذنا الدكتور: محمد ربيع جوهرى: ص ١٣٨ — ١٣٩.

عليهما حالة الانفراد، فلم لا يجوز أن يتمتع على الإرادتين حالة الاجتماع، ولا يتمتع عليهما حالة الانفراد، وإن قالوا: نعم، قيل لهم: فقد جوزتم حصول الضدين في المحل الواحد، وهذا مع استحالته يبطل دليلهم؛ لأنه إنما يلزم عجز أحدهما أن لو امتنع عليه حالة الاجتماع ما صح منه حالة الانفراد؛ ولو كان كل واحد منهما قادراً على تحصيل مراده حاله الاجتماع فلا يلزم العجز، ولأن المحل قابل للسواد وحده وللبياض وحده، ولا يلزم من صحة قبوله لهما على البذل صحة قبوله لهما على الجمع فكذلك هاهنا،^(١) وهذا سؤال واقع، ولعلنا نجيب عنه في موضع آخر.

فأما الدلالة المعتمدة على الوحدانية،^(٢) فإنها تستدعي تقديم مقدمة وهي:—

أن وجوب الوجود صفة إيجابية لا سلبية، وذلك أيضاً — يستدعي —^(٣) تقديم مقدمتين:—

أحدهما: أن وجوب الوجود لا بد وأن يكون داخلاً في حقيقة واجب الوجود؛ لأنه لو لم يكن داخلاً في حقيقته لكان عارضاً له بعد تكون حقيقته، والعارض للشيء ممكن في ذاته، وإلا لاستقل بذاته، ولصح وجوده دون ما هو عارض له،

(١) قارن المحصل: ص ١٣٩، ونهاية العقول: ١ — ١٧٩ — ب وما بعدها.

(٢) قدمنا أن الرازي قد استدل أكثر كتبه على صفة الوحدانية وإثباتها لله تعالى بدليل التمانع الآنف ذكره، ولكنه يضيف إلى ذلك الأدلة السمعية لإثبات تلك الصفة لمولانا تعالى وتقدس، مثل قوله تعالى ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٩١) ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الاسراء: ٤٢).

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الاحلاص: ١: ٤) وقد وضع الرازي أن صفة الوحدانية ليست مما يتوقف عليه صدق الرسول، ومن ثم فمن الممكن الاستدلال عليها بالسمع. انظر المعالم: ص ٧٩، والمطالب العالية: ١٢٧/٢.

(٣) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

وذلك محال، فإنّ وجوب الوجود لذاته يصير إمكان الوجود لذاته، هذا محال، فإنّ وجوب الوجود داخل في حقيقة واجب الوجود،

ومن المقدمات: أنه لا يجوز أن يكون لواجب الوجود أجزاء منها تلتئم حقيقته، لأنه يصير تكوّن واجب الوجود موقوفاً على اجتماع تلك الأجزاء، فيكون واجب الوجود بذاته ممكن الوجود بذاته، هذا محال.

وإذا تقررت هاتان المقدمتان فنقول^(١): وجوب الوجود إن كان وصفاً عديمياً، وقد ثبت أنه يجب أن يكون داخلاً في حقيقة واجب الوجود، فإما أن يكون واجب الوجود من جميع الجهات معدوماً، ويلزم أن يكون واجب الوجود بذاته واجب العدم بذاته، وهذا محال، أو يكون من جهة كونه واجباً معدوماً، ومن جهة أخرى موجوداً، فيلزم منه ثبوت كثرة في حقيقة واجب الوجود، وذلك محال، فقد اتضح أن وجوب الوجود صفة إيجابية فنقول:—

واجب الوجود القائم بالنفس يجب أن يكون واحداً، وإلا فليكن متكثرأ، فإما أن يشتركا في كل شيء، أو يختلفا في كل شيء، أو يشتركا من وجه، ويختلفا من

(١) هذا الدليل أورده الرازي في المعالم ويسمى بدليل الاشتراك والامتنياز وحاصله:—

أن لو افترضنا وجود إلهين يشتركان في كافة أمور الإلهية، فإما أن لا يزيد أحدهما على الآخر بأمر أخرى زائدة على الإلهية، فحينئذ لا يحصل التعدد، لأن الامتنياز لم يوجد، وإما أن يختلفا في بعض الأمور الزائدة، فعندئذ يحصل التركيب، لأن ما به الاشتراك غير ما به الامتنياز، وكل مركب فهو حادث، فالإلهان حادثان، ولما كان الإله تعالى وتقدس قديماً فقد بطل القول بتعدد الآلهة، وثبتت صفة الوحدانية لمولانا تعالى وتقدس.

انظر المعالم في أصول الدين: ص ٧٠ — ٧١.

والجدير بالذكر أن الرازي — رحمه الله تعالى — قد تأثر في ذلك بالكندى الفيلسوف. قارن رسائل الكندى الفلسفية: ٨٠/١.

وجه، فإن اختلفا من جميع الوجوه لزم أن لا يكونا مشتركين في وجوب الوجود، وذلك هو الذى أردناه، وإن اشتركا من جميع الوجوه فلا بد وأن يخالف أحدهما الآخر فى أنه ليس هو، وإلا كان أحدهما صنو الآخر، فيكونان شيئاً واحداً، وذلك ما أردناه، فنثبت أنه لا يمكن اشتراكهما من جميع الوجوه، إذ ما اشتركا فى الهوية، فلا بد وأن يقال بأنهما اشتركا فى شىء، وإختلفا فى شىء، فيكون واجب الوجود متكرراً، هذا محال، ولأن الاختلاف فى معنى غير وجوب الوجود، إذ المشترك فيه ليس بعينه هو الذى اختلفا فيه، فما به تباينا لا يخلو: إما أن يقتضيه وجوب الوجود، لأنه وجوب وجود، فيجب اشتراك الكل فيه، ويلزم أن يصير الكل واحداً، أو لأمر زائد على وجوب الوجود، فيكون لولا ذلك الزائد لما كان هذا واجب وجود، وذلك واجب وجود، فيكون وجوب الوجود معللاً بعلة وذلك محال، ولأن الكلام فى اقتضاء وجوب الوجود، ولذلك الزائد، كالكلام فى اقتضائه للصفة التى بها وقعت المخالفة بينهما، فإن كان ذلك لزائد آخر تسلسل إلى ما لا نهاية له، اللهم إلا أن يقولوا: بأن واجب الوجود لا يقتضى معنى خارجاً عنه، فيلزم أن يتميز وجود كل واحد منهما دون ذلك المعنى حينئذ يوجع الطلبة فى الرأس فى أنهما بماذا اختلفا؟ فهذه حجة قاطعة على أن واجب الوجود القائم بالنفس يجب أن يكون واحداً^(١).

ومن الأدلة: أنا إذا قدرنا إلهين، فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على مقدور الآخر، وإلا لزم عجز كل واحد منهما عن مقدور الآخر، وأراد إيقاع ذلك المقذور فى وقت معين، حصل ذلك الشىء، فليس أحدهما بأن يكون موجباً له بأولى من الآخر، ويلزم أن يكون كل واحد منهما موجباً، فيكون مخلوق واحد بين خالقين^(٢) وذلك محال، للاستغناء به عن كل واحد منهما بالآخر، وشبه أن يكون

(١) قارن المعالم: نفس الصفحة.

(٢) لا خلاف فى ذلك بين العقلاء. انظر أبحاث الأفكار للآمدى: ٢٥١/٢ وما بعدها.

المعنى بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) ما ذكرناه^(١).

أما الرد على الثبوتية فمن وجوه:—

أما أولاً: فقد ذكرنا الدلالة القطعية على حدوث جملة الأجسام،^(٢) سواء كان نوراً أو ظلمة، وبيننا افتقار جملة الحوادث إلى محدث يخالفها.

وأما ثانياً: فلأن النور والظلمة عندهم غير ممتزجين في الأزل، فلا بد وأن يكون للامتزاج الحادث سبب، وذلك السبب إن كان قديماً لزم قدم الإمتزاج، وإن كان حادثاً افتقر إلى سبب آخر لا إلى نهاية، ولأن القائل إذا قال: أنا ظلام، فهو إما أن يكون ظلاماً، فقد صدر من الظلام فعل حسن، وهو الصدق، وإما أن يكون نوراً، فقد صدر عنه فعل قبيح، وهو الكذب،^(٣) والعجيب من المجوس حيث أرادوا أن لا ينسبوا شيئاً من الشرور إلى البارئ تعالى، ثم جعلوا الشيطان الذى هو أصل الشرور من فعل الله تعالى، ولأن الفكرة الردية التى عرضت ليزدان إن كانت قديمة، لزم قدم الشيطان، وإن كانت حادثة لزم افتقارها إلى سبب آخر، ويفضى إلى التسلسل، وأن تلك الفكرة إن كانت حسنة، فكيف يولد منها الشيطان؟ وإن كانت قبيحة فكيف عرضت للبارئ تعالى؟ ولأنه ليس المصير إلى قدم البارئ تعالى، والحكم بحدوث الشيطان فى فكرة ردية عرضت له بأولى من القول بقدم الشيطان، وحدوث البارئ تعالى فى فكرة حسنة،^(٤) وكل ذلك لا جواب عنه.

(١) قارن المطالب العالية: ٩٤/٢، وشرح المقاصد: ٢٤/٣، والأربعين للرازي: ص ٢١٧.

(٢) انظر ص: ٣٦ وما بعدها.

(٣) قارن نهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٩٩، وشرح المواقف: ٤٩/٨ وما بعدها، وشرح

المقاصد ٢٨/٣ وما بعدها، والمطالب العالية للإمام الرازي: ٩٩ / ٢ — ١٠٠.

(٤) قارن ما سبق.

الفصل الثاني

فى أنه لیس لله تعالى صفة وراء ما ذكرنا

والذى يدل علیه:—^(١) وهو أن كل ما لا یعلم ضرورة كالمحسوسات، ومُخبر

(١) اختلف رأى الأشاعرة فى أنه هل للبارى تعالى صفة زائدة على ما أسلفناه من الصفات أم لا ؟ فذهب بعضهم — ومنهم الرازى هنا — إلى أنه لا يجوز اتصافه تعالى بصفة زائدة على ما أثبتناه، ودليل ذلك أن الدليل الذى دل عليها، لم يدل على غيرها، وما لم يدل الدليل علیه، فلا سبيل إلى القول بجوازه. واستدل البعض بدليل حاصله: لو جاز أن يكون له صفة أخرى، لم يخل إما أن تكون صفة كمال، أو نقصان، فإن كانت صفة كمال فعدمها فى الحال نقص، وإن كانت صفة نقص، فثبوتها له ممتنع. انظر أبكار الأفكار للآمدى: ١ / ٤٣٩ — ٤٤٠ والرازى فى بعض كتبه يقول بما قاله فى الإشارة، ويكثر الأدلة الدالة على ذلك. انظر الأربعين فى أصول الدين ٢١. وما بعدها ولكنه فى المحصل يوافق الغزالى — رحمه الله عليه تعالى —، ويرى أن ذلك جائز عقلاً، وإن لم نقض بثبوتها، لعدم الدليل علیه، وورود الشرع به، وهو الحق.

انظر الاقتصاد للغزالى: ص ٦٧، والمحصل للرازى: ص ١٨٧. والجدير بالذكر أن بعض الحشوية أثبت له تعالى نوراً، وجنباً، وساقاً، وقدماً، واستواءً على العرش، ونزولاً إلى السماء الدنيا، وصورة على صورة آدم، وكفاً، وإصبعين، وضحكاً، وكرماً، وزعم أن هذه صفات حقيقية زائدة على ذاته تعالى، متمسكاً فى ذلك بظواهر من الكتاب والسنة، ومن العجيب أن الشيخ ابن تيمية قد وافق على ذلك، واعتبره مذهب سلف الأمة !! ولعلنا فى موضع آخر نستقصى فى الرد علیه، والله المستعان.

الأخبار المتواترة، والأمور التي يجدها المرء من نفسه كالغم والفرح، والصحة والمرض، فإنه لا يعلم من جهة العلم بما هو محتاج إليه، كما أنا إذا علمناه قادراً، أو من العلم بما يحتاج إلى ما هو محتاج إليه، كما أنا نعلم صحة أن تكون الذات عالمة، وإذا علمنا أنه يصح أن يكون قادراً بواسطة علمنا بأن الذات حي، فلو كان لله تعالى صفة وراء ما ذكرناه، استحال أن تعلم من جهة العلم بما تحتاج إليه الصفات القديمة، إذ القديم يستحيل احتياجه إلى شيء أصلاً، وإذا استحال هذا استحال أن يعلم من العلم بما يحتاج إلى الشيء الذي تحتاج — إليه —^(١) الصفات القديمة، فلم يبق إلا أن يعلم من الشيء الذي يصدر عنها، ويوجد بها، وقد بان ذلك ما يؤثر فيه صفات البارئ تعالى وهو الحادث، فإذن الطريق إلى معرفة صفات البارئ تعالى هذه الحوادث، وهذه الحوادث لا تدل إلا على ما ذكرناه من الصفات، ألا ترى أنا إذا قدرنا ذاتاً متصفة بالصفات المذكورة من العلم والقدرة والإرادة، وقدرنا عُرُوءَهَا مما عداها من الصفات، فإننا نضطر إلى العلم بكونه متمكناً من الفعل، فعرفنا أن الفعل لا يحتاج إلى اتصاف فاعله بأكثر من هذه الصفات، فثبت أن لا طريق إلى صفة أزيد مما ذكرناه من جهة العقل^(٢).

وأما الدلالة السمعية : فإما أن تكون تواتراً أو آحاداً.

أما الآحاد فلا يفيد العلم^(٣) وأما التواتر، فإما أن يكون محتملاً للتأويل^(٤) أو لا يكون كذلك، فأما المحتمل للتأويل فلا ينتهز حجة في القطعيات، وأما النص

(١) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٢) قارن الأربعين في أصول الدين: ص ٢١. وما بعدها، والمحصل: ص ١٨٧.

(٣) يقصد أنه لا يفيد العلم القطعي في الأمور الاعتقادية، وهذا هو رأي جمهور المتكلمين،

عكس الفقهاء. انظر المحصل: ص ٥١، وأساس التقديس: ص ١٨٩ وما بعدها.

(٤) التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره لقريظة تدل على المعنى المراد.

المتواتر الذى لا يحتمل التأويل لو كان موجوداً لكان العلم به وبالمراد منه ضرورياً، وإلا فلا أقل من عثور العلماء واطلاعهم عليه بعد البحث التام؛ ولما لم نراهم لم ينقلوا ذلك فيما أوردوه فى كتبهم علمنا أنه غير موجود، وهذا واضح^(١).

فإن قيل: بم تتكرون على شيخكم أبى الحسن والقاضى، حيث أثبتا الـيدين صفتين زائدتين على الذات، وماعدا هما من الصفات ؟ واحتجا بأن قالوا^(٢) :—

صرحت الآية بإثبات الـيدين متعلقتين بخلق آدم عليه السلام تشريفاً له وتمييزاً عن سائر المخلوقات فى قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥).

وقد وضح أنه لا يجوز حمله على الجارحتين،^(٣) ولا يجوز أيضاً حمله على النعمة،^(٤) لأن الـيدين تتبئان عن شىء، ونعمة الله تعالى لا تنحصر على آدم، ولأن الآية تقتضى إيجاد آدم بيديه، ولا يصح إيجاد الشىء بالنعمة، ولا يصح أيضاً حملها على القدرة؛^(٥) لأنه حينئذ تبطل فائدة التخصيص، فإن آدم وكافة المخلوقات فى حكم تعلق القدرة سواء، ولأن الله تعالى ذكر الـيدين على صيغة التثنية، وقدرته واحدة،

(١) قارن أساس التقديس: ص ١٩٠.

(٢) هذا هو أحد قولى الشيخ الأشعرى وقد ذكره فى الإبانة، وأيضاً ارتضى هذا القول القاضى الباقلاتى فى بعض كتبه. انظر الإبانة: ص ٣٥، وشرح المقاصد: ٧٩ / ٢، وقارن المحصل: ص ٧٨.

(٣) هذا هو رأى المشبهة كغلاة الشيعة، وحشوية المحدثين. انظر الملل والنحل: ١٠٣ / ١ — ١٠٨.

(٤) هذا هو رأى بعض المعتزلة. انظر أبحار الأفكار: ٤٥٣ / ١.

(٥) هذا هو رأى جمهور الأشاعرة، ويرى جمهور المعتزلة أن المراد بالـيدين: كونه تعالى قادراً بناءً على قولهم بالحال.

فلم يبق إلا حمله على صفتين زائدتين على القدرة^(١).

قلنا: ألا صحّ حمل اليدين على القدرة، وقولهم: إن فيه إبطال التخصيص، فنقول: التشریف يتحقق بتخصيص الله تعالى آدم بالذكر، كما شرف عباده المخلصين بإضافتهم إلى نفسه، وإن كانت الكفرة أيضا عباد الله تعالى، وهذا سبيل تخصيص البيت والناقاة وغيرهما من المشرفات بالإضافات^(٢) ليحققه أن يقال: ذكر قريبا من هذه الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتَ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس: ٧١) والمراد به القدرة إجماعاً.

والتمسك بصيغة التنثية باطل، لأنه كما يعبر باليد عن الاقتدار يعبر باليدين عن كمال الاقتدار، بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة: ٦٤) والمراد به القدرة إجماعاً فبطل ما ذكروه، فثبت أنه لا دليل على صفة وراء ما ذكرناه، وما لا دليل عليه وجب نفيه؛^(٣) لأنه لا ينفصل وجوده عن عدمه، ولا يكون عدد أولى من عدد، وذلك يؤدي إلى اثبات ما لا نهاية له من الصفات المجهولة، ولأننا مكلفون بمعرفة وحدانية الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩) والعلم بكون الشيء واحداً فرع عن العلم بحقيقته، فإذا ما لم نعلم الشيء لم نعلم أنه واحد، وإنما نعلم الإله إذا علمنا جميع ما له من الصفات، إذ الإله هو الذات الموصوفة بجميع

(١) قارن أساس التقديس للإمام الرازي: ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) انظر شرح المواقف: ١٢٥/٨، وشرح المقاصد: ٣ / ١٢٨ - ١٢٩.

(٣) هذا هو رأى الرازي هنا، ولكنه خالف ذلك في المحصل وقال: { والإتصاف أنه لا دلالة على ثبوت هذه الصفات، ولا على نفيها، فيجب التوقف }. انظر المحصل: ص ١٨٧، والمعالم: ص ٥٨.

ثم عاد في أساس التقديس فذهب إلى تأويل اليدين بالقدرة موافقاً في ذلك جمهور الأشاعرة، قارن أساس التقديس: ص ١٤٠ وما بعدها.

الصفات القائمة به، وإذا كان كذلك فلا بد وأن يكون عليها دليل، وإلا لكانا مكلفين بمعرفة ما لا نعلم إلا بالدليل مع عدم الدليل، وذلك باطل بالإجماع، والدليل لم يدل إلا على هذه الصفات، فيلزم أن لا تكون للبارى تعالى صفة وراء ما علمناه^(١).

فإن قيل: بم تتكرون على الفلاسفة حيث اعتقدوا استحالة العلم بحقيقته الإله؟ وتعلقوا في ذلك بشبهتين:—

الأولى: أن قالوا: لو علمنا حقيقة الإله تعالى، لعلمنا جميع الأفعال الصادرة عنه على التفصيل، لأن من علم العلة كما هي علم أنها حقيقة يصدر عنها المعلول الفلاني، فيتعدى العلم بالذات إلى العلم باللوازم، ويلزم من ذلك أن لا تخفى علينا خافية في السماوات والأرضين، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أننا لسنا نعلم حقيقته^(٢).

الثانية: أن قالوا: لا سبيل للإنسان إلى العلم بشيء إلا إذا كان ذلك الشيء حاصلًا له، ألا ترى أن العين لما لم تكن له القوة المدركة للذة الجماع، لا يمكنه أن يتصور الجماع، ومعلوم أنه يستحيل حصول الإلهية بغير الإله، فيستحيل أن يعلم الإله غير الإله^(٣).

قلنا: قد بينا من حيث السمع أنه لا بد وأن يكون لنا طريق إلى معرفة ذاته سبحانه وتعالى، والذي يدل عليه من حيث العقل: أننا نعلم ضرورة انتهاء الممكنات

(١) قارن أسرار التنزيل للرازي: ص ٤٥ — أ، نهاية العقول: ١٤/١ — ب، والجدير بالذكر أن الرازي قد استدل بهذه القاعدة على وحدانية الله تعالى، ثم عاد فعاب استدلال المتكلمين على الوحدانية بتلك القاعدة.

(٢) قارن أبحار الأفكار للآمدي: ٤٣٩/١، والمحصل: ص ١٨٧ — ١٨٨.

(٣) قارن المحصل: ص ١٨٨، والأربعين في أصول الدين: ص ٢١١ وما بعدها، والمطالب العالية: ٢٨٨/١.

إلى موجود غير محتاج إلى غيره، وقد بينا أن وجوده عين حقيقته،^(١) ولا يجوز أن يكون مغايراً له، فإذا علمنا وجوده ووجوبه، فقد علمنا حقيقته، وإلا لزم أن تكون حقيقته غير وجوده الواجب، وذلك محال.

وقولهم: العالم بحقيقة العلة لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة المعلول، فهذا مسلم، ولكننا قد بينا أن البارئ تعالى ليس علة موجبة بل هو فاعل مختار،^(٢) فلا يلزم من العلم بذاته العلم بأفعاله، كما أنه لا يلزم من العلم بكنه ربه وحقيقته العلم بما سيصدر عنه من الأفعال.

وقولهم: لا سبيل للإنسان إلى العلم بما ليس حاصلًا له، فذلك غير المطلوب، ونحن ننازعهم في ذلك وليس في أيديهم إلا ضرب أمثلة يستزلون بها أقدام العوام، والمحقق ينبغي أن يقطع بأن كل ذلك أمور أجرى الله تعالى بها العادة،^(٣) حتى أنه يجوز عقلاً أن يعلم العنين لذة الجماع، والأكمه حقائق الألوان، فثبت بهذه الجملة أنه ليس لله تعالى صفة أزيد عما ذكرناه، ويخرج من مضمونه أنه لا لون لله تعالى، ولا شهوة، ولا هزة، ولا لذة، ولا ألم،^(٤) وثبت أننا عالمون بما له من صفات الكمال

(١) انظر ص : ٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر ص ١١٤ وما بعدها.

(٣) هذا هو رأى الأشاعرة حيث أنكروا التلازم العقلي بين العلة والمعلول، فالملازمة بينهما عادية من الممكن أن تتخلف، بينما ذهب الحكماء إلى أن التلازم بين العلة والمعلول عقلي لا يمكن أن يتخلف.

(٤) ذهب جمهور الأشاعرة إلى عدم اتصاف البارئ تعالى بإدراكات تنبئ عن ضروب من الاتصالات — على حد تعبير إمام الحرمين — فالبارئ تعالى لا لون له، ولا شهوة، ولا يتصف بكونه شاماً ذائقاً لأمسا، كما لا يتصف باللذة والألم.

وأثبت الفلاسفة اللذة العقلية له تعالى، وزعموا أنها إدراك الملام، وهو باطل.

انظر الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٧٦ — ٧٧، وص ١٨٥ وما بعدها، وشرح المواقف:

فوجب أن نكون عالمين به على الكمال، وأن لا نعلم الباري من صفاته إلا ما علمناه، والا لكنا عالمين بصفة لا طريق لنا إلى معرفتها، وذلك مما أبطلناه.

فهذا هو التحقيق البالغ الذي لا يلتفت من أحاط به علماً إلى تهويلات الصوفية، وترهات الوعاظ من الفلاسفة.

فإن قيل: فما خاصية الإله ؟.

قلنا: خاصيته اقتداره على الاختراع،^(١) والذي يدل عليه أنه لما سأل فرعون موسى عليه السلام عن ماهية الإله فقال: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٣) فما أجب عن سؤاله إلا بنكر لخلق والإيجاد قل: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٤) ولولا أن ذلك خاصية الإله، وإلا لما كان الجواب مطابقاً للسؤال، وذلك غير جائز على الأنبياء.

٤٣/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٣٧/٣ وما بعدها.

(١) هذا هو رأى الأشاعرة حيث ذهبوا إلى أن أخص وصف للإله تعالى وتقدس هو: القدرة على الاختراع، وذهب المعتزلة إلى أن أخص وصف للإله هو: القدم. انظر الملل والنحل: ص ٤٨، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٢٨٦ وما بعدها.

الفن الثالث

فى أفعال الله تعالى وأسمائه

وفيه أبوابٌ وفصول

الباب الأول

فى أنه لا يجب على الله تعالى شىء

وأن جميع أفعاله حسنة

اعلم أنا قد بينا فيما مضى أن جميع الكائنات واقعة بقدرة الله تعالى ابتداءً،^(١) وأبطلنا مذهب الفلاسفة، والقدرية^(٢) فى إسناد بعض الحوادث إلى غير قدرة الله تعالى،^(٣) فهو تعالى خالق كل شىء، وقد بينا أن كل ما يفعله البارى تعالى فهو منه حسن؛ لأنه ليس يحده حد ولا رسم، وفى هذا غنية عن عقد هذا الباب،^(٤) إلا أنا

(١) انظر ص: ١٠١ وما بعدها.

(٢) القدرية هو لقب يطلق على المعتزلة لقولهم بالقدر خيره وشره من العبد، ونفوا ذلك عن الله تعالى، وقد انقسمت المعتزلة القدرية إلى حوالى عشرين فرقة، وقد ذكر أصحاب كتب الفرق والمقالات أقوالهم بالتفصيل، هذا وقد وردت بعض الأحاديث فى ذم القدرية ولعنهم. انظر الملل والنحل: ص ٤٣ وما بعدها، والفرق بين الفرق: ص ١١٤ وما بعدها وغير ذلك.

(٣) انظر ص: ١٠٢ وما بعدها.

(٤) لأنه إذا بطل كون ثبوت الحسن والقيح فى الأفعال بالعقل، وثبوت ذلك بالشرع، بطل القول بكل ما رتبته المعتزلة على ذلك المبدأ من الأصول. قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٧١ وما بعدها.

أحبينا أن نذكر خلاف تفاصيل المعتزلة ومناقضاتهم في التكليف،^(١) واللفظ،
والصلاح والأصلح، والآلام وأحكامها، ليستفيد الناظر في كتابنا فساد مذاهبهم،
ويعرف عظم المنة من الله تعالى على هذه الطائفة، حيث عصمهم عن المناقضات،
والخطب في المعتقدات.

فمما اختلفوا فيه: أن الله تعالى هل يقدر على فعل الجهل، وإيلام البريء عن
الجرائم، أم لا ؟ فذهب النظام إلى أنه^(٢) غير قادر عليه لأنه لو كان قادراً عليه
لصح أن يفعله ، ولو فعله لكان إما جاهلاً أو محتاجاً، لأن العالم بقبح القبيح، العالم
باستغنائه عنه لا يفعله، كما في الشاهد، فإن من تساوى عنده الصدق والكذب من
جميع الوجوه، فمع العلم بقبح الكذب، وصدق الحسن^(٣) — وحسن الصدق — لا
يكذب، والجهل والحاجة على الله تعالى محال، فيلزم أن لا يكون قادراً على الجهل.
وذهب الأكثرون منهم إلى أن الله تعالى قادر على الجهل والكذب^(٤)، قالوا: —

لأن من قدر على جملة من الأفعال قدر على بعضها، إذ لو لم يكن لذلك

(١) يرى المعتزلة البغداديون القول بوجوب ابتداء خلق الخلق، وتهينة أسباب التكليف من
إكمال العقل، واستعداد الآت التكليف، وذهب البصريون إلى القول بعدم وجوب ذلك، بل
ابتدأه تفضل من الله تعالى.

انظر أبحار الأفكار للآمدى: ١٥٢/٢

(٢) هذا هو رأى النظام والجاحظ وغيرهما من قدماء المعتزلة. قارن أبحار الأفكار: ١٦٨/٢.

(٣) هكذا في الأصل والصحيح ما أثبتناه.

(٤) هذا هو رأى العلّاف، والجبائي، وكثير من المعتزلة وحاصل رأيهم: —

أن القبيح مقدور لله تعالى، غير أنه لما كان عالماً بقبحه، وعالماً باستغنائه عنه استحال
صدوره عنه، لعدم الداعى إليه، ولو صدر عنه لدلّ على جهله بقبحه، أو على كونه محتاجاً
إليه، وذلك على الله تعالى محال. انظر شرح الأصول الخمسة: ص ٤٩٢، وقارن أبحار
الأفكار: ١٦٨/٢.

البعض حاجة إلى غيرها، والبارى تعالى قادر على أن يخلق القوم بأن العالم ليس قديماً، فوجب أن يكون قادراً على أن يخلق القول بأن العالم قديم، لأن هذه الكلمة محتاجة إلى لفظ "ليس"، ولهذا يمكننا أن نقولها بدون لفظ "ليس"، وهكذا إذا كان قادراً على أن يؤلم الإنسان المُصر على الكفر وجب أن يكون قادراً على تعذيبه وإن تاب، لأن صحة تعذيبه لا تتوقف على أن يكون كافراً، ولهذا صحّ منه تعذيبه وإن لم يكن كافراً.

وإذا ثبت أنه لا يجوز أن يكون قادراً على القبيح، لزم منه صحة أن يفعل جميع الأفعال، وأن لا يقبح شيء منه، وذلك يبطل معظم أصولهم.

ومما عظم اضطراب المعتزلة وسائر المخالفين فيه الآلام:—

فذهب الثوية إلى أنها تقبح لكونها ألماً فقط،^(١) وهذا باطل؛ لأن العقلاء يستحسنون تحمل المشاق وركوب البحار لتحصيل العلوم، ويستحسنون شرب الأتوية المرة الكريهة لحصول صحة البدن، فبطل ما قالوه^(٢).

وذهبت التناسخية^(٣) إلى أنها إنما تحسن لجناية سبقت من المتألم، فهذه البهائم والأطفال إنما تألم لأن أرواحها كانت في أبدان مُنعمَة فعصت الله تعالى، فعذبها بردها إلى هذه الهياكل،^(٤) وهذا أيضاً باطل؛ لأنهم في أول وجودهم، وابتداء حياتهم إن كانوا مكلفين بفعل شيء، والكف عن شيء، فيكون هذا إضراراً بهم، لا لجناية

(١) حاصل رأيهم أن الآلام قبيحة لذاتها، ولكنها تصدر عن الظلمة دون النور. انظر الإرشاد:

ص ٢٧٤، والمثل والنحل للشهرستاني: ٣٨/٢ وما بعدها.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٧٨.

(٣) نسب إمام الحرمين هذا الرأي إلى طوائف من غلاة الروافض، حيث قالوا بالتناسخ.

(٤) انظر الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٧٤.

سبقت منهم، وهذا هو قولنا، وإن لم يكونوا مكلفين، فكيف يمكن صدور العصيان منهم؟^(١).

فإن قالوا: إنهم قد خيروا بين أن يكلفوا فيصير حالهم أعلى مما كان أو بين أن يتركوا على تلك الدرجة الدنية، فاختاروا التكليف، ثم لم يأتوا بها، فاستحقوا العقاب.

قلنا: إنهم لا يختارون التكليف إلا إذا علموا أن حالهم قبل تحمل التكليف أنقص من حالهم بعد تحمله، فقد فعل بهم ابتداءً النقص والبلية، وذلك يبطل مذهبهم^(٢).

فإن قالوا: إن بعضهم يعتمد على البعض فاستحقوا العقاب.

قلنا: فإذا كان فيه شهوة البغي، وقد منع منه، فيكون ابتداءً بالتكليف، وذلك ينقض مذهبهم، ولأنه لو كانت هذه الآلام على جنايات سبقت منهم، فإما أن تكون التوبة عنها توجب قبول العذر، أو لا توجب، فإن لم توجب كان ذلك باطلاً، لأن حال التائب كحال الطائع^(٣)، والمرجع فيه إلى الشاهد، فلو جاز إيلاط التائب جاز إيلاط الطائع، وذلك ينقض ما قالوه، ولأنه إذا علم الفاسق أنه لا تقبل منه التوبة، فإنه يقطع الطمع عن الثواب، ويشغل بالمعاصي في باقى العمر، فيكون ذلك إغراء على القبيح^(٤)، وإن كانت التوبة توجب رفع الذنوب، فكان يجب أن نُقدَّرَ على توبة

(١) قارن المرجع السابق: ص ٢٧٤.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٣) قارن أبقار الأفكار للآمدى — رحمه الله تعالى — ١٧١/٢.

(٤) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٨٣، والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى: ص ٨٩ وما

بعدها ونهاية الإقدام للشهرستانى ص ٤١٠ — ٤١١.

لو أتينا بها لتخلصنا من الآلام، وجميع المضار، ولا شك في فساد هذا القول.

وذهبت البكرية^(١) إلى أن البهائم والأطفال لا يتألمون، وهذا إنكار للمحسوس،^(٢) وذهبت المعتزلة إلى أنها إنما تحسن للعوض،^(٣) وهو منافع على حد تبلغ في العظم ما يصغر في جنبها هذا الألم، بحيث إن هذا المتألم لو علم تلك المنافع، ولم يختر وصول الألم إليه بسبب استحقاقه لعد فيما بين العقلاء سفيهاً، والجبائي اكتفى في حسن الألم بالعوض،^(٤) وأوجب أبو هاشم أن يكون لطفاً لنفس المتألم إن كان مكلفاً، أو لغيره إن لم يكن مكلفاً،^(٥) ولهم فيه خبط عظيم لا يحتمل هذا المعتقد شرحه، والذي يدل على فساد ما قالوه —

وهو أن الأب إذا أكره ابنه الذي أشرف على الموت على شرب دواء كربه، علم أنه لو شربه لبرئ من المرض، فإنه يقبح من الغير أن يخلص الابن من الأب

(١) هم أتباع بكر بن زياد الباهلي، والمعروف بأنه: بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد، كان يوافق المعتزلة في أمور، ويوافق أهل السنة في أمور أخرى، ومن خرافاته قوله: إن الأطفال في المهد لا يألمون وإن قطعوا أو حرقوا. انظر: مقالات الإسلاميين للأشعرى : ١/ ٣٤٢، والفرق بين الفرق: ص ٢١٢ — ٢١٣.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٧٩.

(٣) حاصل رأى المعتزلة أن الإيلام يحصل من الله تعالى في حق الخلق، بأن يكونوا مستحقين على جريمة سابقة، أو لجلب نفع، أو دفع ضرر، أو بأن يعوض عنه في الدار الآخرة، ويرون إحباطه بالكفر والفسق، كإحباط الثواب، وهو رأى العلاف أيضاً. انظر شرح الأصول الخمسة: ص ٤٩٤.

(٤) لتحقيق رأى أبي على الجبائي. انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص ٤٩٢، وانظر كذلك: أبحار الأفكار للآمدى: ١٦٨/٢، وشرح المقاصد: ٢٤٢/٣.

(٥) قارن الإرشاد: ص ٢٧٩.

حتى لا يشرب، ويحسن من الأب هذا الإيجاب،^(١) فلو كان الإنسان يستحق على الآلام منافع عظيمة، لكان يقبح من غيره أن يخلصه منها، حتى يكون إنقاذ الغريق والحريق قبيحاً، ولحسن منا أيضاً الآلام إلى الغير ليستحق ذلك الغير تلك المنافع العظيمة، وأن يستحق المدح من جهة ذلك المتألم، لأننا نستحق المدح من جهته، وذلك يفضي إلى أن يكون قتل الأنبياء وسبى ذراريهم حسناً، وأن يكون الإنقاذ من الحرق والغرق قبيحاً، وهذا كفر — فبطل ما قالوه —^(٢).

ومما اختلفوا فيه رعاية الأصلح في الدنيا^(٣): وهو ما إذا علم الله تعالى أنه لو خلق إنساناً، فإنه يؤمن ذلك الإنسان، ولم يكن تكليفه لأجر، أو علم أنه لو أغنى زيداً أو رزقه المال العظيم لا يكون له فيه مفسدة، فذهب البغداديون^(٤) إلى وجوبه،

(١) قارن أبحار الأفكار: ١٥٥/٢، و ١٧٢ — ١٧٣، وشرح المقاصد: ٢٤٠/٣ — ٢٤٣.

(٢) بياض في الأصل، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) من رأى المعتزلة البغداديين أنه يجب على الله تعالى فعل الأصلح لعباده في دينهم ودنياهم ولا يجوز في حكمته تبقية وجه ممكن في الصلاح العاجل والآجل، بل عليه فعل أقصى ما يقدر عليه في استصلاح عباده.

ورتبوا على ذلك: القول بحتم ابتداء الخلق على الله عز وجل، وإذا خلق الذين علم أنه يكلفهم، فيجب عليه إكمال عقولهم وإقذارهم وإزاحة غلظهم، وكل ما ينال العبد في الحال والمآل، فهو عندهم الأصلح له، ومن عجيب قولهم: أن خلود أهل النار في الأغلال والأتكال أصلح لهم من الخروج من النار، وكذلك الأصلح للفسقة في دار الدنيا أن يلعنهم الله، ويحبط أعمالهم، ويحبط ثواب قرباتهم إذا اخترموا قبل التوبة.

انظر الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٢٨٧.

(٤) يقصد بشر بن المعتمر وأصحابه، معتزلة بغداد.

ومن رأى المعتزلة البصريين أن الله تعالى متفضل بالخلق ابتداءً ولا يتحتم عليه إثبات أسباب التكليف، فإذا كلف عبداً، فيجب تمكينه وإقذاره، واللفظ به بأقصى الصلاح، وذهبوا إلى أنه ليس في مقدور الله تعالى لطف لو فعله بالكفرة لآمنوا. انظر الإرشاد: ص ٢٨٨،

والبصريون ما أوجبوه لكنهم أوجبوا الثواب على الله تعالى، وفعل الإلطاف،^(١) والذي يبطل هذه المقالة: أنه لو وجب الثواب والأعواض لما أستحق الشكر، ولما أستحق الشكر علمنا أنه لم يجب عليه شيء أصلاً.

والذي يخبر به أهل بغداد^(٢): أنه لو وجب على الله تعالى إيجاد من المعلوم من حاله أنه يؤمن، لوجب أن يوجد قبل ذلك، وأن يفعل بأهل الجنة لذات لا نهاية لها واحدة، لأنه قادر عليه، وليس فيه مفسدة، وهم ينتفعون به، وذلك محال^(٣).

فثبت أنه لا يجب عليه سبحانه وتعالى شيء، بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿إِنْ تَعِدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨).

وص ٣٠٠.

وللرد على المعتزلة في مسألة الصلاح والأصلح أن نقول: أما الأصلح في الدنيا فغير واجب عليه تعالى؛ لأن الأصلح للكافر الفقير أن لا يخلق حتى لا يكون معذباً في الدارين، والأصلح أن يخلق عباده في الجنة، وأن يغنيهم بالمشتريات الحسنة عن القبيحة. انظر المحصل: ص ٢٠٤.

وأيضاً قولهم بوجوب الثواب على الله تعالى فهو باطل؛ لأن الله تعالى من النعم في العبد ما يحسن معه التكليف بهذا القدر من الطاعات، فوجب أن لا توجب الطاعات الثواب، كما في الشاهد. وأما بطلان قولهم باللطف: فلأن اللطف هو الذي يفيد ترجيح الداعية بحيث لا ينتهي إلى حد الإلجاء، فالداعية الواصلة إلى ذلك الحد شيء ممكن الوجود في نفسه، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون الله تعالى قادراً على إيجاد تلك الداعية المنتهية إلى ذلك الحد من غير تلك الوسطة. انظر المحصل للإمام الرازي: ص ٢٠٤.

(١) قارن ما سبق.

(٢) يقصد المعتزلة البغدادية.

(٣) قارن الإرشاد: ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

الباب الثانى

فى أسمائه تعالى وتقدس

وفيه فصول

الفصل الأول

فى حقيقة الاسم والمسمى^(١)

ذهبت المعتزلة إلى أن الاسم يغير المسمى، وهو عين التسمية^(٢).

وذهب جماعة من الأصحاب إلى أن الاسم عين المسمى^(٣).

وقال شيخنا^(٤): الاسم قد يكون عين المسمى كقولنا: الله، وقد يكون غيره كقولنا: الخالق والرازق، وقد يكون لا هو ولا غيره^(٥) كقولنا عن الله إنه عالم وقادر،^(٦) ذكر الأستاذ أبو منصور^(٧) عن بعض الأصحاب أن الاسم مشترك، فقد

(١) هذا البحث بحق قليل الفائدة، ولقد وصفه الغزالي رحمه الله تعالى بأنه: { الطويل الذيل القليل النيل } وقال عنه الرازى: إنه فضول. انظر المقصد الأسنى للغزالي: ص ١٠.
(٢) من رأى المعتزلة أن الاسم هو التسمية واستدلوا على ذلك بدليل حاصله: أن الله تعالى تسعة وتسعين اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى، لكان ذلك حكماً بتعدد الآلهة. انظر: التبصير للأسفرايينى: ص ١٩٣، والإرشاد للجوينى: ص ١٤١، ونهاية العقول للرازى: ٧٦/٢.

(٣) هذا هو رأى الأستاذ أبى بكر بن فورك وغيره. انظر أبحاث الأفكار للآمدى: ٤٩٥/٢.

(٤) يقصد الشيخ الأشعرى - رحمه الله تعالى -.

(٥) معنى عبارة الشيخ الأشعرى أن الصفات لا هى هو ولا غيره، أى ليست هى نفس الذات، ولكنها بمفهومها تدل على الذات. انظر شرح المقاصد: ٢٥٢/٣.

(٦) انظر الإتصاف للباقلانى: ص ٦٠ - ٦١، وأصول الدين للبغدادى: ص ١١٤ - ١١٥.

(٧) هو الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمى البغدادى، عالم متفنن من أئمة الأصول، كان صدر الإسلام فى عصره. ولد ببغداد، ورحل إلى خراسان فاستقر فى

يراد به التسمية، وقد يراد به المسمى^(١).

واحتج من قال بأن الاسم هو المسمى بأشياء منها:—

قوله تعالى: ﴿سَجَّ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) ومعلوم أن المسيح والمقدس هو الله تعالى، لا قول القائلين، وكذلك قوله تعالى: ﴿نَبِّرْكَ أَتَمَّ رَبِّكَ﴾ (الرحمن: ٧٨) ولا وجه لصرف ذلك إلى العبارات، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ (يوسف: ٤٠) والمراد به نفس الأصنام، فإنهم عبدوا الأصنام، ولم يعبدوا أقوالهم^(٢).

ومنها: اتفاق العقلاء على أن المسميات لها الأسماء، وإن سكوت المسمون عن تسميتها، حتى لو قيل: إنما يثبت لزيد اسمه إذا نطق به ناطق، وإذا سكوت الناطقون، فلا اسم له، فهذا يستتكر منه، وذلك يدل على أن الأسماء تغاير هذه العبارات^(٣).

ومنها: اتفاق المسلمين على أنه كان لله تعالى في الأزل الأسماء الحسنی، مع أنه لم تكن في الأزل هذه العبارات، فعلم أن الاسم هو المسمى^(٤).

نيسابور، وفارقها على أثر فتنة التركمان، ومات في أسفراين سنة ٤٢٩ هـ — رحمه الله تعالى — من مصنفاته: أصول الدين، فضائح القدريّة، الفرق بين الفرق، وغير ذلك. انظر الأعلام للزركلي: ٤٨/٤.

(١) انظر أصول الدين للبغدادی: ص ١٣٧ وما بعدها. ويقصد ببعض الأصحاب: الأستاذ أبو نصر بن أبي أيوب من قدماء الأشاعرة. انظر أبحار الأفكار للآمدی: ٤٩٦/٢، وشرح المواقف: ٢٣٠/٨.

(٢) انظر أصول الدين للبغدادی: ص ١٣٨، والمقصد الأسنى للغزالي: ص ٨ — ٢٦.

(٣) قارن أبحار الأفكار للآمدی: ٤٩٧/٢.

(٤) قارن شرح المقاصد: ٢٥٣/٣ وما بعدها، وشرح المواقف: ٢٢٩/٨ وما بعدها.

ونحن نقول^(١) من قال بأن الاسم هو المسمى فإما أن يريد به أن الصيغ والعبارات القائمة بلسان المتكلم هو عين الشخص الذي هو المسمى، أو يريد به أن الاسم مدلول هذه العبارات.

أما الأول: فشيء لا يقول به عاقل فضلاً عن شيخ المتكلمين أبي الحسن الأشعري رحمته الله، وكيف واللفظ قد يكون عربياً، وأعجمياً، وتركياً، والمسمى قد لا يكون كذلك.

وإن عني به المعنى الثاني فهو أيضاً فيه نظر؛ لأن الأسماء قد توصف بما لا يصح وصف المسميات بها، فيقال هذا الاسم عربى وأعجمى وتركى، والمسمى غير موصوف بذلك، والمسمى إذا سئل عنه يقال: من هو؟ والاسم يسأل عنه بما هو؟ والإنسان يوصف بالملاحة والصباحة، ولا يوصف الاسم بذلك، وقد يسمى المليح باسم قبيح، فيقال: مسمى حسن باسم قبيح، والأسماء قد تتغير، والمسميات لا تتغير، فبطل ما قالوه^(٢).

والحق ما اختاره الشيخ أبو حامد الغزالي — رحمه الله تعالى — فقال: —

(١) ذهب الرازى — رحمه الله تعالى — فى نهاية العقول إلى أن الاختلاف فى الاسم والمسمى ما هو إلا من فضول القول؛ لأن الاسم قد يكون نفس المسمى، وقد يكون غيره، ودليل ذلك أما أولاً: —

فلأننا نعلم بالضرورة أن لفظة الجدار مغايرة لحقيقة الجدار، وأما ثانياً: فلأن لفظة الاسم اسم للفظ الدال على المعنى المجرد عن الزمان، فيكون الاسم اسماً لنفسه من حيث هو اسم، فإذن الاسم هو المسمى، فهذا ما عندى فى هذه المسألة. انظر نهاية العقول: ٧٦/٢ — ب. وواضح تردد الرازى بين الرأيين فى أن الاسم قد يكون نفس المسمى، وقد يكون غيره.

(٢) انظر لوامع البينات للرازى: ص ٥ — ١٠، والإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٤٢.

(٣) هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي — رحمته الله — تقدمت ترجمته، انظر ص ٩١.

الاسم أصوات مقطعة دالة بالتواطئ على معنى من غير أن تدل على زمان ذلك المعنى، كما أن الحركة كيفية توجد في الجسم، والتسمية عبارة عن إثبات علاقة بين تلك الأصوات المقطعة، وبين ذلك المسمى، كما أن التحريك عبارة عن إثبات الحركة في الجسم، والمسمى هو الذات التي أثبتنا لها تلك الأصوات كما أن المتحرك هو الذات التي أثبتنا لها الحركة، فهذه اعتبارات معقولة متباعدة بعضها عن بعض^(١).

ولما قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) فمثل هذا إنما يذكر لتعظيم شأن المسيح، وتفخيم أمره، كما يقال: السلام على الحضرة العالية والجناب الرفيع، وذلك معلوم من عادة العرب، وهذا هو الجواب عن سائر الآيات^(٢).

وقولهم: بأن الإنسان له اسم وإن سكت المسمون عن تسميته، فالجواب عنه: أن له اسماً بمعنى أنه إذا سُمي، فلا يسمى إلا بلفظه بعينه، فإذا كان لفظه قد تعين لتسميته به يقال: إن له اسماً على معنى أن من أراد الإشارة إلى ذلك الشخص، فلا يشير إليه بتلك اللفظة، فكان ذلك اللفظ موجوداً بالنسبة إليه دائماً^(٣).

(١) حاصل رأى الإمام الغزالي — رحمه الله تعالى — أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة، فالاسم هو الموضوع للدلالة، وأن الموضوع للدلالة لا بد له من واضع ووضع وموضوع، فالواضع هو المسمى، والوضع هو التسمية، والموضوع هو المسمى الذي وضع له ذلك الاسم، فإذا ولد لرجل ولد فسماه زيدا، فعمله يعد تسمية، وكلمة زيد هي اسم، والمولود ذاته هو المسمى، ولا شك أن هذه أمور متخالفة.

انظر المقصد الأسنى: ص ٤، ومنهاج العارفين: ص ١٩٣.

وقد ارتضى الرازي — رحمه الله تعالى — في كتبه المتأخرة عن نهاية العقول برأى الغزالي الذي حاصله أن الاسم غير المسمى كما ذهب إليه الغزالي، وهو الحق. انظر التفسير الكبير: ١٠٨/١، ولوامع البينات: ص ٣ — ٤.

(٢) قارن شرح المقاصد: ٣/ ٣٥٣ — ٣٥٤.

(٣) قارن المرجع السابق: نفس الصفحة.

وأما قولهم: بأن الله تعالى فى الأزل أسماء فنقول: المعنى به أن يصح أن تكون له الأسماء كما يقال للسيف وهو فى غمده قاطع، وإن لم يكن هو بالحقيقة قاطعاً،^(١) وكيف لا نقول ذلك ؟ ومعلوم أنه ما كانت فى الأزل هذه الحروف والعبارات، فنثبت أن المراد به ما ذكرناه.

(١) قارن الاقتصاد للغزالي: ص ٧٩، وشرح المقاصد: ٣/٣٥٣، وقارن انتقاد السعد اللاذع للشيخ الأشعرى فهو نفيس.

الفصل الثانی

فیما یجوز إطلاقه من الأسماء على الله تعالى^(١)

أجمعت العقلاء على أن كل اسم ورد الإذن بإطلاقه على البارئ تعالى، فذلك جائز الإطلاق عليه^(٢) وأجمعت الأمة على أن ما ورد الشرع فيه بالمنع منعناه،

(١) يرى القاضى الباقلاتى أن أسماء الله تعالى تنقسم إلى قسمين:—

قسم هو الله تعالى، إذا كان الاسم عائداً إلى ذاته تعالى، ككونه موجوداً وشيئاً وقديماً، وقسم ثان هو صفة لله تعالى مثل: القادر والحي الراجعين إلى صفتى القدرة والحياة. ووافقه على ذلك عبد القاهر البغدادي فذهب إلى أن لله تعالى أسماء يستحقها لذاته، وأسماء يستحقها لصفاته. انظر التمهيد للباقلاتى: ص ٢٣٠ — ٢٣٢، والإتصاف له: ص ٢١، وأصول الدين: ص ١٣٧.

وممن وافق البغدادي على ذلك إمام الحرمين ومن بعده من متأخري الأشاعرة.

(٢) هذا خلاف رأى المعتزلة والكرامية حيث ذهبوا إلى أنه إذا دلّ العقل على إتصافه تعالى بصفة وجودية، أو سلبية جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها سواء ورد بذلك الإطلاق من إذن شرعى أو لم يرد.

وذهب القاضى الباقلاتى — رحمه الله تعالى — إلى أن أسماءه تعالى ليست توقيفية بل توقيفية، بمعنى أن كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى جاز إطلاقه عليه بلا توقيف، ولكن بشرط ألا يكون إطلاقه موهماً لما لا يليق بكبريائه — تعالى وتقدس — لذلك لم يجز أن يطلق عليه لفظ: العارف، والفقيه، والعافل.

والحق هو رأى الشيخ الأشعرى ومن تبعه من أن أسماءه تعالى توقيفية، أى لا بد فيها من إذن الشرع. انظر شرح المواقف: ٨ / ٢٣٢ — ٢٣٣، وشرح المقاصد: ٢٥٦/٣ وما بعدها.

ومالم يرد فيه إذن ولا إطلاق، فالحق أننا لا نحكم فيه لا بالجواز، ولا بالمنع،^(١) وبعض الأصحاب^(٢) منعوا من إطلاقه.

والمعتزلة جوزوا إطلاقه، إلا إذا كان مشعراً بمعنى لا يصح ثبوته للبارى تعالى^(٣).

والذى يبين صحة ما ارتضيناه: أنا قد بينا أن الأحكام من الوجوب والحظر

(١) هذا هو مذهب إمام الحرمين. قارن الإرشاد: ص ١٤٣.

وقد ارتضى الرازى - رحمه الله تعالى - برأى إمام الحرمين هنا من أن أسماء الله تعالى وصفاته جميعاً موقوفة، ومالم يرد فيه إذن من الشارع لم يقض فيه بتحريم ولا تحليل على حد تعبير إمام الحرمين.

وقد أرجع الرازى أسماءه تعالى - عدا اسم الله - إلى سبع صفات حقيقية، واعتبر أن السلوب والإضافات لا حصر لها. انظر نهاية العقول: ٧٥/٢ - ب.

(٢) يقصد الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - الذى يرى أن الأسماء محدودة بالمنصوص عليه، وأن الصفات غير موقوفة على النص. انظر المقصد الأسنى: ص ١٠.

والجدير بالذكر أن الإمام الرازى قد تابع الغزالي فيما ذهب إليه، برغم أخذه برأى إمام الحرمين هنا، فذهب إلى أن أسماء الله تعالى موقوفة على المنصوص عليه، ولكن الصفات غير موقوفة، بل يمكننا أن نصف البارى تعالى بكل صفات الجلال والكمال والتعظيم حتى ولو لم ترد هذه الصفات فى الكتاب أو السنة. انظر لوامع البينات للرازى: ص ١٨ وص ٥٢، وقارن المقصد الأسنى: ص ١١٢ - ١١٤.

ومن الجائز على رأى الغزالي والرازى أن نطلق على الله تعالى أوصاف: المسعد والمُشقى، ومُقبل العثرات.

وأرجع كلا الرجلين أسماءه تعالى إلى الذات العلية، وصفات المعانى السبعة أعنى: العلم والقدرة والحياة، والإرادة، والسمع والبصر، والكلام. قارن التفسير الكبير: ١٥٦/١ وما بعدها.

(٣) قارن شرح المواقف: ٢٣٢/٨، وأبكار الأفكار للآمدى: ٥٠١/٢ - ٥٠٢.

والإباحة، لا تثبت إلا بالشرع، فقبل ورود الشرع يستحيل ثبوت شيء منها^(١).
ولأنه لو جاز إطلاق الألفاظ التي يصح معناها على الله تعالى من غير إذن،
جاز إطلاق لفظ الفقيه والعاقل عليه، لثبوت معناها في حقه تعالى، ولما لم يجر ذلك
صح ما أردناه^(٢).

(١) انظر ص : ١٦٠ وما بعدها.

(٢) انظر التمهيد للباقلاني: ص ٢٣٠ وما بعدها، وقارن شرح المواقف: ٢٣٢/٨ وما بعدها.

الفصل الثالث

فيما لا يجوز إطلاقه من الأسماء على الله تعالى

فمن ذلك أن جماعة^(١) اعتقدوا تقدس البارى تعالى عن التأليف، والاختصاص بالجهات، لكنهم أطلقوا عليه لفظ: الجسم، لظنهم أن معناه: الموجود القائم بالأنفس^(٢) وعن هذا المعنى جوزت النصارى^(٣): إطلاق لفظ الجوهر على الله تعالى^(٤).
والذى يدل على بطلان القولين جميعاً:—

أن إطلاق هذه الأسماء على البارى تعالى إما أن يكون بلا دليل عقلى أو

(١) هذا هو مذهب الكرامية حيث أطلقوا على البارى تعالى أنه جسم، بمعنى: أنه موجود قائم بنفسه..

(٢) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى: ص ٢١٥، والملل والنحل للشهرستانى: ١٠٨/١ وما بعدها، ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام: ص ٤٠١ وما بعدها.

(٣) النصارى هم أمة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وقد أثبتوا لله تعالى أقاتيم ثلاثة، فهو واحد بالجوهريّة ثلاثة بالأقنومية، وقد افترقت النصارى إلى فرق كثيرة أشهرها: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية. انظر الملل والنحل: ٢ / ٢٥-٣٣.

(٤) أطلق النصارى على الله تعالى لفظ الجوهر، وهو قديم، ولكن له صفات ثلاث سموها بالأقاتيم وهى: الوجود، والعلم، والحياة، وعبروا عن ذلك بالآب، والابن، والروح القدس، ولهم فى ذلك اختلافات كثيرة.

انظر أبحار الأفكار للآمدى: ٥٧/٢ — ٧٤.

شرعى، أو بدليل:—

فإن كان من غير دليل كان ذلك محض التلقين بمجرد التشهى، ولو ساغ ذلك، ساغ تلقينه بجميع الألقاب، وإن كان بدليل: فإما أن يكون عقلياً أو سمعياً، فأما العقل: فلا يتلقى منه إثبات أصل الأسماء^(١)، فكيف يتلقى — منه^(٢) — تفصيلها.

وأما الأدلة السمعية: فليس فيها ما يدل على تسمية البارئ تعالى جوهرأً، أو جسمأً، إذ ليس يدل عليه كتاب ولا سنة،^(٣) وأما لغة العرب فليس فيها ما يدل

(١) بمعنى أن أسماء الله تعالى توقيفية، أى لا تتلقى إلا عن طريق السمع، أما العقل فلا دخل له فى ذلك، وهو رأى جمهور الأشاعرة، وهو الحق.

(٢) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

(٣) وردت فى الكتاب والسنة بعض الظواهر التى يفهم من ظاهرها أن الله تعالى يد، ووجه، وأصبع، وغير ذلك، وقد فهم منها بعض الجهال أن البارئ تعالى جسمأً.

ومن تلك الظواهر: قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ (الفجر: ٢٢).

وقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢١٠).

وقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه: ٥).

وقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر: ١٠).

وقوله: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن: ٢٧).

وقوله: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح: ١٠).

وقوله: ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ (الزمر: ٥٦) وغير ذلك.

ومن السنة قوله ﷺ: للجارية الخرساء: { أين الله } فأشارت إلى السماء، فقال: أعتقها فإنها مؤمنة وأقر بإسلامها.

وقوله: { إن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا... } إلخ الحديث.

وقوله: { إن الله خلق آدم على صورته }.

وقوله: { إن الجبار يضع قدمه فى النار }.

وقوله: { إنه يضحك إلى أوليائه حتى تبدو نواجذه } وغير ذلك.

على تسمية الموجود جسماً، كيف وهم يصفون الأعراض بالوجود، ولو سميت أجساماً أبوةً.

وما يدل على فساد مذهب المجسمة خاصة: أن لفظ الجسم مما يصح دخول المبالغة فيه، فيقال: هذا جسم، وهذا جسيم منه، قال عامر بن الطفيل^(١).

لقد علم الحى من قليل

بأن لنا الذروة الأجسما

والموجود والقائم بالنفس مما لا يصح دخول المبالغة فيه، فكيف يكون أحدهما الآخر؟، ومن ذلك:

أنه لا يجوز تسمية الرب فى الأزل خالقاً ورازقاً^(٢)، خلافاً للكرامية،^(٣) والذى

وهذا ما يعرف فى الكتب الكلامية بمبحث الصفات الخبرية، وللرازي — رحمه الله تعالى — موقف واضح منها، حيث ألف كتابه: { أساس التقديس } ليؤكد أن المراد بها غير ظاهرها، وسماها بالمتشابهات، وهذه النصوص فيها رأيان: — إما أن نبقىها على ظاهرها، ونترك العلم بها إلى الله تعالى، وهو مذهب السلف، وإما أن نؤولها تأويلاً يرجع بها إلى الصفات الأخرى، وهو مذهب الخلف، وكلاهما حق.

انظر شرح المواقف: ٢٢٠/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٣٤/٣ وما بعدها.

(١) هذا البيت موجود فى لسان العرب لابن منظور: ٣٦٦/١٤. ولكن بدلا من لفظة { قليل }

توجد لفظة { عامر } وهى الأصح. قارن شرح الأصول الخمسة: ص ٢١٧.

(٢) هذا بناء على رأى الأشاعرة من أن صفات الأفعال حادثة، وأنها ليست إلا تعلقات القدرة،

فلا بد من توجه صفة القدرة صوب الخلق بالفعل حتى يسمى خالقاً، ولا بد من توجهها صوب

الرزق بالفعل حتى يسمى رازقاً، أما قبل ذلك فى الأزل فهو تعالى خالق ورازق وإن كان لا

مخلوق ولا مرزوق، ولكن باعتبار أن له القدرة على الخلق والرزق.

يبين صحة ما ذهبنا إليه: أن الخالق مشتق من الخلق، فلو جاز تسمية البارئ تعالى خالقاً في الأزل مع عدم الخلق لجاز تسمية الجسم متحركاً أسوداً، وإن لم توجد فيه الحركة والسواد، ولأن الخالق مع عدم الخلق محال، كما أن الضارب مع عدم الضرب محال^(٢) فبطل ما قالوه.

وبذلك تجنب الأشاعرة خطراً كبيراً؛ لأنه لو كان تعالى خالقاً قديماً، لكان الخلق قديماً، فيلزم قدم العالم، وهو محال،
أما الماتريدية فقد جعلوا صفات الأفعال قديمة، وأرجعوها إلى صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، وهي صفة التكوين.
لمزيد من التفاصيل: انظر هوامش على الاقتصاد في الاعتقاد لأستاذنا الدكتور: محمد عبد الفضيل القوصي ص: ١٣ - ١٦.
وللرازي موقف واضح من إبطال القول بصفة التكوين. انظر: المحصل: ص ١٨٩، والمعالم: ص ٥٩ - ٦٠.
(١) لتحقيق رأى الكرامية: انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للنشار: ٤٠١/١ وما بعدها.
(٢) قارن الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ص ٢٣.

الفصل الرابع

فى تفسير الإله تعالى وتقدس

اعلم أنا لما نظرنا فى تفسير أسامى الله تعالى وجدناها على وجه يستدعى كلاماً كثيراً فى الكشف عما هو الحق فيها لكثرة ما فيه من المذاهب الفاسدة، ومحاولة كل طائفة تفسيرها بما يطابق مذهبها وهذا المعتقد لا يحتمل ذلك،^(١) فاكتفينا هاهنا بإشارة وجيزة إلى تفسير لفظ الإله، لغرض يتعلق به فى مسألة الصفات.

وقد قالت المعتزلة إن الإله هو: القديم،^(٢) وبنوا على ذلك وقالوا: لو كان لله تعالى صفات قديمة، لكان كل واحد منها إلهاً^(٣).

ونحن نقول: هذا باطل؛ لأنه يحسن أن يقال: يا إله الخلق، ولا يحسن أن يقال: يا قديم الخلق، ولأنه لو كان معنى الإله أنه قديم، لزم أن من اعتقد قدم

(١) فصل الرازى وغيره من أئمة الأشاعرة القول فى معانى أسماء الله تعالى على الوجه الحق الذى يرتضيه أهل السنة. انظر لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى للإمام الرازى، وقارن: الإرشاد لإمام الحرمين: ص ١٤٣ - ١٥٥، وأبكار الأفكار للآمدى: ٥٠٣/٢ - ٥١٨، وشرح المواقف: ٢٣٤/٨ وما بعدها وغير ذلك.

(٢) يرى المعتزلة أن أخص وصف الإله هو القدم. انظر شرح الأصول الخمسة: ص ١٩٦.

(٣) حجة المعتزلة على نفى كون صفات الله تعالى زائدة على ذاته: أن صفات الله تعالى لو كانت قديمة لكانت مثلاً لله تعالى فى القدم، والقدم أخص وصف له تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى إنما يخالف غيره بكونه قديماً. انظر: هوامش على النظامية: ص ١٣٣.

الأجسام أن يعتقد كونها آلهة، ومعلوم أن الدهرية^(١) يعتقدون قدمها، ولا يعتقدونها آلهة.

فإن قالوا: وكذلك عبدة الأصنام يعتقدون إلهيتها مع علمهم بأنهم لا يقدرّون على الاختراع، والإله عندكم هو القادر على الاختراع.

قلنا: أكثر عبدة الأصنام لا يعتقدون فيها الإلهية، وإنما اتخذوها على صورة الأنبياء، متخذين إياها كالمحاريب المعظمة في المساجد، ومن اعتقد فيها الإلهية، اعتقد أنها تضر وتنفّع، ولذلك يتقربون إليها بالتضرع والابتهاال.

(١) تطلق كلمة الدهرية على الذين ينكرون الاعتقاد بوجود الله تعالى، وخلق العالم، والعناية الإلهية، وقالوا بتقديم الدهر، وأن المادة لا تنفّى. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجنّ: ٢٤) انظر الملل والنحل للشهرستاني: ٢٠١/١.

الفن الرابع

ففى النبـوآت

وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول: فى جواز بعثة الرسل، وشرائط المعجزات وكيفية

دالاتها على صدق النبى

والفرق بينها وبين الكرامات والسحر

وفيه فصول أربعة

الفصل الأول

فى جواز بعثة الرسل^(١)

(١) قبل الكلام فى مسألة جواز بعثة الرسل لابد أن نوضح معنى النبى والرسول:—

أما النبى فمعناه فى اللغة: المنبى من النبأ سمي به لإنبائه عن الله تعالى، وقيل: النبى من النبوة: بمعنى الارتفاع، سمي كذلك لعلو شأنه، وقيل هو مشتق من النبى: بمعنى الطريق. وقد عرفه الأشاعرة اصطلاحاً بقولهم: هو من قال الله تعالى له ممن اصطفاه من عباده: أرسلناك إلى قوم كذا، أو إلى الناس جميعاً، أو بلغهم عنى، وغير ذلك من الألفاظ الدالة على إرسالهم من الله تعالى.

وأما الرسول فهو الذى يتتابع عليه الوحي، من رسل اللين إذا تتابع دره. وفى الاصطلاح: هو إنسان حر من بنى آدم أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه. وعليه فالفرق بين الرسول والنبى هو: اشتراط التبليغ فى الرسول دون النبى. انظر النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام لأستاذنا الدكتور الصافى: ص ٥ — ٦.

والآن ننقل إلى حكم إرسال الرسل فنقول:—

ذهب الأشاعرة إلى أن النبوة موهبة من الله تعالى يعطيها لمن اصطفاه من عباده لتبليغ شرائعه إلى كافة خلقه، فالنبوة لا ترجع إلى صفة من صفات النبي، ولا حالة من أحواله استحقها بكسبه وعمله.

وذهب المعتزلة إلى القول بوجوب بعثه الرسل على الله تعالى لأنها لطف وصلاح للخلق، وكلاهما واجب على الله تعالى، ولا شك في بطلان ذلك كما مر.

ورد عليهم أهل السنة بقولهم: إن الأصل لا يجب على الله تعالى؛ لأنه لو كان واجباً عليه لما خلق الكافر الفقير المعذب في الدنيا بالفقر، وفي الآخرة بالنار.

وكذلك اللطف غير واجب على الله تعالى؛ لأنه لو كان واجباً للزم أن يكون في كل عصر نبي يهدي الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، ولكان في كل بلد معصوم يأمر بالمعروف ويدعو إلى الحق، وهو ما لم يتحقق في كثير من العصور، بل إن الله تعالى — وله الحجة البالغة — قد ترك الناس لفترات طويلة بدون رسل ولا رسالات.

وذهب الماتريدية إلى أن إرسال الرسل من مقتضيات حكمة الباري تعالى، { وفي إرسال الرسل حكمة } كما يقول أبو المعين النسفي، ولكن هل هذا تعبير مخفف عن ضرورة الرسالة، أو هو تورط منهم في القول بوجوب إرسال الرسل على الله تعالى كما يقول المعتزلة، الحق هو الثاني كما يقول صاحب المقاصد حيث يرى أن كلامهم يوافق كلام المعتزلة.

أما الفلاسفة فقد قالوا بإيجاب إرسال الرسل على الله تعالى، وذلك بناءً على قولهم بنظرية الفيض، ولكن الحق هو أن ذلك زخرفة للقول، ومحاولة لتزييف الأقوال لتروج بين الناس، وذلك لأنهم ينكرون علم الله بالجزئيات، كما ينكرون ظهور الملك للبشر ونزوله من السماوات لقولهم باستحالة الخرق والالتزام وغير ذلك. والحق هو ما ذهب إليه الأشاعرة من أن البعثة رحمة من الله تعالى يتفضل بها على من شاء من عباده، فهو الفعال لما يريد، يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

للمزيد من التفاصيل انظر: النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام لأستاذنا الدكتور الصافي: ص ٧ — ١٠، وضم إليه: شرح المقاصد: ٣ / ٢٨٧ — ٢٩٠، شرح الأصول

والخلاف مع البراهمة،^(١) فإنهم قطعوا باستحالتها وشبهتهم في ذلك:—

أن ما يرويه الرسول لا يخلو: إما أن يعلم حسنه وقبحه بالعقل، فإن علم حسنه بالعقل، فلا فائدة في بعثهم، وإن كان مما لا يعلم حسنه — بالعقل —^(٢) مثل: تكليفهم المشاق في العبادات، وزيارة بيت معين مع العلم بتمائل البيوت، والتردد بين جبلين، وتخصيص بعض قطع المسافة بينهما بالتؤدة، وبعضها بالهرولة، ومضاهاة الصبيان في رمي الجمار من غير مرمى، والانحناء في الركوع،

الخمس: ص ٥٠٢ وما بعدها، والنجاة لابن سينا: ص ٢٥٠ وما بعدها، والمحصل للرازي:

ص ٢١٢، وشرح العقائد النسفية وحواشيها: ص ٤٥٧ — ٤٥٩، وغير ذلك.

(١) البراهمة: فرقة تنسب إلى براهيم المذکور فی { الفيدا } أحد كتبهم المقدسة، وهم يعتبرون براهيم الإله الأعلى، والبراهمية نظام ديني واجتماعي وسياسي، لذلك فهم يقسمون الأمة إلى طبقات أربع، وقد نفوا النبوات. انظر الملل والنحل: ٢ / ٩٥ — ١٠٠، ونشأة الفكر الفلسفي: ١ / ٢٨٦.

وقد قال البراهمة بعدم الاحتياج إلى النبوة، فهي عندهم ممكنة في ذاتها، ولكنها مستحيلة لغيرها، لعلم الله تعالى أن العقل يغني عنها.

واحتجوا على مذهبهم بدليلين حاصلهما:—

الأول: أن البعثة تتوقف على علم المبعوث بأن الباعث هو الله تعالى، ولا طريق لمعرفة ذلك، فلا طريق لثبوت البعثة، وهو كلام ساقط لأن الله تعالى لا يعجز أن يعرف المبعوث بأن باعثه هو الله تعالى، وذلك يكون إما بنصب دليل له يعلم منه ذلك، وإما أن يكون بخلق علم ضروري في المبعوث، يعلم أن الباعث له هو الله تعالى.

الثاني: أن ما جاء به الرسول إما أن يكون موافقاً للعقل حسناً عنده فيقبل ويفعل، وإن لم يُبعث نبي، وإما أن يكون مخالفاً للعقل قبيحاً عنده، فيرد ويترك، وإن جاء به النبي، وعلى كلا الأمرين فلا حاجة إلى النبي.

(٢) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

والتتكيس في السجود، فكل ذلك مما يحكم العقل بقبحه، أو يكون عبثاً، وذلك مما لا يجوز إثباته^(١).

والجواب عنه: أن هذا بناءً على أن حسن الأشياء وقبحها صفات ثابتة فيها مدركة عقلاً، وقد أبطلنا هذه القاعدة بما فيه مقنع،^(٢) على أنا وإن سلمنا ذلك جدلاً، لكان من الجائز أن يكون حسن بعض الأشياء وقبحها مما تقصر العقول عنها، وتكل عن دركها، فيرد الشرع مبيناً لها، أو ليكون إقدام المكلف على المستحسّنات، وإحجامه عن القبائح بعد وروده، أشد مما كان قبله، وعلى الجملة كما يقطع بحسن الأمراض والأسقام مع استغناء الرب تعالى عنها لعلنا بأن فيها مصالح وإن لم نعلمها، فكذلك من الجائز أن يكون في بعثه الرسل إلى الخلائق وتكليفهم المشاق لهم — فيها —^(٣) مصلحة خفية لا يعلمها إلا الله تعالى، ومع هذا الاحتمال لا يمكن القطع بقبحها^(٤)، فإذا ثبت ذلك فنقول: —

بعثة الرسل — عليهم الصلاة والسلام — غير مستحيلة لعينها، إذ لا يمتنع في العقول أن يرسل الله تعالى شخصاً معيناً إلى غيره من الخلائق، ليبين لهم الأحكام من الحلال والحرام، ويؤيده بالدلائل الظاهرة، والحجج الباهرة، وقد بينا أنه ليس مستحيلاً من جهة التحسين والتقييح، فلم يبق إلا القطع بجواز بعثهم كما ذهبنا إليه^(٥).

(١) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٠٥.

(٢) انظر ص: ١٦٠ وما بعدها.

(٣) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٤) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٠٤ وما بعدها.

(٥) للمزيد من التفاصيل لمذهب أهل الحق.

انظر: التمهيد للباقلاني: ص ١٠٧ وما بعدها، وأصول الدين للبغدادى: ص ١٥٤ وما

بعدها، ونهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٤١٧ وما بعدها، والمحصل للرازي: ص ٢١٢ وما
بعدها، والأربعين في أصول الدين له أيضا: ص ٢٩٥ وما بعدها، وأبكار الأفكار للآمدي:
٢٧/٤ وما بعدها، وشرح المواقف: ٢٥٤/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٢٧٠/٣ وما
بعدها.

الفصل الثانى

فى المعجزات وشرائطها

اعلم أن آيات النبوات المسماة بالمعجزات قد تكون من قبيل مقدورات البشر كالتصعد فى الهواء، والمشى على الماء، وقد لا تكون من قبيل مقدورات البشر كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

وقد اتفق المسلمون على إطلاق لفظ المعجزة على القسمين،^(١) ولم يعنوا به تعلق العجز الذى يضاد القدرة بهذه الآيات، لأن من المعجزات ما هى خارجة عن مقدور البشر، وما كان كذلك يستحيل تعلق العجز به، بل عنوا به انتفاء إقتدار الخلق عليه، ولا بُعد فى إطلاق لفظ العجز على انتفاء الاقتدار،^(٢) كما لا بُعد فى

(١) اختلف أهل السنة فى أنه هل يتصور أن تكون المعجزة مقدورة للرسول أم لا ؟ على قولين:—

الأول: أن نفس الحركة بالصعود فى الهواء، أو المشى على الماء ليست معجزة، لكونها مقدوره له بخلق الله تعالى له القدرة عليها، وإنما المعجزة هى نفس القدرة عليها، فإن قدرته على ذلك غير مقدورة له.

الثانى: أن هذه الحركات معجزة من جهة كونها خارقة للعادة، ومخلوقة لله تعالى، وإن كانت مقدورة للنبي وهو الأصح. انظر الأبيكار للآمدى: ١٩/٤.

(٢) ذهب الشيخ الأشعرى — رحمه الله تعالى — إلى أن العجز أمر عديمى، فالمعجز هو: عدم خلق القدرة، والعدم ليس فعلا.

ومن الأشاعرة من ذهب إلى أن العجز أمر وجودى، ومن ثم فهو من فعل الله تعالى، كخلق الأجسام والألوان، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى. قارن المرجع السابق نفس

قول القائل: لو اجتمع الخلائق على إيجاد ذبابة لعجزوا عنها^(١).

ثم إن المعجز في وضع اللغة هو: خالق العجز، لكن جاز إطلاقه على الآيات من حيث تعذر المعارضة عندها جرياً على تسمية الشيء باسم ما منه كتسمية المقدور: قدرة، والمعلوم: علماً^(٢).

وحدّثها: أنها فعل خارق للعادة للتحدي مع عدم المعارضة^(٣).

وهذا الحد مشتمل على قيود لا بد من شرحها:—^(٤)

الصفحة.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٣).

(٢) المعجزة في اللغة مشتقة من العجز المقابل للقدرة، وحقيقة الإعجاز إثبات العجز، ثم أسند مجازاً إلى ما هو سبب العجز الذي هو الفعل الخارق للعادة، وجعل اسماً له، فهو معجز، ثم زيدت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية، وقيل التاء في المعجزة للمبالغة كما في العلامة. انظر النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ٢٥.

(٣) قارن المحصل: ص ٢٠٧، وشرح المقاصد: ٢٧٣/٣.

(٤) حدد الأشاعرة شروط المعجزة فيما يلي:—

أن تكون من فعل الله تعالى، أو ما يقوم مقامه.

أن تكون خارقة للعادة.

أن تتعذر المعارضة.

أن تكون ظاهرة مع دعوى النبوة.

أن تكون موافقة للدعوى.

أن لا تكون مكذبة له.

أن لا تكون متقدمة على الدعوى، بل مقارنة لها.

الشريعة الأولى: أن تكون من فعل الله تعالى، أو قائماً مقام فعله، واحترزنا بقولنا: أو ما يقوم مقام فعله عما إذا قال النبي ﷺ: آية صدقي أن الذين اتحداهم لوراموا القيام لم يجدوا إليه سبيلاً، فهذا من قبيل المعجزات،^(١) وليس من أصلنا^(٢) أن الله تعالى أعجزهم عن القيام حالة قعودهم، إذ العجز لا يسبق المعجوز عنه، ولكن عدم خلق القدرة على القيام معجزة، فهذا ليس بفعل لكنه يقوم مقام الفعل، من حيث نعلم أن ذلك لا يتحقق إلا عن قصد من الله تعالى إلى تصديق النبي، ويمكن أن يقال: بأن المعجزة هي العجز المتعلق بالقعود الحاصل لا غير، وحينئذ لا حاجة إلى هذا القيد^(٣).

واعلم أنا قد بينا أن جميع الحوادث واقعة بقدرة الله تعالى،^(٤) وبيننا أن من جملة المعجزات ما تقع مقدورة للبشر، فلا فائدة لهذه الشريعة إلا شيء واحد وهو: أن دلالتها على الصدق لا من حيث كونها مقدورة للعبد، بل من حيث وقوعها بقدرة الله تعالى، حتى أن من اعتقد كون الشيء فعلاً، ولم يعلم كونه مخترعاً لله تعالى، إما لعدم النظر، أو لفساده، فإنه يعلم دلالتها على الصدق، فإذا عرفت ذلك، فالذي يدل على اشتراطها هو أن المعجزة إنما تدل لنزولها منزلة التصديق بالقول، وأن يقوم الفعل في إفادته التصديق بالقول، إلا عند صدوره عن يصح منه التصديق بالقول، وهذا واضح.

الشريعة الثانية: أن تكون خارقة للعادة، لأن المعجزة لا بد من اختصاصها بالنبي، ليمتاز به عن ليس بنبي، والأمور المعتادة مما يشترك فيه الكل، فكيف يدل

(١) قارن أبحاث الأفكار للآمدي: ٤ / ٢٠ وما بعدها، فهي نفس عبارة الإمام الرازي تقريباً.

(٢) هذا هو رأى الشيخ الأشعري كما سبق بيانه.

(٣) هذا هو رأى إمام الحرمين — رحمة الله تعالى —. انظر الإرشاد: ص ٣٠٩.

(٤) انظر ص: ١٠١ وما بعدها.

على صدق شخص معين دون غيره؟ ووضوح ذلك يغنى عن الإطناب^(١).

فإن قيل: بم تأمنون من أن ما أتى به المدعى من الأمور المعتادة فى بعض أقطار الأرض؟.

قلنا: نعلم ضرورة بأن قلب العصا ثعباناً، وفلق البحر،^(٢) وشق القمر^(٣) ليست من الأمور المعتادة فى موضوع أصلاً، إذ لو كان لنقل واشتهر لتوفر الدواعى على نقل العجائب والغرائب، وعلى أنه لا يلزم كونه معتاداً فى البقاع خروجه عن كونه خارقاً للعادة مع الذى وقع التحدى معهم، كما أن اعتياد الطيور للطيران لا يمنع كونه خارقاً للعادة لو وقعت من الآدميين.

فإن قيل: الله تعالى قادر على قلب العوائد، فإذا أظهر المدعى خارقاً للعادة، فما يؤمننا أن ذلك أول انقلاب العادة، وأنه مفتتح عادة سيستمر، لا أنه وقع تصديقاً له^(٤)؟.

قلنا: لا شك أن الذى وقع خارقاً للعادة، وتوقع أمثاله اعتياداً لا يخرج عن كونه من خوارق العادات، بل لو ادعى قلب العادة مطلقاً مثل أن يقول: آية صدقى أن الله تعالى يغنى الناس عن الاغتذاء والتنفس فى الهواء، لكان ذلك من أصدق

(١) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٠٩.

(٢) تلك بعض معجزات نبي الله موسى - عليه السلام -.

(٣) انشقاق القمر أحد معجزات رسولنا الكريم - عليه السلام - وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: ١).

(٤) هذا هو أحد اعتراضات البراهمة على كون المعجزة دلالة على النبوة كما ذكر إمام الحرمين.

انظر الإرشاد: ص ٣١١.

الدلائل، وأما بيان دلالاته على صدق المدعى فسنذكر^(١).

فإن قيل: هل تجوزون أن يرسل الله تعالى رسلاً تترى في أوقات متعاقبة، أو تمنعونها؟ فإن جوزتم فلا يخلو: إما أن تكون آية كل نبي مماثلة لآية من قبله، وحينئذ تتكرر الآية الواحدة، وتصير من العوائد، أو تختلف آياتهم، فتكون آية نبي إحياء الموتى، وآية الآخر إبراء الأكمه والأبرص، وحينئذ يصير خرق العادة في الجملة عادة كتكرر الآيات الممتثلة.

وإن منعتم من جواز إرسال الرسل في أوقات متقاربة خالفتم نص الكتاب وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ تَتَرَا﴾ (المؤمنون: ٤٤) وقدحتم في الأنبياء، لأنكم ادعيتم أن الله تعالى ابتعث من زمن آدم إلى نبيكم — ﷺ — مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ولو وزعوا على الأزمان لكان في حد التكرار.

وقال القاضي^(٢) في الجواب عنه: أن الله تعالى لم يخصص كل نبي بآية، بل خصص بالآيات أقواماً مخصوصين ثم إنهم أخبروا بمجىء أقوام معينين صدقوهم، ووصوا الخلائق بتصديقهم، وفي القصص أن أصحاب الآيات هم المرسلون،^(٣) وقد سئل النبي — ﷺ — عن عدتهم فقال: ثلاثمائة وخمسة عشر،^(٤) ولا يبعد أن يكون في المرسلين من لم تكن له آية.

(١) قارن المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٢) يقصد القاضي الباقلاني — رحمه الله تعالى —.

(٣) انظر التمهيد للباقلاني: ص ٩٦ وما بعدها.

والحديث الذي استدل به المعارض رواه أبو ذر الغفاري حيث قال: قلت لرسول الله — ﷺ —

—: كم الأنبياء؟ فقال: { مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً } فقلت: وكم الرسل؟ فقال:

{ ثلاثمائة وثلاثة عشر جملاً غفيراً } رواه أحمد في المسند: ١٧٨/٥ — ١٧٩.

(٤) تقدم تخريج الحديث منذ قليل.

وقال بعض المفسرين: إن هوداً — عليه السلام — لم يخصص بآية،^(١) وإليه الإشارة بقوله تعالى في الإنباء عن قوم هود: ﴿ مَا جِئْنَا بِبَنِيٍّ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ (هود: ٥٣).

الشريطة الثالثة: أن تكون تصديقاً للتحدى،^(٢) والكلام فيه يقع فى ثلاث مقامات:—

المقام الأول: فى بيان امتناع تقدمها على الدعوى.

وذلك لأن المعجزة إنما تدل لتتزلها منزلة التصديق بالقول، ومن ادعى أنه رسول الملك، وقال آية صدقى ما سبق من الملك من الأمور المخالفة لعادته، لم يكن متشبهاً بحجة، وكذلك هاهنا، ولأنه لو جاز ذلك لم يأمن من أن تكون المعجزة الواقعة على حسب دعوى نبي ليست معجزة له، بل معجزة لغيره، وذلك باطل بالاتفاق^(٣).

فإن قيل: يبطل ما ذكرتموه بتساقط الرطب الجنى من النخلة اليابسة على عيسى عليه السلام،^(٤) وكان ذلك قبل نبوته، وكذلك شق بطن محمد — عليه السلام — وغسل قلبه،

(١) انظر التفسير الكبير: ١٢٩/١٨ — ١٣٠.

(٢) لابد من قيد مقرون بالتحدى، إذ به يحصل ربط الدعوى بالمعجزة، فلو ظهرت آية من شخص بالتحدى لم تكن معجزة له أيضا. انظر النبوات والسمعيات: ص ٢٦ — ٢٧.

(٣) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣١٣، ونهاية الإقدام للشهرستاني: ص ٤٢٢ وما بعدها، والاقتصاد فى الاعتقاد: ص ٩٧، وانظر أبحار الأفكار للآمدى: ٢١/٤.

(٤) قال تعالى: ﴿ وَهَزَيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم: ٢٥)

والحق أنها كرامة للسيدة مريم. ولكن ذهب القاضى الباقلانى — رحمه الله تعالى — إلى أن ما كان من معجزات عيسى عليه السلام فى حالة صغره، فليست قبل نبوته، فإنه كان فى صغره نبياً، ويدل عليه قوله تعالى إخباراً عنه: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا ﴾ ، وليس

واستلله منه،^(١) وتسليم الشجر والحجر عليه،^(٢) وكل ذلك قبل النبوة^(٣).

وأما إذا أحدث الله تعالى شيئاً خارقاً للعادة كما إذا نشر الله إنساناً بعد موته، فادعى إنسان عقيبه النبوة، وتحدى بإحياء ميت آخر، فقد ظن بعضهم^(٤) أن المتقدم معجزة، والحق أنها ليست بمعجزة، لعدم تعلقها بصدق المدعى، واشتراك الصادق والكاذب فيه، وهذا مطرد في جميع المواضع إلا في صورة واحدة، وهي ما نقرّب الآن لها مثالا وهو:—

أنا إذا فرضنا صندوقاً على القطع، ثم ثبتنا عليه رأسه وأقفلناه، وكنا على ذلك مراقبين فقال مدعى النبوة: آية صدقي أنكم تفتحون الصندوق، وتصادفون فيه ثباتاً، فلما فتحوا وجدوا الأمر على ما ذكر،^(٥) فالإعجاز فيه من وجهين:—

أحدهما: إخباره عنه مع أنه من خوارق العادات، وذلك مقترن بالدعوى.

والآخر: خلق الثبات فيه، وهاهنا يحتمل أن الله تعالى خلق الثبات قبل الدعوى، لكن مع ذلك يتحقق فيه وجه الدلالة على تصديق النبي، ويصير كالمقارن

ذلك خارجاً عن مقدورات الباري تعالى.

(١) انظر أبيكار الأفكار للآمدى: ٢١/٤.

(٢) لفظ الحديث: قال رسول الله — ﷺ — { إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على.... }.

أخرجه مسلم في كتاب الفضائل: ٢، والترمذى في المناقب: باب ٣ وغير ذلك.

(٣) الحق أن ذلك من باب الكرامات الجائزة عندنا، فكل خارق ظهر على يد النبي قبل بعثته،

فهو من باب الكرامات أو الإلهامات. انظر شرح المواقف: ٢٤٩/٨.

ومن الغريب أن المعتزلة حيث أنكروا الكرامات، ذهبوا إلى أن ما ظهر على يد عيسى عليه السلام

مثلاً قبل نبوته فهو معجزة نبي آخر في ذلك العصر، وذلك باطل.

(٤) انظر شرح المواقف: ٢٤٨/٨.

(٥) قارن أبيكار الأفكار للآمدى: ٢١/٤، وشرح المواقف: ٢٤٩/٨.

للدعوى، لكون حصوله موافقاً لإخباره عنه، فلا يبعد كونه معجزاً.

المقام الثانى: فى تأخيرہ.

واعلم أنه لو قال: آية صدقى أن الله تعالى يحيى هذا الميت ما بين أن يهَمَّ الواحد منكم بالانتصاب إلى أن ينتصب، كان ذلك من قبيل المعجزات بالاتفاق لحصولها على موافقة دعواه، لكنه لا خلاف فى أن الخلق لا يكلفون بتصديقه قبل وقوع الموعود، ولا خلاف فى أنها تبين من أنه كان صادقاً فى مقالته،^(١) فأما إذا بيّن المدعى تفاصيل شرعه، وقال: آية صدقى ظهور آية خارقة للعادة بعد موتى، فلا خلاف — فى —^(٢) أنه لا يجب عليهم قبول شرعه، قبل ظهور الآية، لعدم علمهم بصدقه،^(٣) فأما بعد ظهورها، فإنه يدل على أنه كان صادقاً، فيجب عليهم التزام تلك الشريعة، لحصول المعجزة على وفق دعواه^(٤).

المقام الثالث: من شرائط كون المعجزة للتحدى، أن لا تقع مكذبة للدعوى، كما إذا قال: إن الله تعالى يحيى هذا الميت، فإذا صار حياً قال: اعلموا أن الله بعثى

(١) اختلف الأشاعرة فى ذلك فذهب بعضهم إلى أنه المعجز لا يكون متأخراً عن الدعوى، ولكن المتأخر هو علمنا، وعليه فإن إخباره السابق كان معجزاً، ولكن لا يكلف أحد بتصديقه قبل ظهور المدعو به.

وذهب البعض إلى أن المعجز قد يكون متأخراً عن الدعوى، ومن ثم فإن إخباره إنما يتصف بكونه معجزاً عند ظهور المدعو به. انظر أبحاث الأفكار: ٢٢/٤، وشرح المقاصد: ٢٧٥/٣.

(٢) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

(٣) انظر شرح المواقف: ٢٥٠/٨ — ٢٥١.

(٤) هذا هو رأى الإمام الرازى، ووافق القاضى الباقلانى — رحمه الله تعالى — المعتزلة فى امتناع ذلك.

انظر شرح المقاصد: ٢٧٥/٣.

لأفصح هذا الكاذب، فاجتنبوه ، ثم خرّ بعده ميتاً، فقال جماعة من العلماء: إن ذلك يقدح في المعجزة،^(١) والأقرب أنه لا يقدح؛ لأن إحياء الميت من خوارق العادات، وقد وقع كما ادعاه، أما التكذيب من الإنسان الحي، فذلك من الأمور المعتادة، فلا تقدح في المعجزات^(٢).

قال الإمام السعيد والدي^(٣): ولا فرق بين هذه الصورة، وبين ما إذا قال: آية صدقي أن تكلمكم يدي، فأنطقها الله تعالى بتكذيبه، لأن صدور الكلام من اليد من قبيل الخوارق للعادة، إلى أن قال: والعلماء قد اتفقوا على الفرق بين الصورتين والحق أحق أن يتبع^(٤).

وليس هذا كما إذا تحدى النبي بأن يقول للعين إذا مجّ فيها، فلما مجّ فيها غار مأوها، لأن هاهنا أخلف في عين ما تحدى به، وثبت ضده، بخلاف ما ذكرناه، فإن ما ادعى من خوارق العادات قد وقع، والتكذيب ليس من الخوارق، بل من الأمور المعتادة، وعلى الجملة هذا مُشْكَل، وهو مما استخير الله تعالى فيه.

الشريطة الرابعة: عدم المعارضة.

وهي أن لا يقابل ما يأتي به مدعى النبوة بمثله، فلو قال: آية صدقي: قلب

(١) هذا هو رأى القاضى الباقلاى - رحمه الله تعالى - والحق هو ما ذهب إليه الجمهور.

انظر أبحاث الأفكار للأمدى: ٢١/٤، وشرح المواقف: ٢٤٨/٨.

(٢) لأن المعجز هو إحياء الميت، أما نطقه بالتكذيب فهو من الأمور العادية، والمتحدى لم يصرح إلا بالإحياء.

(٣) والد الإمام الرازى - رحمه الله تعالى - تقدمت ترجمته ، انظر ص : ١٧٤.

(٤) الحق هو ما ذكره الإمام الرازى ووالده هاهنا، حيث إن نطق اليد بالتكذيب لا يدل على صدق المدعى؛ لأن المكذب هو نفس الخارق، وذلك بخلاف إحياء الميت والنطق بتكذيبه. انظر شرح المواقف: ٢٤٨/٨ حيث عرض للمثال بنطق الضب.

العصا حية مع دعوى النبوة، لم تتحقق معارضته إلا أن يؤتى بذلك الفعل مع دعوى النبوة، فأما إذا لم يقيد بقيد الدعوى، فلا يتحقق تأتى مثل ما جاء به من أحد، سواء قُدِّر اقترانه بالدعوى، أو لم نُقَدِّر، وعلى تقدير وقوعه يدل على كذب الدعوى الأولى^(١).

(١) انظر شرح المقاصد: ٢٧٥/٣.

وزاد صاحب المقاصد شرطاً آخر وهو: أن تكون في زمن التكليف، لأن ما يقع في الآخرة من الخوارق ليس بمعجزة، ولأن ما يظهر عند ظهور أشراف الساعة وانتهاء التكليف لا يشهد بصدق الدعوى، لكونه زمان نقض العادات وتغير الرسوم.

الفصل الثالث

فى كىففة دلالة المعجزة على صدق الرسل

صلوات الله عليهم أجمعين^(١)

اعلم أن دلالة المعجزة على صدق التحدى تنتزل منزلة التصديق بالقول،^(٢)

(١) ذهب جمهور الأشاعرة إلى أن المعجزة تدل على صدق الرسول من حيث إنها بمثابة صريح التصديق لما جرت العادة به من أن الله تعالى يخلق عندها أو عقبيها العلم الضرورى بصدقه.

وذهب جمهور الأشاعرة إلى أن دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عقلية يقينية، ومن ثم يستحيل عقلا صدورهما على يد الكاذب؛ لأنه يختلط الصادق بالكاذب، وهذا إضلال لا هداية، ولأن تصديق الكاذب بكذب، وهو محال على الله تعالى.

وذهب بعض الأشاعرة خاصة الإيجى والسعد إلى أن دلالة المعجزة دلالة عادية بمعنى إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقب ظهور المعجزة، وذلك لتجويز العقل ظهورها على يد الكاذب.

والحق هو ما ذهب إليه جمهور الأشاعرة ومعهم الرازى من أن دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عقلية محضة.

للمزيد من التفاصيل انظر: النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ٣٠ - ٣١، والمحصل للرازى: ص ٢١٤، والمعالم فى أصول الدين: ص ١٠٥، والمطالب العالية: ٣٣/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٢٧٣/٣ وما بعدها.

(٢) انظر شرح المواقف: ٨ / ٢٥٢.

ومعناه:—

أن مدعى النبوة إذا قال: يارب إن كنت صادقاً في هذه الدعوى، فأحیی هذه العظام البالية، فإذا أحيأها الله تعالى يحصل العلم الضروري بصدقته، ويتنزل منزلة التصديق بصريح القول، كما أن من أدعى في جمع عظيم أنه رسول الملك إليهم، والملك حاضر، فقال: أيها الملك إن كنت صادقاً في هذه الدعوى، فخالف عادتك، فإذا خالف عادته يضطر الحاضرون إلى العلم بكونه صادقاً، فكذلك هاهنا^(١).

فإن قيل: إنما حصل العلم في هذه الصورة لما تقرر من عادات الملك طلب صلاح الرعية، والانكفاف عن الظلم، وأنتم إذا جوزتم من الله تعالى خلق الكفر والإضلال، فأنى يستقيم منكم هذا الكلام؟^(٢).

قلنا: لو كان سبيل دلالة فعل الملك على التصديق ما ذكرتموه، لكان لا يعلم التصديق، من لم يحط علماً بما ذكرتموه، ونحن نعلم أن ما قلناه يعلمه الصبيان وعوام الناس، مع أنه لم يخطر ببالهم شيء مما قدره السائل^(٣).

(١) هذا المثال يرجع في أصله إلى إمام الحرمين — رحمه الله تعالى — وقد اعترض على هذا التمثيل فقيل: هذا تمثيل وقياس الغائب على الشاهد أى قياس الله تعالى على هذا الملك، والتمثيل يعتبر في الفقه ويفيد الظن، ولا يعتمد عليه في الأحكام الاعتقادية. وقد أجيب عن هذا الاعتراض بأن التمثيل إنما هو للتوضيح والتقريب دون الاستدلال. انظر النبوات والسمعيات: ص ٣٠، وشرح المواقف: ٢٥٣/٨، وقارن بالإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٢٥.

(٢) هذا هو اعتراض المعتزلة، وقد بنوه على أصلهم في تنزيه الرب تعالى عن فعل الجور، وإضلال العباد.

انظر الإرشاد: ص ٣٢٦.

(٣) انظر المرجع السابق نفس الصفحة.

يحققه: وهو أن من واجهه بعض الحاضرين بهجر في القول، وفحش في الكلام، فاحمرَّ لونه، وانتفخت أوداجه، ونظر إلى الذي واجهه شذراً، فإننا نضطر والحالة هذه إلى العلم بغضبه، ولا يقدح في ذلك تجويزنا أن يكون ذلك من خلق الله ابتداءً، من غير غضب فيه أو لثواران. أخلاط اتفق في ذلك الوقت وجدانها، وكذلك هاهنا.

والذي يوضح ما قلناه: أن الخلق في الأعصار الماضية مازالوا مدعويين بدعوى الأنبياء، وكان الأكثرون يبذلون قصارى الجهود في الطعن في معجزاتهم، فتارة يقولون إنها مخرفة، وأخرى أنها سحر، ولم ينقل عن أحد منهم أنه اعترف بأن الظاهر على يد المتحدى خارج عن مقدور البشر ومتميز عن السحر والشعبذة والكرامات مع ظهورها على وفق دعواه، وعجز الكافة عن معارضته، ثم استراب في وجه دلالة المعجزة، بل إنما كانوا يستريبون في شرائط المعجزات فعلمنا أن تعلق المعجزة باقتضاء التصديق مع العلم بشرائطها معلوم اضطراراً، ثم إذ لو كان للنظر فيه مجال لاستراب فيه من سبق، ولو استرابوا لنقل، فلما لم ينقل — شىء — (١) من ذلك دلَّ على ما ذكرناه (٢).

فإن قيل: إن سلمنا لكم أن المعجزة في دلالتها على الصدق تنزل منزلة التصديق بالقول، لكنه لم يتم غرضكم إلا بإثبات استحالة الكذب على الله تعالى، فما الدليل على ذلك ؟.

قال الإمام: (٣) أما الرسالة، فإنها تثبت في الحال، ولا يتعلق إثباتها بأخبار

(١) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٢) قارن الإرشاد: ص ٣٣٠.

(٣) يقصد إمام الحرمين — رحمه الله تعالى — وواضح اعتماد الرازي عليه كلية في هذا الباب.

تتعدى للصدق والكذب ، فكأن المرسل قال للرسول: جعلتك رسولا، وسبيل ذلك كسبيل قول القائل: وكلتك فى أمرى فى أنه توكيل ناجز يستوى فيه الصادق والكاذب، فإن الفرض توجيه الأمر بالاستغال باقى، وذلك مما لا يدخله الصدق والكذب، وإن كان اللفظ مشعر بالإخبار فكذلك هاهنا.

ثم قال: ولكن لا يثبت صدق الرسول بعد ثبوت الرسالة فيما يشرعه من الأحكام إلا بعد القطع باستحالة الكذب على الله تعالى، لأن النبى يعتضد فيما يدعيه من صدق نفسه بتصديق الله إياه، وذلك لا يتقرر إلا إذا كان الكذب على — الله —^(١) محالاً، لكننا قد دللنا على هذا فيما سبق فلا نعيده ثانياً^(٢).

فإن قيل: هل فى المقدور إظهار المعجزة على أيدى الكذابين؟^(٣).

قلنا: أما الشيخ أبو الحسن فقد ادعى أن ذلك من المستحيلات، وفيما ذكره نظر؛ لأن خرق العادة فى الجملة مقدور لله تعالى، فلو خرج عن المقدورية عند تحدى الكاذب، لكان ذلك قلب الأجناس، ولأنه لو انقلب انخراق العوائد من الإمكان إلى الاستحالة بعد تحدى الكاذب، لجاز أن ينقلب من الاستحالة إلى الإمكان عند قيام

(١) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ٣٣٢ — ٣٣٣ ، وانظر ص : ١٥٧ وما بعدها.

(٣) ذهب الشيخ الأشعرى — رحمه الله تعالى — إلى استحالة ظهور المعجزة على يد الكاذب، لنلا يختلط الصادق بالكاذب، فيلزم كونه صادقاً كاذباً وهو محال.

وذهب القاضى الباقلانى وتبعه متأخرو الأشاعرة إلى جواز ذلك، ولكن بشرط قلب العادة فى ملازمة العلم الضرورى بالتصديق لإظهار المعجزة على يده، وأما مع عدم خرق العادة، فلا يتصور إظهار المعجزة على يده، لما فيه من العلم الضرورى بصدق من ليس بصادق وهو محال. انظر أبعاد الأفكار : ٦٣/٤.

زيد أو قعوده، وكل ذلك مما لا يجوز المصير إليه^(١).

فلم تنق إلا طريقة القاضي^(٢) وهى أن ذلك مقدور، وقد بينا أن العلم باقتدار الرب على إظهارها على يد الكاذب لا يقدح فى العلم الضرورى بأنها دليل الصدق، كما أن العلم باقتدار الرب على حمرة الغضبان من دون الغضب لا يقدح فى العلم الضرورى بالغضب، إذا رأينا احمرار وجهه، وهذا واضح.

(١) يلاحظ رفض الرازى لرأى الشيخ الأشعرى هنا، لكنه عاد فى بقية كتبه الأخرى وأخذ برأى الشيخ مفضلاً إياه على رأى القاضي لنلا يختلط الصادق بالكاذب، وهو محال. انظر المحصل: ص ٢١٤، والمعالم: ص ١٠٥، والمطالب العالية: ٣٣/٨ وما بعدها.

(٢) يقصد القاضي الباقلانى - رحمه الله تعالى -.

ولتحقيق رأيه: انظر شرح المواقف: ٢٥٤/٨، وشرح المقاصد: ٢٧٩/٣.

الفصل الرابع

فى حقيقة السحر والكرامات

والميز بينها وبين المعجزات^(١)

(١) ذهب المنكرون للنبوة إلى القدح فى المعجزات، ومن أدلتهم أن المعجزة لو ظهرت على يد النبى لا تدل على صدقه فى دعوى النبوة، وذلك لأننا لا نستطيع التمييز بينها وبين السحر والكرامة، وكلاهما معترف به عند أهل السنة، لذا عقد الرازى هذا الفصل ليفرق بين المعجزة وبين كلاً من السحر والكرامة ، هذا وقد ذهب أهل السنة إلى أن خوارق العادات سبعة وهى:—

أ — المعجزة: وهى المقرونة بالتحدى التى يظهرها الله تعالى على يد مدعى النبوة على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله.

ب — الإرهاس: وهو أمر خارق للعادة وقع قبل البعثة، سواء صدر من النبى أو لا . ومثله ما وقع لرسولنا الكريم — ﷺ — من النور الذى كان ينتقل من أصلاب آبائه، وسقوط ديوان كسرى، وتسليم الحجر والشجر عليه وغير ذلك.

ج — الكرامة: وهى أمر خارق للعادة ظهر من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة مقروناً بالإيمان والعمل الصالح، ولا بد ممن تظهر منه الكرامة أن يكون ولياً لله ﷻ وعرفوه بأنه: العارف بالله تعالى وصفاته حسبما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصى، المعرض عن الاتهامك فى اللذات والشهوات.

د — المعونة: وهى أمر خارق للعادة صدر من عوام المسلمين تخلصاً لهم من المحن والمكاره.

اعلم أن السحر عبارة عن رُقَى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق عقبيها
أموراً مثل: افتراق المتحابين، والأكثر من الأئمة جوزوا تولج الساحر فى
الروزنة الضيقة، والانتصاب على رأس القصة، والطيران فى الهواء، ولا تتعلق
قدرته إلا بما فى محل قدرته، فأما المبين كالمحبة والعداوة، فإنه يستحيل اقتداره
عليها.

وقد أجمعت الأئمة على أنه لا يتوصل بالسحر إلى إحياء الموتى، وإبراء
الأكمه والأبرص، وإنطاق البهائم^(١).

هـ الاستدراج: وهو أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقرون بالإيمان والعمل الصالح
موافقاً لغرضه.

و — الإهانة: وهى أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقرون بالإيمان والعمل الصالح
غير موافق لغرضه، كما حدث لمسيمة الكذاب عندما دعا للأعور أن يصير عينه العوراء
صحيحة، فصارت عينه الصحيحة عوراء.

ن — السحر: عرفه صاحب المقاصد بأنه: إظهار أمر خارق للعادة من نفس شريرة خبيثة
بمباشرة أعمال مخصوصة يجرى فيها التعلم والتلمذ.

وقد ذهب الأشاعرة إلى أن المعجزة تتميز عن هذه الخوارق بأنها مقرونة بالتحدى، بخلاف
سائر الخوارق الأخرى.

(١) ذهب الأشاعرة إلى أن السحر جائز عقلاً، ثابت سمعاً، ولكن المؤثر والخالق هو الله وحده.

وذهبت المعتزلة إلى إنكاره زاعمين أنه مجرد إرادة ما لا حقيقة له بمنزلة الشعبة التى
سببها خفة حركة اليد، أو خفاء وجه الحيلة فيه.

ومما يدل على إثبات السحر من القرآن والسنة:—

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا
إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ * فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾
(البقرة: ١٠٢: ١٠٣)

وأما الكرامات: فهي أن يخرق الله تعالى العادة لدعوة الأولياء، وذلك جائز باتفاق العلماء إلا الأستاذ أبا إسحاق، فإنه وافق المعتزلة في المنع منها،^(١) واختلفوا اختلافاً كثيراً لا يليق بهذا المعتقد شرحه فيما يجوز ظهوره من خوارق العادات على أيدي الأولياء، والذي اختاره المحققون أنه يجوز ظهور جميع خوارق العادات على أيدي الأولياء^(٢).

ومن ذلك: سورة الفلق التي نزلت فيما كان من سحر ليبيد بن أعصم لرسول الله ﷺ — حتى مرض ثلاث ليال. رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

كما روى أن جارية سحرت عائشة رضي الله عنها، كما سحر ابن عمر رضي الله عنهما فتَوَعَّكَتْ يده. رواه أحمد في مسنده. للمزيد من التفاصيل: انظر شرح المواقف: ٢٦٠/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٣٣٢/٣ وما بعدها.

(١) اعلم أن كرامات الأولياء جائزة عند الأشاعرة — أي لا يستحيل على الله تعالى خلقها — خلافاً للمعتزلة، وقال الأشاعرة بوقوعها فعلاً ماعدا الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني والقاضي الحلبي، ووافقهما أبو الحسين البصري من المعتزلة.

ومما يدل على جوازها عقلاً: أنها أمر ممكن، إذ ليس يلزم من فرض وقوعها محال لذاته، وكل ممكن فهو مقدور لله تعالى، وأما ما يدل على وقوعها فعلاً فمثلاً: قصة مريم حيث حبلت من غير أن يمسه بشر، ووجد الرزق عندها بلا سبب، ولا يلتفت إلى قول من قال إن ذلك معجزة لذكرى عليها السلام، أو إرهاباً لسيدنا عيسى عليه السلام، وأيضاً قصة آصف وهي إحضاره عرش بلقيس من مسافة بيده في طرفة عين، وغير ذلك. انظر شرح المواقف: ٢٦١/٨، ونشر الطوالع: ص ٣٤٥ وما بعدها.

والحق أن الأستاذ أبا إسحاق الأسفراييني لم ينكر وجود الكرامات مطلقاً، ولكنه ذهب إلى أن الكرامات الظاهرة على أيدي الأولياء لا تبلغ مبلغ المعجزات الخارقة للعادة تفرقة بينها وبين المعجزات، فما ظهر على يد الأنبياء من المعجزات، لا يجوز وقوع مثلها للأولياء. انظر أبحار الأفكار للآمدى: ٥٩/٤.

(٢) قدمنا أن رأى الأشاعرة هو جواز ظهور الكرامات على أيدي الأولياء، ثم اختلفوا:—

واعلم أن النصوص للكتاب، وإجماع الأمة ناطقة بإثبات السحر والكرامات
فمنها:—

قصة أصحاب الكهف، ومنها قصة أم موسى من إلهام الله تعالى إياها حتى
طابت نفساً بإلقاء موسى — عليه السلام — في اليم ، ومنها قصة مريم وتساقط الرطب
الجنى من الشجرة اليابسة،^(١) ومنها تسليم الحجر والشجر وتسبيح الحصى مع نبينا
— ﷺ —،^(٢) وكل ذلك من الكرامات لاستحالة تقدم المعجزات على التحدى.

فذهب الأستاذ أبو اسحاق إلى أن الكرامات الظاهرة على أيدي الأولياء، لا تبلغ مبلغ
المعجزات الخارقة للعادوةذهب الباقر إلى جواز ذلك، ولكن اختلفوا:—
فمنهم من قال: إن الكرامات لا تقع مع القصد والاختيار، بل لو قصد الولي إيقاعها لما
وقعت، تفرقة بينها وبين المعجزات.

وذهب الأكثرون منهم إلى جواز وقوعها مع الاختيار، ثم اختلف هؤلاء ، فى جواز وقوعها
مع الدعوى من الولي

فذهب الأكثرون إلى المنع من ذلك، تفرقة بينها وبين المعجزات.
وذهب القاضى الباقلاتى إلى أن ذلك غير ممتنع فى العقل، لكن بشرط ألا يكون ادعاؤه لذلك
على طريق التعظيم والخيلاء، فإن ذلك ليس من شعار الأولياء والصالحين.
انظر الإرشاد: ص ٣١٦ — ٣١٧، وانظر أبحار الأفكار للآمدى: ٥٩/٤.

(١) قال تعالى ﴿ وَهَرَيَّ إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم: ٢٥)
(٢) الحق أن تسبيح الحصى فى يده الشريفة — ﷺ — ليس كرامة له — ﷺ — بل هو من قبيل
معجزاته — ﷺ —.

ونص الحديث: عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — أنه قال: كنا عند رسول الله — ﷺ — فأخذ كفاً
من حصى فسبحن فى يده حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن فى يد أبى بكر، ثم فى يد عمر،
ثم فى يد عثمان، ثم فى أيدينا واحداً واحداً، فلم تسبح. أخرجه البيهقي فى دلائل النبوة:
٦٤/٦، باب ما جاء فى تسبيح الحصيات فى كف النبى ﷺ .

وأما السحر: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ سَائِلَ هَارُونَ وَمَرُوتَ وَمَا يُمْلِكَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: ١٠٢) والأخبار فيه كثيرة^(١).

فإن قيل: فبم تعرفون المعجزات من السحر والكرامات؟.

قلنا: أما الكرامات فتتميز عن المعجزات من حيث إن المعجزات تحصل عقيب التحدى بالنبوة، بخلاف الكرامات،^(٢) وبهذا الوجه تمتاز عن السحر إن قُدِّر حصول السحر على وفق دعوى الساحر النبوة، فإن الله تعالى يقيض غيره من السحرة حتى يقابلونه بمثله؛ لأننا قد بينا أن إجراء العادة بحصول العلم الضروري عقيب ظهور المعجزات على أيدي الأنبياء يدل على أنه سبق في علمه الأزلى وإرادته الأزلية أنه لا يظهر شيء منها على أيدي الكاذبين على ما شرحناه، وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع، فهذا ما تمتاز به المعجزة عن الكرامة والسحر^(٣).

ولم يبق علينا من إشكالات المعجزات إلا شبه ثلاث:—

أولها: أن قالوا: قد علمنا أن العالم لا يخلو عن أجسام مختصة بطبائع تقتضى تأثيرات عجيبة كحجر المغناطيس في جذبة الحديد، والامطار بنتى يحدث من اتصال بعض الأحجار، وهبوب الرياح عند تحريك ماء مخصوص، ثم علم الطلسمات واستسغار الكواكب علوم مشهورة يحدث بسببها من العجائب ما لا تحصي، فما أنكرتم أن ما أتى به هذا المدعى من هذا الجنس^(٤)؟.

(١) انظر الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٢٢ .

(٢) انظر المحصل ص ٢٢١ .

(٣) قارن شرح المواقف: ٨/٢٦٣ .

(٤) قارن الأربعين في أصول الدين: ص ٣١١، والمحصل: ص ٢١٠، وشرح المواقف:

وثانيتهما: أن المدعى إذا ادعى الرسالة فللمدعو أن يقول: العلم بالرسول يترتب على العلم بالمرسل وصفاته الواجبة، وأنه يجوز منه ابتعاث الرسل، وكيفية دلالة المعجزة على صدق المدعى، وأن ما أتى به هذا المدعى معجزة، وهذا يستدعي نظراً كثيراً وزماناً طويلاً، فأمهلنى حتى أنظر فى هذه الأبواب، فإن لم يمهله فقد كلفه ما لا يطيقه، وإن أمهله فيجب أن لا يعود إليه حتى ينتهى النظر نهايته، ولا يتقدر ذلك بزمان معين، لاختلاف أذهان الناس، ثم إن عاد إليهم، فلهم أن يقولوا: نحن فى مهلة النظر، ولم يثبت بعد عندنا شىء من هذه المراتب، فيؤدى إلى إفحام الأنبياء^(١).

وثالثها: أن قالوا: حصرتم مدرك الوجوب فى الشرع، فإذا جاء النبى، وأظهر المعجزة، فللمدعو أن يقول: لا يجب على النظر فى معجزتك إلا بالشرع، ولا يستقر عندى الشرع إلا إذا نظرت فى معجزتك، فإذا أنظر حتى لا أعلم صدقك، حتى لا تجب على متابعتك، فيؤدى إلى إفحام الأنبياء^(٢).

والجواب عن الشبهة الأولى أن نقول: لو جاز إسناد المعجزات إلى الخواص والطبائع لزم أن لا يبعد — على —^(٣) العاقل أن يكون لبعض الأجسام خواص لو يُمكن المرء منها، لأخر من الموت، وتمكن من تسيير الجبال، وتحسير الهباء، وتصديق تراكيب الأرض والسماء، وإنبات الحيوانات، ومن جوز ذلك كان عن

٢٦١/٨ وما بعدها.

(١) قارن شرح المواقف: ٢٥٥/٨ — ٢٥٦.

(٢) هذا بناء على القول بالدور، فإذا دلت المعجزة على أن المدعى صادق، فهو لا يوجب صدقه إلا بعد استحالة الكذب فى إخبار الله تعالى، ولا سبيل إلى ذلك بدليل السمع. انظر شرح المقاصد: ٢٧٨/٣.

(٣) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

المعقول خارجاً، وفي تيه الجهل والجا.

وأيضاً: فلأن النبي بالاطلاع على تلك الخاصية مع عجز الخلق عن معارضته بعد بذل المجهود، ومرور الأيام من أصدق الدلائل على صدقه^(١).

والجواب عن الشبهة الثانية أن نقول: لا يجب على النبي إمهال المدعو، لأن ما يتوقف عليه العلم بصدق الرسل من معرفة الصانع أن يعلم أن لهذا العالم المتغير مُغيراً لا يشاركه فيما احتاج إليه، وهو الإمكان وهذا ضروري، أو قريب منه أن يعلم أنه عالم قادر، والعلم بذلك أيضاً قريب من الضرورة، ولأن العقلاء قاطعون باستحالة صدور الفعل المحكم ممن ليس بعالم، وأن يعلم وجه دلالة المعجزة على صدق المدعى، وهذا أيضاً كما قررناه ضروري، فالمدعو إن كان عالماً بما ذكرناه أمكنه أن يعلم صدق الرسول، فلا يتمكن من الاستمهال، وإن لم يكن عالماً بذلك، فالظاهر أن لا يكون كامل العقل، وإن كان فحق على النبي أن ينبهه، ويرشده إليه، وحصل العلم له بذلك فيما يقدر،^(٢) ألا ترى أن أول كلام نوح مع قومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (المؤمنون: ٢٣) فنبهه على الدليل على الصانع، ثم قال: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَن جَاءَكُم مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ مِّنكُمْ يُنذِرُكُمْ﴾ (الأعراف: ٦٣) وكذلك إبراهيم قال لأبيه آزر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَتَاكَ بِتِلْكَ الْأَعْصَاءِ إِلهَةً﴾ (الأنعام: ٧٤) ، ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ (مريم: ٤٣) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ (مريم: ٤٢).

والقرآن وهو معجزة سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه ابتداء بدلائل التوحيد

(١) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣١١-٣١٢.

(٢) قارن شرح المواقف: ٢٥٥/٨-٢٥٦.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)
فالآية معناها دليل على وجود الصانع، وبظاهر لفظها البليغ دليل على النبوة، ومن
عرف دعوة الأنبياء، والفحص عن كیفيتها قطع بما ذكرناه.

والجواب عن الشبهة الثالثة أن نقول: إذا ورد الشرع وأيد بالمعجزات، فقد
ثبت الشرع واستقر، ولا يتوقف وجوبه على علمه بالوجوب، بل يكفي فيه تمكنه
من العلم بالوجوب، كما أن الأب إذا قال لولده التفت فإن ورائك سبعا ضاريا، فإنه
يجب عليه الالتفات، وإن لم يكن عالما بوجوبه عليه، حتى أنه لو قال إنما يجب
علي الالتفات أن لو أعرف أن ورائي سبعا، ولا أعرف أن ورائي سبعا، مالم
ألتفت، فلا التفت حتى لا يجب على الاحتراز، فلو افترسه السبع والحالة هذه، لم
يكن معذورا، كذلك هاهنا، وعند المعتزلة: الإنسان لا يعلم أنه مأمور بالصوم مثلا
إلا عند مضي جملة اليوم، مع أنه لو ترك الصوم في ابتداء اليوم عدا عاصيا
بالاتفاق، فكذلك هاهنا، هذا جملة ما أردنا ذكره من أحكام المعجزات، واستقصاء
الكلام منه لا يليق بهذا المعتقد^(١).

(١) تكلم الرازي — رحمه الله تعالى — في بقية كتبه الأخرى عن الشبه على دلالة المعجزة
على صدق الرسول، والتي لم يذكرها هاهنا ومنها:—
أ — أن لا يكون هذا الخارق للعادة لغرض التصديق خاصة وأن الأشاعرة يقولون بعدم تعليل
أفعاله تعالى بالأغراض، أو يكون كرامة لولي، أو معجزة لنبي آخر في طرف آخر من
أطراف العالم.

والرد : أن قول الأشاعرة بعدم تعليل أفعاله تعالى بالأغراض ليس على إطلاقه بدليل أن الله
ﷻ قد علل بعض أفعاله كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
(الذريات: ٥٦) ومن ثم فالمعجزة حدثت من الله تعالى لغرض التصديق.

ب — أن يكون ذلك إرهابا لنبي آخر يأتي بعد ذلك، كالأحوال التي ظهرت على النبي — ﷺ —
— قبيل بعثته، وكانور الذي يروى أنه كان يظهر في جبين أبيه ﷺ.

والرد: لا يحتمل أن يكون المقصود من خلق المعجزات أموراً آخر كأن تكون كرامة لولى، أو معجزة لنبي آخر، أو إرهاباً لنبي آخر؛ لأن حصول المعجزة متعين للدلالة على حصول التصديق.

ودليله: أن موسى عليه السلام، لما قال: إلهي إن كنت صادقاً في ادعاء الرسالة، فاجعل هذا الجبل واقفاً في الهواء فوق رؤوسهم، ثم إن القوم يشاهدون أنهم كلما آمنوا به تباعد الجبل عنهم، وكلما همؤا بتكذيبه قرب أن يسقط عليهم، فعند هذا يعلم كل أحد بالضرورة أن المقصود من هذا الإظلال تصديق المدعى في ادعاء الرسالة.

ج — أن يكون الخارق للعادة امتحاناً لعقول المكلفين، كما أنزل الله تعالى المتشابهات امتحاناً لعقولهم.

والرد: أن امتحان عقول المكلفين لا يكون بإظهار المعجزات، ولكن يكون بالتكاليف الشاقة الحاصلة لهم من اتباع الشريعة، وهذا إنما يأتي بعد ثبوت الرسالة واستقرارها.

انظر: المحصل للرازي: ص ٢١٠ — ٢١٢، والأربعين في أصول الدين: ص ٣١٥، وما بعدها، والمطالب العالية: ٥/٨ — ٥٧، والنبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ٣٣ — ٣٤، واحرص على ما فيه فهو نفيس .

الباب الثانى

فى إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى إقامة الدلالة على نبوته ﷺ (١)

(١) كان العالم قبل بعثة رسولنا الكريم - ﷺ - فى حاجة إليه، حيث كانت تجتاحه حالة من الفوضى والاضطراب فى جميع النواحي الدينية والخلقية والسياسية والاجتماعية.

فى الناحية الدينية كان الفرس يعبدون إلهين: إله للخير وإله للشر، وكان اليهود على دين التشبيه حيث شبهوا الله تعالى بخلقه، فنسبوا إليه الغضب والرضا وأنه يستلقى على قفاه - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وقد حرقوا التوراة مدعين أنهم شعب الله المختار، وعملوا على نشر الفساد فى العالم.

وكان النصارى معتقدين أن المسيح ابن الله، أو هو الله نفسه تجسد فى عيسى، وعلى حدّ تعبيرهم حلّ اللاهوت فى الناسوت، ويدعون أن اليهود قتلوا المسيح، وأنه قام مرة أخرى وزعموا أن الله ثالث ثلاثة، فكفروا بذلك، وجعلوا واسطتهم عند الله تعالى القسوس والرهبان الذين سنّوا لهم الاعتراف، مما جعل أتباعهم فى حيرة وضلال.

وكان الهنود يعبدون البقر والأحجار والأشجار.

وقد انعكست هذه الخرافات الدينية على الحياة السياسية حيث كان الملوك يتحكمون باسم الكهنة فى رعاياهم، ويحسبونهم عبيداً لهم خلقوا لخدمتهم، مما دفع الملوك إلى ظلم أتباعهم، وإتقال كواهلهم بالضرائب الباهظة وغير ذلك.

وأدى هذا الظلم الاجتماعى إلى فساد الأخلاق وخراب الذمم، وعمّ الفسق والفساد، ويحكى صاحب المقاصد - رحمه الله تعالى - أن الفرس كانوا يطنون أمهاتهم وأخواتهم.

ولم يكن العرب بمعزل عن ذلك، بل سادت الفوضى بينهم وعمّ الاضطراب، حيث كانوا قبائل متفرقة، كل قبيلة تعبد صنماً، وتعدى القبيلة الأخرى، ولا فخر لهم إلا بالقتال للنهب وسفك الدماء وسبى النساء والأطفال، بل وصل بهم الحد إلى وأد البنات، وعقد الأتكة الباطلة

ثم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من ذهب إلى امتناع^(١) ذلك لاعتقاده امتناع النسخ عقلاً،^(٢) وتمسكوا فيه بأن قالوا:—^(٣) إذا أمر الله تعالى بشيء، إما أن يكون الأمر

وغير ذلك.

من أجل ذلك وغيره كانت الدنيا فى حاجة إلى من ينقذها من تيه الجهل والضلال، وقد استجاب الله تعالى لدعوة العقلاء، وأرسل رسوله — ﷺ — بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

وقد ذهب أهل السنة إلى أن محمداً رسول الله — ﷺ — بدليل نظمته هكذا:— محمد — ﷺ — ادعى الرسالة، وأيّده الله تعالى بالمعجزة، وكل من كان كذلك يكون رسول الله. إذن محمد — ﷺ — رسول الله.

أما أنه — ﷺ — ادعى الرسالة فهو أمر ثبت بالتواتر الحسى والمعنوى، وأما تأييده — ﷺ — بالمعجزات، فهو متواتر أيضاً، وهذه المعجزات هي:— أ — القرآن الكريم. ب — إخباره عن المغيبات. ج — معجزاته الحسية.

وسوف نتكلم عن كل معجزة على حدة إن شاء الله تعالى. للمزيد من التفاصيل انظر:— شرح المقاصد: ٢٨٦/٣، و ٢٩٩ — ٣٠٠، والنبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام لأستاذنا الدكتور الصافى: ص ٣٦ — ٣٧.

(١) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

(٢) هذا هو رأى جمهور اليهود خاصة طائفة الربانيين، الذين ذهبوا إلى أن نسخ الشرائع محال، ويدعون أن الشريعة بدأت بموسى — عليه السلام — وانتهت به، ولا يجوز نسخها، لأن النسخ بداء، ولا يجوز البداء على الله تعالى. انظر الملل والنحل للشهرستانى: ٢١٠/١ وما بعدها، والفصل لابن حزم: ١٧٨/١.

(٣) حاصل رأى اليهود القائلين باستحالة النسخ عقلاً هو:—

لو كان محمد نبياً لجاز القول بنسخ الشرائع، والنسخ فى نفسه محال، وبيانه:— أنه تعالى إذا أمر بشيء فذلك يدل على حسنه وكونه مراداً، وأن فيه مصلحة، فلو نهى عنه، فالنهى عن الشيء يدل على قبحه، وكونه غير مراد، وأنه لا مصلحة فيه، ويلزم من

متعلقاً بالفعل دائماً، أو كان متعلقاً بالفعل فى أوقات مخصوصة، فإن لم يتعلق الأمر بالفعل مطلقاً فى جميع الأوقات، مع ان الظواهر المنقولة إلينا مشعرة بذلك، كان ذلك تلبساً؛ لأنه لا يدل على أن المأمور بخلاف ما يفهم من هذه الظواهر، ولو جاز ذلك جاز تأخير بيان المجمل والعموم، ولما كان فى الإمكان تعريفنا تأييد شريعة من الشرائع، ولكان ذلك أمراً باعتقاد وجوب الفعل فى جميع الأوقات مع أنه ليس كذلك فى نفسه، فيكون أمراً بالجهل، وذلك قبيح.

ولو كان الأمر متعلقاً به أبداً فالنهي عنه بعد ذلك إما أن يرفع الحكم السابق أو لا يرفعه، ومحال أن يرفعه، لأنه ليس انقطاع الحكم السابق لطروء الحكم الذى فرض حدوثه بأولى من امتناع ثبوت الحكم الثانى لوجوب ثبوت الحكم الأول.

وإن لم يرفعه كان الحكم السابق ثابتاً وصار منسوخاً، ولأنه يلزم أن يكون الله تعالى أمراً بالشئ وناهياً عنه دفعة واحدة، وذلك محال^(١).

وأيضاً فلأن من شأن الأمر اقتضاء الفعل به فى المأمور مطلقاً، كما أن من شأن تعلق القدرة بالإيجاد بها مطلقاً، فكما أنه يتوقف انصراف القدرة القديمة عن شئ إلى شئ على الإرادة، كذلك يتوقف انصراف تعلق الأمر القديم عن شئ إلى شئ على الإرادة، فعلى هذا لو كان أمر الله تعالى متعلقاً بالفعل مطلقاً كانت إرادته متعلقة بأن يكون أمره متعلقاً به مطلقاً، فلو نهى عن ذلك الفعل فى بعض الأوقات كانت إرادته متعلقة بأن يكون نهيه متعلقاً به فى ذلك الوقت، فيلزم منه أن

ذلك قلب الحسن قبيحاً، والمراد غير مراد، والمصلحة مفسدة، ويلزم منه أيضاً البداء على الله تعالى، وأنه ظهر له ما لم يكن ظاهراً قبله، والندم بعد الأمر والطلب، وكل ذلك ممتنع فى حق الله تعالى. انظر أبحاث الأفكار للأمدى: ١١١/٤ - ١١٢.

(١) هذا هو البداء ومعناه: ظهور الشئ، بعد أن لم يكن، وهو محال فى حق الله تعالى.

يكون مريداً لأن يتعلق أمره ونهيه بالفعل الواحد في الوقت الواحد، وذلك محال^(١).
ومما أبطل به هذا القسم قول بعضهم: لو كان الأمر متعلقاً بالفعل دائماً كان الله عالماً، لأن الأمر متعلق بذلك الفعل دائماً، فلو انقطع في بعض الأوقات تعلق الأمر عنه، لزم انقلاب علمه تعالى جهلاً، وذلك محال، وهذا فيه نظر؛ لأن علم الله تعالى كما أنه متعلق بأن الأمر متعلق به في جميع الأوقات، فهو أيضاً يتعلق بأنه ينقطع هذا التعلق في الوقت الفلاني لتعلق النهي به في ذلك الوقت، فإذا نهى عنه فلا يلزم منه انقلاب علمه تعالى جهلاً^(٢).

ومما يبطل هذا القسم على القول بأن الحسن والقبح صفات راجعة إلى الأفعال^(٣) أن لو كان الأمر متعلقاً به أبداً لاقتضى ذلك وجوب فعله أبداً، ووجوب العزم على فعله أبداً، ووجوب اعتقادنا وجوبه أبداً، وإستحقاق الثواب عليه أبداً، فلو نهى الله عنه في المستقبل دلّ نهيه على أنه قد خفى عليه من حُسن تلك الأفعال ما كان ظاهراً له، أو ظهر له من قبحها ما كان خفياً عليه، وأنه قصد النهي عما يعلمه حسناً، وكل ذلك على الله تعالى محال^(٤).

واعلم أن العلماء قد اختلفوا في حقيقة النسخ،^(٥) والقاضى اختار هذا القسم الثانى وحده،^(٦) لأن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على

(١) قارن المحصل للرازى: ص ٢١٢، والمحصل فى علم الأصول له أيضاً: ٤٣٧/٢.

(٢) هذا هو رأى إمام الحرمين — رحمه الله تعالى —. انظر الإرشاد: ص ٣٤١.

(٣) هذا هو رأى المعتزلة.

(٤) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار: ص ٥٧٦ وما بعدها.

(٥) النسخ فى اللغة بمعنى إبطال الشيء، وقال البعض: إنه النقل والتحويل، وقيل: الرفع والإزالة. انظر المحصول للرازى: ٤٣٢/١.

(٦) ذهب القاضى الباقلانى — رحمه الله تعالى — وتبعه الغزالى إلى أن معنى النسخ فى

وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه، ونحن نختار القسم الأول وهو أن يكون النسخ بياناً لانتهاه مدة العبادة، وهو مذهب الأستاذ أبي إسحاق والأكثرين من الفقهاء والمعتزلة^(١)، ويبطل مذهب القاضي بما ذكرناه في ضمن الشبهة، والذي يدل على صحة ما ذهبنا إليه: أن محل ما يُتَعَبَدُ الله به يجوز أن يقبح في المستقبل، فإذا قُبِحَ حُسْنُ النهى عنه، ألا ترى أنه يحسن أن يقول الله تعالى: — صوموا السبت ما عشتُم إلا السبت الفلاني، وأيضاً فلأنه يجوز أن يكون الفعل مصلحة في وقت ومفسدة في وقت آخر، كما أن الترفق بالصبي مصلحة في وقت ومفسدة في وقت آخر، فكما أن ما ذكرناه جائز، فكذلك لا يبعد أن تكون بعض الأفعال مصلحة في وقت، فيحسن الأمر بها وفي وقت آخر مفسدة فيحسن النهى عنها، هذا إذا قلنا بأن التكليف موضوعاً لمصالح العباد، فأما على مذهبنا^(٢) فلا يخفى جوازه، إذ لا يبعد أن يقول السيد لغلام اشتغل بالزراعة ثم إنه ينهأ عن ذلك بعده، وما استروحوا إليه من أنه لو جاز ذلك لجاز تأخير البيان عن المجمل والمخصص عن العام بدوام وجوب الفعل.

قلنا: وذلك أيضاً عندنا جائز بناء على القول بأن أفعال الله تعالى حسنة، وإن سلمنا بأن التلبيس قبيح، لكننا نقول: التلبيس إنما يكون قبيحاً إذا لم يكن الحكم ما

الاصطلاح هو: — الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه، وذهب الأستاذ والمعتزلة إلى أن معنى النسخ اصطلاحاً هو: بيان انتهاء مدة العبادة ومعناه: أن النسخ لا يرفع حكماً ثانياً، وإنما يبين انتهاء مدة شرعية. انظر المحصول للرازي: ٤٣٣/١، وقارن الإرشاد: ص ٣٣٩.

(١) واضح تأثر الإمام الرازي بالمعتزلة. قارن شرح الأصول الخمسة: ص ٥٧٧، والإرشاد: ص ٣٣٩.

(٢) يقصد الأشاعرة.

يجب بيانه مما يحتاج المكلف إليه، فأما ما لا يحتاج إليه فلا التباس في فقد بيانه، ومعلوم بأنه لا يحتاج المكلف إلى معرفة وقت ارتفاع العبادة^(١)، وأما أبو الحسين^(٢) فإنه أوجب أن يُشعر الأمر الحكيم مأموره بأنه سيفسخ عنه ذلك الحكم، وإذا فعل ذلك لم يكن قد أوهم الباطل لأننا مع الشعور به لا نقدم على اعتقاد التأييد^(٣)، فقد اندفعت شبهة اليهود^(٤).

ومن اليهود من ذهب إلى امتناع النسخ شرعاً، واحتج بأنه ورد في التوراة: {تمسكوا بالسبب أبداً} وقالوا: بأن موسى عليه السلام أخبر أن شريعته لا تنسخ^(٥).

قلنا: هذا أيضا باطل، لأنه لو كان في شريعة موسى عليه السلام ما يدل على استمرار شريعته لوجب اشتهاؤه، لأن ذلك من الأمور التي تتوفر الدواعي على نقلها، كما أنه لما كان في شريعة محمد ﷺ — ما يدل على ذلك لاجرم اشتهاؤه، وكان بالحرى أن يحتج به اليهود الذين عاصروا النبي — عليه السلام، ولو كان كذلك، لعلمنا ذلك

(١) قارن المحصول للرازي: ٤٤١/١.

(٢) يقصد أبو الحسين البصري أحد أئمة المعتزلة، تقدمت ترجمته.

(٣) قارن المحصول: ص ٤٤١.

(٤) للمزيد من التفاصيل للرد على اليهود انظر: أبحار الأفكار للآمدي: ١٣٩ / ٤ — ١٤٠، وشرح المواقف: ٢٨٦/٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٣٠٣/٣ — ٣٠٤ وغير ذلك.

(٥) هذه هي شبهة فرقة العنانية من اليهود وحاصلها:—

قالوا: يتمتع نسخ دين موسى عليه السلام لوجهين:—

الأول: أن موسى عليه السلام أخبر بعدم نسخ دينه، وخبر موسى صادق لكونه نبياً، فإذا نسخ دين موسى عليه السلام باطل.

وأما الدليل على أنه قد أخبر بعدم نسخ دينه فما ورد في شريعته من القول بتأييدها مثل: {تمسكوا بالسبب مادامت السماوات والأرض} ، وقوله: {هذه شريعة مؤبدة} وقوله: {لا تقبلوا من نبي أتاكم بغير هذه الشريعة} . انظر النبوات والسمعيات: ص ٦١.

ضرورة، كما يعلمون من ديننا ضرورة أن نبينا — ﷺ — أخبر بأنه خاتم النبيين،^(١) فلما لم يحتجوا بذلك في زمان النبي — ﷺ — ولا في زمان عيسى عليه السلام، ولم نعلم من دينهم أن موسى عليه السلام أخبر بذلك، علمنا بأن ذلك كذب محض وافتراء صريح على موسى عليه السلام، على قولهم، مع أنهم قد غيروا التوراة، ويحكي بأنهم تلقنوا هذا الكلام من ابن الراوندى،^(٢) ومنهم من ذهب إلى أن عيسى ومحمداً — صلى الله عليهما وسلم — كانا مبعوثين إلى قومهما خاصة،^(٣) وسنبطل ذلك في آخر الفصل.

(١) قال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

(٢) حاصل الرد عليهم هو: أن هذا الكلام افتراء على موسى عليه السلام، ودعوى تواتره مكابرة، لأنه لو صح لما ظهرت المعجزات على يد عيسى ومحمد عليهما السلام، كذلك لو كان هذا الكلام متواتراً عنه لأظهره اليهود في زمن عيسى ومحمد عليهما السلام احتجاجاً عليهما، ولو أظهروه لاشتهر لتوفر الدواعي على نقله، فلا تواتر أصلاً.

والحق أن الذى اختلق تلك النصوص هو ابن الرواندى، أضف إلى ذلك أن المعجزات قد ظهرت على يد عيسى ومحمد عليهما السلام، مما يدل على كذب اليهود، حتى ولو وردت هذه النصوص في التوراة فإنه كثيراً ما يعبر عن التأييد والدوام بطول الزمان. انظر النبوات والسمعات: ص ٦١، وقارن المحصل للرازي: ص ٢١٣، والأربعين: ص ٣٢٣.

(٣) هذا هو رأى فرقة العيسوية من اليهود أصحاب أبى عيسى الأصبهاني، خالفوا معظم اليهود، وقالوا بنبوّة عيسى عليه السلام، ومحمد — ﷺ —.

وحاصل رأيهم أن محمداً — ﷺ — رسول إلى العرب خاصة، لا إلى الأمم كافة. انظر الملل والنحل للشهرستاني: ٢٥/١ وما بعدها، والفصل لابن حزم: ١٧٩/١.

ولرد عليهم نقول: إنهم لما سلموا صحة نبوته بالدليل القاطع، والمعجزات الباهرة، وجب عليهم أن يعترفوا بما تواتر عنه من أنه مبعوث للناس كافة، ويدل على ذلك إخباره في العديد من النصوص القاطعة التي لا تحتمل التأويل بأنه مبعوث إلى الناس كافة كما نطق بذلك القرآن في غير آية منه مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ

والدليل القاطع على نبوته، ﷺ — أنه ادعى النبوة، وظهرت عليه المعجزة، وكل من هذا حاله فهو نبي، أو نقول: لو صح أن الخلائق قد عجزوا عن معارضة ما ظهر على يده من خوارق العادات فور تحديه بها، فإنه يجب أن يكون نبياً^(١).

أما المقدمة الأولى فمبنية على أصول بعضها ضرورية، كالعلم بظهوره — صلوات الله عليه — وادعائه النبوة، ولا إشكال في ذلك، إنما الذي يحتاج إلى مزيد نظر: ظهور المعجزة على يده، والدليل عليه: أن القرآن ظهر على يده، والقرآن معجزة.

أما المقدمة الأولى: وهى أن القرآن ظهر على يده، واعلم أن هذا وإن خالف فيه شريعة من اليهود، ولكن العلم به قريب من الضروري، لأننا بالطريق الذى نعلم أيضاً ظهور المعجزات على يد موسى وعيسى عليهما السلام، كقلب العصا ثعباناً وخلق البحر^(٢) وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى^(٣) ووجود الصين ومكة، والملوك الماضية كذلك نعلم أيضاً ظهور القرآن على يد محمد — ﷺ — ،

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (سبأ: ٢٨) وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (أعراف: ١٥٨). وغير ذلك. انظر النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ٦٣.

(١) يقول الآمدى — رحمه الله تعالى: — { محمد — ﷺ — كان موجوداً مدَّعياً للرسالة — وهذه الدعوى — معلومة بالضرورة الاستفادة من التواتر المفيد للقطع، كيف وأن ذلك مما لا يصير أحد إلى إنكاره، ومناكرته، ومن أنكر ذلك، فقد تاهت وسقطت مكالمته }. انظر أبقار الأفكار للآمدى: ٦٨/٤.

(٢) من معجزات سيدنا موسى — ﷺ — .

(٣) من معجزات سيدنا عيسى — ﷺ — .

وكل ما يُقدح به فى ذلك فيمكن أن نقدح به فى جميع ما ذكرناه^(١).

فإن قالوا: إن آيات موسى وعيسى عليهما السلام قد اجتمع على نقلها أهل الأرباب المختلفة من اليهود والنصارى والمسلمين بخلاف آيات محمد صلوات الله عليه، فإنه لم ينقلها إلا أمته، ولأن اليهود ينقلون آيات موسى عليه السلام، وهم على الذلة، والمسلمون يحملون مخالفتهم على نقل آيات محمد ﷺ بالسيف والقهر، فظهر الفرق.

قلنا: فيلزمكم أن لا يكون فى نقل اليهود الذين كانوا قبل ظهور سائر الأنبياء حجة، لأنه لم تكن هناك أديان مختلفة، ولم تكن عليهم ذلة، وإذا لم يكن عليهم فى نقلهم حجة، وإنما وصل نقل تلك الآيات إلى أهل الذلة والأديان المختلفة بواسطة نقلهم، فوجب أن لا يكون فى نقل أهل الذلة والأديان المختلفة حجة^(٢).

وأما المقدمة الثانية: فى بيان أن القرآن معجزة^(٣).

فالدليل عليه: وهو أن النبى — ﷺ — كان يقرأ القرآن عليهم ويتحدى به، ويدعى عجزهم عن معارضته، وهم ما قدرُوا على الإتيان به، وذلك هو العجز عن المعارضة، أما أنه كان يتحدى به، ويدعى عجزهم عن معارضته، فذلك معلوم بالطريق الذى علمنا به تحدى سائر الأنبياء بمعجزاتهم، وهو النقل المتواتر، ويعود ما ذكرناه قبيل ذلك حرفاً حرفاً^(٤).

(١) انظر المحصل: ص ٢٠٨، وقارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٤٥.

(٢) قارن نهاية العقول للرازى: ١٩٠/٢ — ب.

(٣) القرآن هو: كلام الله تعالى المنزل باللفظ العربى على نبيه محمد — ﷺ — المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه للإعجاز.

(٤) ذهب المنكرون لنبوته — ﷺ — إلى إنكار التواتر فى نقل معجزاته — ﷺ —، وخالف البعض صريح العقل وزعم أن القرآن لم ينقل إلينا بالتواتر، بل نقل إلينا على سبيل الأحاد، ورواية الأحاد لا تفيد العلم.

والذى يدل عليه من نص القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٨) وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ (هود: ١٣) وقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرٍِ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣) ثم قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ (البقرة: ٢٤) وهذه الآيات صريحة فى ادعاء عجز الخلق عن معارضة القرآن.

فإن قالوا: بم تتكرون على من يقول المعلوم ضرورة ظهور القرآن جملة على يد النبى - ﷺ - أما التحدى بهذه الآيات فذلك غير معلوم ؟.

قلنا: هذا باطل لأن القراءة الحفظية فى كل زمان يبلغون حد التواتر، ويدون عليهم، ومازال خلفهم متلقين عن السلف مجانبين عن المداهنة، والإغضاء على الألفاظ، حتى أن الصبية يستذكرون على المشايخ، فمع هذا كله كيف يمكن إلحاق ما ليس من القرآن به^(١).

وأما أنه لم توجد معارضة القرآن، فالذى يدل عليه: وهو أن الدواعى متوفرة على نقل الأمور العظيمة فى استمرار العادات، كما أنا إذا قدرنا ملكاً عظيماً الشأن بعيد الصيت فى الشرق والغرب، وقدرنا أن عسكره توثبوا عليه وقطعوه إرباً إرباً، فإنه يستحيل فى العادة أن لا ينقل ذلك، ومعارضة القرآن من الأمور العظيمة، لأنه يقدح فى نبوته ﷺ، وتبطل دعواه فى ذلك، فلو قدر وقوعه لاشتهر، ولنقله

والحق أن المعتمد فى إثبات رسالة محمد - ﷺ - هو ظهور القرآن منه، وهو منقول إلينا بالتواتر، وسائر المعجزات إنما تذكر للتنمية والتكميل. انظر المحصل للرازى: ص ٢٠٨، وص ٢١٣.

(١) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٤٦.

الجاحدون، والمنكرون لرسالته، كيف وقد عُلِمَ جهد الكفرة فى دهرنا فى طلب
عثرات المسلمين وتكلف المطاعن وجمع الشبهات، حتى نقلت ترهات مسيلمة مع
ركاكتها وسخافتها،^(١) فلو وجدت المعارضة لنقلت، فلما لم تنقل عُلِمَ أنه غير واقع.

فإن قيل: لعل القرآن قد عورض إلا أن بعضهم جمع النسخ بأسرها، وطمسها
أو أحرقها حفظاً لهذه الدولة، وضبطاً لهذه المملكة^(٢).

قلنا : ومثل هذا الاحتمال قائم فى معجزات جميع الأنبياء، حتى يقال: لعله
عورض معجزات موسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، ثم إن بعض متبعيهم
بذل للمعارضين ما لأجله رضوا بإخفائها وترك إظهارها، وذلك يفضى إلى القبح
فيمن عُلِمَ نبوته ضرورة، ولأننا نعلم أن الرسول — ﷺ — لم يزل كان مكباً على
سجيته بعد هجرته فى الدعاء إلى القرآن وتعظيم شأنه، واعتقاد خروجه عن أجناس
كلام البشر، فلو ظهرت معارضته من فصحاء العرب، لكان بالحرى أن يذيعوها،
لاسيما وأهل زمان رسول الله — ﷺ — من أشد الناس أنفة من أن يكونوا محكومين
تحت حكم، وما كفر معظمهم إلا بغياً وحسداً، فلو وجدوا إلى المعارضة سبيلاً
لأظهروه، ولو اجتمع جميع العالم على إخفاء أمر ظاهر لم يجدوا إليه سبيلاً^(٣).

(١) من ترهات مسيلمة الكذاب التى نقلت عنه، والتى تدل على حمقه، قوله معارضاً لسورة
الفيل: { الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل وخرطوم طويل } وقوله معارضاً
لسورة النازعات: { والزارعات زرعاً فالحاصدات حصداً والطابخات طبخاً فالآكلات أكلاً } .
وعندما سمع منه الناس هذا الكلام استهزأوا به وسخروا من حماقته حتى قال له أحد أتباعه:
أشهد أنك كذاب، ولكن كذاب ربيعة عندى خير من صادق مضر، يقصد الرسول الكريم — ﷺ —
— انظر النبوات والسمعيات: ص ٣٩ .

(٢) انظر الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٤٧ .

(٣) قارن المرجع السابق: ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

تحقيقه: وهو أنهم لو حملوا على الإخفاء قهراً ، لكانت النفوس مشوفة إلى إشاعته، وقد قيل: الإنسان حريص على ما منع — منه —^(١)، ولأنهم كانوا يطلقون أسنتهم بكل فحش في حق رسول الله — ﷺ — حتى كانوا يتعسفون بهجائه، وما كان من عادته اشتماله قلوب الأصحاب ببذل الأموال لهم، لأنه في بعض الأوقات ما كان يجد ملء بطنه طعاماً، وكان أصحابه في أكثر الأوقات في غصة ومشقة من الكفار، فلو وقعت المعارضة لكان بالحرى أن تتصرف قلوبهم عنه، وهذه القرائن تفيد العلم الضروري للعقلاء بَعْدُ وفساد ما قالوه.

وأما أن عدم معارضتهم كان لعجزهم عنها فالدليل عليه: وهو أن النبي — ﷺ — كان يدعى التفرد بأمر لا يقدر غيره عليه، وما كان خاملاً مردولاً في قومه، والكلام الذي كان يتحدى به ليس من قبيل الغث الرقيق الذي لا يلتفت إليه، بل كان باتفاق المخالف والموافق بليغاً فصيحاً وكان يخاف من تصميمه على دعواه انقلاب الدول، والاستيلاء على الممالك شرقاً وغرباً، فإذا كان يدعى أنه مبعوث إلى كافة الخلق، وكان أعداؤه متشمرين للجواب عليه، ومقاساة الشدائد في ذلك، والعاقل يعلم من نفسه ضرورة إذا نظر إلى الحروب الواقعة بينهم وبين المسلمين أن الإسلام كان من أعظم الأمور في قلوبهم، فلو قدروا على المعارضة لأتوا بها في مثل هذه الحالة، وذلك معلوم في العادة على الاضطرار، كيف وقد اشتهرت معارضتهم في معارضة القرآن حتى قال أمية بن خلف الجمحي^(٢) : ولو شاء الله لقلنا مثله، وارتحل النضر بن الحارث^(٣) في أقاصى بلاد العجم، وهو يريد بذلك البحث عن

(١) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٢) هو أمية بن خلف الجمحي عدو رسول الله ﷺ اللدود، قتله بلال الحبشي ؓ في غزوة بدر سنة ٢ هـ.

(٣) هو النضر بن الحارث أحد الذين حاولوا معارضة رسول الله — ﷺ — بشعر العرب

علوم الفرس، فما رجع عن سفره إلا خائباً خاسراً، واشتهر عن الوليد بن المغيرة^(١) أنه كان مكباً على رأى فى قائل القرآن، فلم يبدُ بعد تطاول الأمد معارضة، وكل ذلك مما لا حاجة إليه بعد وضوح المقصد.

فإن قيل: لعل المقتردين على معارضته ما أتوا بالمعارضة، واتبعوه وصدقوا رغبة منهم فى الاستيلاء على الممالك.

قلنا: هذا باطل؛ لأننا نعلم أنه لم يكن فى الإسلام أقوام أظهروا الاختصاص بمزيد من الفصاحة عن الكفار، بل كان فيهم أقوام من الخطباء، والشعراء لم يكونوا فى الإسلام.

ويحققه: وهو أن الرسول — ﷺ — كان يتحدى بمعارضة سورة واحدة، كما كان يتحدى بجميع القرآن ليأتى من المخالفين معارضة سورة واحدة، فإن المتناهى فى البلاغة قد يذكر فصلاً طويلاً من الكلام البليغ، والذى دونه يتأتى له بعض ما يقدر عليه البليغ.

يحققه: وهو أنا نعلم أن أصحاب رسول الله — ﷺ — كانوا منقطعين عن الدنيا مقبلين بكل وجه على الآخرة، ملازمين للطاعات، مجتنبين عن اللذات والشهوات، فكيف يقال بأن رغبتهم فى اتباعه لغرض الاستيلاء على الممالك، ولأن رسول الله — ﷺ — ما كان مختصاً بزيادة مال، واستظهار عشيرة لم يكن لمتبعيه، فلو قدروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلماذا رضوا باتباعه؟، ولم يرهقوه إلى

وأقاصيصهم، فلم يفلح فى ذلك.

(١) هو الوليد بن المغيرة، عدو الله ورسوله، كان سيد قريش، واشتهر عنه أنه اتهم — رسول الله — ﷺ — بالسحر، نزلت فيه آيات من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر﴾.

أن يصير تبعاً لهم لولا عجزهم عن المعارضة.

فإن قيل: إنما لم يعارضوا القرآن؛ لأنه أتى بأفصح الكلام وأجزله، ولم يقدر على معارضته إلا الأفلون، وترجع حينئذ محاولة المعارضة إلى قوم تجوز عليهم المواطأة على الكتمان.

قلنا: دعوى حصر البلغاء الذين كانوا في زمانه — ﷺ — في عدد قليل مما يعلم فساد ضروره، ومن تدبر أيام العرب في عصر رسول الله — ﷺ — بذلك وأحاط علماً بكثرة شعرائهم وفصحائهم، قطع بفساد ما قالوه، ولأننا نعلم أن الذين ينكرون نبوته ما كانت تتحط درجتهم في البلاغة عن غيرهم مع توفر دواعيهم على ذلك كما وصفناه، فلو قدروا عليه لأتوا به، ويستحيل منهم — والحالة هذه — التواطؤ على الكتمان^(١).

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال بأنه ﷺ منعهم منها بالخوف والسيوف، وشغل زمانهم بمحادثته، فلهذا لم يعارضوا القرآن^(٢).

قلنا: المعلوم أنه ﷺ لبث فيهم ثلاث عشرة سنة ما كانوا يخافونه، ولا حاربهم، ولا أذن له في القتل، وكانت الغلبة لهم في الأسباب الدنيوية، وبعد محاربته إياهم ما كان يديم الحرب، ولا كانوا يحاربونه بأجمعهم، ولو كانت المعارضة مقدورة، لأتوا بها في زمان المهلة^(٣).

فإن قيل: كما أنهم دُعوا إلى النظر في آيات النبوة، وكذلك دعوا إلى النظر في آيات التوحيد واعتقاد الحشر والنشر، ثم أنهم مع ذلك انكفوا عن النظر في

(١) قارن أبحاث الأفكار للآمدى: ٨٩/٤ وما بعدها.

(٢) قارن المرجع السابق: ٩٠/٤.

(٣) ومن الممكن أن يرد عليهم أيضاً بقولنا: إن هذا الاحتمال وإن كان ممكناً عقلاً، فهو غير قادح مع وجود ما نعلمه من العلم الضروري بأخبار التواتر.

دلائل العقول مع اقتدارهم عليه، فلم لا يجوز أن يكون انصرافهم عن النظر فى دلالات النبوة من هذا القبيل؟^(١).

قلنا: إن مرجعنا فيما مهدناه إلى أن العادة استمرت فى ابتداء الدين أنهم يعجزون ويكلفون الانقياد والخضوع إلى معارضة من تحداهم، وعجزهم وتكذيبه، وصرف قلوب أتباعه عنه، بخلاف دلالات العقول، فإنه لم تستمر العادة فى ذلك استمرارها فيما قدمناه، بل العادة مطردة بتحزب الناس، وافتراقهم فرقاً كثيرة، وميل كل واحد إلى مذهب آبائه وأسلافه، والإضرار بما رتبوه من الشبه، حتى قبل الاتفاق فى النظريات كالاختلاف فى الضروريات فى أنه محال.

فإن قيل: لا يلزم من اختصاصه صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكلام الفصيح الذى لم يشاركه فيه غيره أن يكون نبياً، كما أنه لا يلزم من اختصاص رجل فى كل زمان بأنواع الفضائل بحيث لا يشاركه فيها غيره، وانفراد بعض المحترفة بلطائف حرفته بم لم يسبق إليها أن يكون نبياً.

قلنا: إنما يتخصص الرجل بفضائل لا يشاركه فيها غيره فى زمانه إذا لم يتحد بها، فأما إذا تحدى بها فإن الله تعالى يقيض من يعارضه بذلك، ويبطل دعواه، لاسيما والنبى — ﷺ — ما تعلم من كتاب شيئاً بل كان أمياً ما اجتهد لطلب علم، ولا سافر إلى بلاد قوم لهذا الغرض، وأيضاً فقد نقل من كلامه فى الوعد والوعيد والنواهى والقصص وما كان يشبه القرآن فى الفصاحة والبلاغة، فلو كان القرآن من كلامه، لكان الكل من جنس واحد. ^(٢)

فإن قيل: قد بنيت هذه القاعدة على أنهم ما أتوا لمعارضة القرآن مع جهدهم

(١) قارن أفكار الألفار للأمدى: ١٠٩/٤.

(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٢٥ — ٣٥٣.

واجتهادهم فى إبطال دعواه، فما قولكم: لو لم يخالفه أحد، فإن لم تكن معجزة كانت دلالة على الصدق موقوفة على أن يكون هناك أقوام ينكرون، وذلك غير جائز، وإن كانت معجزة، فمن أى وجه تدل على الصدق إذ ليس هاهنا مخالف، حتى يقال: لو أمكنت معارضته لأتوا بها.

قلنا: إذا سلمتم بأن القرآن يظهر إعجازه عند تقدير الخلاف، وقد اتفق الخلاف فلا بد وأن يكون حجة، وعلى أنه لو قُدر عدم الخلاف، وفرضنا أن النبى ﷺ ادعى النبوة، فالتحدى بالقرآن وتسرع الناس إلى قبول ذلك، والتزموا الكُف والمشايق، لكان ذلك دليلاً قاطعاً على إعجاز القرآن، فإن الخلاق وأهل المشارق والمغارب مع تباعد ديارهم، وتباين أغراضهم لا يجتمعون على تصديق شخص واحد، إلا عن قطع بأن ما ظهر على يده معجزة، فثبت بمجموع ما ذكرناه أن القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنهم إنما لم يعارضوه لعجزهم عنه، وقدمنا فى الباب المتقدم أن من ظهرت المعجزة على يده على الشرائط المذكورة فهو نبى، فيلزم منه القطع بنبوته صلوات الله عليه، والنبى لا يجوز أن يكون كاذباً، وقد علم ضرورة أنه كان يدعى أنه مبعوث إلى كافة الخلق، وأنه خاتم النبيين، فواجب على جميع العقلاء الإيمان به، وأنه خاتم النبيين، وذلك واضح، وبالله التوفيق.

الفصل الثانى

فى ذكر وجه الإعجاز فى القرآن^(١)

(١) اختلفت أقوال العلماء فى وجوه إعجاز القرآن: فذهب بعض المعتزلة إلى أن القرآن معجز لما اشتمل عليه من النظم الغريب والأسلوب العجيب المخالف لنظم العرب فى نثرهم فى مطالعه ومقاطعه وفواصله، وفى شعرهم أيضا وذهب الجاحظ إلى أن القرآن معجز لما اشتمل عليه من البلاغة التى تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات. وذهب القاضى الباقلانى وتابعه إمام الحرمين إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن هو مجموع الأمرين السابقين. وذهب البعض إلى أن إعجازه لإخباره بالغيب، وذهب قوم إلى أن إعجازه لاشتماله على دقائق العلوم الإلهية وعلى التشريع والأخلاق. وذهب الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايينى، والنظام، وبعض الشيعة كالشريف المرتضى إلى أن العرب كانت قادرة على مثل كلام القرآن قبل البعثة، ووجه الإعجاز فى القرآن هو صرف بلغاء العرب عن معارضته. وذلك إما بصرف دواعيهم كما هو رأى النظام والأستاذ، وإما بسلبهم العلوم التى لا بد منها فى المعارضة كما هو رأى الشريف المرتضى. والقول بالصرفة باطل عند أهل السنة والكثير من المعتزلة، ودليل البطلان هو:— أ — أن فصحاء العرب كانوا يتعجبون من حسن نظمه وبلاغته وسلاسته وجزالته، ويرقصون رعوسهم عند سماع قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ (هود: ٤٤)....، إلخ الآيات. وهذا يدل على أنه معجز لبلاغته لا لصرف الله تعالى العرب عن معارضته.

مذهب أهل الحق أن إعجاز القرآن من وجهين:—

أحدهما: النظم البديع الخارج عن أوزان كلام العربية مع إفادة أحسن المعانى.

والآخر: البلاغة فى النظم، وحدّ البلاغة أن يقال: هو التعبير عن المعنى الصحيح بما يطابقه من اللفظ الشريف من غير مزيد على المقصد، وانتقاص عن الغرض^(١).

ب — لو قصد الله تعالى أن يكون القرآن معجزاً بالصرفه لما جعله الله تعالى فى الطبقة العالية من البلاغة، لكنه جعله فى الطبقة العالية من البلاغة.

إذن ليس الإعجاز بالصرفه، ودليل الملازمة: أنه كلما كان أنزل فى البلاغة وأدخل فى الركائكة كان عدم تيسر المعارضة أبلغ فى خرق العادة.

ج — قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الاسراء: ٨٨) فإن ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير فى مقام التحدى إنما يحسن فيما لا يكون مقدوراً للبعض، ويتوهم كونه مقدوراً للكل، فيقصد نفى ذلك.

والحق أن القرآن معجز بنظمه وأسلوبه، وبكونه فى الطبقة العالية من البلاغة، وباشتماله على الإخبار عن المغيبات الماضية والآتية، وعلى دقائق العلوم الإلهية، وأحوال المبدأ والمعاد، ومكارم الأخلاق، وفنون الحكمة العلمية والعملية، واليه ذهب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

للمزيد من التفاصيل انظر:— أبحار الأفكار للآمدى: ٦٩/٤ — ٧٤، والنبوات والسمعيات: ص ٣٩ — ٤٣.

(١) هذا هو رأى القاضى الباقلانى وتابعه إمام الحرمين، ولكن ذهب إمام الحرمين فى النظامية إلى القول بالصرفه. انظر النظامية: ص ٥٥، والتمهيد للباقلانى: ص ١٤١.

وواضح أن الراى متأثر هنا بالقاضى وإمام الحرمين، ولكنه فى كتبه الأخرى يرى فى سر

وذهب قوم إلى أن الإعجاز فى النظم^(١)، وقال آخرون: إنه فى البلاغة^(٢).

وهذا باطل؛ لأننا لو راعينا فى الإعجاز البلاغة المجردة، وقدرنا أجزل خطبة للخطباء، أو أبلغ قصيدة للشعراء، واعتبرناها بقصار السور، ولم نراع إلا البلاغة لم نأمن أن يلتبس على الناظر وجه التباس بينهما^(٣)، ولو راعينا النظم، لكان النظم الذى يدانى نظم القرآن، وإن كان فى غاية الركاکة معارضة للقرآن مثل ترهات مسيلمة فى قوله: إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وهاجر إن مبغضك رجل كافر، فهذا النظم يضاهى نظم القرآن، وإن كان تتبوا أسماع المستمعين عنه لركاكته وسخافته، فثبت أن الإعجاز فى النظم والبلاغة جميعاً^(٤).

الإعجاز ثلاثة آراء.

الأول: أن هذا الإعجاز يرجع إلى الفصاحة، وما عداها لا يصلح أن يكون سبباً للإعجاز. انظر نهاية الإيجاز: ص ٥ - ٧، والتفسير الكبير: ١٧/١٩٥.

الثانى: أن وجه الإعجاز يرجع إلى مجموع الأسلوب مع الفصاحة كما هو رأى جمهور الأشاعرة. انظر نهاية العقول: ١٣٦/٢ - ب.

والثالث: ولكنه ذهب فى التفسير الكبير إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن يرجع إما إلى الفصاحة، وإما إلى الصرفة - وهو الموضع الوحيد الذى ذكر فيه الرازى أخذه بالقول بالصرفة بالرغم من مهاجمته له فى كتبه الأخرى - على نحو خارق للعادة، وذلك يدل على شدة تأثيره بأقوال القاضى عبد الجبار المعتزلى.

انظر التفسير الكبير: ١٣٣/٢ - ١٣٤، و ٥٤/٢١.

(١) يقصد بعض المعتزلة.

(٢) يقصد الجاحظ من أئمة المعتزلة.

(٣) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٤٩.

(٤) قارن المرجع السابق: ص ٣٥٠.

وهاهنا وجه ثالث فى إعجاز القرآن وهو اشتماله على الإخبار — عن (١) —
 الغيوب مع الإصابة فيها، ويجب أن ننبه هاهنا لدقيق وهو: أنه ليس الإعجاز فى
 نفس الإخبار فإنه لا يعجز أحد عن النطق بأمثالها، ولا فى نفس المخبر، فإن النبى
 — ﷺ — قد يخبر عن وقوع أمور معتادة، فلا معنى لجعلها من قبيل المعجزات، بل
 الإعجاز فى علم الرسول — ﷺ — بما أخبر عنه، وذلك ينقسم إلى قسمين:—.

منها: ما يكون خبراً عن وجود الماضيين وأخبار الأولين من غير تعلم ولا
 تلقن كتاب.

ومنها: ما يكون خبراً عن حدوث شىء فى المستقبل، وذلك دليل على صدق
 المدعى بعد وقوع ما أخبر عنه، وتكرر ذلك مراراً كثيرة، بخلاف المنجمين، فإنه
 وإن كان يتفق لهم الإصابة فى بعض ما يخبرون عن حدوثه فى المستقبل ناجزاً،
 إلا أنه يكثر لهم الغلط، ويعظم الخطأ، ولا تتكرر الإصابة، ولا يلزم أيضاً — من (٢)
 — إخبار السحرة عن الحوادث فى الأقاليم البعيدة، وإصابتهم فى ذلك؛ لأننا قد
 أوضحنا الفرق بين السحر والمعجزة فى الباب المتقدم بما لا حاجة إلى الإعادة (٣).

فمن جملة الآيات المشتملة على الغيوب:—

قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي يَضَعُ
 سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (الروم: ١: ٤) .

فاشتملت الآية على الإخبار عن أمر وقع وهو غلبة الفرس الروم فى أدنى
 الأرض، وهى منقطع الشام، واشتملت الآية أيضاً على أمر موعود وهو غلبة الروم

(١) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

(٢) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق.

(٣) انظر ص: ٢٢٤ وما بعدها.

الفرس بعد ذلك فى بضع سنين، وهى ما بين الثلاثة إلى التسعة^(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ (الفتح: ٢٧). فدخلوه كما أخبر.

ومنها قوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأُسِّ سَوِيْرٍ﴾ (الفتح: ١٦) والآية نزلت فى المنافقين، وكانوا إذا تخلفوا لم يجبرهم الرسول — ﷺ — على الخروج، فأخبر الله تعالى أن الرسول — ﷺ — وإن عفا عنهم، فسيدعون إلى قوم أولى بأس وهم بنو حنيفة^(٢)، ثم إن أبا بكر — رضي الله عنه — جرّ المنافقين إلى قتالهم، وقال بعضهم: المراد به دعاؤهم إياهم إلى لقاء فارس^(٣).

وأما الإخبار عن قصص الأولين فظاهر واضح^(٤)، وما كان رسول الله — ﷺ — يتعاطى دراسة الكتب، وكان أمياً، وما اتَّفَقَ له سفرٌ وانفرادٌ يتوقع فى مثله كتاب، وتعلم قصص، وكانت الكتب مختصة باليهود، وكانوا فى المدينة، ونشأ رسول الله — ﷺ — فى مكة، وصار نبياً بها، وما كانت له مخالطة مع أهل الكتاب، ولو كانت لنقلت واشتهرت، فالإخبار عن قصص الأولين والحالة هذه لا تتحقق فى مجارى العادة من كذاب^(٥).

(١) انظر التفسير الكبير: ٩٦/٢٥ — ٩٧.

(٢) انظر التفسير الكبير: ٩١/٢٨ — ٩٢.

واختلفت أقوال المفسرين فى ذلك، فقال الجمهور: هم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم الصديق — رضي الله عنه — وقال البعض: هم فارس والروم وغزاهم عمر، وقيل: هم هوازن وثقيف وغزاهم النبى — ﷺ —.

(٣) قارن المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) مثل قصص الأنبياء وغيرهم الواردة فى الكثير من آيات القرآن الكريم.

(٥) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٥٢ — ٣٥٣.

فإن قيل: القرآن بمعنى المقروء والمكتوب صفة قديمة عندكم^(١)، والقديم لا يكون معجزاً، أو بمعنى القراءة والكتابة فعل القارئ والكاتب، وفعل العبد لا يكون معجزاً^(٢).

قلنا: إذا رأينا شعر الشاعر فنحس من أنفسنا قدرة على التلفظ بذلك الشعر، ولا نحس من أنفسنا قدرة على نظم ذلك، بل ربما يكون الراوى عديم الطبع فى إنشاء الشعر، فالمقدور منه هو التلفظ بذلك الشعر، والذى ليس مقدوراً له هو العلم بترتيب الحروف فى القلب على وجه يغير ترتيب الأول مع المساواة له فى الفصاحة فكذلك هاهنا: المعجز إنما هو علم النبي ﷺ - بترتيب الحروف على هذا الوجه الذى نقرأه مع علمنا بترتيب آخر يخالف الأول من حيث التركيب الواقع فى الحروف، ويضاهيه فى البلاغة، وهذا واضح^(٣).

(١) يقصد الأشاعرة ؎. انظر ص ١٤٤ وما بعدها.

(٢) هذا على رأى المعتزلة. وقارن نهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٤٥٢.

(٣) قارن نهاية العقول للرازى: ١٣٨/٢ - ب، ونهاية الإقدام للشهرستانى: ص ٤٥٣.

الفصل الثالث

فى بيان مجاوزة بلاغة القرآن سائر البلاغات^(١)

ذهب قوم إلى أن مراتب البلاغة والنظم لا تنتهى^(٢).

وذهب القاضى إلى أن مراتب البلاغة متناهية، ومراتب النظم لا تنتهى^(٣).

وذهب الإمام إلى الحكم بتناهى وجوه البلاغة والنظم^(٤)..

والذى يدل عليه: وهو أن البلاغة عبارة عن التعبير عن المعانى الصحيحة للعبارات الرائقة الشريفة، والنظم عبارة عن تركيب الحروف والكلمات، والعبارات وإن تفاوت مثالها، فاللغات تحصرها، والحروف حاصرة للغات، والحروف

(١) البلاغة فى اللغة مأخوذة من البلوغ، ومنه يقال بلغ فهو بليغ، لمن بلغ ظاهر لفظه الإنباء عما فى ضميره..

وفى الاصطلاح معناها: التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق من غير مزيد على المقصد ولا انتقاص عنه فى البيان.. انظر أبحاث الأفكار: ٦٩/٤..

(٢) هذا هو رأى بعض الأشاعرة: وحاصله أن مراتب البلاغة غير متناهية فى علم الله تعالى.

(٣) هذا هو رأى القاضى الباقلاتى وحاصله: أن مراتب البلاغة متناهية فى علم الله تعالى، وإن لم يخطر بها علم المحدثين.. انظر المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٤) هذا هو رأى إمام الحرمين — رحمه الله تعالى —، والحق أنه بالنظر إلى اللغات الواقعة المتناهية فمراتب البلاغة فيها لابد وأن تكون متناهية، وأما بالنظر إلى ما يمكن وقوعه من اللغات الواقعة فلا يبعد فى علم الله تعالى وجود ألفاظ هى أشرف من الألفاظ الواقعة إلى ما لا يتناهى..

متناهية، والمتناهي وإن كثرت وجوه إمكان التأليف منه، فإنه يستحيل اشتماله على ما لا نهاية له، كما إذا قدرنا عدداً معلوماً من الجواهر، وجوزنا تألفها على وجوه، فلا بد وأن تكون الأشكال التي تتصور منها متناهية، فيلزم من ذلك تنهاى وجوه النظم والبلاغة..

وإذا عرفت ذلك: فاعلم أنه لم يقم دليل قاطع على مجاوزة بلاغة القرآن سائر البلاغات، بحيث لا يكون فى مقدور الله تعالى كلام تزيد بلاغته على بلاغة القرآن، ولم يقم دليل أيضاً على نسبة القرآن إلى أفصح كلام العرب كنسبة أفصح خطبة أو قصيدة إلى أركّ كلام، بل الذى قام عليه الدليل أن يكون بين بلاغة القرآن وسائر البلاغات من التفاوت ما يكون ظاهراً لا يقع فى حيز اللبس، إذ لو قربت بلاغة القرآن من سائر البلاغات، لكان للمقال فيه مجال، ولو رجّح مرجح أحد الكلامين على الآخر لم يعدم من يرجح الكلام الآخر عليه، وحينئذ لا يظهر انخراق العادات، وهذا واضح..

ثم أعلم أنا قد بينا أن الإعجاز فى القرآن لا يتعلق بالنظم والبلاغة، فلا حاجة بنا إلى إيضاح مجاوزة بلاغة القرآن سائر البلاغات،^(١) وإن قلنا بأن البلاغة بمجرد آية على الصدق، فيلزمنا إيضاح انخراق العادة فيها، والدليل على ما قدمناه،^(٢) من أن من يقدر على المعارضة من أصحاب البلاغة والجزالة مع طول المدة، وتقرّيعهم بآيات التحدى، ونسبتهم إلى النقص والقصور، فلو قدروا عليه لسارعوا إليه..

فإن قيل: بم تتكروّن على من يقول: إنما عجزوا عن الإتيان بنظم مثل نظم

(١) انظر ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٢) انظر ص ٢٤٢ وما بعدها.

القرآن، إلا أنهم عجزوا عن كلام يضاهي بلاغته بلاغة القرآن ؟..

قلنا: لو قدروا على كلام تقرب بلاغته بلاغة القرآن لأتوا به، وإن كان يخالف نظمه نظم القرآن، ولقالوا بأن هذا النظم أحسن من نظم القرآن، إذ المقصد من الكلام حسن المعاني مع شرف الألفاظ لا الوزن والنظم، كما أن الشاعر إذا تحدى بقصيدة من الطويل، فعارضه بعض أقرانه بقصيدة أخرى من البسيط، وقدرنا تساويهما في شرف الألفاظ وحسن المعاني، كان ذلك معارضة، فثبت أنه لو اقتدرت العرب على كلام تقرب بلاغته بلاغة القرآن لأتوا به، ولكان ذلك أقرب إلى صرف القلوب عن متابعته من الحراب، فلما لم يأتوا به ظهر عجزهم، فهذا دليل قاطع على مجاوزة بلاغة القرآن سائر البلاغات، وأما إيضاح ذلك على التفصيل فهو مما لا يحتمله هذا المختصر لكثرة وجوهه واتساع أبوابه، وقد صنف علماء العربية في ذلك كتباً كثيرة،^(١) وبسطوا الكلام فيها، وأتوا بما يشفى الغليل..

واعلم أن جماعة من الملحدين ادعوا ركافة في بعض آي من القرآن، حتى حاول جماعة من الحمقى كابن الرواندي^(٢) وأبي العلاء المعري^(٣) لعنهم الله

(١) من أشهر الكتب التي ألفت في هذا الشأن: إعجاز القرآن للباقلاني، أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ودلائل الإعجاز له أيضاً، وكذلك يضم إلى تلك الكتب كتاب القاضي عبد الجبار المعتزلي: تنزيه القرآن عن المطاعن، وغير ذلك.

(٢) ابن الرواندي الملحد: تقدمت ترجمته، انظر ص: ١٧٥.

(٣) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري { أبو العلاء } ولد سنة ٣٦٣هـ في معرة النعمان، وتوفي بها سنة ٤٤٤هـ، أصيب بالعمى وهو في الرابعة من عمره، رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨هـ وبقي بها مدة قليلة، له مؤلفات كثيرة من أشهرها: رسالة الغفران.. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣٣/١، ومعجم الأدباء: ١٨١/١. وقد قال الرازي في نهاية العقول: { وأما معارضة ابن المقفع والمعري وغيرهما، فسنبين أنه ليس من شرط دلالة المعجز على الصدق أن لا يوجد مثلها في مستقبل الزمان قط. انظر

معارضة القرآن ..

وقد أتى بعض العلماء بالفیصل الحق فی ذلك فقال لمن سأل عما تشابه معناه، وتتهم فيه الركاكة والتناقض: هل تعلم أن العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ — كانوا أعلم بمواقع الكلام من هؤلاء الطاعنين الذين فی زماننا، وأنهم كانوا أشد عداوة لرسول الله ﷺ — وأحرص على إظهار التناقض لو ظفروا ؟

قال: نعم ..

قال: فلو كان فی القرآن تناقض لكانوا أولى من غیرهم بإظهاره، وكان بالحري اشتهاره ونقله إلینا، فلما لم ينتل شیء من ذلك، علمنا أنه ليس فی القرآن مطعن، وإنما هو لجهل الناس بفصاحته لعله — عدم — ^(١) علمهم بالعربية وأساليب الكلام، وهذا على اختصاره يسقط جميع المطاعن عن القرآن ^(٢).

نهاية العقول: ٢/ ١٢٠ - ب.

وهو كلام مرفوض من الرازی لأن مؤداه أن محاولات ابن المقفع وأبى العلاء مضاهية فی الفصاحة لفصاحة القرآن، وقد بینا أن الفصاحة أحد أوجه إعجاز القرآن، وليست هی الوجه الوحيد على إعجاز القرآن كما سبق بیانه ..

(١) زیادة ليست فی الأصل یقتضیها السیاق ..

(٢) طعن بعض الملحدین الذین یحقدون على الإسلام فی القرآن الکریم بمطاعن ضعیفة نذكر بعضها على سبیل التذکیر .. والله المستعان ..

قالوا إن فی القرآن کلمات غیر عربية مثل: القسطاس والإستبرق والسجیل، مع أن الله تعالى یقول: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (یوسف: ٢) ..

والرد: أن ذلك من توافق اللغتين، أو الكل عربی على سبیل التغلیب، أو المراد أنه عربی النظم والترکیب ..

قالوا: إن فی القرآن خطأ من جهة الإعراب مثل قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ رَجُلٌ ﴾

(طه: ٦٣)،

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾
(البقرة: ٦٢) ..

وقوله تعالى: ﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ
قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٢) ..

والرد: أما الآية الأولى: فقد قرأها أبو عمرو وغيره: ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ ﴾ (طه: ٦٣)،
وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية: ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ ﴾ بتخفيف إن ورفع
هذان، ومن النحاة من قال: ذلك لغة كنانة، وبلحارث بن كعب وخثعم وبعض قبائل اليمن
الذين يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، فيقولون: جاء
الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان .. ومنه قول الشاعر: —

إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتها

وبعض النحاة قال: إن بمعنى نعم وتقديره: نعم هذا لساحران، ومنه قول الشاعر: —

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبست فقلت انه

أي: نعم ..

وقيل غير ذلك ..

وأما الآية الثانية: فقد قال الفخر الرازي: ارتفع الصابئون بالابتداء على نية التأخير كأنه
قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا
خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك، فحذف خبره، والفائدة في عدم عطفهم على
من قبلهم هو أن الصابئين أشد الفرق المذكورة ضللاً، فكانه قيل: كل هؤلاء إن آمنوا
وعملوا صالحاً قبل الله تعالى توبتهم حتى الصابئين ..

وأما الآية الثالثة: فقد قال الإمام الرازي: إن المراد بالراسخين في العلم عبد الله بن سلام
وأصحابه ثم قال: وأما قوله: والمقيمِينَ الصلاة والمؤتُونَ الزكاة، فقد جرى هنا ولكن لأنها
وقعت بين نقيضين وهما الكفار والمؤمنون، والراسخون مبتدأ وفي خبره احتمالان أظهرهما

أنه يؤمنون، والثاني أنه الجملة من قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ سَتُوْنُهُمْ أَجْرًا عَظِيْمًا ﴾ (النساء: ١٦٢) ..

وقال البصريون: إنه نصب على المدح لبيان فضل الصلاة، وتقدير الآية: أعنى المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة، فهذا القول هو المعتمد فى الآية..

قالوا: إن فى القرآن ما يكذبه حيث أخبر أنه لا يتيسر للإس والجن بمثل سورة منه، وأقل السور ثلاث آيات، ثم حكى تعالى عن موسى عليه السلام مع إعرافه بأن هارون أفصح منه لساناً مقدار إحدى عشرة آية منه وهى قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (طه: ٢٥) .. إلى قوله: ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه: ٣٥)

والرد: هو نسبة المعنى إلى موسى عليه السلام لا اللفظ..

قالوا: إن فيه متشابهات يتمسك بها المجسمة والمشبهة مثل قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (طه: ٥) ..

والرد: أنها ذكرت لفوائد عديدة منها: الرجوع إلى الراسخين فى العلم، ومنها: نيل المثوبة بالنظر والاجتهاد فى معرفة المراد منها..

قالوا: إن فيه عيب التكرار، كإعادة قصة فرعون فى مواضع كثيرة، وإعادة قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ١٣) وغير ذلك..

والرد: أن التكرار لا يخلو من فائدة منها: بيان اتساع العبارة وإظهار البلاغة، وإما لزيادة التأكيد والمبالغة فى تقرير المعنى..

قالوا: القرآن مشتمل على الاختلاف، وهو مناقض لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) ..

والرد: الاختلاف المنفى فى الآية يراد به أحد أمرين: -

الأول: الاختلاف المناقض للبلاغة، ومتانة اللفظ، والنظم العجيب..

الثانى: اختلاف أهل الكتاب فيما أخبر عنه من قصص الماضين وسير الأولين..

قالوا: إن فى القرآن التناقض، مثل قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن: ٣٩) ، مع قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٩٢) وغير ذلك.

والرد: أن هذا ليس تناقضاً؛ لأن المواقف يوم القيامة مختلفة، ولعدم وجود شروط التناقض. قالوا: إن في القرآن الكذب المحض كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١١) ومعلوم أن الأمر بالسجود لم يكن بعد خلقنا وتصويرنا..

والرد: أن المراد هو خلق أبينا آدم عليه السلام وتصويره..

قالوا: قال تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ (يس: ٦٩) مع أن في القرآن الشعر مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ (الطلاق: ٢) فإنه بدون لفظ مخرجاً من بحر المتقارب، ومثل قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩) فإنه من بحر الطويل..

والرد: أن ما في القرآن ليس بوزن الشعر؛ لأنه إنما يكون شعراً عند التغيير إما بزيادة أو نقصان، وكذلك فإنه ليس فيه قافية الشعر ولا وزنه، فلا يكون شعراً.

انظر: النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ٤٣ - ٤٧، وضم إليه: أبكار الأفكار للأمدى: ١٢٥ / ٤ - ١٢٩، وشرح المقاصد: ٢٩٢ / ٣ - ٢٩٥ وغير ذلك..

الفصل الرابع

فى ذكر جمل من معجزات رسول الله ﷺ . غير ما ذكرناه^(١)

منها: ما روى أنس بن مالك^(٢) قال: أتى أبو طلحة^(١) إلى أم سليم^(٢) وقال: أما

(١) حاول الرازى - رحمه الله تعالى - فى بعض كتبه الأخرى التعويل على دليل آخر يثبت به نبوته - ﷺ - غير القرآن والمعجزات الحسية، وهذا الدليل يقوم على طبيعة النبوة ومطابقة أقواله وأفعاله وسيرته - ﷺ - لهذه الطبيعة..

والرسول - ﷺ - كانت دعوته تدعو الناس للسعادة فى الدنيا والآخرة، ومن ثم فقد انتشرت انتشاراً غير عادى، ولاقت من النجاح والقبول ما لم تحظ به غيرها من الدعوات. وأيضاً فإن أخلاقه - ﷺ - كانت فى الغاية العليا من الفضائل، ولقد تحققت فيه صفات الأنبياء على أتم الكمال، فهو إذا رسول الله..

ولقد أخذ الرازى هذا الدليل من الجاحظ والغزالى فى المنقذ من الضلال، كما أشار إليه أبو المعين النسفى فى تبصرة الأدلة. انظر المحصل: ص ١٥١، والمعالم فى أصول الدين: ص ٩٣ - ٩٦، وقارن المنقذ من الضلال: ص ٩٨، وتبصرة الأدلة: ص ٢٩٣ - أ..

ولكن فى المطالب العالية مزج الرازى دليل الجاحظ الآنف ذكره بكلام ابن سينا فى تدرج المخلوقات، وسماه الرازى - رحمه الله تعالى - : { دليل الانتخاب والترقى }. والحق أن الاقتصار على هذا الدليل وحده لا يصلح دليلاً على النبوة ما لم يضم إليه الأدلة الأخرى خاصة القرآن الكريم ومعجزاته الحسية - ﷺ -.

انظر المطالب العالية للإمام الرازى: ٤٤٦/٢ وما بعدها، وقارن التفسير الكبير: ١٤٣/٣١ - ١٤٤..

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجارى الخزرجى الأنصارى أبو حمزة، صاحب رسول الله - ﷺ - وخادمه، ولد بيثرب قبل الهجرة بعشر سنين، وأسلم صغيراً، وخدم

إني مررت على رسول الله ﷺ — وهو يقرئ أصحاب الصُّفَّة النساء، وقد ربط على بطنه حجراً من الجوع، فقالت: كان عندي شيء من الشعير فطحنته وأتيتها بشيء من حطب، فاتخذت منه أقراصاً، وقال أبو طلحة: فقلت لها أعندك آدم، فقالت: قد كان عندي زق فيه سمن، فلا أدري أبقى فيه شيء أم لا ؟ قال أبو طلحة: إن عصر اثنين أبلغ من عصر واحد، فعصرناه جميعاً فخرج منه مثل التمرة من السمن، ثم قالت أم سليم: إيت رسول الله ﷺ — وادعه ولا تدع معه أحداً، وانظر أن لا تفضحنا، فأتيت رسول الله ﷺ — قال: فلما رآني قال: لعلك أرسلت إلينا، قلت: نعم، فقال للقوم: انطلقوا وهم ثمانون رجلاً، قال: فلما دنوت من الدار سبقت رسول الله ﷺ — وأخبرتها بما جرى، فقالت: فضحتني، ثم دخل رسول الله ﷺ — وقدما إليه الأقراص، فقال: هل من آدم ؟ قالت: يا رسول الله: زق وقد عصرته أنا وأبو طلحة، فقال ﷺ: هَلُمِّيهِ، فإن عصر الثلاثة أشد من عصر الاثنين، وأتى النبي ﷺ — به فعصره معهما، فخرج مثل ثمرة ومسح بها الأقراص، ودعا فيها بالبركة، ثم قال: ادعوا عشرة، فأدخل عليه عشرة فأكلوا حتى تجشأوا شبعاً،

الرسول ﷺ — إلى أن قبض، ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، وبها توفي عام ٩٣هـ عن عمر يناهز أكثر من مائة عام..

انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد: ١٠/٧، والأعلام للزركلي: ٢٤/٢ — ٢٥..

(١) هو زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري: صحابي جليل من الشجعان الرماة، ولد بيثرب سنة ٣٦ قبل الهجرة، شهد مع رسول الله ﷺ — جميع الغزوات وكان جهوري الصوت، توفي سنة ٣٤هـ..

(٢) هي أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام، أم أنس بن مالك، تزوجت أبا طلحة بعد مقتل زوجها، وكان مهرها إسلامه، ولم يكن النبي ﷺ — يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سليم إلا على أزواجه، ولما سئل عن ذلك قال: إني أرحمها قُتل أخوها معي. انظر صفة الصفوة: ١/٣٢٥ — ٣٢٨..

ومازالوا يدخلون عشرة عشرة حتى شبعوا، ثم جلس رسول ﷺ — وجلسنا فأكلنا حتى فضل^(١)..

ومما روى فى ذلك: ما روته عائشة^(٢) — رضى الله عنها — أن سائلا أتى النبى — ﷺ — فقال لعائشة: هل عندك شىء ؟ قالت: فأتيته بلقمة، فوضع النبى — ﷺ — يده عليها وقال للسائل: كُلْ فأكل حتى شبع^(٣)..

ومما روى فى ذلك: ازدياد الماء فى يده وثورانه من أصابعه حتى كفت ينابيع من أصابعه العدد الكثير^(٤).

ومن ذلك: أنه لما ترك الحديدية استنفذوا ماء البئر حتى أخذوا الماء مع

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخارى فى كتاب المناقب: ٦٧٨/٦ باب علامات النبوة فى الإسلام {ح رقم ٣٥٧٨}، ورواه مسلم فى كتاب الأشربة: ٣/ ١٦١٢ ح ٢٠٤٠، وكذا رواه الترمذى وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٢) هى عائشة — أم المؤمنين — بنت أبى بكر الصديق، أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين، تزوجها رسول الله — ﷺ — سنة ٢هـ، وكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه، روى عنها ٢٢١٠ حديثا، كان مولدها بمكة قبل الهجرة بتسعة أعوام.. توفيت رضى الله عنها بالمدينة سنة ٥٨هـ.. انظر صفة الصفوة: ٣٠١ — ٣٢١، والأعلام: ٣/ ٢٤٠.

(٣) انظر دلائل النبوة للحافظ البيهقى: ١١٣/٦ وما بعدها بزيادة: {وبقيت اللقمة بحالها}..

(٤) الحديث رواه البخارى ٦٧٢/٦ ح رقم { ٣٥٧٤ } عن أنس ؓ قال: { خرج النبى — ﷺ — فى بعض مخارجه ومعه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسرون، فحضرت الصلاة، فلم يجدوا ماءً يتوضئون فانطلق رجلٌ من القوم فجاء بقدر من ماء يسير، فأخذه النبى — ﷺ — فتوضأ ثم مَذَّ أصابعه الأربع على القدح، ثم قال: قوموا فتوضأوا، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء، وكانوا سبعين أو نحوه } كما أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل: ١٧٨٣/٤ ح رقم ٢٢٧٩..

الطين، فدفع ﷺ بينهما إلى البراء من عازب^(١) ليفرز به البئر ويقول: بسم الله،
فنبع الماء حتى قالوا: لولا أنه أخذ البئر لغرقنا^(٢)..

ومن ذلك: أن قوماً شكوا إليه قلة ماء بئرهم في شتاء، فتفل في بئرهم فانفجر
الماء^(٣)..

وطلب أصحاب مسيلمة أن يفعل مثل ذلك، فلما تفل في البئر صار ماؤه
زعاقاً ملحاً.

ومن ذلك: حديث أم معبد الخزاعية^(٤) وأنه لما أمر يده ﷺ على ظهر
العناق التي ما كانت تحلب ومس ضرعها نذرت، فحلب فسقى أبا بكر ثم عامر بن
فهيरे^(٥) ثم عبد الله بن الأرقط^(٦)، ثم شرب رسول الله ﷺ — وقال: { ساقى القوم
آخرهم شرباً }^(٧).

ومن ذلك: تسبيح الحصى في كفيه على ما روى أنس قال: كنا عند رسول
الله ﷺ — فأخذ كفاً من الحصى، فسبّحت في يده حتى سمعنا التسبيح، ثم صبّهن
في يد أبي بكر، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان فسبّحن، ثم صبّهن في أيدينا فما

(١) أحد الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ .. انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١٥/٢ ..

(٢) انظر دلائل النبوة: ٧٨/٦ ..

(٣) انظر دلائل النبوة: ١٠٩/٦ ..

(٤) صحابية من صحابة رسول الله ﷺ .. انظر السيرة لابن هشام: ٢٣٥/١ ..

(٥) هو عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ؓ، كان يقوم بخدمة النبي ﷺ — وصاحبه
في الغار ..

(٦) هو عبد الله بن أريقط دليل النبي ﷺ — وصاحبه في رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة،
وكان مشركاً ..

(٧) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند بطرق متعددة: ٣٧٩/١، ٤٦٢، ٧٣/٥، ٤/٦ ..

سَبَّحت في أيدينا^(١).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: مرض النبي ﷺ — فأتاه جبريل — بطبق فيه رمان وعنب، فأكل النبي ﷺ — فسبَّح الرمان والعنب..

ومن ذلك: ما رواه ابن عمر^(٢) قال: كنا مع النبي ﷺ — في سفر، فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال: هل لك من خبر؟ قال: ما هو؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، قال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: أجل هذه الشجرة، فدعا بها رسول الله ﷺ — وهي في شاطئ الوادي، فأقبلت تخذ الأرض خدأً حتى قامت بين يديه، وشهدت له بالنبوة، ثم رجعت إلى منبتها، وآمن الأعرابي^(٣).. ومن ذلك: أن النعمان الأنصاري^(٤) ضرب ضربة فسقطت عينه وأخذ بيده وجاء إليه — ﷺ —^(٥) فردها إلى مكانها، فكانت أقوى عينيه، فتغل فيها فكانت الباقية..

ومن ذلك: أن علياً — كرم الله وجهه —^(٦) رمدت عينه فتغل فيها فلم ترمد

(١) الحديث خرَّجه البيهقي في دلائل النبوة: ٦٤/٦ عن أبي زر، والهيثمي في مجمع الزوائد كتاب علامات النبوة: ٢٩٨/٨ — ٢٩٩، والقاضي عياض في الشفاء: ص ٢٠١ — ٢٠٢..

(٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أسلم قبل أبيه، ولد بمكة قبل الهجرة بعشرة أعوام، وتوفي بها سنة ٧٣هـ، وله من الأحاديث حوالى: ٢٦٣ حديثاً. انظر صفة الصفوة: ٢١١/١ — ٢١٩، والأعلام: ١٠٨/٤.

(٣) الحديث أخرجه الدرامي في سننه: ٢٢/١ ح ١٦، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير: ٤٣٢/١٢ ح ١٣٥٨، وكذا البيهقي في دلائل النبوة: ١٣/٦ وما بعدها..

(٤) النعمان بن مقرن الأنصاري أحد صحابة رسول الله ﷺ.

(٥) المشهور أن قتادة هو الذى وقعت إحدى عينيه فى إحدى الغزوات فردها له رسول الله ﷺ — فكانت أصح من الصحيحة..

(٦) هو الإمام الراشد على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — أسلم وهو صغير، وهاجر بعد

بعد ذلك، ودعا له بأن يصرف الله عنه الحر والبرد، فكان لباسه في الصيف والشتاء واحداً^(١)..

ومن ذلك: أنه جلس لقضاء الحاجة فقال لنخلتين متباعدتين انضما، فانضمتا^(٢).

ومن ذلك: ما رواه أبو سعيد الخدري^(٣) أنه كان يرعى راع غنماً له، فتوثب ذئب إلى شاة، فانتهرها واختطفها، فحال الراعي بين الذئب وبين الشاة، فقال الذئب للراعي: ألا تتقى الله تحول بيني وبين رزق ساقه الله إلى ؟ فقال الراعي: العجب من ذئب مقعي يكلمني بكلام الناس، فقال الذئب: ألا أحدثك بأعجب من ذلك ؟ هذا رسول الله يحدث الناس بأنباء ما سبق. الحديث^(٤)..

ومن ذلك: إخباره ﷺ عن الغيوب..

مثل إخباره أن زينب^(٥) أول من تموت من أزواجه،^(١) وذكر مقتل علي،^(٢)

النبي — ﷺ — وكان شجاع المسلمين وقائدهم الهمام، والكلام عنه كثير لا يحتمله هذا المختصر..

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي: ٩٠/٦ وما بعدها..

(٢) انظر الشفاء للقاضي عياض — رحمه الله تعالى —: ص ٢٠٥..

(٣) هو أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، ولد في السنة العاشرة قبل الهجرة، له من الأحاديث ١١٧٠ حديثاً، توفي بالمدينة سنة ٧٤ هـ.. انظر صفة

الصفوة: ٢٧٢/١، والأعلام: ٨٧/٣..

(٤) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية: ص ٣١٨، وأحمد في المسند: ٨٣/٣ — ٨٤، والبيهقي في دلائل النبوة: ٤١/٦

(٥) هي أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، كانت زوجة زيد بن حارثة واسمها { برة } وطلقها زيد، فتزوج بها النبي — ﷺ — واسماها: { زينب }، روت ١١

والحسين،^(٣) وملك بنى أمية،^(٤) وهدم الكعبة،^(٥) ورجوع الملك إلى بنى العباس،^(٦) والإخبار عن تمزق ملك الأكاسرة، واستيلاء المسلمين عليهم..

ومن ذلك: أنه لما جاء وفد عبد القيس قال لهم: "إن شئتم وصفتم بلادكم، وإن شئتم وصفتها لكم"، قالوا: "صفها لنا تردد إيانا"، فوصفها لهم، فقالوا: "لأنت أعلم ببلادنا منا"^(٧).

ومن ذلك: إخباره ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى عن

حديثاً، ولدت قبل الهجرة بـ ٣٣ سنة، وتوفيت سنة ٢٠ هـ.. انظر صفة الصفوة: ٣١٦/١ — ٣١٧، والأعلام للزركلي: ٦٦/٣..

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة: ١٩٠٧/٤ ح رقم ٢٤٥٢، وذكره البيهقي في دلائل النبوة: ٣٧١/٦..

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه: كتاب معرفة الصحابة ١٣٩/٣، وذكره صاحب دلائل النبوة ٣٥٢/٦، وص ٤٣٨..

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠٥/٣، وذكره صاحب دلائل النبوة: ٤٦٨/٦ — ٤٧٢..

(٤) يتضح ذلك من حديثه — ﷺ — : { الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يكون بعد ذلك الملك }..

والحديث أخرجه أبو داود في السنن باب ٨، والترمذي في الفتن: باب ٤٨، وغيرهما..

(٥) أحاديث هدم الكعبة رواها البخاري في صحيحه: ٥٣٨/٣ عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال النبي — ﷺ — : { يغزو جيش الكعبة فيخسف بهم }..

(٦) انظر دلائل النبوة: ٥١٣/٦ وما بعدها، وفيه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله —

ﷺ — : { يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع الزمان، وظهور من الفتن يقال له السفاح يكون عطاؤه حثياً }..

(٧) انظر دلائل البيهقي: ١٠٢/٦ وما بعدها..

أمر رأها في الطريق، فكانت كما أخبر^(١)..

ومن ذلك: خبره عن ذى الثدية،^(٢) خرج مع الخوارج يوم النهروان، فلما قتلهم على قال: اطلبوه فوجدوه، فخر ساجداً، وقالوا: إن يده كالثدى عليها شعرات كشارب السنور يتدلى بها فنصبها^(٣)..

ومن ذلك: أنه لما توفي النجاشي^(٤) بالحبشة قال — ﷺ —: "إن النجاشي قد توفي الساعة، فكان كما أخبر"^(٥)..

ومن ذلك: أنه لما قتل زيد بن حارثة بمؤتة، قال — ﷺ — وهو بالمدينة: "قتل زيد بن حارثة، وأخذ الراية جعفر"، ثم قال — ﷺ — "قتل جعفر"، وأمسك ساعة، ثم قال: "وأخذ الراية عبد الله بن رواحة فكان كما أخبر"^(٦)..

ومن أعظم الآيات: انشقاق القمر^(٧).

(١) أحاديث الإسراء والمعراج ثابتة عن رسول الله ﷺ — ولا ينكرها إلا جاحد أو معاند.. انظر الأربعين للرازي: ص ٣٠٩ وانظر صحيح البخاري: كتاب التوحيد باب ٣٧، وأحاديث الأنبياء: باب ٢٢، ٢٤، ٤١، ٤٨، وكتاب بدء الخلق: باب ٧ وغير ذلك، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان: ح رقم ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٧٢، وجامع الترمذي: تفسير سورة الإسراء في باب ١، ٢، ٥ وغير ذلك..

(٢) هو رأس الخوراج وزعيمهم أول من خرج على الإمام على كرم الله وجهه تحقيقاً لنبوءة رسول الله — ﷺ ..

(٣) انظر دلائل النبوة: ٤٣٠/٦ وما بعدها..

(٤) ملك الحبشة — ﷺ — أسلم وحسن إسلامه بعد دعوة رسول الله — ﷺ — له بأن يسلم..

(٥) انظر الشفاء للقاضي عياض: ص ٢١٠، وقارن الأربعين للرازي: ص ٣٠٨..

(٦) راجع تفاصيل غزوة مؤتة سنة ٩ هـ في كتب السيرة خاصة: — البداية والنهاية لابن كثير — والسيرة النبوية لابن هشام وغيرهما..

(٧) أحاديث انشقاق القمر رواها جمع كبير من أصحاب الحديث عن عبد الله بن مسعود —

واعلم بأن معجزاته — ﷺ — كثيرة، وقد جمع الإمام أحمد البيهقي فيها كتاباً مبسوطاً يبلغ خمس مجلدات، فكيف يحتملها هذا المعتقد^(١)؟..

ووجه الاستدلال بهذه الأحاديث أن آحادها وإن كانت لا توجب العلم، ولكن ثبت من جملة الأفاضل المذكورة اختصاصه ﷺ بمعجزات وفنون من خوارق العادات، وسبيل ذلك كسبيل جود حاتم وفصاحه سحَبَان وشجاعة على والزبير، وفقه الشافعي وأبى حنيفة، وكما ثبت ذلك تواتراً ثبت ادعاؤه النبوة، والاحتجاج بهذه الآيات، وثبت أنها لم تعارض، إذ لو عورضت لاشتهرت كما قدمنا، فهذا تمام القول في هذا الباب^(٢)..

وغيره من الصحابة انظر صحيح البخارى : كتاب المناقب: ٧٣٠/٦ ح رقم ٦٣٦٣ و ٧٣٦٣ و ٨٣٦٣ .. وانظر صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر: ٨٥١٢/٤ ح ٠٠٨٢ وما بعده، وغير ذلك..
كما أشار القرآن الكريم إلى هذه الآية العظيمة في قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: ١).

- (١) ذكر البيهقي في كتابه الرائع دلائل النبوة مئات الدلائل على نبوته — ﷺ — ..
(٢) قارن الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٥٣ — ٣٥٤، وانظر شرح المقاصد: ٢٩٨/٣ — ٢٩٩، والأربعين للرازي: ص ٣٠٥ — ٣٠٩ ..

الباب الثالث

فى أحكام الأنبياء - عليهم السلام -^(١)

(١) فصل الإمام الرازى - رحمه الله تعالى - القول فى عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما يلى :-

قال فى الأربعين: { اعلم أن الاختلاف فى هذه المسألة واقع فى أربعة مواضع:-
الأول: ما يتعلق بالاعتقاد..

رأى جمعت الأمة على أنهم معصومون عن الكفر والبدعة إلا الفضيلية من الخوارج ، فإنهم يجوزون الكفر على الأنبياء - عليهم السلام - وذلك لأن عندهم يجوز صدور الذنب عنهم، وكل ذنب فهو كفر عندهم، وبهذا الطريق جوزوا صدور الكفر عنهم..
وأما الروافض فإنهم يجوزون عليهم إظهار كلمة الكفر على سبيل التقية..
الثانى: ما يتعلق بتبليغ الشرائع والأحكام من الله تعالى..

وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة فى هذا الباب، لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شىء من الشرائع..
الثالث: ما يتعلق بالفتوى..

وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز تعمد الخطأ.. أما سبيل السهو فقد اختلفوا فيه..
الرابع: ما يتعلق بأفعالهم وأحوالهم..

وقد اختلفت الأمة فيه على خمسة مذاهب:-

أ- قول الحشوية: وهو أنه يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر.

ب - إنه لا يجوز منهم تعمد الكبيرة ألبتة، وأما تعمد الصغيرة فهو جائز بشرط أن لا يكون منفراً، فأما إن كان تعمد الصغيرة منفراً، فذلك لا يجوز عليهم، مثل التططيف بما دون الحبة وهذا قول أكثر المعتزلة..

اعلم أنه تجب عصمة^(١) الأنبياء عن الصغائر والكبائر فيما يتعلق بالتبليغ وأمر الدين.

والدليل عليه: إجماع الأمة بأن كل ما ينقل إلينا من أفعاله وأقواله^(٢) صواب وحق، وكانوا يحتجون في الزمن السالف بأفعاله حتى وقع الاختلاف عليهم في أن أفعاله دليل على وجوب مثلها على الغير، أو أنها من قبيل السنن، وذلك قاطع في أنه ليس يصدر عنه الذنب لا من الصغائر ولا من الكبائر، ولأنه لو باشر الصغيرة مع العلم بكونها صغيرة، والأمة مأمورون بالتأسي به في أفعاله، لزم منه أن يكونوا مأمورين بفعل المعصية، وذلك غير جائز^(٣)..

ج - إنه لا يجوز عليهم تعدد الكبيرة والصغيرة، ولكن يجوز صدور الذنب على سبيل الخطأ في التأويل، وهذا قول الجبائي.

د - إنه لا تجوز الكبيرة ولا الصغيرة، لا تعمداً ولا بالتأويل الخطأ.. أما السهو والنسيان فجائزان عليهم، ثم إنهم يعاتبون على ذلك السهو والنسيان، لما أن علومهم أكمل، فكان الواجب عليهم المبالغة في الصدق والتحفظ والتيقظ..

هـ - إنه لا يجوز عليهم الصغيرة ولا الكبيرة، لا بالعمد ولا بالتأويل، ولا بالسهو ولا بالنسيان، وهذا مذهب الروافض {..

انظر الأربعين: ص ٣٢١ - ٣٢٢، وقارن المحصل: ص ٢١٩ وما بعدها..

(١) العصمة في اللغة: المنع..

واصطلاحاً : عند الأشاعرة: أن لا يخلق الله تعالى في الأنبياء ذنباً، وعند الحكماء: ملكة نفسانية تمنع صاحبها عن الفجور ، وتحصل العلم بمطالب المعاصي ومناقب الطاعات، وتتأكد بتتابع الوحي إليهم.. انظر النبوات والسمعيات: ص ٧٠..

(٢) المقصود هو الرسول ﷺ -..

(٣) احتج الرازي - رحمه الله تعالى - في كتبه الأخرى على وجوب العصمة للأنبياء -

والقاضي منع من صدور معصية عن الأنبياء توجب إلحاقهم بالسفل،
والخروج عن المروءة نحو السرقة والغل، والاشتغال بالهزل المفرط، والتلهي
المجاز للحد، وتمسك فيه بإجماع الأمة^(١)..

وأما الصغائر فقد مال إلى جواز صدورها محتجاً بقوله تعالى:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾^(٢) (طه: ١٢١) وقصة داود وما صدر منه من التزوج بزوجة

خاصة نبينا ﷺ — بوجوه حاصلها:—

- أ — لو صدرت الكبيرة عنهم لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة، وذلك غير جائز..
بيان الملازمة: أن درجات الأنبياء في غاية الشرف، وكل من كان كذلك كان صدور الذنب
عنه أفحش، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز أن يكون النبي أقل حالا من عصاة الأمة..
ب — أنه لو أقدم على الفسق لما كان مقبول الشهادة لقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٦) لكنه مقبول الشهادة، وإلا لكان أدنى حالا من عدول الأمة..
ج — أنه بتقدير إقدامه على الكبيرة يجب زجره عنها، ولم يكن إيذاؤه محرماً، لكنه محرم
لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ (الأحزاب: ٥٧)..
د — لو أتى بالكبيرة لوجب علينا الاقتداء به فيها لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فيفيض إلى
الجمع بين الوجوب والحرمة وهو محال.. انظر المحصل: ص ٢١٩، وقارن الأربعين: ص
٣٢٢ وما بعدها..

(١) قارن أباكار الأفكار للآمدى: ١٤٥/٤، وشرح المقاصد: ٣/٣٠٩ — ٣١٠..

(٢) وبهذه الآية تمسك القاضي بجواز صدور الصغائر عن الأنبياء، ففي الآية تصريح بالمعصية
وتأكيدا بقوله (فَعَوَى) والحق أن العصيان الوارد في الآية الكريمة محمول على مخالفته
أمر الندب، أو نهى التنزيه، ومن ثم عاتبه ربه سبحانه وتعالى، ومعنى قوله تعالى: —
﴿فَعَوَى﴾ أي خاب ولم يحصل ثواب عمل الندب أو ترك النهي انظر التفسير الكبير للرازي:
١٢٧/٢٢ — ١٢٩..

أوريا^(١)، وقصة يوسف وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(٢) (يوسف: ٢٤) ..

(١) حاصل هذه القصة كما ذكرها المفسرون أن داود عليه السلام كان في كوته فإذا بامرأة تغتسل، فلما رآها نسي صلاته وقراءته، وجعل يطيل النظر إليها، فلما رآته توارت منه بشعرها، فزاده ذلك إعجاباً بها، وهذا النظر مع الإطالة معصية لا محالة ..

ثم إنه عرض لها في نفسه، فقالت له: زوجي غائب، وأنت الملك والنبي، ولا أدري ما أقول لك، وكانت امرأة أوريا بن حنان، فاستدعاه من غيبته، ثم إنه قدمه على بعض الجيوش، لمنازلة بعض الحصون بقصد قتله، فرمى من الحصن بحجر فخر ميتاً، فتزوج بامرأته، وقصده إلى ذلك معصية، ومن ثم فقد أرسل الله تعالى له ملكين في صورة خصمين، ليبتكاه على خطيئته كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (ص: ٢١) إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ﴾ (ص: ٢٤) .. انظر تفسير الرازي: ١٨٨/٢٦ - ١٩٨، وتفسير القرطبي: ٥٦٠٨/٨ - ٥٦٣١ ..

والحق أن رواية القصة على هذا الوجه مأخوذة من الإسرائيليات، والصحيح هو حمل الآيات على ظاهرها، وهو أنه عليه السلام صدرت منه صغيره بسبب العجلة في الحكم قبل التثبت حينما قال: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ﴾ (ص: ٢٤) والواجب عليه هو أن يسمع من الخصمين ثم يسأل الآخر عما عنده فيها ..

(٢) وقد اختلف المفسرون في معنى { الهم } الوارد في الآية .. فقال البعض: هو العزم على الشيء، ومعناه في الآية: العزم على الفاحشة، وقال بعضهم: يطلق الهم على حضور الشيء في البال من غير عزم عليه كما في قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ (آل عمران: ١٢٢)

وقيل معنى الهم: المقاربة، وقيل معناه: الشهوة وميل الطبع ..
والحق أن يوسف عليه السلام كان همه كما ذكر البيضاوي - رحمه الله تعالى - هو: ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وقال ابن كثير: المراد بهمة: خطرات حديث النفس وهو الراجح .. انظر تفسير الرازي: ١١٧/١٨ - ١٢٣، وتفسير ابن كثير: ٢٤٦/٢، والنبوات السمعيات من مباحث علم الكلام: ص ٧٨.

وقوله تعالى لنبينا ﷺ ﴿لَا يَغْفِرُكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١) (الفتح: ٢).

وكان الإمام السعيد والدى من أشد الناس إنكاراً على ذلك، وقد صنف فيه كتاباً مبسوطاً..

والذى ينبغي للمحصل أن يعتمد: أن كل ذلك إما أن يكون واقعاً قبل النبوة، أو كان تركاً للأولى، أو كان نسياناً، أو كان محمولاً على ذنوب أمته، وذلك مبسوط فى الكتب^(٢)..

وأما السهو والنسيان فيما يتعلق بتبليغ الشرائع، فالأقرب أن ذلك لا يجوز؛ لأن المعجزة دلّت على صدقهم فى إخبارهم عن الله تعالى، فلو وقع بالسهو شىء باطل، لكان ذلك مبطلاً لجهة دلالة المعجزات على الصدق^(٣)..

وأما ما يروى أنه — ﷺ — صلى صلاة الظهر وتحلل عن ركعتين سهواً^(٤)

(١) قال القاضى: هذا صريح فى أن للنبي — ﷺ — ذنوب {صغائر}.

والحق أن المراد بالآية هو: ما تقدم وتأخر من ذنوب أمتك فى الزمان، وكيف لا وهو كبير أمته وزعيمها، وإن سلمنا صدور تلك الذنوب عنه فهى بمعنى: ترك الأولى لا بمعنى ترك ما هو فى نفسه محظوراً.

انظر تفسير الرازى: ٧٧/٢٨ — ٨٠.

(٢) انظر المحصل للرازى: ص ٢٢٠، والأربعين: ص ٣٥٣ وما بعدها، وغير ذلك..

(٣) هذا هو رأى الاستاذ أبى اسحاق الأسفرايينى وجمهور الأشاعرة، وذهب القاضى الباقلانى إلى جواز ذلك؛ لأن المعجزة تدل على صدق الرسول فيما هو متذكر فيه عامد له، وأما ما كان من النسيان وفلتات اللسان، فلا يدخل تحت التصديق المقصود بالمعجزة، ولا المعجزة دالة على نفيه..... انظر أبحاث الأفكار: ٤ / ١٤٤..

(٤) الحديث رواه الإمام مالك فى الموطأ، ونصه كما يلى:

{ عن أبى هريرة ؓ أن رسول الله — ﷺ — انصرف من اثنتين فقال له ذو اليمين: أقصرت

فذلك خبر آحاد لا يفيد العلم، وأيضاً فقد قيل إنه كان يعمل بالتشبه بمن ينسى ليشرع لهم كيفية العمل في ذلك، وأما الأمراض القبيحة، وأن يكون كافراً قبل النبوة، أو كان مرتكباً للكبيرة، فكل ذلك عندنا جائز عقلاً إلا أنه ممتنع للإجماع،^(١) فهذا تمام القول في هذا الباب..

الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال رسول الله - ﷺ - أصدق ذو اليمين؟ فقال الناس: نعم، فقام رسول الله - ﷺ - فصلى ركعتين أخريين، ثم سلم، ثم كبر، فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع. {انظر الموطأ: ٨٧/١ - ٨٨. (١) هذا هو رأى القاضي الباقلاني ووافقه على ذلك جمهور الأشاعرة، وكثير من المعتزلة لأن السمع لا دلالة له على العصمة قبل البعث، ودلالة العقل مبنية على الحسن والقبح وغير ذلك مما سبق إبطاله.. انظر الأبكار: ١٤٣/٤..

واختار الرازي في الأربعين أن الأنبياء معصومون في زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد، أما على سبيل السهو فجائز. انظر الأربعين: ص ٣٢٢ وما بعدها..
والحق أن الأنبياء - عليهم السلام - حفظهم الله تعالى من أن يكفروا حتى قبل الرسالة، وأن يرتكبوا الكبائر مطلقاً، وأن يتعمدوا الصغائر بعد الرسالة.. والله أعلم..

الفن الخامس

فى السمعيات ومنها المعاد

ولنقتصر منها على مآل حال الإنسان بعد الموت، فإن سائر ما قيل فى هذا الباب من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتوبة والتكفير والتفسيق ونحوه، فإن كل ذلك مما يتعلق بالفقهيات..

اعلم أن أكثر العلماء قد اتفقوا على أن الإنسان يعاد بعد الموت إلا أنهم اختلفوا فى كيفيته، وحاصل الخلاف فيه يرجع إلى ثلاث مقالات:—

فقال أكثر أهل الشرائع: المعاد هو البدن المحسوس المشاهد، وهؤلاء قد اختلفوا أيضاً، فمنهم من زعم أن الله تعالى يعدها ثم يعيدها بأعيانها بعد العدم،^(١) ومنهم من أحال القول بذلك، وفسر الإعادة بجمع أجزاء الإنسان على الهيئة التى كان عليها مدة حياته بعد أن صارت متفرقة بالموت^(٢)..

(١) هذا هو قول فريق من المتكلمين حيث ذهبوا إلى أن البعث سيكون بعد فناء الأجسام

برجوع الأرواح إليها، واحتجوا على ذلك ببعض الأدلة السمعية من أهمها:—

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ (الحديد: ٣) وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(القصص: ٨٨) وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن: ٢٦) وغير ذلك.. انظر

شرح المقاصد: ٣٣٠/٣ وما بعدها، والنبوات والسمعيات: ص ١٠٣.

(٢) هذا هو رأى بعض المتكلمين حيث ذهبوا إلى أن البعث سيكون بالجمع بعد التفريق، ولهم

على ذلك أدلة كثيرة انظر: النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ١٠٤ وما بعدها.

ومن الناس من أثبت المعاد للروح فقط،^(١) وزعم أن حقيقة الإنسان ليست هي هذه الأجزاء المحسوسة، بل حقيقة الإنسان جوهر قائم بنفسه غير متحيز، ولا في مكان، وهو مدرك لذاته دائماً، وللأمر الكلية إذا استعد لها، ومادامت هذه الروح متعلقة بالبدن ومتفرقة فيه، كان البدن حياً، والحواس سليمة، ومتى انقطعت هذه العلاقة فسد البدن بالموت، وبقيت النفس بعد فساد البدن، ثم إن هذا الجوهر إن كان كاملاً لأجل حصول ما يليق به من الكمالات، وهو إدراك الأشياء على ما هي عليها كان له غاية السعادة، وإن اعتقد الأمور على خلاف ما هي عليها كان دائماً محجوباً عما هو معشوقه، وهو معرفة الله تعالى وملائكته، فيكون دائماً متألماً وهذه هي الشقاوة العظمى^(٢)..

وأما النفوس التي لم تحصل العلوم ولا أضدادها كأرواح البله والعوام فقد قال أبو نصر الفارابي: إنها تنعدم^(٣)..

وقال ابن سينا: إنها تبقى وتتعلق ببعض الأجرام السماوية، ويتخذها آلة لتخييلات النعم والنقم الموعودة في الدنيا، فالسعيد منهم يتخيل الأطعمة الشهية، والأغذية اللطيفة فيلذ بها، والشقي منهم يتخيل النار العظيمة والبرد العظيم ويتألم منها^(٤)..

والمذهب الثالث: قول من يقول إعادة الروح والبدن جميعاً، وهو مذهب

(١) هذا هو رأى فلاسفة الإسلام خاصة الفارابي وابن سينا حيث ذهبوا إلى أن النفس ليست جسماً، ولا في مكان، بل هي جوهر عقلي.. انظر: الأربيعين للرازي: ص ٢٦٧، والمحصل: ص ٦٤..

(٢) قارن نهاية العقول: ١٥٢/٢ — أ، والمباحث المشرقية: ٣٤٥/٢..

(٣) انظر عيون المسائل للفارابي: ص ٧٥ وما بعدها..

(٤) انظر: النجاة لابن سينا: ص ٣٢٥، والإشارات والتنبيهات: ٥٤٥/٣ وما بعدها..

الجمهور من النصارى، وقالوا: إن للنفس لذات تليق بها، وللبدن لذات تليق به، فوجب فى الحكمة الإلهية إعادتهما جميعاً لينال كل واحد منهما من اللذات بقدر ما نال من المشقات، وذهب البعض إلى أن النفس إذا فارقت البدن وهى غير كاملة، فوجب فى الحكمة الإلهية ردّها إلى بدن آخر، لتستقل بتحصيل الكمالات وتكتسب المعارف النفسية، وهاهنا مذاهب آخر ذكرناها فى رساله مفردة^(١) وإذا أحطت بما ذكرناه علماً، فاعلم أنا نرتب هذا الباب على فصلين :-

أحدهما: فى حقيقة الإنسان، وإبطال مذهب الفلاسفة فيه..

والثانى: فى إقامة الدلالة على صحة إعادة المعدوم..

(١) هى رسالة المعاد: ولعلها كتاب: { المباحث العمادية فى المطالب المعادية }..

انظر: وفيات الأعيان: ٣/٣٨١، والوافى بالوفيات: ٤/٢٥٥..

الفصل الأول

فى حقيقة الإنسان وإبطال مذهب الفلاسفة فيه

اعلم أنا قد دللنا فى باب حدوث العالم^(١) على انحصار الممكنات فى الأجرام^(٢)، والقائم بالأجرام^(٣) والذى نختص به هذا الفصل أن نقول: لو كانت حقيقة الإنسان جوهرًا قائمًا بنفسه غير متحيز، لوجب أن تكون ذاته دائمًا مدركة لذاته، كما أن عندهم^(٤) لما كان الإله مجرداً عن المادة، لا جرم وجب أن يكون دائمًا مدركاً لذاته، وإذا أدرك الذات لابد وأن يدرك لوازم الذات، ومن جملة ما أنه غير متحيز، فوجب أن يضطر كل أحد إلى العلم بأن ما هو حقيقته غير متحيز، واعلم أن شبههم فى هذا الباب كثيرة ذكرناها فى رسالة المعاد، ولنذكر هاهنا بعض ما عولوا عليه..

فمنها أن قالوا: العلم المتعلق بالأشياء الغير المنقسمة مثل: أن الله واحد وغنى، لا يخلو إما أن تصح عليه القسمة أو لا تصح، فإن صح فإما أن يتعلق بعضه بجملة ما تعلق به كله، أو ببعض ما تعلق كله، أو لا يتعلق بشيء من ذلك المعلوم أصلاً..

(١) انظر مبحث حدوث العالم: ص ٣٦ وما بعدها..

(٢) يقصد الجواهر..

(٣) يقصد الأجزاء..

(٤) يقصد الفلاسفة..

ومحال أن لا يتعلق بشيء من ذلك المعلوم أصلاً؛ لأنه لو لم يتعلق كل واحد من جزأيه بشيء من المعلوم، وليس الكل إلا مجموع الأجزاء، فوجب ألا يكون للكل تعلق بذلك المعلوم، فلا يكون العالم بالشئ عالماً به، وذلك محال..

ومحال أيضاً أن يتعلق ب كله؛ لأن الكل لا يساوى البعض، فثبت أن العلم بالمعلومات الغير المنقسمة غير منقسم، وإذا لم يكن العلم قابلاً للقسمة استحال حوله في الجسم، إذ الجسم أبداً منقسم، والحال في المنقسم منقسم، والدليل على انقسام الجسم أبداً، أن أى جزء يفرض فإنه يصح وقوعه بين جزعين آخرين، ومعلوم أنه لا يلاقى أحد طرفيه بعين ما لاقى به الطرف الآخر، وإلا كانت الملاقاة بالاثنتين، فيكون كل جزء منهما مداخل في الغير، فيكون مقدار الواحد مقدار الكل، ومقدار الكل منقسم، فيلزم أن يكون مقدار الواحد أيضاً منقسماً، فوجب أن يكون بغيره، ويلزم منه انقسام الأجزاء جميعاً..

ولأننا إذا فرضنا أربعة أجزاء متماسة، وفرضنا فوق أحد طرفيه جزء، أو تحت الطرف الثانى جزءاً، وفرضنا أنه ابتداء كل واحد منهما بالحركة دفعة واحدة، وتحركنا حركة متساوية فى السرعة والبطء حتى بلغ كل واحد منهما آخر الخط، فلا بد أن يتماسا، ولا يحصل التماس إلا على متصل الثانى والثالث، فيلزم منه تجزئة ذلك الجزء مع الجزعين اللذين تماسا متصلهما^(١).

(١) يعرف هذا الدليل عند ابن سينا باسم برهان الإدراك العقلى وحاصله:—

أن المدرك لجميع الإدراكات شئ واحد فى الإنسان، ولا يجوز أن يكون هذا الشئ هو البدن، لأن الجسم من حيث هو جسم لا يكون مدركاً، ولا يصح أن يقال: إنه صفة حالة فى البدن؛ لأنها لو كانت قائمة بكل أجزائه لأصبح كل جزء منه سميعاً بصيراً، ولو فرض أنها موجودة فى بعض أجزائه لكان فى البدن الإنسانى عضو هو السامع المبصر المتفكر العاقل، ولسنا نجد هذا العضو، فإن النفس غير البدن، وغير صفة حالة فى البدن..

ومما احتجوا به فى إثبات النفس الناطقة أن قالوا: الإنسان قادر على معرفة ما لا يتناهى من المعلومات، والجسم لا يقوى على أفعال غير متناهية؛ لأن نصفه أيضاً لا يقدر على أفعال غير متناهية، فوجب أن يكون مقدوراً لكل متناهى؛ لأن المتناهى إذا ضم إلى المتناهى يكون الكل متناهياً، والإنسان قادر على معرفة ما لا نهاية له، فهو إذن ليس بجسم^(١)..

ومما أحتجوا به وهو: أنه لو كان محل العلم هو أجزاء، البدن، لما امتنع أن يوجد العلم فى جزء، والجهل فى جزء آخر، حتى يكون الشخص الواحد عالماً جاهلاً بشيء واحد فى آن واحد، وذلك محال..

ومما أحتجوا به أن قالوا: الإنسان يدرك نفسه مع الذهول عن الأجزاء البدنية ظاهراً وباطناً، فلا بد وأن تكون الحقيقة المعلومة غير الأجزاء البدنية المجهولة،^(٢) وإنما يقولون: إن أجزاء بدن الإنسان فى التحلل والتبدل دائماً مع بقاء ذلك الإنسان بعينه، فعلم أن حقيقته المحفوظة غير أجزائه المتبدلة^(٣)..

انظر: النجاة: ص ٣٣٠ وما بعدها، والإشارات: ٤٩٠/٣ وما بعدها..

(١) قارن ما سبق..

(٢) هذا هو برهان الرجل الطائر عند ابن سينا وحاصله:—

إن الإنسان يشعر بذاته مع ذهوله عن كائنه أعضائه مما يدل على أن حقيقته غير جسمه..

انظر: المباحث المشرقية: ٣٧٧ / ٢ — ٣٧٨..

(٣) هذا هو برهان الاستمرار عند ابن سينا وحاصله:—

أن جسم الإنسان دائم التحلل والتغير، مع أن الإنسان يعلم أنه هو الذى كان قبل اليوم، فلو كانت النفس هى هذا الجسم أو شيئاً جسمانياً لتحللت وتبدلت، ولنتج عن ذلك أن الواحد منا لا يحس بأنه هو ثابت مستمر..

انظر المباحث المشرقية: ٣٧٧ / ٢ — ٣٧٨..

والجواب عما تمسكوا به أولاً أن نقول: دعواكم بأن العلم الذى لا تجوز عليه القسمة يستحيل حله فى المنقسم مُسلّم، لكن دعواكم بأن الجسم دائماً ينقسم ممنوع، بل الجسم ينتهى بالقسمة إلى حد لا يقبل القسمة..

والدليل عليه: وهو أنه لو كانت الحركة تنتهى بالقسمة إلا ما لا يقبل القسمة، والأول واجب، والثانى واجب..

بيان المقدمة الأولى من وجهين:—

الأول: وهو أن الحركة لها وجود فى نفسها وراء الوجود ذهنى،^(١) إذ لو لم يكن كذلك لما كان الجسم ونفسه متحركاً، ولأن كل ما يُحكم عليه بأنه ماضٍ ومستقبل، فلا بد وأن يكون له وجود، إذ لو لم يكن له وجود أصلاً، لما صح أن يحكم عليه بالماضى والاستقبال، والموجود من الحركة إن كان قابلاً للقسمة فلا يخلو: إما أن أجزائه فى المتحرك وهو فى حد واحد من حدود المسافة أو فى حدين، والأول محال؛ لأنه يلزم اجتماع المتماثلين، ولأنه يلزم أن لا تكون أجزاء الحركة منقسمة، وذلك يوجب قلب حقيقتها، والثانى أيضاً محال؛ لأنه يوجب حصول الجسم الواحد فى الآن الواحد فى جهتين وذلك محال، فإذن الموجود من الحركة غير قابل للقسمة، ثم إذا استمر الجسم فى ذلك الحد من المسافة وقد صار ساكناً، وإن لم يستمر فقد حصل عقبه شىء آخر، وهكذا إلى آخر المسافة، فثبت تركيب الحركات من أجزاء غير متجزئة..

الثانى: هو أن الآن عندهم غير منقسم، وهو الفاصل بين الماضى والمستقبل، فلا بد وأن يطابق شيئاً غير منقسم من الحركة، وهو ما يكون فاصلاً بين الحركة الماضى والمستقبل، ولا يخلو ابتداءً انعدام ذلك الذى هو فاصل بين الماضى

(١) أثبت الفلاسفة الوجود ذهنى، وأنكره الأشاعرة..

والمستقبل إما أن يكون دفعة أو قليلاً قليلاً، ومحال أن يكون ابتداءً عدمه قليلاً قليلاً؛ لأن كل ما يكون قليلاً قليلاً فله طرفان وواسطة، وإذا ابتداءً بالعدم، فلا يكون بعده مُبتدأُ العدم، فإذن ابتداء عدمه دفعة، ولا يجوز أن يكون أن وجوده هو الثانى، فيقع فى الآن الثالث، ويلزم منه تركب الزمان بأسره، والحركة بأسرها من أمور غير منقسمة..

وبيان المقدمة الثانية: هو إنما يقطع من المسافة بالجزء الذى لا يتجزأ من الحركة إن كان منقسماً فقطع نصفه، فإما أن يكون بحركة مساوية لحركة قطع كله، أو أعظم أو أقصر، والأول والثانى محال، لاستحالة أن يساوى الكل بعضه، أو يقصر عنه، فإذن الحركة التى بها يقطع نصفه أقصر من التى تقطع بها كله، وقد فرضنا أنها غير قابلة للقسمة، فإذن ما يقطع من المسافة بالحركة التى لا تتحرك غير قابلة للقسمة، فثبت وجود الجزء الذى لا يتجزأ..

وأما قولهم بأن الجزء الواقع بين الجزعين لابد وأن ينقسم..

قلنا: لا شك أن أى جسم قُدر، فإنه يلاقى بأحد طرفيه بالطرف الثانى، فلا بد وأن توجد فى نفس ذلك الجسم كثرة بالفعل؛ لأنه يستحيل أن يكون الطرف الذى لاقى جسماً هو بعينه الطرف الذى لم يلاقه، وإن قالوا بأن الملاقاة واقعة بالسطوح، والسطوح ممتازة بعضها عن البعض بالفعل، فنقول: لابد من وقوع الكثرة بالفعل فى الجسم، فنقول: إن أحد النصفين لابد وأن يكون ملاقياً للنصف الثانى بأحد وجهيه دون الثانى، فينتصف ذلك النصف أيضاً، وهكذا ينجر الكلام فى كل جزء، إذ لا جزء إلا يلاقى بأحد وجهيه شيئاً دون ما لاقاه الطرف الثانى، ويلزم منه أن يكون فى الجسم كثرة غير متناهية بالفعل، وهذا أيضاً محال؛ لأن الكثرة عبارة عن تكرار الواحد فيما لم يوجد فيه الواحد، أو وجد فيه الكثرة، لكن ما ذكرناه ينفى وجود شيء واحد فى الجسم كما ذكرناه، فإذن يلزم منه طرفاً النقيض، وهو وجود

الواحد ونفيه، وذلك محال، فعلمنا اشتغال هذا القياس على مقدمة فاسدة، وقد ثبت أن قولنا: إن كانت ملاقاته لما على أحد طرفيه يعنى ما به لاقى الطرف الثانى لزم التداخل، وأن لا يتعاضد مقدار الجسم بكثرته كلام حق..

والمقدمة الثانية: وهو أنه وإن كانت ملاقاته لأحد الطرفين لغير ما به لاقى ما عدا الطرف الثانى، لزم منه طرفا النقيض، فعلمنا بأن القول بأن الجوهر الوسطانى مماس للطرفين كلام باطل،^(١) وأن الحق ما ذكره شيخنا أبو الحسن رحمته: أن كل جوهر مختص بحيز نفسه لمعنى قائم به، وأن حاله عند الانفراد كحالته عند انضمام غيره إليه، فإن خلق الله فى الجوهرين كونين فى حيزين ليس بينهما حيز ثالث، يقال تماساً وتجاوراً، وإن خلق الكونين فى حيزين بينهما حيز فارغ يقال: افتراقاً وتباعداً،^(٢) وما عدا ذلك فكله وهم فاسد وخيال كاذب، كما أن الخلاء الذى يتصوره الوهم خارج العالم وهم كاذب، والزمان المقدر قبل الحوادث خيال فاسد، وبه نجيب عن الشبهة الثانية من مماسية جوهر فرد متصل لجوهرين لا يزيد عن ملاقاته الجوهرين، وقد بينا أنه لا يلزم منه ما قالوه، فقد ثبت وجود الجوهر الفرد، وتبين أنه لا يلزم من حلول العلم فى متحيز انقسامه، كما أن أصل الشبهة ينقض عليهم بالنقطة والوحدة والآن، فإنها معان غير منقسمة مع أنها حالة فى الجسم، أو فيما يحل فى الجسم، وذلك مما لا محيص عنه^(٣)..

وأما قولهم بأن الإنسان قادر على إدراك معان لا نهاية لها، والجسم لا يقدر على ذلك، والجواب عنه: أنا لا نسلم أن الإنسان قادر على إدراك معان لا نهاية لها بل كل ما يعلمه فهو متناه، وكل ما يمكنه أن يزيد عليه فهو أيضاً متناه، فالكل كيف

(١) انظر شرح الإشارات والتنبيهات: ٥٧/٢ - ٥٩..

(٢) انظر اللمع للأشعرى: ص ٢٥ وما بعدها..

(٣) قارن المحصل: ص ١٦٣..

يكون غير متناه؟ نعم يمكنه أن يعرف معنى اللانهاية، وذلك أمر واحد إلا أنه في نفسه عدد غير متناه، ثم إن ساعدناهم على أن المعارف التي يقوى الإنسان عليها غير متناهية، فلم لا يجوز أن يكون جسماً، وما ذكروه فهو بناءً على نفى الجوهر الفرد وقد أثبتناه، ولأن عندهم النفس الفلكي قوة جسمانية مع أنه المبدأ والقريب لحركاته الغير المتناهية عندهم، وهذه مناقضة عظيمة^(١)..

وقولهم: لو كان محل العلم هو أجزاء البدن، لما امتنع أن يوجد العلم في جزء والجهل في جزء آخر. فالجواب عنه: أن هذا يبطل بالشهوة والنفرة في حق البهائم، فإن محلها هو الجسم، ولا يلزم منه صحة اجتماع الشهوة والنفرة في البهيمة، فكذا هاهنا، ولأن ما ألزمونا فهو جائز على أصلنا..

وقولهم: كيف يكون الإنسان الواحد عالماً جاهلاً؟.

قلنا: ليس شيئاً وراء هذه الأجزاء، ولا استحالة في أن تجد بعض الأجزاء عالمة بشيء دون ما عداه.

وقولهم: إن الإنسان يدرك حقيقته مع ذهوله عن أجزائه..

فنعول: نلزمكم أن تكون للبهائم أنفس ناطقة؛ لأنها تدرك ذواتها مع غفلتها عن أجزائها البدنية ظاهراً وباطناً، وبهذا يبطل قولهم: الأجزاء البدنية دائماً في التحلل والزوال مع بقاء الشخص بعينه، فإن هذا المعنى موجود في البهائم مع أنه ليس لها أنفس ناطقة، فكذا هاهنا، ثم التحقيق فيه، وهو أن في بدن الإنسان أجزاء أصلية لا تزول ولا تتبدل، وهو حقيقة الإنسان^(٢)، ولهذا نرى آثار القروح باقية

(١) انظر شرح الإشارات: ٦٢/٢ - ٦٣..

(٢) اعتنق الرازي هنا في الإشارة مذهب بعض المتكلمين حيث ذهب إلى أن الإنسان عبارة عن أجزاء أصلية في البدن لا تزول ولا تتبدل، ومن ثم فقد أنكر المذهب الروحي الذي يقول به

مستمرة مع الإنسان، ولو لم تكن أكثر الأجزاء محفوظة لما بقيت آثار القروح، وعلم الإنسان بنفسه هو علمه بتلك الأجزاء لا من حيث شكلها وهيئتها، بل من حيث كونها فاعلة متصرفة، ويشبه أن تكون هذه هي الروح المعنية بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥)، وهذا القدر كاف في النفس الناطقة ثم إن سلمنا لهم ذلك جدلاً، لكن لا نسلم أن العلم والجهل سبب السعادة والشقاوة؛ لأنه كان ينبغي أن يجد العالم حالة حياته اللذة العظيمة، والجاهل حالة حياته الألم العظيم

الفلاسفة وعارضه بشدة، ولكن هل هذا هو رأى الرازى الأخير ؟.

الحق أن هذا ليس هو رأى الرازى الأخير، لأنه في المطالب العالية اعتنق القول بأن النفس جوهر روحي مفارق..

واستدل على ذلك بأدلة سمعية وعقلية: — أما السمعية: فمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧: ٢٨) وقوله: ﴿إِذَا حُمِلَ الْمَيِّتُ عَلَىٰ نَعْشِهِ رَفَرَفَ رُوحُهُ عَلَىٰ نَعْشِهِ﴾ ومثل مخاطبة النبي — ﷺ — لجثث المشركين في قليب بدر قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟﴾، وغير ذلك..

وأما الأدلة العقلية: التي استدل بها الرازى على أن النفس غير البدن فهي في حاصلها لا تخرج عن الأدلة التي قدمها ابن سينا مثل: —

برهان الاستمرار — برهان الرجل الطائر أو وحدة النفس — برهان الإدراك العقلي، وكذلك دليل عدم التوازن بين النفس والجسم والذي حاصله: — { كلما استغرق المرء في الفكر والتأمل، ضعف جسده وقوى عقله، وكلما داوم على الشهوات الحسية بلدت ملكته الفكرية، الأمر الذي يدل على أن النفس غير الجسم }..

للمزيد من التفاصيل انظر: — المطالب العالية: ٢ / ٢٧٠ — ٣٠٦، والمباحث المشرقية: ٢ / ٣٤٥، و ٣٧٧ — ٣٧٨، وشرح عيون الحكمة: ص ٢١٠، والمعالم في أصول الدين: ص ١١٨ وص ١٣١..

الذى جعلوه من أعظم اللذات والآلام الجسمانية، وعذرهم عنه بأن استغرق النفس بتدبير البدن مانع لها من إدراك تلك الآلام واللذات عذر باطل؛ لأن عندهم اللذات والآلام الروحانيين أعظم من اللذات والآلام الجسمانيين، فكيف انتهضت اللذة اليسيرة، والألم الضعيف مانعة من اللذة العظيمة والألم العظيم؟ ولأن إدراك النفس اللذات والآلام النفسانية لذاتها، وإدراكها اللذات والآلام الجسمانية ثبت تبعاً لتعلقها بالبدن، فكيف صارت الجهة العارضة مانعة من الحكم الثابت لذاته^(١)؟ ولنا في هذا الباب كلام كثير ذكرناه في رسالة المعاد.... والله أعلم..

(١) لمس الرازى في هذا النص الوجيز موضوعاً هاماً جداً في فكره وهو السعادة وسبل

تحقيقها، وسوف نتحدث في إيجاز عن ذلك:—

قسّم الرازى السعادة تارة إلى قسمين:—

أحدهما: التعظيم لأمر الله تعالى..

وتارة يقسمها إلى ثلاثة أقسام:—

سعادة روحانية وتتمثل في: تكميل القوة النظرية بالعلم، وتكميل القوة العملية بالأخلاق

الفاضلة.. وسعادة بدنية وتتمثل في: الصحة والجمال..

وسعادة خارجية وتتمثل في: الجاه والمال..

ويرى الرازى أن السعادة الحقيقية هي: العلم بالله تعالى والاستغراق في محبته، أما العلوم

الأخرى فلا يمكن أن تكون سبباً للسعادة..

يقول الرازى: {والذى يظنه الأغمار من أن العلم بالأمور العقلية كلها أسباب اللذات العقلية

فهو خطأ، بل اللذة لا تحصل إلا بالعلم بالله تعالى والاستغراق في محبته}..

ويقول في موضع آخر: {الصحيح عندى أن الأخلاق الفاضلة لا تكون سبباً للسعادة، فإن

الغرض منها ألا تصير النفس شديدة التعلق بالبدن، فتأثيرها ليس إلا فى ألا تصير معذبة،

أما فى السعادة فلا}.

للمزيد من التفاصيل انظر: الملخص: ص ١٣٦ / أ — ب، التفسير الكبير: — ٨٠/١٠،

١٣٣/١٦، ونهاية العقول: ١١/١ وما بعدها.

الفصل الثانى

فى تصحيح المعاد الجسمانى

قد ذكرنا أن من مذهبنا صحة إعادة المعدم،^(١) والدليل عليه وهو:—

(١) الكلام عن إعادة المعدم قبل الحديث عن حشر الأجساد مهم جداً؛ لأن إثبات حشر الأجساد يتوقف على إعادة المعدم عند من يقول: إن الأجسام تبعث بعد العدم، أما من يقول: إن الأجسام تبعث بعد التفريق فلا يحتاج إلى الكلام فى إعادة المعدم.. انظر النبوات والسمعيات: ص ٨٧..

وقد اختلف فى جواز إعادة ما عُدَّ عقلاً كما يلى:—

ذهب الفلاسفة، والتناسخية، وأبو الحسين البصرى، وبعض الكرامية إلى منع ذلك..

وذهب جمهور المتكلمين إلى جوازه، ولكنهم اختلفوا:—

فذهب الأشاعرة إلى جواز إعادة ما عُدَّ ذاتاً ووجوداً، واختلفوا فى إعادة الأعراض، فمنهم من منع ذلك؛ لأنه يلزم منه عودتها لمعنى، ويلزم منه قيام العرض بالعرض، وهو محال، وذهب أكثرهم وإليه ميل الشيخ الأشعرى إلى جواز إعادتها مطلقاً، ولهم فى ذلك تفصيل ليس ذلك محله..

وأما المعتزلة فذهبوا إلى جواز إعادة الجواهر إذا عُدَّت لكن بناءً على بقاء ذواتها فى العدم؛ لأن المعدم عندهم شيء، وأما الأعراض فقد اختلفوا فيها، فبعضهم منع إعادتها مطلقاً، وقال الأكثرون منهم بامتناع إعادة الأعراض التى لا تبقى كالأصوات والإرادات لاختصاصها عندهم بالأوقات، وقسموا الأعراض الباقية إلى ما يكون مقدوراً للعبد، وحكموا بأنه لا يجوز إعادتها لا للعبد ولا للرب، وإلى ما لا يكون مقدوراً للعبد، وجوزوا إعادتها..

للمزيد من التفاصيل انظر:— الإرشاد لإمام الحرمين: ص ٣٧١، ونهاية الإقدام

أنه لما استحال وجوده بعد انعدامه، لكانت استحالته إما أن تكون لحقيقته، أو لما هو لازم لحقيقته، أو لأمر لازم لحقيقته، ويلزم من الأول والثاني استحالة وجود أمثاله مطلقاً، ووجوب انتفائه حالة ثبوته، وذلك محال..

وأما الثالث: فيلزم منه صحة إعادته بتقدير عدم ذلك العارض، وذلك ما أردناه^(١)..

فإن قيل: الشيء بعد انتفائه لم تبق هويته وتعيينه، فكيف يحكم عليه بالجواز والاستحالة؟ إذ ما ليس ثابتاً في نفسه كيف يثبت له غيره؟^(٢).

والجواب عنه من وجوه ثلاثة:—

الأول: أن المنع من الحكم بالجواز والاستحالة على السواد المعدوم ليس منعاً من الحكم على مطلق السواد بل منعاً من الحكم على السواد المعين، وهذا يناقض القول بأنه لا يحكم عليه أصلاً..

الثاني: وهو أن القضية السلبية لا تستدعي محلاً ثانياً، كما أنا نحكم على الجمع بين السواد والبياض موجوداً، فكذلك هاهنا الإمكان قضية سلبية فلا يستدعي محلاً ثانياً..

الثالث: وهو أنه ليس وجود السواد وتعيينه عين حقيقته، وإلا لما علمنا السواد إلا إذا علمناه موجوداً، وكان كل ما ليس ذلك السواد لم يكن سواداً، فإذا أنتفى فهو

للشهرستاني: ص ٤٦٧ وما بعدها، وأبكار الأفكار للآمدى: ٢٤٩/٤ وما بعدها، شرح

المقاصد: ٣٣٨/٣ وما بعدها..

(١) قارن المحصل: ص ٢٣١، والأربعين في أصول الدين: ص ٤٣٩ وما بعدها..

(٢) قارن المحصل نفس الصفحة..

ما انتفى من جهة ما هو سواد، وإلا لا تبقى جملة السوادات، فعلى هذا يصح الحكم على تلك الحقيقة بالجواز والاستحالة، وليس هذا مصيراً منا إلى أن المعدوم شيء؛ لأن عندهم الحقائق في العدم ثابتة متكررة، وعندنا الثبوت من لواحق هو بما هو هو ليس بثابت ولا منفى ولا واحد ولا كثير، بل كل ذلك من لواحقه، وهذا واضح^(١)..

وأما الإعادة على معنى أن الله تعالى يعيد الأجزاء المتفرقة إلى نظمها الأول، فذلك أيضاً جائز، وبإولى فإنه إذا صحت إعادة المعدوم، فلأن تجوز إعادة التركيب إليه صحة بقاء ذاته كان أولى^(٢)..

— وأما —^(٣) شبهة المنكرين للإعادة أن قالوا: لا يخلو إما أن يعيد الله تعالى الأجزاء الحاضرة عند الموت، ويلزم منه أن يبعث الأعور والأعرج يوم القيامة على تلك الصورة، أو يبعث جميع الأجزاء التى كانت له مدة عمره، ويلزم أن يبعث الجزء الواحد يداً، رأساً، قلباً؛ لأن الأجزاء البدنية دائماً يفتدى البعض من البعض، وينتقل من عضو إلى عضو، ويجب أن لا يحشر الإنسان المتغذى من لحم إنسان آخر؛ لأن أجزاء من أجزاء غيره أصبحت هو، وتضيع أجزاء غيره ولا تبعث، وذلك قبيح^(٤)..

(١) قارن نهاية العقول: ١٥٣/٢ — أ، والمحصل: ص ٢٣٢..

(٢) انظر شرح المواقف: ٢٣٠ / ٨ وما بعدها، وشرح المقاصد: ٣ / ٣٣٠ وما بعدها.

(٣) زيادة ليست فى الأصل يقتضيها السياق..

(٤) احتج الفلاسفة المنكرون للبعث الجسماني بثلاثة أدلة حاصلها:—

أ — المعاد الجسماني متوقف على إعادة المعدوم، وهى مستحيلة، فالمعاد الجسماني مستحيل..

وجه التوقف على تقدير الإيجاد بعد الفناء ظاهر، وأما على تقدير كونه جمعاً بعد التفرق والموت فلتقطع بفناء التأليف والمزاج والحياة وكثير من الأعراض والهيئات..
والجواب: هو أن إعادة المعدوم ممكنة، وليست مستحيلة.

والجواب عنه: أنه وجد من خلال الاثنين أجزاء أصلية، وأجزاء فاضلة، والأجزاء الأصلية لأحدهما فاضلة بالنسبة إلى الآخر، فإذا أعيدت تلك الأجزاء الأصلية فقد حصلت إعادة ذلك الشخص، وذلك جائز^(١)..

وإذا ثبت جواز إعادة الأبدان والأجساد بدليل العقل، فاعلم أن جميع الأنبياء قد أخبروا عن وقوعه، واتفقت كلمتهم على ذلك، ولم ينكر ذلك أحد من أصحاب الشرائع وأرباب الأديان، وثبت صدق لهجتهم، ووجوب اتباع قولهم، فوجب

ب — المعاد الجسماني غير ممكن؛ لأنه لو أكل إنسان إنساناً بحيث صار جزءاً منه فتلك الأجزاء إما أن تعاد فيهما وهو محال، وكل ما أدى إلى المحال فهو محال، فالمعاد الجسماني محال، وإما أن تعاد في أحدهما فلا يكون الآخر معاداً بجميع أجزائه، وأيضاً إذا كان الآكل كافراً والمأكول مؤمناً يلزم تنعيم الأجزاء العاصية أو تعذيب الأجزاء المطيعة..

والجواب: أننا نعني بالمعاد الجسماني إعادة الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره لا الحاصلة بالتغذية، فالمعاد من كل من الآكل والمأكول الأجزاء الأصلية الخاصة من أول العمر إلى آخره من غير لزوم فساد..

وقد ذهب بعض المعتزلة إلى أنه يجب على الحكيم حفظ الأجزاء الأصلية ليتمكن من إيصال الجزء إلى مستحقه، وهو باطل لأنه مبني على أصل المعتزلة الفاسد في القول بوجوب بعض الأشياء على الله تعالى..

ج — لو كان البعث ممكناً فهو إما لا لغرض أو لغرض، لكن التالي باطل بشقيه فبطل المقدم، وثبت نقيضه وهو أن البعث غير ممكن..

والجواب: أنه لا يقبح خلو الفعل عن الغرض عند أهل السنة، فالله سبحانه وتعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون..

والحق أن المعاد الجسماني لم يقم دليل من العقل على نفيه، فوجب إثباته بالآيات القرآنية الكثيرة الواردة في شأنه مع إجرائها على ظواهرها دون تأويل.. انظر النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام: ص ١٠١ — ١٠٣.

(١) قارن المحصل: ص ٢٣٣ — ٢٣٤..

الاعتراف به، والتصديق بوقوعه^(١)..

وتتفرع على هذه الجملة مسائل:—

منها: أن تعلم أن عذاب القبر حق،^(٢) لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَيْنِ﴾

(١) لم يرد في التوراة أى ذكر للمعاد البدنى، ولا نزل على موسى عليه السلام، ولكن جاء ذلك فى كتب الأنبياء الذين جاءوا بعده كحزقييل وأشعيا عليهما السلام؛ لذا اعترفت به اليهودية وأما فى الإنجيل فقد ذكر أن الأخيار يكونون كالملائكة، وتكون لهم الحياة الأبدية والسعادة العظيمة..

وأما فى القرآن الكريم فقد وردت آيات كثيرة لا تقبل التأويل مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨: ٧٩) ..

وقوله: ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (يس: ٥١) ..

وقوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الإسراء: ٥١) ..

وقوله: ﴿ أَيُخْشَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ (القيامة: ٣: ٤). وقوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق: ٤٤) وغير ذلك مما لا يمكن أن يحصى.

(٢) اتفق أهل الحق على إثبات إحياء الموتى فى قبورهم، ومسألة الملكين لهم، وإثبات ثواب القبر للصالحين، وعذاب القبر للمجرمين والكافرين..

وذهب العلاف، وبشر بن المعتمر إلى أن من ليس بمؤمن فإنه يسأل ويعذب فيما بين النفختين، أيضا..

وذهب الصالحى من المعتزلة، وابن جرير الطبرى المفسر، وبعض الكرامية إلى تجويز ذلك على الموتى فى قبورهم من غير إحياء لهم !!
وذهب بعض المعتزلة إلى أن الآلام تجتمع فى أجساد الموتى، وتتضاعف من غير حس بها، فإذا حشروا أحسوا بها دفعة واحدة..

وأنكر ذلك كله ضرار بن عمرو، وبشر المريسى، وأكثر المتأخرين من المعتزلة. انظر:

(غافر: ١١) والإماتة مرتين لا تكون إلا بالإحياء فى القبر؛ لأن خلقهم مواتا حينما كانوا نطفة وعلقه، ولا يقال بأنه إماتة..

فإن قالوا: ^(١) الموت مرتين لابد فيه من الإحياء ثلاث مرات، وليس فى الآية ذكر الإحياء إلا مرتين.

قلنا: نحن لا نقول بدليل الخطاب، وليس فى الإحياء مرتين ما ينفى الإحياء ثلاثاً ^(٢) ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿الْأَنَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦) وجه الاستدلال به أن عذاب للقيامة دائم لا ينقطع، وهذه الآية دلت على إثبات عذاب بكرة وعشيا، ولأنه فصل بين عذاب القيامة وبين عذاب ما قبله، ويدل على ثواب القبر قوله — ﷺ : { القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران } ^(٣)

مقالات الإسلاميين: ١٤٧/٢، والإرشاد: ص ٣٧٥، وأبكار الأفكار: ٣٣٢/٤..

(١) هذا هو اعتراض بعض المعتزلة وحاصله: أن ما ذكرتموه يلزم منه أن يكون الإحياء ثلاث مرات: الأول: الذى قبل القبر، والثانى: الإحياء للمسألة، والثالث: الإحياء للحشر، وهو خلاف المفهوم من الآية..

(٢) انظر تفسير الرازى: ٣٨/٢٧ وما بعدها..

(٣) رواه الترمذى فى صفة القيامة باب ٢٦..

ومن الأحاديث الدالة على إثبات نعيم وعذاب القبر ما يلى:—

ما روى عن النبى — ﷺ — أنه مر بقبرين فقال: { إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الثانى فكان يمشى بالنميمة } متفق عليه.. قوله — ﷺ — { إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه }.. رواه مسلم..

وكان رسول الله — ﷺ — يكثر فى دعائه من قوله: { اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المسيح الدجال } متفق عليه..

ومنها: أن سؤال منكر ونكير حق،^(١) لورود الحديث الصحيح به،^(٢) وليس يجب إنكاره لاشتمال الحديث على تسمية الملكين منكراً ونكيراً، وذلك اسم ذم،^(٣) لأنه إنما يسميان بذلك لما يستنكره المسئول — من —^(٤) رؤيتهما؛ لاسيما المعاقب^(٥) ومنها: أن الميزان حق،^(١) وله كفتان، ويجوز أن يُجعل في أحد الكفتين

(١) قارن شرح المواقف: ٨ / ٣٣٠، وشرح المقاصد ٣ / ٢٧٣ وما بعدها.

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي — ﷺ — في جزء من حديث طويل ما نصه:

{ أن ملكين يدخلان القبر، ويجلسان الميت ويقولان: أنت في البرزخ، فمن ربك ومن نبيك؟ فإن كان كافراً قال: لا أدرى، فيقولان: لادريت ولا اهتديت، وإن كان مؤمناً قال: آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد — ﷺ — نبياً، فيفسح له في قبره، ويرى موضعه من الجنة، ويقال له: ارفد رقدة العروس { رواه مسلم.

(٣) أنكر الجبائيان والبلخي تسمية الملكين منكراً ونكيراً مع الاعتراف بهما، وإنما المنكر: ما يصدر من الكافر عند تلججه إذا سئل، والنكير: تقرير الملكين له..

(٤) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق..

(٥) احتج المنكر لعذاب القبر وسؤاله بالمعقول والمنقول :-

أما المعقول: فلأن اللذة والألم والمسألة والتكلم لا يتصور بدون العلم والحياة، والحياة مع فساد البنية وبطلان المزاج، ولو سلم ذلك، فإننا نرى الميت أو المقتول أو المصلوب يبقى مدقمن غير تحرك وتكلم، ولا أثر تلذذ أو تألم، وربما يدفن في صندوق أو لحد ضيق لا يتصور فيه جلوسه على ما ورد في الخبر، وربما يذر على صدره كف من الذرة فتُرى باقية على حالها، بل ربما تأكله السباع أو تحرقه النار، فيصير رماداً تذروه الرياح في المشارق والمغارب، فكيف تعقل حياته وعذابه وسؤاله وجوابه؟ وتجوز ذلك سفسطة..

والجواب : أما إجمالاً، فإن جميع ما ذكر مجرد استيعادات لا تنفي الإمكان قياساً على خوارق العادات، أضف إلى ذلك أن الصادق أخبر بها ، فوجب التصديق..

وأما تفصيلاً: أننا لا نسلم اشتراط الحياة بالبنية، ولو سلم فيجوز أن يبقى من الأجزاء قدر ما يصلح بنية، والتعذيب والمسألة يجوز أن يكون للروح التي هي أجسام لطيفة، أو للأجزاء

الأصلية الباقية، فلا يمتنع أن يشاهده الناظر، ولا أن يخفيه الله تعالى عن الإنس والجن لحكمة لا اطلاع لنا عليها، ولا أن يتحقق مع كون الميت فى بطون السباع، ومن قال بالقادر المختار المحيى المميت لا يستبعد توسيع اللحد والصندوق، ولا حفظ الذرة على صدر المتحرك، والقول بأن تجويز أمثال ذلك سفسطة إنما يصح فيما لم يقم عليه الدليل، ولم يخبر به الصادق - عليه السلام - ..

وأما المنقول: فقد احتجوا بقوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (الدخان: ٥٦) ولو كان فى الموت حياة، ولا محالة يعقبها موت إذ لا خلاف فى إحياء الحشر، لكان لهم قبل دخول الجنة موتتان لا موتة واحدة..

والجواب: أن الاستثناء منقطع أى لكن ذاقوا الموتة الأولى، أو متصل على قصد المبالغة فى عدم انقطاع نعيم الجنة بالموت، بمنزلة تعليقه بالمحال، أى لو أمكنت فيها موتة، لكانت الموتة الأولى التى مضت وانقضت، لكن ذلك محال.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٨) ﴿ رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (غافر: ١١).

ولو كان فى القبر إحياء لكانت الإحياءات ثلاثة: فى الدنيا، وفى القبر، وفى الحشر ولو كان فى القبر إحياء لصح إسماع.

والجواب: أما الآية الأولى: فيمكن حملها على جميع ما يقع بعد حياة الدنيا من الإماتة والإحياء فى الدنيا وفى القبر وفى الحشر، إذ لا دلالة للفعل على المرة، ثم الظاهر أن المراد: الإماتة فى الدنيا، والإحياء فى الآخرة، ولم يتعرض لما فى القبر لخفاء أمره وضعف أثره فلا يصلح ذكره فى معرض الدلالة على ثبوت الألوهية..

وأما الآية الثانية: فالإماتتان فى الدنيا وفى القبر، وكذا الإحياءان، وترك ما فى الآخرة لأنه موعين..

وأما الآية الثالثة: فتمثيل لحال الكفرة بحال الموتى، ولا نزاع فى أن الميت لا يسمع.. انظر شرح المقاصد: ٣ / ٣٦١ - ٣٦٦..

(١) أثبت الميزان الأشاعرة والسلف وأكثر المسلمين، وأنكره المعتزلة، لكن منهم من أحاله عقلا، ومنهم من جوزه عقلا، وإن لم يقض بثبوته كالعلاف وبشر ابن المعتز..

علامة الخير، فيكون ترجحها علامة للثواب، وفي الأخرى علامة الشر، فيكون ترجحها علامة للعقاب، ويجوز أن توضع صحائف الأعمال من الخير في إحدى الكفتين، وصحائف المعاصي في الكفة الأخرى،^(١) وكل ذلك ممكن، ودليل وقوعه قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ (الأعراف: ٨) والأخبار فيه كثيرة^(٢)..

ومنها: أن الحوض حق، لقوله تعالى،^(٣) ولما تواتر فيه من الأخبار،^(٤) فوجب

وإنكار المعتزلة مبنى على أن الأعمال أعراض لا يمكن وزنها، فكيف إذا زالت وتلاشت؟ بل المراد به العدل الثابت في كل شيء، ولذا ذكره بلفظ الجمع، وإلا فالميزان المشهور واحد، وأوكله بعضهم بالإدراك، فميزان الألوان البصر، والأصوات السمع، والطعوم الذوق، وكذا سائر الحواس، وميزان المعقولات: العلم والعقل..

ورد أهل السنة: بأنه توزن صحائف الأعمال، وقيل: بل تجعل الحسنات أجساماً نورانية، والسيئات أجساماً ظلماتية، وأما لفظ الجمع فلاستعظام، وقيل: لكل مكلف ميزان، وإنما الميزان الكبير واحد إظهاراً لجلالة الأمر وعظمة المقام..
انظر أبحار الأفكار: ٣٤٥/٤، وشرح المقاصد: ٣٦٩/٣..

(١) ذهب كثير من أهل السنة إلى أن الميزان المذكور في الآيات له كفتان ولسان وساقان، عملاً بالحقيقة لإمكانها، وقد فسره الصادق المصدوق — عليه السلام — في حديثه بذلك..

سئل النبي — صلى الله عليه وآله — عن وزن الأعمال فقال: { إنما توزن الصحف }..
(٢) مثل قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ (الأنبياء: ٤٧).. ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ (الرحمن: ٨)..
قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ (الأعراف: ٨ : ٩) وغير ذلك.

والحق أن إثبات الميزان ممكن، إذ لو فرض لم يلزم عنه لذاته محال، ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دالة عليه؛ فوجب إثباته..

(٣) قال تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر: ١).

(٤) قال رسول الله — صلى الله عليه وآله — : { حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن،

التصديق به..

ومنها: أن إبطاق الجوارح حق، لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤).

ومنها: أن الصراط حق،^(١) وهو جسر ممدود على وجه جهنم، لقوله تعالى:

وريشه أطيب من المسك، وكيزانه أكثر من نجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً {..
وقال الصحابة له - عليه السلام -: أين نطلبك يوم الحشر؟ فقال على الصراط، فإن لم تجدوا فعلى
الميزان، فإن لم تجدوا فعلى الحوض { رواه البخارى ومسلم وغيرهما..
(١) ذهب جمهور المتكلمين إلى إثبات الصراط على متن جهنم، وهو جسر ممدود عليها يعبر
عليه جميع الخلاق من مؤمنين وغيرهم..
وأما المعتزلة، فذهب العلاف وبشر بن المعتمر إلى جوازه دون الحكم بوقوعه، وتردد
الجبائي في نفيه وإثباته، فأثبتته تارة ونفاه أخرى..
وذهب أكثر المعتزلة إلى نفي الصراط بالمعنى الذى أثبتته به أهل السنة..
فقالوا: إن المراد بالصراط المذكور فى الآيات إما أن يكون بمعنى الإسلام، أو بمعنى كتاب الله
أو بمعنى طريق الجنة، وقد يطلق ويراد به الطريق إلى الشيء، وهو المراد فى قوله تعالى
﴿ فَأَهْذَوْهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ ﴾ (الصافات: ٢٣)..
وقالوا: إن كون الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف - كما ذهب إليه أهل السنة - مما
يستحيل العبور عليه عقلا، ويتقدير ذلك، فإنه يلزم منه إتعاب المؤمنين، ولا تعب عليهم يوم
القيامة، إذ هو من العذاب، والمؤمن غير معذب.
والجواب: أن المرور عليه غير مستحيل عقلا، لأن الله تعالى قادر على إقدار عباده على
ذلك، كما أقدر بعضهم على الطيران فى الهواء والمشى على الماء، وغاية ما فى الأمر أن
ذلك من خوارق العادات وقد أثبتتها أهل السنة..
كذلك قولهم: فيه إتعاب للمؤمنين ممنوع، إذ ما المانع من إقدار الله تعالى لهم على ذلك من
غير تعب ولا نصب ؟ انظر أبحاث الأفكار: ٣٤٢/٤ - ٣٤٥..

علامة الخير، فيكون ترجحها علامة للثواب، وفي الأخرى علامة الشر، فيكون ترجحها علامة للعقاب، ويجوز أن توضع صحائف الأعمال من الخير فى إحدى الكفتين، وصحائف المعاصى فى الكفة الأخرى،^(١) وكل ذلك ممكن، ودليل وقوعه قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ (الأعراف: ٨) والأخبار فيه كثيرة^(٢)..

ومنها: أن الحوض حق، لقوله تعالى،^(٣) ولما تواتر فيه من الأخبار،^(٤) فوجب

وإنكار المعتزلة مبنى على أن الأعمال أعراض لا يمكن وزنها، فكيف إذا زالت وتلاشت؟ بل المراد به العدل الثابت فى كل شيء، ولذا ذكره بلفظ الجمع، وإلا فالميزان المشهور واحد، وأوكله بعضهم بالإدراك، فميزان الألوان البصر، والأصوات السمع، والطعوم الذوق، وكذا سائر الحواس، وميزان المعقولات: العلم والعقل..

ورد أهل السنة: بأنه توزن صحائف الأعمال، وقيل: بل تجعل الحسنات أجساماً نورانية، والسيئات أجساماً ظلماتية، وأما لفظ الجمع فلاستعظام، وقيل: لكل مكلف ميزان، وإنما الميزان الكبير واحد إظهاراً لجلالة الأمر وعظمة المقام..

انظر أبحاث الأفكار: ٣٤٥/٤، وشرح المقاصد: ٣٦٩/٣..

(١) ذهب كثير من أهل السنة إلى أن الميزان المذكور فى الآيات له كفتان ولسان وساقان، عملاً بالحقيقة لإمكانها، وقد فسره الصادق المصدوق — عليه السلام — فى حديثه بذلك..

سئل النبى — عليه السلام — عن وزن الأعمال فقال: {إنما توزن الصحف}..

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ (الأنبياء:

٤٧)..
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن: ٨)..
قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (الأعراف: ٨:

٩) وغير ذلك.

والحق أن إثبات الميزان ممكن، إذ لو فرض لم يلزم عنه لذاته محال، ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دالة عليه؛ فوجب إثباته..

(٣) قال تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: ١).

(٤) قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : { حوضى مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن،

ومنها: أن إنطاق الجوارح حق، لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤).

ومنها: أن الصراط حق،^(١) وهو جسر ممدود على وجه جهنم، لقوله تعالى:

ورِيحه أطيب من المسك، وكيزانه أكثر من نجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً.. وقال الصحابة له — ﷺ —: أين نطلبك يوم الحشر؟ فقال على الصراط، فإن لم تجدوا فعلى الميزان، فإن لم تجدوا فعلى الحوض { رواه البخارى ومسلم وغيرهما..
(١) ذهب جمهور المتكلمين إلى إثبات الصراط على متن جهنم، وهو جسر ممدود عليها يعبر عليه جميع الخلاق من مؤمنين وغيرهم..

وأما المعتزلة، فذهب العلاف وبشر بن المعتمر إلى جوازه دون الحكم بوقوعه، وتردد الجبائي فى نفيه وإثباته، فأثبتته تارة ونفاه أخرى..
وذهب أكثر المعتزلة إلى نفي الصراط بالمعنى الذى أثبتته به أهل السنة..
فقالوا: إن المراد بالصراط المذكور فى الآيات إما أن يكون بمعنى الإسلام، أو بمعنى كتاب الله أو بمعنى طريق الجنة، وقد يطلق ويراد به الطريق إلى الشيء، وهو المراد فى قوله تعالى ﴿فَاهْذُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٢٣)..

وقالوا: إن كون الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف — كما ذهب إليه أهل السنة — مما يستحيل العبور عليه عقلا، ويتقدير ذلك، فإنه يلزم منه إتعاب المؤمنين، ولا تعب عليهم يوم القيامة، إذ هو من العذاب، والمؤمن غير معذب.

والجواب: أن المرور عليه غير مستحيل عقلا، لأن الله تعالى قادر على إقدار عباده على ذلك، كما أقدر بعضهم على الطيران فى الهواء والمشي على الماء، وغاية ما فى الأمر أن ذلك من خوارق العادات وقد أثبتتها أهل السنة..

كذلك قولهم: فيه إتعاب للمؤمنين ممنوع، إذ ما المانع من إقدار الله تعالى لهم على ذلك من غير تعب ولا نصب ؟ انظر أبحاث الأفكار: ٤/٣٤٢ — ٣٤٥..

﴿ فَأَمْدُومُ إِلَى صِرَاطٍ لِّجَحِيمٍ ﴾ (الصافات: ٢٣) ^(١).

ومنها: أن الجنة والنار مخلوقتان ^(٢) لقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) وفي النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣) (البقرة: ٢٤) ولقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَ مَا جَاءَتْهُ الْأُنْثَىٰ ﴾ ^(٤) (النجم: ١٣: ١٥).

وقل تعالى لآدم - ﷺ - ﴿ وَفَلْنَا يَكَادُمْ أَتُكَّنْ أَتَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ^(٥)

(١) وقد ورد أن النبي - ﷺ - أخبر عن الصراط ووصفه بأنه: { أدق من الشعرة وأحد من غرار السيف } وعلى جنبتيه خطاطيف وكلايب، وأن الكلوب منها يحتوى على عدد ربعة ومضر، ويهوى بهم إلى قعر جهنم.. رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس.

وروى عنه - ﷺ - أنه قيل له: إذا طويت السماوات، وبُدلت الأرض، أين يكون الخلق يومئذ؟ فقال: { إنهم على جسر جهنم }.. رواه مسلم: ٢١٥٠/٤.

وروى عنه - ﷺ - أنه وصف حال العابرين على الصراط، فذكر منهم من هو كالبرق الخاطف، ومنهم من هو كالريح الهابة، ومنهم من هو كالجواد، ومنهم من تخور رجلاه وتعلق يده، ومنهم من يخر على وجهه.. رواه الحاكم في المستدرک: ٣٧٦/٢ - ٣٧٧..

(٢) ذهب الأشاعرة إلى أن الجنة والنار اللتان هما دار الثواب والعقاب مخلوقتان الآن، وتابعهم في ذلك من المعتزلة: الجبائي، وبشر بن المعتمر، وأبو الحسين البصري..

وذهب عبادة الصيمري، وضرار بن عمرو، وأبو هاشم الجبائي، والقاضي عبد الجبار إلى أنهما غير مخلوقتين الآن.. للمزيد من التفاصيل انظر: أبحار الأفكار للآمدى: ٣٢٧/٤، والإرشاد: ٣٧٧ وما بعدها، وشرح المواقف: ٣٨٦/٨، وشرح المقاصد: ٣٧٥/٣ وما بعدها.

(٣) ووجه الاحتجاج بالآيتين أنه تعالى وصف الجنة والنار بالإعداد، وهو يدل على وجودهما؛ لاتفاق أهل اللغة على أن إعداد الشيء بشيء ينبئ عن وجوده، وثبوته والفراغ منه..

(٤) وفي الآية أخبر ﷺ عن وجود جنة المأوى، وعن مكانها، فدل على كونها مخلوقة..

(٥) وفي الآية أخبر ﷺ عن إسكان آدم وحواء الجنة وإهباطهما منها مما يدل على كونها

(البقرة: ٣٥) بلام التعريف، فينصرف إلى ما هو المعلوم عند المسلمين، وليس ذلك إلا دار الثواب..

فإن قالوا: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١) (القصص: ٨٨) فلو كانت مخلوقة لهلكت كلها، وذلك يناقض قوله تعالى: ﴿أَكْلَاهَا دَائِمًا﴾^(٢)

مخلوقة..

هذا وقد وردت في السنة أحاديث صحيحة منها ما يخص الجنة، ومنها ما يخص النار، ومنها ما يخص كلاهما معاً :

أما الأول: فمما يدل عليه قوله — ﷺ — حكاية عن ربه { أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر } رواه مسلم..

وقوله — ﷺ — : { إن في الجنة شجرة يسير الراكب تحتها مائة عام } رواه مسلم..
وأما الثاني: فما رواه أبو هريرة — رضى الله عنه — أنه قال: كنا مع رسول الله — ﷺ — إذ سمع رجلاً، فقال النبي ﷺ -: { أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم } قال: هذا حجر رُمي في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوى في النار إلى حين انتهى إلى قعرها }.. رواه مسلم:
٢١٨٤/٤ — ٢١٨٥..

وأيضاً قوله — ﷺ — : { رأيت عمرو بن عامر الخزاعي في النار } رواه مسلم..
وأما الثالث: فقال رسول الله — ﷺ — : { احتجت الجنة والنار ، فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله ﷻ لهذا: أنت عذابي أعذب بك من أشياء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها }.. رواه مسلم: ٢١٨٦/٤..

(١) وحجة الخصم: أن الآية دالة على فناء كل مخلوق، فيدخل فيه الجنة والنار، وهذا يدل على أنهما غير مخلوقتين الآن.

والجواب: لا نسلم العموم، وإن سلمنا فمعنى الآية كما قال ابن عباس: كل حي ميت، كما أننا نحمل الهلاك على غير الفناء، أو تفنيان لحظة، وهو لا ينافي الدوام عرفاً.

(٢) استدل المخالف بهذه الآية بقوله : أن الجنة لو كانت موجودة لكانت دائمة، ودوام أكلها

(الرعد: ٣٥) ..

قلنا: من الجائز أن يكون زمان العدم يسيراً بالنسبة إلى زمان الوجود، فيصح إطلاق لفظ الدائم عليه^(١) ..

والضابط في جميع هذه الأبواب أن كل ذلك ممكن، وقد ورد الخبر الصدق به، فوجب تصديقه^(٢) ..

وإذ قد بلغنا هذا المبلغ من كتابنا هذا، فلنختم حامدين لله تعالى، ومصلين على النبي محمد المصطفى وآله ..

وظلها محال لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصص: ٨٨) فدل ذلك على أنها غير مخلوقة الآن، وإنما تخلق بعد فناء كل مخلوق.

والجواب: قال المفسرون: المراد بالأكل: المأكول وهو ثمر الجنة، وذلك غير دائم ضرورة فنائه عند أكل أهل الجنة له، فيحمل دوام الأكل على تجدد من غير انقطاع، وذلك لا ينافي عدم الجنة ..

انظر أبحار الأفكار: ٣٢٧/٤ - ٣٣١، وشرح المقاصد: ٣/٣٥٧ - ٣٦١ ..

(١) انظر تفسير الرازي: ٢٢ / ٨٣ - ٨٤.

(٢) قارن المحصل: ص ٢٣٥ ..

يقول الرازي: { والله تعالى عالم بالكل، وكان خبر الصادق عنها مفيداً للعلم بوجوبها وصحتها } ..

قائمة المراجع

أولاً: القرآن الكريم..

ثانياً : كتب السنة..

ثالثاً: مؤلفات الإمام الرازى:-

- ١ - الأربعين فى أصول الدين - طبعة بيروت - ٢٠٠١م..
- ٢ - أساس التقديس بتحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا - طبعة المكتبة الأزهرية للتراث -.
- ٣ - أسرار التنزيل وأنوار التأويل - طبعة بيروت - ٢٠٠٤م.
- ٤ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين بتحقيق الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد - طبعة مكتبة الكليات الأزهرية -.
- ٥ - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - طبعة المكتبة التوفيقية بالقاهرة -.
- ٦ - كتاب الخمسين فى أصول الدين - طبعة كردستان سنة ١٣٢٨هـ -.
- ٧ - شرح الإشارات والتنبيهات { لابن سينا } - مطبوع مع شرح الطوسى، المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٢٥هـ..
- ٨ - شرح عيون الحكمة لابن سينا - بتحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا - طبعة مكتبة الكليات الأزهرية..
- ٩ - عصمة الأنبياء - بتحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا - طبعة الكليات الأزهرية -.
- ١٠ - لباب الإشارات - بتحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا - طبعة الكليات

الأزهرية —.

- ١١ — لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى — بتحقيق الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث —.
- ١٢ — المباحث الشرقية — مطبوع فى حيدر آباد سنة ١٣٤٣ هـ —.
- ١٣ — محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، بتحقيق الدكتور حسين آتاي — طبعة الأزهرية للتراث —.
- ١٤ — المحصول فى أصول الفقه — طبعة دار الحديث بالقاهرة سنة ٢٠٠٤ م —.
- ١٥ — المطالب العالية من العلم الإلهى — بتحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا — طبعة بيروت —.
- ١٦ — المعالم فى أصول الدين — بتحقيق الشيخ طه عبد الرؤوف سعد — طبعة الأزهرية للتراث —.
- ١٧ — الملخص فى الحكمة والمنطق — مخطوط مصور فى معهد المخطوطات تحت رقم ٣٧٦ عن أحمد الثالث باستانبول ٣٢٢٤ —.
- ١٨ — مناقب الإمام الشافعى — طبعة القاهرة بدون تاريخ —.
- ١٩ — نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز — طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ —.
- ٢٠ — نهاية العقول فى دراية الأصول — مخطوط فى جزعين فى دار الكتب المصرية، توحيد تحت رقم ٧٤٨ —.
- رابعاً: كتب فى علم الكلام والفلسفة:—
- ٢١ — الإبانة عن أصول الديانة — لأبى الحسن الأشعري — بتحقيق الدكتورة

- فوقية حسين طبعة القاهرة ١٩٦٥م —.
- ٢٢ — أباكار الأفكار فى أصول الدين — لسيف الدين الأمدى — بتحقيق الدكتور أحمد المهدي، طبعة دار الكتب المصرية ٢٠٠٠م —.
- ٢٣ — اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية — لابن قيم الجوزية — طبعة دار الحديث —.
- ٢٤ — إحياء علوم الدين — للإمام الغزالي — طبعة الحلبي —.
- ٢٥ — الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى — طبعة بيروت —.
- ٢٦ — الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد — لإمام الحرمين الجويني — طبعة الخانجي بتحقيق الدكتور: محمد يوسف موسى —.
- ٢٧ — الإشارات والتنبيهات — لابن سينا — بتحقيق د. سليمان دنيا — طبعة دار المعارف بمصر —.
- ٢٨ — إشارات المرام للبياضى — طبعة الحلبي —.
- ٢٩ — أصول الدين — لعبد القاهر البغدادي — طبعة دار الكتب العلمية بيروت —.
- ٣٠ — أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي — تأليف الدكتور محمد على أبو ريان — طبعه مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٩م.
- ٣١ — الاقتصاد فى الاعتقاد — للإمام الغزالي طبعة الحلبي —.
- ٣٢ — اقتناص العوالم من اقتصاد الغزالي للدكتور محمد ربيع جوهرى — دار الطباعة المحمدية —.
- ٣٣ — إجماع العوالم عن علم الكلام — للغزالي — المطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٥١هـ —.

- ٣٤ - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للقاضى الباقلانى - بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى - المكتبة الأزهرية للتراث .-
- ٣٥ - الأمدى وآراؤه الكلامية للدكتور حسن الشافعى - طبعة دار السلام ٢٠٠١م .-
- ٣٦ - إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليمانى - طبعة بيروت .-
- ٣٧ - بحر الكلام - لأبى المعين النسفى الماترىدى - مطبعة كردستان العلمية - سنة ١٩١١هـ .-
- ٣٨ - تاريخ الفلسفة اليونانية - ليوسف كرم - لجنة التأليف والترجمة بمصر، سنة ١٩٥٨م .-
- ٣٩ - تبصرة الأدلة - لأبى المعين النسفى - مخطوط فى دار الكتب المصرية، توحيد ٤٢ .-
- ٤٠ - التبصير فى الدين - لأبى المظفر الأسفرايينى - تحقيق الشيخ الكوثرى، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث.
- ٤١ - تسع رسائل فى الحكمة والطبيعات - لابن سينا - طبعة بيروت .-
- ٤٢ - تقريب المرام فى شرح تهذيب الكلام - للشيخ عبد القادر السندجى، طبعة جامعة الأزهر .-
- ٤٣ - تلخيص المحصل - لنصير الدين الطوسى - مطبوع بهامش المحصل للرازى .-
- ٤٤ - التمهيد فى أصول الدين - لأبى المعين النسفى - مخطوط فى دار الكتب المصرية ١٧٢ توحيد .-
- ٤٥ - التمهيد فى الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة - لأبى

- بكر الباقلائي — بتحقيق الأستاذ محمود الخضيرى ، والدكتور محمد عبد الهادى
أبو ريدة، طبعة مصر سنة ١٩٤٧م —.
- ٤٦ — التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع — لأبى الحسين الملقب — بتحقيق
الشيخ الكوثرى، طبعة الأزهرية للتراث —.
- ٤٧ — تهافت الفلاسفة — لأبى حامد الغزالى — تحقيق د. سليمان دنيا — دار
المعارف بمصر —.
- ٤٨ — تهافت الفلاسفة — لعلاء الدين الطوسى — طبعة دار الكتب العلمية بيروت
—.
- ٤٩ — كتاب التوحيد — لأبى منصور الماترىدى — تحقيق د. فتح الله خليف — دار
المعرفة الجامعية —.
- ٥٠ — حاشية الأمير على الجوهرة للشيخ محمد الأمير — طبعة الحلبي —.
- ٥١ — حاشية البيجورى على متن السنوسية — طبعة الحلبي —.
- ٥٢ — حاشية السيلالكوتى والخيالى على شرح العقائد النسفية — طبعة صبيح —.
- ٥٣ — حاشية الدسوقي على أم البراهين — طبعة الحلبي —.
- ٥٤ — حاشية الشيخ إسماعيل الحامدى على شرح السنوسية — طبعة الحلبي —.
- ٥٥ — رسائل الكندى الفلسفية — تحقيق د. محمد عبد الهادى أبو ريدة — طبعة دار
الفكر العربى سنة ١٩٥٠م —.
- ٥٦ — الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريديّة — لأبى عنبه — طبعة حيدر آباد
بالهند سنة ١٣٢٢هـ —.
- ٥٧ — الشامل فى أصول الدين — لإمام الحرمين الجوينى — طبعة دار الكتب العلمية

بيروت —.

٥٨ — شرح المواقف — للسيد الشريف الجرجاني — طبعة مطبعة السعادة ١٩٠٨م

—.

٥٩ — شرح المقاصد — للعلامة السعد التفتازاني — طبعة بيروت —.

٦٠ — شرح الأصول الخمسة — للقاضي عبد الجبار — بتحقيق د. عبد الكريم

عثمان، طبعة مكتبة وهبة سنة ١٩٦٥م —.

٦١ — شرح البيجورى على الجوهرة — للشيخ إبراهيم البيجورى — طبعة الحلبي

—.

٦٢ — شرح العقائد النسفية — للعلامة السعد التفتازاني — بتحقيق د. أحمد حجازي

السقا، طبعة الأزهرية للتراث —.

٦٣ — شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية — طبعة صبيح —.

٦٤ — شرح الخريدة — للشيخ أحمد الدردير — طبعة الحلبي —.

٦٥ — الشفاء لابن سينا — الجزء الأول من الإلهيات — المطبعة الأميرية سنة

١٩٦٠م —.

٦٦ — العقيدة النظامية — لإمام الحرمين الجويني — بتحقيق الشيخ الكوثري، طبعة

الأزهرية للتراث —.

٦٧ — عيون المسائل — للفارابي — طبعة صبيح —.

٦٨ — غاية المرام في علم الكلام — للآمدی — تحقيق د. حسن الشافعي، طبعة

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية —.

٦٩ — فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية — للمرحوم / محمد صالح

- الزركان — طبعة بيروت —.
- ٧٠ — الفرق بين الفرق — لعبد القاهر البغدادي — طبعة بيروت —.
- ٧١ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل — لابن حزم — تحقيق د. عبد الرحمن عميرة — طبعة بيروت —.
- ٧٢ — فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال — لابن رشد — طبعة صبيح —.
- ٧٣ — فصوص الحكم — لابن عربى — طبعة الحلبي —.
- ٧٤ — الفلسفة الإغريقية — للدكتور محمد غلاب — مكتبة الأنجلو المصرية —.
- ٧٥ — فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة — لأبى حامد الغزالي — طبعة الجندي —.
- ٧٦ — القسطاس المستقيم — للغزالي — طبعة السعادة —.
- ٧٧ — اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع — لأبى الحسن الأشعري — تحقيق د. حمودة غرابية طبعة الأزهرية للتراث —.
- ٧٨ — محاضرات فى التوحيد للأستاذ الدكتور محيى الدين الصافى — دار الطباعة المحمدية —.
- ٧٩ — لمع الأدلة — لإمام الحرمين — طبعة الأزهرية للتراث —.
- ٨٠ — المجموع المحيط بالتكليف — للقاضى عبد الجبار — تحقيق عمر السيد عزمى، طبعة دار الكتب المصرية —.
- ٨١ — مجموعة رسائل ابن تيمية — طبعة دار الحديث —.
- ٨٢ — مذهب الذرة عند المسلمين — للدكتور بينيس، ترجمة د. أبو ريدة، مكتبة

النهضة المصرية .-

- ٨٣ - المسيرة في علم الكلام - للكمال بن الهمام - طبعة صبيح .-
- ٨٤ - مشكاة الأنوار - لأبى حامد الغزالي - طبعة السعادة بمصر .-
- ٨٥ - معارج القدس - لأبى حامد الغزالي - طبعة السعادة بمصر .-
- ٨٦ - معارج السالكين - لأبى حامد الغزالي - طبعة السعادة بمصر .-
- ٨٧ - المعتبر في الحكمة - لأبى البركات البغدادي - طبعة حيدر آباد ١٣٥٨هـ .-
- ٨٨ - المعتزلة - لزهدي جار الله - طبعة الأزهرية للتراث .-
- ٨٩ - المغنى في أبواب التوحيد والعدل - للقاضي عبد الجبار - نشره وزارة الثقافة والإرشاد القومي .-
- ٩٠ - مفتاح دار السعادة - لابن قيم الجوزية - دار الحديث .-
- ٩١ - مقالات الإسلاميين - للشيخ الأشعري - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية، بيروت .-
- ٩٢ - مقاصد الفلاسفة - للغزالي - طبعة بيروت .-
- ٩٣ - المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى - للغزالي - طبعة صبيح .-
- ٩٤ - الملل والنحل للشهرستاني - طبعة الحلبي .-
- ٩٥ - مناهج الأدلة في عقائد الملة - لابن رشد - طبعة صبيح .-
- ٩٦ - المنقذ من الضلال - للغزالي - تحقيق د. عبد الحليم محمود - طبعة دار المعارف بمصر .-
- ٩٧ - منهاج العارفين - للغزالي - مطبعة السعادة .-

- ٩٨ — موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية — طبعة دار الحديث القاهرة —.
- ٩٩ — مطالع الأنظار للأصفهاني — طبعة صبيح —.
- ١٠٠ — النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام للأستاذ الدكتور محيي الدين الصافي — دار الطباعة المحمدية.
- ١٠١ — النجاة لابن سينا — تحقيق د. ماجد فخري — طبعة بيروت —.
- ١٠٢ — نهاية الإقدام فى علم الكلام — للشهرستاني — طبعة بيروت —.
- ١٠٣ — نشر الطوابع للعلامة المرعشلى — طبعة الحلبي —.
- ١٠٤ — هوامش على الاقتصاد فى الاعتقاد — للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل — دار الطباعة المحمدية —.
- ١٠٥ — هوامش على النظامية — للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل — دار الطباعة المحمدية —.
- ١٠٦ — الوجود الحق وخطاب الشهود الصدق — لعبد الغنى النابلسى — مخطوط فى دار الكتب المصرية — علم الكلام طلعت ٤٦٩ —.
- خامساً: كتب عامة:—
- ١٠٧ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء — للقفطى — طبعة بيروت —.
- ١٠٨ — إعجاز القرآن — للقاضى الباقلانى — طبعة الحلبي على هامش الإتيقان فى علوم القرآن —.
- ١٠٩ — الأعلام — لخير الدين الزركلى — طبعة بيروت —.
- ١١٠ — البداية والنهاية — لابن كثير الدمشقى — طبعة دار المنار بالقاهرة —.

- ١١١ - تاريخ الإسلام - للحافظ الذهبي - طبعة بيروت - .
- ١١٢ - الذيل على الروضتين - لأبي شامة المقدسى - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧م - .
- ١١٣ - سير أعلام النبلاء - للحافظ الذهبي - طبعة دار الحديث بالقاهرة - .
- ١١٤ - شذرات الذهب - لابن العماد الحنبلى - مكتبة القدسى سنة ١٩٥١ - .
- ١١٥ - السيرة النبوية - لابن هشام - طبعة الحلبي - .
- ١١٦ - الشفاء للقاضى عياض - طبعة الحلبي - .
- ١١٧ - صفة الصفوة - لابن الجوزى - طبعة دار الحديث بالقاهرة - .
- ١١٨ - طبقات الشافعية الكبرى - لتاج الدين السبكي - طبعة بيروت - .
- ١١٩ - طبقات ابن سعد - طبعة بيروت - .
- ١٢٠ - طبقات المعتزلة - للقاضى عبد الجبار طبعة السعادة - .
- ١٢١ - طبقات المفسرين - للحافظ السيوطى - طبع ليدن - .
- ١٢٢ - عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - لابن أبى أصيبعة - طبعة بيروت - .
- ١٢٣ - الكامل لابن الأثير - طبعة مصر سنة ١٣٠٢هـ - .
- ١٢٤ - كشف الظنون - لحاجى خليفة - طبع استانبول سنة ١٩٤١م - .
- ١٢٥ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان - لليافعى المدنى المكي - طبع حيدر آباد سنة ١٣٣٩هـ - .
- ١٢٦ - مرآة الزمان - لسبط ابن الجوزى - طبع شيكاغو سنة ١٩٠٧م - .
- ١٢٧ - معجم البلدان - لياقوت الحموى - طبع مصر سنة ١٩٠٦م - .
- ١٢٨ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٦م - .

٩٨ — موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية — طبعة دار الحديث القاهرة —.

٩٩ — مطالع الأنظار للأصفهاني — طبعة صبيح —.

١٠٠ — النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام للأستاذ الدكتور محيي الدين الصافي — دار الطباعة المحمدية.

١٠١ — النجاة لابن سينا — تحقيق د. ماجد فخري — طبعة بيروت —.

١٠٢ — نهاية الإقدام فى علم الكلام — للشهرستاني — طبعة بيروت —.

١٠٣ — نشر الطوابع للعلامة المرعشلى — طبعة الحلبي —.

١٠٤ — هوامش على الاقتصاد فى الاعتقاد — للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل — دار الطباعة المحمدية —.

١٠٥ — هوامش على النظامية — للأستاذ الدكتور / محمد عبد الفضيل — دار الطباعة المحمدية —.

١٠٦ — الوجود الحق وخطاب الشهود الصدق — لعبد الغنى النابلسى — مخطوط فى دار الكتب المصرية — علم الكلام طلعت ٤٦٩ —.

خامساً: كتب عامة:-

١٠٧ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء — للقفطى — طبعة بيروت —.

١٠٨ — إعجاز القرآن — للقاضى الباقلانى — طبعة الحلبي على هامش الإتيقان فى علوم القرآن —.

١٠٩ — الأعلام — لخير الدين الزركلى — طبعة بيروت —.

١١٠ — البداية والنهاية — لابن كثير الدمشقى — طبعة دار المنار بالقاهرة —.

- ١١١ - تاريخ الإسلام - للحافظ الذهبي - طبعة بيروت - .
- ١١٢ - الذيل على الروضتين - لأبى شامة المقدسى - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧م - .
- ١١٣ - سير أعلام النبلاء - للحافظ الذهبي - طبعة دار الحديث بالقاهرة - .
- ١١٤ - شذرات الذهب - لابن العماد الحنبلى - مكتبة القدسى سنة ١٩٥١م - .
- ١١٥ - السيرة النبوية - لابن هشام - طبعة الحلبي - .
- ١١٦ - الشفاء للقاضى عياض - طبعة الحلبي - .
- ١١٧ - صفة الصفوة - لابن الجوزى - طبعة دار الحديث بالقاهرة - .
- ١١٨ - طبقات الشافعية الكبرى - لتاج الدين السبكي - طبعة بيروت - .
- ١١٩ - طبقات ابن سعد - طبعة بيروت - .
- ١٢٠ - طبقات المعتزلة - للقاضى عبد الجبار طبعة السعادة - .
- ١٢١ - طبقات المفسرين - للحافظ السيوطى - طبع ليدن - .
- ١٢٢ - عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - لابن أبى أصيبعة - طبعة بيروت - .
- ١٢٣ - الكامل لابن الأثير - طبعة مصر سنة ١٣٠٢هـ - .
- ١٢٤ - كشف الظنون - لحاجى خليفة - طبع استانبول سنة ١٩٤١م - .
- ١٢٥ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان - لليافعى المدنى المكى - طبع حيدر آباد سنة ١٣٣٩هـ - .
- ١٢٦ - مرآة الزمان - لسبط ابن الجوزى - طبع شيكاغو سنة ١٩٠٧م - .
- ١٢٧ - معجم البلدان - لياقوت الحموى - طبع مصر سنة ١٩٠٦م - .
- ١٢٨ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٦م - .

- ١٢٩ — هدية العارفين — لإسماعيل باشا البغدادي — طبعة استانبول سنة ١٩٥٥م.
١٣٠ — وفيات الأعيان — لابن خلكان — طبعة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨م —
١٣١ — الوافي بالوفيات — لصلاح الدين الصفدي — طبعة دمشق سنة ١٩٥٦م —

قام بالتصحيح والمراجعة اللغوية

أ.محمد عبد الرحمن الشاغول

الروضة الشريفة للبحث العلمي وتحقيق التراث

ومراجعة الرسائل العلمية

ت: ٣٥٤٥٩٧٥٠ - ٠١٢٠٣٨١٥٢٠

Email: ALRAWDA_SH@YAHOO.COM

فهرس

كتاب الإشارة في علم الكلام

للإمام فخر الدين الرازي

الصفحة	الموضوع
٤	المقدمة.....
٧	القسم الأول: مقدمة التحقيق وتشمل:.....
٨	الباب الأول: عن الإمام الرازي ويشمل:.....
٨	الفصل الأول: عصر الإمام الرازي.....
١٠	الفصل الثاني: حياة الإمام الرازي.....
١٧	الباب الثاني: الحديث عن كتاب الإشارة ويشمل:.....
١٧	١ - تحقيق اسم الكتاب ونسبته إلى مؤلفه.....
١٧	٢ - وصف المخطوطة.....
٢٠	٣ - منهج التحقيق.....
٢٣	٤ - صورة الصفحة الأولى من المخطوطة.....
٢٤	٥ - صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة.....
٢٥	القسم الثاني: كتاب الإشارة في علم الكلام.....
٢٦	مقدمة المؤلف: في أربعة فصول:.....
٢٦	الفصل الأول : في أن علم الكلام أشرف العلوم.....
٣١	الفصل الثاني : في أن الاشتغال بعلم الكلام جائز.....
٣٩	الفصل الثالث : في حقيقة النظر وإفضائه إلى العلم.....

٤٤	الفصل الرابع : فى ترتب العلم على النظر.....
	الفن الأول: فى إثبات ذات البارى ﷻ :- وهو مشتمل على
٤٧	عدة أبواب :.....
	الباب الأول : فى حدوث الأجسام ، وهو يشتمل على
٤٧	فصلين :.....
٤٨	الفصل الأول : فى بيان أن لوجود الأجسام ابتداء.....
٦٩	الفصل الثانى : فى الرد على القائلين بأن المعدوم شىء....
	الباب الثانى : فى إثبات الصانع وما يجب له من الصفات
٧٣	النفسية وفيه فصلين :.....
٧٤	الفصل الأول : فى إثبات صفة الوجود.....
٧٨	الفصل الثانى : فى أن الله تعالى يصح أن يُرى.....
	الباب الثالث : فيما يستحيل على الله تعالى من الصفات
٩٣	النفسية وفيه فصلين :.....
٩٤	الفصل الأول : فى أن البارى تعالى ليس بجسم.....
١٠١	الفصل الثانى : فى استحالة الحلول والاتحاد على البارى
	تعالى.....
	الفن الثانى: فى صفاته تعالى وفيه مقدمة وخمسة أبواب
١٠٧	وخاتمة :-.....
	المقدمة : فى إثبات أنه تعالى قادر حي عالم مريد متكلم

١٠٨سميع بصير
١٢٣	الباب الأول: فى صفة العلم وفيه فصلان :.....
١٢٣	الفصل الأول : فى إثبات صفة العلم لله تعالى.....
	الفصل الثانى : فى إقامة الدلالة على أنه تعالى عالم بجميع
١٣١	المعلومات.....
١٣٩	الباب الثانى : فى صفة القدرة وفيه فصلان :.....
١٤٣	الفصل الأول : فى أن قدرته تعالى تعم جميع الممكنات....
١٦١	الفصل الثانى : استحالة كونه تعالى موجباً بالذات.....
١٧٣	الباب الثالث: فى صفة الإرادة وفيه فصلان :.....
١٧٥	الفصل الأول : فى حقيقة الإرادة.....
١٨٣	الفصل الثانى : فى إرادة الكائنات.....
٢٠٥	الباب الرابع: فى صفة الكلام وفيه فصول :.....
٢٠٥	الفصل الأول : فى قنم القرآن.....
٢٢٠	الفصل الثانى : فى الحكاية والمحكى.....
٢٢٢	الفصل الثالث : فى أن كلام الله تعالى صدق.....
٢٢٥	الفصل الرابع : فى التحسين والتقبيح.....
٢٣٩	الفصل الخامس : فى وجوب شكر المنعم.....
٢٤٤	الباب الخامس: فى صفة البقاء.....

٢٣٩	الفصل الخامس : فى وجوب شكر المنعم.....
٢٤٤	الباب الخامس: فى صفة البقاء.....
٢٥٥	الباب السادس: الخاتمة وهى تشتمل على فصول.....
٢٥٦	الفصل الأول : فى أن الله واحد لا شريك له.....
٢٦٦	الفصل الثانى : فى أنه ليس لله تعالى صفة وراء ما نكرنا...
	الفن الثالث: فى أفعال الله تعالى وأسمائه وفيه أبواب
٢٧٣	وفصول:.....
٢٧٤	الباب الأول: فى أنه لا يجب على الله شىء.....
٢٨١	الباب الثانى: فى أسمائه تعالى وتقدس وفيه فصول.....
٢٨٢	الفصل الأول : فى حقيقة الاسم والمسمى.....
	الفصل الثانى : فيما يجوز إطلاقه من الأسماء على الله
٢٨٧	تعالى.....
	الفصل الثالث : فيما لا يجوز إطلاقه من الأسماء على الله
	تعالى.....
٢٩٠	الفصل الرابع : فى تفسير الإله تعالى وتقدس.....
٢٩٤	الفن الرابع: فى النبوات وفيه ثلاثة أبواب:.....
٢٩٧	الباب الأول: فى جواز بعثة الرسل وشرائط المعجزات
	وكيفية دلالة المعجزة على صدق النبى وحقيقة السحر والكرامة
٢٩٨	والفرق بينهما وبين المعجزة وفيه فصول أربع:.....

٣١٣	الفصل الثالث : فى كيفية دلالة المعجزة على صدق الرسل..
	الفصل الرابع : فى حقيقة السحر والكرامات والميز بينها
٣١٨	وبين المعجزات.....
	الباب الثانى: فى إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ وفيه أربعة
٣٢٧	فصول.....
٣٢٨	الفصل الأول : فى إقامة الدلالة على نبوته ﷺ.....
٣٤٤	الفصل الثانى : فى ذكر وجه الإعجاز فى القرآن.....
	الفصل الثالث : فى بيان مجاوزة بلاغة القرآن سائر
	البلاغات.....
٣٥٠	الفصل الرابع : فى نكر جمل من معجزات رسول الله ﷺ
٣٥٧	غير ما ذكرناه.....
٣٦٦	الباب الثالث: فى أحكام الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام...
	الفن الخامس: فى السمعيات ومنها المعاد ويشمل
٣٧٣	فصلين.....
	الفصل الأول: فى حقيقة الإنسان وإبطال مذهب الفلاسفة
٣٧٦	فيه.....
٣٨٥	الفصل الثانى: فى تصحيح المعاد الجسمانى.....
٣٩٩	قائمة المراجع.....
٤١١	فهرس المحتويات.....

مِنْ تَرَاثِ الرَّازِيّ

الناشر

المكتبة الفزهرية للتراث الجزيرة للنشر والتوزيع

٩ د.ب. الأتركة خلف جامع الأدهم الشريف - ت: ٨٤٧-٢٥١٢